



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١ إلى الدرس ٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٠/٠٥ هـ

الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

فنبداً مستعينين بالله عز وجل في قراءة هذا الكتاب القيم والمؤلف النافع «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . وهذا الكتاب مع صغر حجمه إلا أنه عظيم جداً في بابه ، وقد جمع فيه مصنفه رحمه الله غرر هذا الموضوع وأسس وأصوله ، وجمع فيه طرفاً مباركاً من نصوص الشرع فيما يتعلق بأصول الإيمان .

والإيمان الذي خلقنا الله عز وجل لتحقيقه وأوجدنا لتكميله وتتميمه قائم على أصول لا قيام له إلا عليها، وشأن الإيمان في قيامه على أصوله كشأن البيت لا يقوم إلا على أعمدته وأسس ، وكشأن الأشجار لا تقوم إلا على أصولها؛ فأصول الإيمان منزلتها في الدين منزلة الأصول من الأشجار ، والقواعد من البنيان ، ومنزلة الرأس من الجسد؛ ولهذا إذا غُدمت هذه الأصول أو غُدم بعضها انهدم الإيمان ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٠] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤] ، فانعدام أصول الإيمان أو أصل منها محبط للأعمال مبطل للدين فلا قيام للدين إلا على أصوله وقواعده .

وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً للإيمان بالشجرة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] ؛ فجعل الله عز وجل مثل الإيمان مثل الأشجار ، بل إن المراد بالشجرة هنا تحديداً النخلة كما هو مبين في السنة في الصحيحين وغيرها عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا ، وَلَا ، وَلَا)) ذكر صفات لها جعلها الله تبارك وتعالى مثلاً للمؤمن، فخاض الناس في شجر البوادي فلما لم يعرف أحد منهم قال عليه الصلاة والسلام : ((هِيَ النَّخْلَةُ)) ؛ فالنخلة جعلها الله تبارك وتعالى مثل للمؤمن . والنخلة لها عرقٌ راسخ في الأرض ولها أصلٌ ثابت ولها فروع قائمة ، والإيمان يقوم على أصل وله أيضاً فروع ، الإيمان قول واعتقاد وعمل ؛ اعتقادٌ في القلب وقول باللسان وعمل بالجوارح ، فالإيمان بمثابة الشجرة ، الإيمان شجرة عروقه في القلب ، ومكان نباتها ونماءها هو القلب ، ولها سقيٌّ يغذيها كالشجرة وهو الوحي

؛ كلام الله عز وجل وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكلما عظم نصيب الإنسان وحظه من الوحي عظم نماء شجرة الإيمان في قلبه .

وهذه الشجرة لها أساس تقوم عليه وهو الاعتقاد الصحيح ، ولها فروع وهي الأعمال الصالحة والطاعات الزاكية التي يتقرب بها المسلم إلى الله تبارك وتعالى ، ولها ثمار مثمرة ثمار مستمرة ، ولها جنى لذيذ دائم ، تؤتي أكلها كل حين ، وثمر هذه الشجرة ثمر مستمر دائم في الدنيا والآخرة ، وثمار الإيمان على صاحبه في الدنيا والآخرة لا حد لها ولا عد ، بل إن كل خير ينزل وكل نعمة تُنال وتحصل للعبد في دنياه وأخراه هي ثمرة من ثمار إيمانه ونتيجة من نتائجه ، وقد قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الجواب الكافي: «للايمان ما يزيد على المئة فائدة ذكرت في القرآن» وعدّ جملة منها. كذلك الإمام عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في كتابه العظيم «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» عقد فصلاً عظيماً جداً في بيان ثمار الإيمان وفوائده وعدّد جملة كبيرة من فوائد الإيمان .

الشاهد أن الإيمان لا يقوم إلا على أصوله وقواعده ؛ فهو بمثابة البناء ، واستقامة البناء وقيامه إنما يكون على أصوله التي بيّنت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وأصول الإيمان ستة ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام مجتمعة في حديث جبريل ؛ عندما سأل النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً «أخبرني عن الإيمان؟» قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، فهذه أصول الإيمان التي عليها قيامه . وجاءت أيضاً مجتمعة في غير ما آية من كتاب الله عز وجل كقوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وقال الله عز وجل في آخر السورة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، وقال الله جل وعلا في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] وجاء ذكر هذه الأصول في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل .

فهي أصول عليها يُبنى الإيمان ، ولا قيام للإيمان إلا عليها ، وهي كما نبه العلماء رحمهم الله أصول مترابطة مرتبطة بعضها ببعض ، آخذ بعضها ببعض ، لا يُقبل بعضها دون بعض ، فمن آمن ببعضها لزمه الإيمان بباقيها ، ومن كفر ببعضها فهو كافر بباقيها ، الإيمان ببعضها يستلزم الإيمان ببقية الأصول ، والكفر ببعضها كفر بالإيمان وكفر بالله ، لأنها أصول مترابطة لا يقوم الإيمان إلا عليها مجتمعة ؛ فإذا فُقد منها واحد انهار البناء وانهدم الإيمان، من وُجد منه كفر أو شك بالملائكة أو بالقدر أو بالكتب أو بالأنبياء أو بواحد من الأنبياء فوجود الكفر محبط

للأعمال هادئ للإيمان ، وقد مر معنا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٠] ، فهذه الأصول لا يقوم الإيمان إلا عليها مجتمعة ، فإذا فقد واحد منها أو فقد
بعضها لم ينتفع الإنسان بعمل ، ولهذا أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في القدر : « القدر نظام التوحيد
، فمن آمن بالله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده » لا يكون موحدًا لا يكون مؤمنًا بالله من يكذب بالقدر ،
لا يكون مؤمنًا بالله من يكذب بالملائكة ، لا يكون مؤمنًا بالله من يكذب بكتبه التي أنزلها أو برسله الذين بعثهم
سبحانه وتعالى ، فالكفر بشيء من هذه الأصول كفرٌ بالله تبارك وتعالى .

ولهذا اعتنى العلماء -رحمهم الله وغفر لهم وأحسن إليهم - بهذه الأصول وبيانها وإبرازها وذكر شواهد ودلائلها
نصحاء للأمة ، وبيانًا للعباد ، ومعدرة إلى الله تبارك وتعالى ، وكُتِبَ في هذه الأصول كتابات كثيرة مطولة ومختصرة
في القديم والحديث ، ومؤلفات أهل العلم في الإيمان وبيان أصوله كثيرة جدا ، وتأني هذه الرسالة المختصرة جامعة
في بابها مع اختصارها أصول الإيمان وذكر شواهد ودلائلها وجمعها جمعًا مختصرًا مفيدًا جدًا للمسلم ؛ ففيها
فائدة عظيمة للمسلم ولطالب العلم المبتدئ ، وفيها أيضا تذكير لطالب العلم ولأهل العلم بما جمعتهم وحوته من
دلائل عظيمة وشواهد مباركة من سنة النبي صلى الله عليه وسلم في تقرير هذه الأصول العظام التي عليها يُبنى
الإيمان .

ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لحسن تعلم أصول الإيمان تقريبًا إلى الله عز وجل ، واجتهادًا في تحقيق هذه
الأصول وفهمها فهمًا صحيحًا تُعمر به القلوب وتزكو به النفوس وتطيب به الأعمال وترتفع به درجات العبد عند
الله تبارك وتعالى ؛ فإن العبد ترتفع درجاته عند الله عز وجل ارتفاعًا عظيمًا بما يُملأ به قلبه من الإيمان أعظم من
القيام بالأعمال ، فأثر الإيمان في ارتفاع الدرجات أعظم من أثر الأعمال ، وقد جاء في الصحيحين عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْشِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْعَابِرَ
فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)) قَالَ الصحابة رضي الله عنهم : « يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ
الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ » ؟ قَالَ ((بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)) ، فعمارة القلب
بالإيمان وبأصوله وتحقيق الإيمان في القلب هذا من أعظم ما يكون ، وإذا صلح القلب وعُمِّرَ بالإيمان صلحت
الجوارح تبعًا له ، لأن الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلب ، فإذا صلح القلب بالإيمان صلحت الجوارح ، كما
قال عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ
أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)) .

والقلب والبدن يملأ بالإيمان ، والإيمان يدخل فيه ويتمكن منه بمجاهدة النفس على معرفة الإيمان ومعرفة أصوله
والوقوف على دلائله وشواهد وبراهينه ، وكلما زاد العبد في هذا عظم حظه من الإيمان تحصيلًا له وتمكنًا فيه ،

وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((مُلِيَ عَمَّارٌ إِيْمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ)) ، المشاش: أطراف الأصابع ، يعني امتلأ من الداخل إيماناً ، فمن كان شأنه في دينه بهذا الوصف لا يكون حاله كمن يعبد الله على حرف أو يعبد الله بقيامه بأعمال الإسلام الظاهرة ولم تتمكن حقائق الإيمان من قلبه ولم ترسخ في قلبه ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] ، فالإيمان رتبة عليّة ودرجة رفيعة يبلغها العبد بتوفيق الله عز وجل بمجاهدته لنفسه في تعلم أصول الإيمان .

وأصول الإيمان يتفاوت الناس في معرفتها ؛ فمنهم من معرفته بها معرفة مجملة يصح بها عمله ، لأن العمل لا يصح إلا بقدر من الإيمان يصح الأعمال ، إذا انتفى هذا القدر بطل العمل كما قال الله عز وجل ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] ، وكما قال عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧] ، فالعمل لا يكون مقبولا إلا بوجود قدر من الإيمان يصح به العمل ، فمن الناس حظه من الإيمان ما يصح به عمله ، ومنهم من وفقه الله عز وجل لمعرفة تفاصيل الإيمان وحقائقه ومعرفة دلائل الإيمان وشواهد وبراهينه ما كان عامرا به قلبه ، ما كان ممتلا به قلبه ، فترفع درجاته عند الله عز وجل بذلك.

وعلى هذا ينبغي أن يفهم قول بكر بن عبد الله المزني في شأن أبي بكر الصديق قال : «ما سبقهم أبو بكر بكثير عمل ولكن في شيء وقر في قلبه» ، وهذا فيه تنبيه إلى الدرجة العلية التي لم يسبق فيها أبو بكر رضي الله عنه في الإيمان ، فهو صديق الأمة رضي الله عنه وأرضاه ، فدرجته في الإيمان درجة عليّة، درجة رفيعة ، وهو المقدم في السابقين من هذه الأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو خير أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، بل هو رضي الله عنه وأرضاه خير أتباع الأنبياء ، لا يوجد في أتباع الأنبياء من هو خير منه كما قال عليه الصلاة والسلام: ((أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مَا خَلَا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ)) ؛ فهذه منزلة عليّة ، وإذا نظرت إلى جانب العمل فكان سابقا غيره في الأعمال ، حتى قال عمر رضي الله عنه: «مَا سَابَقْتُ أَبَا بَكْرٍ إِلَىٰ خَيْرٍ إِلَّا وَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي» فكان سابقا في العمل ، لكن أراد بكر المزني أن ينبه على قوة الإيمان الذي امتلأ به قلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه .

فشأن الإيمان ومكانته عظيمة جدا ، وحاجة العبد ماسة إلى تعلمه وتعلم أصوله والوقوف على حقائقه وشواهد وبراهينه ؛ ولهذا لا ينبغي للمسلم أن يستكثر على نفسه وعلى وقته قراءة مثل هذه الكتب والرسائل التي تبين الإيمان وتوضح الإيمان ، ولا يقول على وجه القطع لنفسه عن الخير وعن الفهم "أصول الإيمان عرفناها" أو "الإيمان عرفناه" بل الإيمان يحتاج إلى تجديد مستمر ومذاكرة دائمة كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ الْإِيْمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيْمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)) ، العبد يحتاج إلى مجاهدة

لنفسه في تحديد الإيمان وتقوية الإيمان وترسيخ الإيمان وتمكين أصول الإيمان في قلبه ، ولهذا كانت الأذكار النبوية المشروعة للأمة كلها تربط الإنسان بالإيمان وأصوله ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه لينام قال: ((اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مُنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ)) ، وهكذا تجد في الأذكار ما يربط العبد بالإيمان وبأصوله ولا سيما أصل أصول الإيمان وهو توحيد الله وإخلاص الدين له ومعرفة سبحانه وتعالى ؛ فهذا أعظم الأصول وأجلها وأرفعها على الإطلاق ، وبقية الأصول تبع له ، ولهذا بدأ المصنف رحمه الله بهذا الأصل المكين والأساس المتين الذي هو معرفة الله عز وجل وتحقيق توحيده .

قال الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «أصول الإيمان» :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين .

«باب معرفة الله عز وجل والإيمان به»

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) رواه مسلم .

قال المصنف رحمه الله بعد أن بدأ بالبسملة وطلب العون من الله تبارك وتعالى: «باب معرفة الله عز وجل والإيمان به» ؛ هذا الباب الذي بدأ به المصنف رحمه الله هو أصل أصول الإيمان ؛ معرفة الله جل وعلا والإيمان به . والله سبحانه وتعالى يُعرف بأمرين :

١ . يعرف بآياته ومخلوقاته الدالة عليه ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد ، فالمخلوقات دالة على وجود خالقها ، والمصنوعات دالة على وجود صانعها ومبدعها ، فالله عز وجل يُعرف بآياته ولهذا أمرنا سبحانه وتعالى وأمر الناس بالتفكير في آياته والنظر فيها لأنها تدل عليه ، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] هذه كلها تدل على الخالق وتشهد على عظمته وكمال صنعه ودقة خلقه وكمال إبداعه تبارك وتعالى وتقديره ، فهي تدل على الله ، والمخلوقات تدل على خالقها ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاي: ١٢] ، فالمخلوقات دليل هادٍ إلى الخالق المبدع ، دليل لمعرفة عظمته وكمال قدرته وكمال قوته وكمال تدبيره وعظيم تصرفه . قيل لأعرابي بم عرف ربك؟ قال : «سماوات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير!!» وقيل لآخر بم عرف ربك؟ قال : "بنقض العزائم وحل الهمم" . فشواهد عظيمة

الخالق وكمال قدرته جل وعلا في مخلوقاته لا حد لها ولا عد ، ولهذا قيل «في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد» تبارك وتعالى ، ولهذا جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة جدا فيها التذكير بآيات الله «من آياته كذا ومن آياته كذا ومن آياته كذا» ، يمر عليك في القرآن آيات كثيرة ، أو تُذكر أشياء ثم تُختتم الآية «إن في ذلك لآية» ، فهذه آيات وشواهد ودلائل وبراهين على كمال المبدع وعظمة الخالق سبحانه وتعالى .

٢. ويُعرف سبحانه -وهذا الأمر الثاني- بأسمائه وصفاته التي أخبر بها تبارك وتعالى عن نفسه في كتابه وأخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي القرآن لا تكاد تمر بآية في كتاب الله عز وجل إلا وفيها ذكرٌ لشيء من أسماء الله الحسنى أو صفاته العظيمة ؛ وسورة الإخلاص {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن قال العلماء: لأنها أخلصت لبيان صفة الرحمن ، وآية الكرسي كانت أعظم آية في القرآن لأنها أخلصت للتوحيد وبيان صفات الله تبارك وتعالى وعظمته ، فاشتملت من أسماء الله الحسنى ما يزيد على الخمسة أسماء ، ومن الصفات ما يزيد على العشرين صفة ؛ فهي أعظم آية في كتاب الله عز وجل ، وعظمتها من عظمة المعاني الجليلة الكبيرة الفخمة التي اشتملت عليها ، فإن هذه الآية اشتملت من ذكر التوحيد وبيان عظمة الرب وتقرير دلائل التوحيد ما لم تشتمل عليه آية أخرى في القرآن الكريم ، وما اجتمع في هذه الآية جاء متفرقا في آيات كثيرة كما أشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بعض كتبه .

ومعرفة الله عز وجل ومعرفة أسمائه وصفاته هذا أشرف العلوم على الإطلاق ، ليس في العلوم علمٌ أشرف من هذا العلم ، وليس في العلوم علم أجل من هذا العلم ، وكما قيل شرف العلم من شرف معلومه ، وليس هناك أشرف من العلم بالله جل وعلا والعلم بأسمائه سبحانه وتعالى وصفاته العظيمة الدالة على كماله وجلاله وعظمته سبحانه ، وقد قال بعض السلف قديما : «من كان بالله أعرف كان منه أخوف» ، ذكر هذه الكلمة ابن القيم في بعض كتبه وأضاف إليها معاني جميلة قال : «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته أبعد» ، فالعبد كلما زاد حظه وعظم نصيبه من معرفته لربه تبارك وتعالى عظم صلاحه واستقامته وزكاء قلبه وطيب عمله وسداد قوله ، قد قال الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ، والآية شاهدة لما سبق؛ كلما عظمت هذه المعرفة في قلب العبد عظم حظه من الخير وزاد نصيبه منه ، والله تبارك وتعالى خلق الخلق لتوحيده ، والتوحيد الذي خلق الله تبارك وتعالى الخلق لأجله يتناول جانبين:

١. الجانب العلمي ؛ وهو المعرفة ، معرفة الله والعلم به سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته .

٢. والجانب الآخر الجانب العملي ؛ وهو إخلاص الدين له وإفراده تبارك وتعالى بالعبادة وحده دون سواه .

وقد ذكر النوع الأول الذي هو العلمي في آخر سورة الطلاق ويؤين في الآية أنه مقصودٌ للخلق ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنِ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ

أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿[الطلاق: ١٢]﴾ ، قال "خلق لتعلموا" فمن مقصود الخلق خلق الناس وإيجادهم العلم بالله، لماذا خلقنا؟ لنعلم أنه على كل شيء قدير وأنه تبارك وتعالى أحاط بكل شيء علما ، فالله خلق الخلق ليعرفوه وليعلموا عظمتهم وجلاله وكماله وكمال قدرته وإحاطة علمه ؛ فهذا مقصود للخلق . والمقصود الثاني للخلق إفراده بالعبادة ووحده دون سواه ، وهذا بيّنه الله في أواخر سورة الذاريات في قوله تبارك وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ؛ هنا خلق ليعبدوا وهناك خلق ليعلموا ، فالخلق مقصوده أمران : العلم والعمل ؛ يقال عن الأول: «التوحيد العلمي» ، ويقال عن الثاني: «التوحيد العملي» . التوحيد العلمي: بمعرفة الله ومعرفة أسمائه ومعرفة صفاته ومعرفة تفرده بأفعال الكمال وصفات الجلال ونعوت العظمة والتدبير والتسخير والتصرف والإحياء والإماتة ، نعلم ذلك ونثبتته لله سبحانه وتعالى ونوحده الله تبارك وتعالى به ولا نجعل مع الله فيه شريك ، والجانب الثاني: جانب عملي وهو الذي دلت عليه آية الذاريات ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادته وتوحيده . والمراد بالعبادة : التوحيد ، وقوله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليوحدون ، فالعبادة لا تصح إلا بالتوحيد ، العبادة التي خلق الله سبحانه وتعالى الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها لا تصح إلا بالتوحيد ، فإذا داخلها الشرك لا تكون عبادة صحيحة ، فالله عز وجل لم يخلق الخلق ليعبدوه ويعبدوا غيره معه! بل خلقهم ليعبدوه وحده ، ولهذا يؤثر عن ابن عباس أنه قال : «كل أمرٍ بالعبادة في القرآن أمرٌ بالتوحيد» ، فالله عز وجل خلق الخلق ليفردوه وحده بالعبادة، كما أنه سبحانه وتعالى تفرد وحده بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير فالواجب أن يُفرد وحده تبارك وتعالى في العبادة ، فلا يُجعل معه شريك في الحب والخوف والرجاء والذل والخضوع والركوع والسجود والذبح والنذر وغير ذلك ، هذه عبادات حق لله ، حقٌ للخالق ، حقٌ للمتفرد ، حق للمبدع للبارئ سبحانه وتعالى ، ولهذا لما عبد قوم موسى العجل واتخذوه شريكاً مع الله لما أمرهم بالتوبة ماذا قال؟ وانتبهوا لهذه اللطيفة قال: ﴿فَتَوْبُوا إِلَيَّ بَارِكُكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] نبههم بذكر اسمه «البارئ» سبحانه وتعالى على بطلان ما هم عليه من عبادة ، لأن كونه تبارك وتعالى وحده البارئ دليل وشاهد على أنه وحده المستحق للعبادة والمستحق لأن يفرد تبارك وتعالى وحده بالطاعة ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢١-٢٢]﴾ والخطاب هنا للمشركين ؛ لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله تبارك وتعالى .

وقول المصنف رحمه الله «باب معرفة الله عز وجل والإيمان به» ؛ المعرفة تقدم الحديث عنها . والإيمان بالله المراد به: الإيمان بوحديته تبارك وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : الإيمان بالله لا يقوم إلا على هذه الأركان الثلاثة . للإيمان بالله أركان ثلاثة لا قيام له إلا عليها ولا صحة للإيمان بالله إلا بها :
١. الأول : الإيمان بوحديته الله في ربوبيته .

٢. والثاني : الإيمان بوحديته الله في أسمائه وصفاته .

٣. والثالث: الإيمان بوحديته الله في ألوهيته .

ودين الإسلام سمي توحيداً لأن مبناه على الإيمان بوحديته الله في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] ، وقال جل وعلا: ﴿أَرْبَابٌ مُتَقَرَّبُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ، ف«الأحد» يدل على أحديته ، و«الواحد» يدل على وحدانيته، والأحدية والوحدانية صفتان لله دالتان على تفرد تبارك وتعالى ؛ تفرده بالخلق والرزق والتصرف والتدبير، وتفرده تبارك وتعالى بالأسماء الحسنى والصفات العظيمة ، فهو متفرد بها ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي مختص بها متفرد بها تبارك وتعالى ، وهو أيضا متفرد بالعبادة يجب أن يُفرد بها ولهذا قال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ [ص: ٦٥] فيجب أن يفرد بالعبادة دون سواه ، كما أنه تفرد تبارك وتعالى وحده بالخلق فوجب أن يفرد تبارك وتعالى وحده في العبادة . فالإيمان بالله هو الإيمان بوحديته الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته .

ولهذا بدأ المصنف فيما يتعلق بمعرفة الله والإيمان به بدأ ذلك بإبطال الشرك ، لأن المشرك ما عرف الله ولا آمن به ، منبهاً المصنف رحمه الله بهذا البدء بهذا الحديث إلى أن وجود الشرك تنتفي به المعرفة ويبطل به الإيمان ، فمن أشرك بالله ما عرف الله ، ومن أشرك بالله ما آمن بالله ، كيف يكون عارفاً بالله عالماً به من يسوي به مخلوقا من مخلوقاته! كيف يكون مثل هذا عارفاً بالله !! ولهذا وصف الله تبارك وتعالى المشركين بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ، فالمشرك ما عرف الله ، لو عرف الله عز وجل حقاً وصدقاً لما اتخذ معه شريكاً ، لما سوى به حجراً أو شجراً أو قبراً أو إنساناً أو ملكاً أو أي مخلوق كان ، لا يمكن أن يسوي به مخلوقا من مخلوقاته ، ولهذا الشرك ناشئ عن فساد المعرفة بالله ، ما عرف الله المشرك ، ولا آمن بالله المشرك ، ولأجل هذا بدأ المصنف في باب المعرفة بذكر هذا الحديث العظيم الذي فيه إبطال الشرك ، في أي باب من أبواب الشرك وفي أي مجال من مجالات الشرك باطل وفيه دلالة على أن صاحبه ما عرف ربه ولا آمن به تبارك وتعالى ؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله في أول ما أورده من أدلة حديث أبي

هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) .

قوله صلى الله عليه وسلم : ((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) هذا حديث قدسي ، والحديث القدسي ألفاظه ومعانيه من الله تبارك وتعالى ، فالله عز وجل قال ذلك لفظاً ومعنى ، ليس معناه من الله ولفظه من الرسول صلى الله عليه وسلم! بل هو بالآفظة ومعانيه كلام الله ، فقول رسولنا عليه الصلاة والسلام ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى)) مفهوم هذه الكلمة أن هذه الكلمات «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» كلمات من الذي قالها ؟ رب العالمين ، ولو كان اللفظ من الرسول لما جاءت العبارة بهذه الصيغة ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ)) ، فهذا كلام من الله حروفه وكلماته ومعانيه كله من الله ، فهو حديث قدسي تكلم به رب العالمين ، والحديث القدسي فيه إثبات الكلام لله عز وجل وأنه يتكلم سبحانه وتعالى كما شاء ، والكلام صفة من صفاته ، وهو تبارك وتعالى يقول الحق ويهدي السبيل جل وعلا.

قال : ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ)) وقوله «أغنى» هذا اسم تفضيل ، ليس فعل ماضي وإنما هو اسم تفضيل ؛ أغنى الشركاء عن الشرك: أي أن إذا كان في الشركاء من هو غني عن شركائه فالله تبارك وتعالى غني عن الشرك ، ولهذا إذا وجد في العمل شرك رده الله على عامله ولم يقبله منه .

قال : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ)) ؛ الشركاء: أي من هم متشاركون في أمر ، فإذا كان في الشركاء من هو غني عن شركائه فالله تبارك وتعالى غني عن الشرك ، ولهذا إذا وجد في العمل إشراك بالله تبارك وتعالى رُدَّ العمل على صاحبه . فهذا فيه تنبيه للمشارك الذي يعبد الله ويعبد معه غيره بكمال غنى الله تبارك وتعالى عن عباده ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، فالله عز وجل غني عن العباد ، والعباد مفتقرون إليه ، والعبادة التي يقوم بها العبد هو المفتقر إليها ، أما الله عز وجل غني عنها لا تنفعه تبارك وتعالى طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، ولهذا قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي : ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥] .

قال : ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ)) ؛ والشرك: هو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله ، سواء خصائصه في ربوبيته ، أو أسمائه وصفاته ، أو ألوهيته ، فمن سَوَّى بالله غيره في شيء من خصائصه فقد أشرك بالله تبارك وتعالى شركاً أكبر ينقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين .

قال: ((عَنْ الشِّرْكِ))؛ الشرك هو التسوية وعدل غير الله بالله ، ولهذا قال الله عز وجل في وصف المشركين ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠] أي يسوون به غيره، وقال عن أهل النار أنهم يقولون: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] ، فمن سوى غير الله بالله أو عدل غير الله بالله في شيء من خصائص الله في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات فهو مشرك بالله تبارك وتعالى الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

ومن الشرك: الشرك الأصغر ؛ لأن الشرك نوعان: شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام وهو ما سبق بيانه ، وشرك أصغر وهو يختلف عن الشرك الأكبر في حده وفي حكمه .
وحدُّ الشرك الأكبر عرفناه ؛ تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله ، وحكمه أيضا عرفناه وهو الخلود في النار يوم القيامة .

والشرك الأصغر يختلف عن الشرك الأكبر في الحد والحكم ؛ أما في الحد : فإن الشرك الأصغر هو ما جاء في النصوص تسميته شركاً ولم يبلغ حد الشرك الأكبر وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه ، مثل أن يقع الإنسان في يسير الرياء ، أو يقع من لسانه كلمات وألفاظ شركية لا يقصدها ؛ مثل أن يقول : ما شاء الله وشئت ، أو مثل أن يقول والكعبة أو يحلف بمخلوق من مخلوقات الله ، ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) ، الشرك هنا أصغر ، وكذلك قول القائل "لولا البط لأتانا للصوص أو لولا كذا لكان كذا" أو نحو هذه الألفاظ ؛ فهذه ألفاظ شركية وجاء في النصوص ما يدل على أنها شرك لكنها لا تبلغ رتبة الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

والإسلام جاء بتحريم هذه الألفاظ الشركية والمنع منها صيانةً لجنان التوحيد ، وتعظيمًا لمقام الرب تبارك وتعالى ، وتكميلاً للإيمان وتتميمًا له وحفظاً له وحمايةً لجناحه ، وسدًا للذرائع التي تفضي إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا هذه ألفاظ محرمة ألفاظ شركية يُنهى عنها ويُمنع منها ويحذر من فعلها .

ومن الأمور العجيبة المؤلمة المؤسفة وقع في يدي كتاب قبل يومين كتبه أحد المفتين في إحدى الدول ؛ وهو عبارة عن أسئلة وجّهت إليه فُبدئت بسؤال عن لفظ شركي ، قيل له من حكم من يقول هذا اللفظ؟ أو ما حكم قول هذا اللفظ؟ قال هناك قاعدة -واسمعوا تقعيد الباطل والعياذ بالله- قال "هناك قاعدة وهي: أن الأصل في المسلم سلامته، وأي لفظ يقوله يُحمل على أحسن المحامل فله أن يقول من هذه الألفاظ ما شاء وتحمل له على أحسن محامله" ، ففتح الباب على مصراعيه بهذا التقعيد الفاسد ليقال من الألفاظ الشركية والكلمات الباطلة ليقول الإنسان ما شاء، والعوام الذين يسمعون له تبقى نفوسهم مستمرة وبيقون محافظين على هذه الألفاظ التي جاءت الشريعة بسدها والمنع منها .

قارن قول هذا الرجل بقول النبي عليه الصلاة والسلام لما سمع رجلاً يقول "ما شاء الله وشئت" فغضب عليه الصلاة والسلام وقال ((أجعلني لله ندا! ما شاء الله وحده)) ، أنت لو تفكرت في حقيقة هذا الرجل لما قال "ما شاء الله وشئت" هل كان قاصداً تسوية مشيئة النبي بمشيئة الله؟ لا والله ، وإنما لفظة جاءت على لسانه فمنعه منها وغضب عليه الصلاة والسلام وقال ((أجعلني لله ندا بل ما شاء الله وحده)) ويأتي أناس ويقعدون قواعد ويضعون أصول للعوام لتبقى هذه الأصول الشريكية على ألسنتهم! فأين هؤلاء من هدي النبي عليه الصلاة والسلام وسننه القويم ؟ ومضى في فتاواه على هذه الطريقة ، سئل عن أمور كثيرة جداً ومضى في فتاواه على هذه الطريقة في جانب العقيدة وجانب العبادة وجانب السلوك لا تكاد تجد له فتوى مستقيمة كلها فتاوى يذهب بالناس إلى مذاهب منحرفة وباطلة لا يذكر لهم آية من كتاب الله ولا يذكر لهم حديثاً عن رسول الله ولا يذكر لهم مروياً ومأثوراً عن سلف الأمة وإنما يتخَرَّص ويتقَوَّل في دين الله وعلى الله وفي كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا علم ولا فهم؛ فهذا مثل من قال عنهم عليه الصلاة والسلام : ((أَنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْأَيْمَةَ الْمُضِلُّونَ)) فإن خطرهم على الناس عظيم جداً .

الشاهد أن الشرك منه أكبر ومنه أصغر ، والشرك الأكبر ناقل من الملة وصاحبه مخلد في النار يوم القيامة ، والشرك الأصغر يختلف عن الأكبر في الحد والحكم ، ومن حيث الحد عرفنا ، ومن حيث الحكم فالعلماء اختلفوا هل الشرك الأصغر يدخل في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ؟ فمنهم من قال هو داخل لعموم الآية لكنه لا يخلد في النار ، لا بد أن يعذب لكنه لا يخلد في النار ، ومنهم من قال هو مثل الكبائر وهو أكبر الكبائر وأعظم الكبائر وأخطرها ، وإذا كان للإنسان حسنات راجحة يوم القيامة قد تغطي على يسير الشرك الأصغر الذي وجد عنده ، لعموم قوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١] . قولان لأهل العلم ولكن الشرك الأصغر في غاية الخطورة على الإنسان وهو أعظم من الكبائر المجردة وأخطر منها ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً» .

قال: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا)) ؛ «عملاً» نكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ أي: أيَّ عملٍ كان ، سواء كان العمل قليلاً أو كثيراً ، أو كان الإشراك قليلاً أو كثيراً يتناول ذلك ، ولهذا هذا الحديث يتناول بعمومه تحريم الرياء وتحريم السمعة وتحريم إرادة الدنيا بالعمل ، فكل هذا داخل في قوله ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) والرياء محبط للعمل ، إذا وجد مع العمل في أصله أبطله من أصله ، وإذا كان يسيراً ودخل على جزء من العمل أفسد من العمل ما قارفه ، فهو محبط للعمل ومفسد لما قارفه من العمل لأن الله لا يقبل إلا الخالص ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ)) فسئل عنه فقال

((الرِّيَاءُ)) ، قال ((يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّيَ فَيُزَيِّتُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ)) ، لا يقبل الله عز وجل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه كما يدل عليه هذا الحديث .

ولهذا يجب على كل عاقل ناصح لنفسه أن يتيقن تمامًا أنه لن يدخل معه في قبره ما هو معدود في صالح عمله إلا ما كان مبتغيا به وجه الله ، لو كانت أعماله التي قام بها أمثال الجبال لا يقبلها الله منه إلا إذا كان قد قصد بها وجه الله سبحانه وتعالى ، فلا يقبل الله من العمل إلا العمل الخالص أي الصافي النقي الذي لم يُرد به إلا الله تبارك وتعالى.

قال: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي)) أي جعل لغيره فيه شركة .

((تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)) أي أن الله لا يقبله منه بل يرده عليه ، وهذا فيه دلالة على أن عمل من سوى مع الله غيره وأشرك مع الله غيره أن عمله مردود غير مقبول ، فمعنى «تركته وشركه»: أي رددت عليه عمله ولم أقبله منه ؛ ففيه أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا الخالص.

أعيد ثانية : أن المصنف رحمه الله بدأ بهذا الحديث منبهاً أن من أشرك مع الله تبارك وتعالى غيره ما عرف الله ولا آمن به حقيقة الإيمان ، لأن الشرك إن كان أكبر فهذا بطل معه كل شيء ، وإن كان أصغر فهذا دليل على نقص الإيمان وضعفه وضعف المعرفة بالله تبارك وتعالى .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد : فنواصل قراءتنا في هذه الرسالة القيمة «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين - تحت باب معرفة الله عز وجل والإيمان به :

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ؛ يَخْفُضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) رواه مسلم .

من الإيمان بالله عز وجل ومن معرفته سبحانه الإيمان بأسمائه وصفاته ومعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن العبد كلما عظم حظه من معرفة أسماء الله جل وعلا وصفاته الواردة في القرآن والواردة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم عظم حظه ونصيبه من الإيمان ، لأن من الإيمان بالله عز وجل الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بها يسبقه معرفتها ؛ ولهذا قال : «معرفة الله عز وجل والإيمان به» ، فلا بد من معرفتها من خلال كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثم إتباع المعرفة بالإيمان ؛ وهو أن يقرَّ قلب المسلم ويصدق بهذه الأسماء وهذه الصفات وأنها أسماء لله عز وجل وصفات لله عز وجل متضمنة لمعاني الجلال والكمال والعظمة والكبرياء ، بحيث يمتلأ القلب بمعرفته بها إيماناً و يقيناً وتعظيماً وإجلالاً لله عز وجل وذلاً وخضوعاً له وانكساراً بين يديه سبحانه وتعالى ؛ وهذه كلها ثمار وآثار لمعرفة الله عز وجل بمعرفة أسمائه وصفاته الواردة في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام . ولهذا أخذ المصنف يسوق في هذه الترجمة جملةً من الأحاديث من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام التي فيها التعريف بالمعبود سبحانه وتعالى وذلك بذكر أسمائه جل وعلا وصفاته .

قال : ((وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ)) هؤلاء الخمس الكلمات التي قام فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم معلماً ومنبهاً ومبيناً لأصحابه

ولأتمته عليه الصلاة والسلام كلها كلمات فيها تعريفٌ بالرب العظيم ، تعريفٌ بالله ، وهذا التعريف بالله من المحاور التي تركز عليها دعوات المرسلين من أولهم إلى آخرهم . قال العلماء رحمهم الله : إن دعوات المرسلين من أولهم إلى آخرهم تركز على ثلاث محاور:

١. المحور الأول: التعريف بالرب المعبود والخالق الجليل سبحانه وتعالى .
٢. والمحور الثاني: التعريف بعبادته والطريق الذي ارتضاه لعباده ليتقربوا من خلاله إليه تبارك وتعالى .
٣. والمحور الثالث: بيان ما أعده الله تبارك وتعالى لمن سلك هذا الطريق من ثواب، ولمن حاد عنه وانحرف عنه من عقاب .

فهذا الذي قام فيه النبي عليه الصلاة والسلام هذا من المحور الأول وهو أساسٌ لا بد منه ؛ تعريف الناس بربهم ، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة جدًا فيها تعريف الناس بالله ؛ بذكر صفاته وأسمائه وعظمته وجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

قال : ((قَامَ فِينَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ)) ؛ وقوله «بخمس كلمات» دليل على دقة الصحابة في ضبط العلم وما يُلقى عليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم ألقى عليهم خمس كلمات فضبطها بالعدد أبو موسى الأشعري حتى تنضبط ، والأرقام تعين على ضبط العلم وحفظه .

قال: ((قَامَ فِينَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)) ؛ هذه الكلمة الأولى في التعريف بالله سبحانه وتعالى ، وقوله «لا ينام» نفي النوم عنه بل نفي كل نقصٍ عنه يرد في الكتاب والسنة يتضمن ولا بد إثبات كمال ضد ما نُفي ، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم في باب النفي ؛ النفي في الصفات ليس نفيًا صريحًا ، وإنما هو نفي متضمن لكمال ضد المنفي ، لأن النفي الصِّرف ليس مدحًا ، لا يكون النفي مدحا إلا إذا تضمن معنى ثبوتي ، ولهذا قوله «لا ينام» نفي النوم فيه إثبات كمال الحياة ، وأنه سبحانه وتعالى له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص ، بخلاف حياة المخلوق ؛ المخلوق حياته فيها نقص ، نوم والنوم ناشئ عن التعب ، يتعب وينصب فيحتاج إلى الراحة يحتاج إلى النوم ؛ فهذا نقص يدل على ضعفه وعجزه ونصبه وتعبه ، فحياته فيها نقص ، أما حياة الله عز وجل فهي حياة كاملة ، حياته تبارك وتعالى حياة لم تُسبق بعدم ((كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ)) ، في الدعاء: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)) ، ولا يلحق حياته فناء ﴿كُلُّ شَيْءٍ

هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [النقص: ٨٨] ولا يعتري حياته تبارك وتعالى نقص ؛ ولهذا نفى تبارك وتعالى في كتابه النقائص التي

تتناهى مع كمال حياته كقوله هنا في الحديث: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ)) ، وكقوله تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي تعب ونصب ؛ فزده

تبارك وتعالى نفسه عن النقائص التي تتنافى مع كمال حياته سبحانه ، فالله جل وعز حيٌّ حياةً كاملة لا نقص

فيها بوجه من الوجوه ، حياة لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء ولا يعتريها نقص ، النوم نقص ، والسنة نقص ، واللغوب نقص ، والموت نقص ، والله منزّه عن ذلك كله لكمال حياته تبارك وتعالى .

((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنَبِّغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)) أي أنه منزّه عن ذلك كله ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [هود: ١٢٣] النائم غافل ، النائم لا يدري ما حوله ، والله جل وعلا منزّه عن ذلك كله ، فهو لا ينام ولا ينبغي له أن ينام .

هنا معرفة المسلم بهذا الوصف لله عز وجل وهو وصفه بكمال الحياة وتنزهه عن السنة والنوم والموت واللغوب ونحو ذلك لكمال حياته سبحانه وتعالى ؛ هذه المعرفة ما الذي تولّده في العبد من عبودية وذل لله تبارك وتعالى ؟ والعلماء رحمهم الله ذكروا أن كل اسم من أسماء الله وكل صفة من صفاته له عبودية يقتضيها ذلك الاسم ، فمن عرف ربه تبارك وتعالى هذه المعرفة أنه جل وعلا له الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص ولا عجز ولا ضعف ، لا يعتريها سنة ولا نوم ولا موت ، حياة تامة كاملة ، ما الذي تولّده هذه المعرفة من عبودية ؟ لاشك أن هذه المعرفة توجد في العبد صدق الإقبال على الله جل وعلا وحسن التوكل عليه ودوام الطاعة له ، لأن العبد يعلم أن ربه سبحانه وتعالى الذي يتجه إليه بالعبادة والسؤال والطلب حي لا ينام ، حي لا يموت ، حي لا يمسه لغوب ولا تعب ، فهذا يوجد فيه توجّه صادق إليه وحده دون سواه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] .

وهذا يستفيد منه المسلم فائدة : أن الحي الذي يموت لا يعلّق القلب به ولا يتوكل عليه ، والحي الذي قد مات من باب أولى لا يلتجأ إليه ولا يتوكل عليه ، والجماد الذي ليس له حياة أصلاً من باب أولى لا يلتجأ إليه ولا يتوكل عليه ؛ فهذا يبين لنا بطلان عبادة غير الله ، قوله ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنَبِّغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)) هذا من الدلائل العظيمة على بطلان عبادة غير الله تبارك وتعالى . يقال لمن يعبد غير الله : تعبد من ينام !! فكيف أنه ينام ألا تعبد ، هذه وحدها تكفي ، كونه ينام هذا وحده كافٍ ألا يُعبد ؛ لماذا ؟ لأن نومه دليل على نقصه ، كيف تعرض حاجتك عليه وكيف تتوكل عليه وهو فيه نقص !! فكيف يُطلب الكمال ممن هو ناقص ؟ كيف تُطلب العافية ممن لا يملكها في حق نفسه ، لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ فهذا وحده كافٍ في بطلان عبادة غير الله ، الحي الذي يموت أو ينام هذا كيف يلتجأ إليه ؟! والحي الذي قد مات ودُفن ووُري في التراب كيف يتوجه إليه ؟! والحجر الذي هو جماد كيف يتوجه إليه ويلتجأ إليه ؟! فهذا من أبين البينات وأوضح البراهين على بطلان عبادة غير الله تبارك وتعالى .

ومن يدعو غير الله تبارك وتعالى حُسف عقله ؛ إذ كيف يسوّي هذه المخلوقات بالرب العظيم والخالق الجليل تبارك وتعالى الذي بيده أزمنة الأمور جل وعلا !! ولهذا جاء ملاحظة هذا المعنى في أدعية النبي عليه الصلاة والسلام ، كما جاء في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ

وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي؛ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالْجَبُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ» التوجه يكون لمن؟ للحَي الذي لا يموت ، للحَي الذي لا ينام ، للحَي الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، أما الحَي الذي يموت والحَي الذي ينام والحَي الذي تأخذه السنة والنوم والحَي الذي ينصب ويتعب ويمرض ويسقم كيف يُتوجه إليه بالدعاء والعبادة والسؤال والطلب !! فهذا من أبين البراهين وأوضح البراهين على بطلان عبادة غير الله ، وعلى وجوب إفراده تبارك وتعالى وحده بالعبادة والذل والخضوع والانكسار . قال ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ)).

الكلمة الثانية قال: ((يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)) وجاء في بعض روايات الحديث في الصحيح ((وَيَبْدِيهِ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ)) أي أن الميزان بيده ووزن الأمور بيده وبتدبيره سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعطي المانع ، الذي بيده أزمة الأمور تبارك وتعالى. وهذا أيضا من الدلائل والبراهين على وجوب كمال الذل له والخضوع له والانكسار بين يديه تبارك وتعالى . ((يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ)) فالأمر بيده تبارك وتعالى ؛ بيده الخفض والرفع، والقبض والبسط ، والعطاء والمنع ، والعز والذل ، كل شيء بيده تبارك وتعالى ، فهذا يدل على شدة افتقار العبد إلى الله وغنى الله سبحانه وتعالى عن عباده ، غني عنهم من كل وجه وهم فقراء إليه من كل وجه، لا غنى لهم عنه طرفة عين .

والجملة الثالثة قال : ((يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ)) وهذا فيه أن الأعمال تُرفع إلى الله ؛ أعمال الليل ترفع قبل أعمال النهار ، وأعمال النهار تُرفع قبل أعمال الليل ، يعني أن الأعمال تُرفع إليه أولاً بأول، اليوم بيومه والليل بليته ، تُرفع إليه أعمال الليل قبل النهار وأعمال النهار قبل الليل ، تُرفع إليه وهو سبحانه وتعالى مطلع عليها لا تخفى عليه تبارك وتعالى منها خافية ، أحصى كل شيء عددا وأحاط تبارك وتعالى بكل شيء علما ، لكن هذا الرفع للأعمال إليه لله تبارك وتعالى فيه حكمة ، فالأعمال ترفع إليه ؛ أعمال الليل التي قام بها العبد في ليله تُرفع قبل أن يأتي الصباح ، وأعمال النهار تُرفع قبل أن يأتي الليل ، فهي ترفع أولاً بأول أعمال الليل وأعمال النهار . فالجملة الثالثة : رفع أعمال الليل قبل أعمال النهار ، والجملة الرابعة: رفع أعمال النهار قبل أعمال الليل ؛ رفعها إلى الله سبحانه وتعالى .

والرفع في قوله «تُرفع إليه» فيه دليل على علوه سبحانه وتعالى وأنه جل وعلا عليّ على خلقه سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ، وهو ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] فهو العلي سبحانه وتعالى على خلقه . ومن ينكرون علو الله ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ((تُرفع إليه)) ؟ وماذا يفهمون من مثل هذا الحديث ونظائره؟ وكذلك قول الله عز وجل ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، ((إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الْعَبْدَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ)) ؛ هذه كلها شواهد على علو الله ، ولهذا

من ينكر علو الله أو يقول -تعالى الله عن ذلك- الله في كل مكان ما معنى ترفع إليه؟ وما معنى إليه يصعد؟ وما معنى تعرج إليه؟ كل هذه الأحاديث ما معناها؟ على حد قولهم وفهمهم ليس لها معنى .

فالشاهد أن هذا الحديث ونظائره من الدلائل الواضحات على علو الله تبارك وتعالى على خلقه ، وأنه سبحانه وتعالى مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله فوق عباده سبحانه ، وترفع إليه أعمال الليل قبل أعمال النهار، وأعمال النهار قبل أعمال الليل ، ويوضح هذا المعنى الحديث الآخر عندما قال عليه الصلاة والسلام : ((يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَجِئْتُمُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ ، ثُمَّ يَعْزُجُ الَّذِينَ بَاثُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، فهذا فيه أيضا دلالة على كمال إحاطة علم الله عز وجل بأعمال العباد ، وأنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه منها خافية ؛ الأعمال التي تكون بالليل كلها محصاة على العباد وتُرفع إليه -وهذا من كمال حكمته- تُرفع إليه في وقتها ، وأعمال النهار أيضا ترفع إليه ، فالكل محصى ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] ، والعبد إذا كان غارقاً في ذنوبه لا يزال يوماً بعد يوم يحمل وزراً وإثماً يمارسه في هذه الحياة ثم ماذا يكون؟ يلقي الله عز وجل بذلك كله محصى عليه ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ ، يأتي يوم القيامة يحمل وزراً يلقي الله تبارك وتعالى به .

فقوله ((يُزْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)) هذا مما ينبه العبد على المراقبة والمحاسبة ومتابعة نفسه في الأعمال ، وينتبه ألا تغرب شمس اليوم ولا يخرج الصباح إلا وله حظٌ من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وعنده سلامة من الآثام والمعاصي والذنوب التي تُسخط الله جل وعلا ، لأن الأمر مستمر كل يوم بيومه وكل ليلة بليلتها ، فهذا يجعل العبد في دوام المحاسبة ودوام المعاتبة لنفسه ودوام المجاهدة على الأعمال الصالحة كل يوم بيومه .

هذا المعنى الذي يُلمح إليه الحديث تجد كثير منا في أمور الدنيا يلاحظ ذلك ملاحظة تامة وملاحظة دقيقة ، والشيء الذي يُرفع له وقت محدد يرفع فيه تجد الإنسان يأتي به بدقة ؛ لأنه يقول إذا رُفع لا مجال لأن أحصّله وقد فاتني، فتجده يتابع بدقة تامة حتى لا يفوته ، فهذا المعنى الذي قاله عليه الصلاة والسلام ((يُزْفَعُ إِلَيْهِ -أي إلى الله- عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ)) هذا فيه دعوة للعبد لمتابعة الأمر ومجاهدة النفس ومحاسبتها والجد والاجتهاد ، لأن الوقت يمضي والأيام تمضي والليالي تمضي وكل يوم بيومه تُرفع وكل ليلة بليلتها ترفع ، وما ذهب من الليالي والأيام لا يعود ولا يرجع ؛ فهذا فيه دعوة للعبد أن يجتهد ويحفظ أيامه وحفظ ليلاليه بما يسُره أن يلقي الله تبارك وتعالى به ، والليالي والأيام مستودع للأعمال ، وكل ما يكون من العبد في ليلاليه وأيامه سيلقى الله تبارك وتعالى به يوم القيامة .

ثم ذكر الجملة الخامسة قال : ((حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) وبصر الله تبارك وتعالى منتهٍ إلى كل المخلوقات وجميع الكائنات ، فهو سبحانه وتعالى يبصر جميع الكائنات ويرى جميع المخلوقات ، لا يفوته شيء ولا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء سبحانه وتعالى ، يرى سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، ويرى تبارك وتعالى جريان الدم في عروقها ، ويرى تبارك وتعالى سريان الماء في عروق النبات ، يرى كل شيء سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات لا يخفى عليه شيء لا يعزب عنه شيء لا يغيب عنه تبارك وتعالى شيء ، مطلعٌ على كل شيء ، يرى كل شيء سبحانه وتعالى .

يقول صلى الله عليه وسلم هنا: ((حِجَابُهُ النُّورُ)) أي حجاب الله النور .

يقول ((لَوْ كَشَفَهُ)) يعني لو كشف هذا النور الذي جعله تبارك وتعالى حجاباً له ((لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ)) ومعنى سبحات وجهه: أي بهاء وجهه ونور وجهه وجلال وجهه وجمال وجهه ((لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) وبصره منتهٍ إلى كل المخلوقات يبصر تبارك وتعالى كل شيء ؛ فهذا يدل على كمال الله سبحانه وتعالى وكمال عظمته وبهائه وجلاله وجماله وعظمته سبحانه وتعالى . «سبحات وجهه» أي: بهاء الوجه وحسنه وجلاله وكماله «ما انتهى إليه بصره من خلقه» ؛ فهذا فيه كمال عظمة الله جل وعلا ، وفيه أيضاً ضعف المخلوق ، وأن المخلوق شأنه أن سبحات وجه الله عز وجل لو كُشف عنها الحجاب لاحترق . ويوم القيامة يجعل الله عز وجل للمخلوق قدرة وقوة يتمكن بها من رؤية الله سبحانه وتعالى ، ولهذا رؤية الله لا تكون لأحد في الدنيا، ((اعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)) ، لا تكون إلا يوم القيامة يكرم الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان بلذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى .

قال: ((حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)) في الحديث إثبات الوجه صفةً لله تبارك وتعالى ، ودعواكم من أقوال العاطلين المبطلين الجاحدين المنكرين المكذبين لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم الذين يقولون في الله وفي كلام الله وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام ما لا يعلمون ، ممن خاضوا في التأويل الباطل زعمًا منهم أنهم ينزهون الله تبارك وتعالى ؛ فالله له وجهٌ عظيم جليل يليق بجلاله وكماله ، أثبت ذلك هو سبحانه وتعالى لنفسه ، وأثبت ذلك له رسوله عليه الصلاة والسلام ، فتؤمن بأن الله سبحانه وتعالى له وجه عظيم يليق بجلاله وكماله ، ووجه الله سبحانه وتعالى له بصر ، قال ((لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره)) أيضاً فيه إثبات البصر لله تبارك وتعالى ، فهو يبصر جل وعلا ويرى ، ويبصر بعينين جاء ذكرهما في القرآن وفي سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى: ﴿تَجَرَّيْ بِأَعْيُنِنَا﴾ [القدر: ١٤] قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)) أي له عينان كاملتان منزهتان عن النقائص والعيوب ، فكل ذلك نؤمن به .

ومن لا يؤمن بذلك ومن ضيَّع هذه المعرفة بالله ترتب على ذلك من ضياع إيمانه ورُقّة دينه وضعف عبادته وضعف صلته بالله بحسب ما ضيَّع من معرفته بربه ، ولهذا قال العلماء: إن للعقائد الفاسدة شؤماً على أصحابها . من يعطّلون الصفات ويخوضون فيها تحريفاً وتعطّيلاً وجحداً ونفياً هذه لها شؤم عليهم ، ولهذا تأتي أعمالهم تبعاً لفساد العقائد أعمال ضعيفة وأعمال مضيّعة وتفريط في الواجبات وفعل للمحرمات ، وهذا كله ناشئ من فساد العقيدة فيما يتعلق بالله وصفاته وأسمائه سبحانه وتعالى .

والواجب على المسلم في هذا الباب «باب الأسماء والصفات» أن يمرّ نصوص الصفات كمات جاءت وأن يؤمن بها كما وردت ، آمناً بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمناً برسول الله وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نخوض في صفات الله بعقولنا القاصرة كما يفعل علماء الكلام أهل الضلال والباطل ؛ يأتون إلى الصفات المثبتة في القرآن والسنة ويخوضون بعقولهم ، يقول الوجه ما يليق بالله والبصر ما يليق بالله والكذا ما يليق بالله والاستواء ما يليق بالله.. ثم يخوض في تأويلات باطلة تفسد عليه دينه وعلى من يستمع إليه ؛ وهذا كله يجب الإعراض عنه وعدم السماع إليه والبعد عنه وعن أهله والإقبال على العقيدة الصحيحة الصافية النقية المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وحتى تعرفوا جيداً ما أتحدث عنه تذكروا حال الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا النبي عليه الصلاة والسلام يقول هذا الحديث ويقول أمثاله من أحاديث الصفات بأي شيء تلقّوها؟ هل سمعتم أن أحداً من الصحابة قال يوماً من الأيام لو كان لله وجهها لكان كذا وكذا ؟ لو كان الله مستوياً على عرشه للزم أن يكون كذا؟ أبلّغكم شيء عن أحد من الصحابة مثل ذلك؟ هذا كله ضلال لم يوجد إلا مع وجود البدع والضلالات والانحرافات عن دين الله ، أما قاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب تلقي أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بالقبول بدون اعتراض وبدون انتقاد وبدون تحريف وبدون تأويل ، وإنما تلقى تام لها بالقبول ، يقول الزهري رحمه الله : «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» ، أما على قاعدة المتكلمين "وعلينا الانتقاد" ، قاعدتهم في هذا الباب وعلينا الانتقاد، لأن المتكلم عندما يقف عند أحاديث الصفات لا يسلم وإنما يبدأ ينتقد "لو قلنا كذا للزم كذا" هذا انتقاد ليس تسليماً ، فقاعدة الصحابة وقاعدة من اتبعهم بإحسان في هذا الباب التسليم والإيمان ، وعندهم أنه لا أحد أعرف بالله من الله ، ولا أحد أعرف بالله من خلق الله من رسوله عليه الصلاة والسلام . والشاهد أن الواجب على المسلم في جميع نصوص الصفات الواردة في القرآن والسنة أن يتلقاها بالتسليم والإيمان التام الكامل ، يثبتها لله تبارك وتعالى على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْضْ مَا فِي يَمِينِهِ ، وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ)) أخرجاه .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضا في باب التعريف بالله ، تعريف عباد الله بالله سبحانه وتعالى ؛ قال : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى ، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) ؛ وصف يمين الله وهي يده تبارك وتعالى بأنها مملوءة ، وأيضا سحاء ، وانتبه للوصفين ففي العلم بهما فائدة عظيمة لك ؛ مملوء وسحاء ، قد يكون الإنسان يده فيها شيء من العطاء أو فيها شيء من الامتلاء ولكنها غير سحاء يكون بخيلا ، وقد يكون كريما عنده حب للنفقة لكن ما عنده شيء ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)) يد مملوءة وأيضا معطاء سحاء ينفق بالليل والنهار ؛ فهذا يدل على ماذا ؟ يدل على كمال عظمة الله عز وجل وأن الخير بيده سبحانه وأنه واسع العطاء جزيل المن ، عطاؤه كلام ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] جل وعلا .

((يمينه مملوءة)) إذا عرف العبد أن الله عز وجل شأنه كذلك ؛ يمينه مملوء لا يغيضها أي لا يُنقصها نفقة ، سحاء الليل والنهار ما الذي تولّد هذه المعرفة في قلبه ؟ هذا يولد فيه صدق الإقبال عليه ، يولد فيه المعنى الذي جاء في قوله تعالى ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت: ١٧] ، ابتغ الرزق عند من يمينه مملوء سحاء الليل والنهار ، فهذه المعرفة تجعل العبد يُقبل على الله ولا يُقبل على أحد سواه تبارك وتعالى ، لأن الرزق بيده ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، الأمور بيده ، هو الرزاق ، قال عز وجل : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] .

من القصص اللطيف في هذا الباب : قصة أوردها ابن قدامي رحمه الله عن الأصمعي ؛ الأصمعي كان رجل رحالة يرحل للبلدان وللمناطق فيقول : لقيت أعرابي وصفه الأصمعي بأنه جلف يعني في تعامله ، فيقول كان على ناقته وكنت أمشي على قدمي فلقيني وهو على الناقة فقال لي ممن أنت؟ قلت له من بني الأصمعي ، قال لعلك الأصمعي ؟ - كان مشهور في زمانه في الناس - قال أنا هو ، قال من أين جئت؟ قال له الأصمعي جئت من بلد يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال الأعرابي: أو للرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ - أول مرة يسمع - قال نعم ، قال اسمعني شيئا منه ، قال انزل من ناقتك فنزل ، يقول فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلت إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] ، قال أو هذا كلام الرحمن؟ قلت إي والله هذا كلام الرحمن ، قال امسك ناقتي فمسكها فنحر الناقة وقطعها قطعاً وقال ساعدني على تفريقها بين الناس ، ضامن الرزق ، ناقته

التي هي معه نحرها وقسمها ضمن الرزق، امتلأ قلبه بالإيمان بمدلول قوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، يقول ففرقنا اللحم ومضى وهو يقول ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، ثم لقينته بعد سنوات في مكة في المطاف فعرفني وعرفته فقال لي اقرأ علي من كلام الرحمن، فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلنا قول الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، قال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، قال: بعده شيء؟ قلت نعم ، قال اقرأ ، قال ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] قال الأعرابي كلاما عجيبا ، قال: سبحان الله ومن أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ يعني نصدقه بدون أن يحلف ، انظر هذا الفقه قال "ومن أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟" ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يحلف سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ .

على كل حال ؛ إيمان العبد بأن الله عز وجل يمينه ملأى يورث العبد افتقارا ، ذلا ، سؤالا ، طلبا ، طمعا ، والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يذل له وأن يسأله وأن يلح عليه وأن يطلب منه ، وفي الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((من لم يسأل الله يغضب عليه)) ، يمينه ملأى ، خزائنه تبارك وتعالى لا ينفد ثم لا يتجه إليه العبد بالسؤال!! من لا يسأل الله يغضب عليه . يقول الناظم :

والله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

تجدد من الناس من يسأل من يغضبون منه إذا سألهم ويتبرمون ويترك سؤال من يحب منه كل وقت وحين أن يسأله ومن هو خزائنه تبارك وتعالى ملأى سبحانه .

قال: ((يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً)) وأيضا تُضبط «لا تغيضها نفقة» أي لا يُنقصها .

قال: ((أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ)) لأن ما عنده لا ينفد سبحانه وتعالى ، عطاءه سبحانه وتعالى كلام ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ، ﴿يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبا: ٣٦] .

((وَالْقَسَطُ بِيَدِهِ الْآخَرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ)) ؛ والحديث واضح الدلالة بل صريح الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى له يدان تليقان بجلاله وكماله، قال ((يمين الله ملأى.. ويده الأخرى)) وهذا جاء أيضا التصريح به في القرآن: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ، فهذا جاء صريحا في كتاب الله عز وجل ، وهو صريح في ثبوت يدين لله سبحانه وتعالى ؛ وهما يدان حقيقتان تليقان بالله.

ولو قرأت هذا الحديث لوجدت فيه من وصف اليدين ما يقطع دابر المعطلين المؤولين الذين يؤولون اليد إما بالقدرة أو القوة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات ، فوصف اليد هنا بعدة صفات تأملها ؛ وصفها بأنها يمين ، وصف الثانية بأنها أخرى ، ووصفها أيضا بأنها سحاء يعني يعطي ، ووصفها أيضا قال: ((بيده الأخرى الرفع والخفض)) ، وفي الحديث الآخر قال: ((يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار)) ، يقول ابن القيم في كتابه الصواعق : وُصفت يد الله في الكتاب والسنة بما يقارب المئة صفة كلها تدل على أنها يد حقيقية ، مئة صفة مثل: البسط، العطاء، القبض، الأصابع إلى غير ذلك ، قرابة المئة صفة جاءت في الكتاب والسنة ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] القبض والطي ، والأخذ ((إلا تلقاها الله بيمينه)) أحاديث كثيرة جدا وآيات كثيرة فيها وصف اليد الله تبارك وتعالى بأنها يد حقيقية ؛ ومع هذا الوضوح ومع كثرة هذه الدلائل تجد أهل التأويل الباطل يقفون عند النصوص التي فيها اليد ويصرفونها عن مدلولها ويقولون المراد باليد القدرة .

وهذا الحديث الذي بين أيدينا قاطع لدابرهم قاصم لهم ، اقرأه عليهم ويكفي في إبطال ما يقولون ، من يقول لك اليد القدرة اقرأ عليه الحديث ، قل له أنت تقول اليد القدرة !ماذا تصنع بهذا الحديث ((يعين الله ملأى)) ماذا تقول؟ قدرته ملأى؟ ((لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وبيده الأخرى)) وبقدرته الأخرى؟ هذا كلام يستقيم ؟ قراءة الحديث هذا وحده كافي في إبطال تأويل المتأولين ، وهذه قاعدة نبه عليها أهل العلم في رد التأويل ؛ إذا تأول متأول شيئا من صفات الله فكيفك أن تذكر له موارد هذه الصفة في القرآن والسنة موضعاً موضعاً ، يكفي إيراد هذا في رد باطله .

الشاهد أن هذا الحديث فيه إثبات عظمة الله وجلاله وكماله ، وأيضا سعة عطائه ومَنِّه ، وأن الأمور بيده عز وجل العطاء والمنع والخفض والرفع والقبض والبسط كل ذلك بيده ، وإثبات اليمين له ، وإثبات اليد الأخرى له سبحانه وتعالى ، وهذا أيضا ثابت في القرآن ، في سورة الزمر قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧) .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ : ((أَتَدْرِي فِيْمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟)) قُلْتُ : لَا ، قَالَ : ((لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا)) رواه أحمد .

ثم أورد هذا الحديث في التعريف بالله سبحانه وتعالى ، وفيه بيان كمال علمه سبحانه وتعالى . قال: ((رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ أَتَدْرِي فِيْمَ يَنْتَطِحَانِ يَا أَبَا ذَرٍّ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ لَكِنَّ اللَّهَ

يَذَرِي)) ؛ فهذا فيه إثبات علم الله المحيط بالعباد والمحيط بالبهايم والدواب وبكل المخلوقات ، أحاط سبحانه وتعالى بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، فكل شيء أحصاه الله سبحانه وتعالى ؛ فهذا فيه إثبات العلم

وفيه إثبات كمال العدل ولهذا قال : ((وَسَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا)) أي يحكم بينهما يوم القيامة ، وهذا المعنى جاء أيضا في الأحاديث الأخرى ما يشهد له ؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: ((لَتَوُذَّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) يعني من ضيَع الحقوق وأدائها إلى أهلها في الدنيا سيؤديها لزما إلى أهلها يوم القيامة ، قال: ((لَتَوُذَّنَّ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ)) التي نطحتها ، الجلحاء: التي ليس لها قرون. والقرناء: التي لها قرون ، والشاة القرناء إذا نطحت الشاة الجلحاء بقرنها يقتص لها منها يوم القيامة ، فما بالكم بمظالم العباد!! ولهذا جاء في حديث عبدالله بن أنيس وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُرَاءَ غُرْلًا بُهُمَا)) قالوا : وَمَا بُهُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ يعني عرفنا حفاة وعرفنا عراة ؛ حفاة: لا نعال عليهم ، عراة: ليس عليهم ثياب بهما ما معناها ؟ قالوا : وَمَا بُهُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : ((لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ)) ؛ من كان عنده أموال قصور تجارات ممتلكات كل هذه بموته انتهت بالنسبة له ، ليس معهم من الدنيا شيء ، قد ينتهب الإنسان نهبه كبيرة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم ثم يموت بعد انتهابها بساعة فلا يستفيد منها شيئا وتكون يحملها يوم القيامة وزرا ، ويأتي بها يوم القيامة مظلمة . قال ((بُهُمَا أَي : لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ - سبحانه وتعالى وقد حشر العباد- بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا الدَّيَّانُ ، ثم يقول سبحانه وتعالى : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلَا أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقْصَهُ مِنْهُ ، حَتَّى اللَّطْمَةُ)) قَالَ الصحابة رضي الله عنهم: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاءَ غُرْلًا بُهُمَا ؟ قَالَ : ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) ، وقوله ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) يوضحه الحديث الآخر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة : ((أَتَذَرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ ؟)) قَالُوا : «الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ» ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)) ؛ هذا معنى قوله في الحديث الأول ((بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)) .

إِذَا هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ مِنَ التَّعْرِيفِ بِاللَّهِ ؛ بَيَانُ إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالمخلوقات ، أَحَاطَ بِهَا عِلْمًا وَأَحْصَى كُلَّ الْأَعْمَالِ وَكُلَّ مَا يَقَعُ أَحَاطَ بِذَلِكَ عِلْمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ . وَأَيْضًا فِيهِ إِثْبَاتُ عَدْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَنَّ الْمَظَالِمَ لَا تَضِيعُ حَتَّى قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ((وَلَوْ

كان عودا من أراك)) ما يضيع شيء المظالم لا تضيع حتى لو كان شيئا قليلا لا يضيع ، ((مَنْ أَقْطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ)) ليس هناك شيء يضيع ، فهذا فيه كمال عدل الله سبحانه وتعالى .

وهذه المعرفة بأمثال هذه الأحاديث يورث العبد تقوى الله عز وجل وبُعْدًا عن الظلم وبُعْدًا عن التعدي ، فالمظالم لا تضيع ، والظالم سيلقى الله سبحانه وتعالى بمظالمه وسيجازى ويحاسب بميزان بمثاقيل الذر ، وهذا كله من كمال عدل الله ؛ فهذه معرفة عظيمة يترتب عليها من صلاح العبد وصلاح أعماله وزكاء نفسه وحسن معاملته ومراقبته وبُعْده عن المظالم يترتب عليها خير عظيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ، ويضع إبهاميه على أذنيه والتي تليها على عينيه . رواه أبو داود وابن حبان وابن أبي حاتم .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ؛ وهذا الحديث يبين لنا أيضا بابًا من أبواب معرفة الله سبحانه وتعالى ، ويبين لنا أيضًا في الوقت نفسه أثر المعرفة في صلاح العبد ، وأن الأمرين مرتبطان ؛ معرفة العبد بربه يرتبط به صلاح العبد ، ولهذا ربط بين الأمرين عليه الصلاة والسلام قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فأصلحوا أنفسكم بأداء الأمانات وجاهدوا أنفسكم على أدائها ، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عليكم ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ ، ثم ختم الآية بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ؛ انتبهوا ، هذا الذي أُمِرتم به وانتبهوا ، الله سميع بصير ، بمعنى أن علم العبد بسمع الله لكلامه ورؤيته لأفعاله وحركاته وسكناته يجعله يحافظ على الأمانة وإذا حكم لا يحكم إلا بالعدل ؛ مراقبة لله وخشية له وطاعةً وعلمًا بأن ربه تبارك وتعالى يسمعه ويراه .

وإيمان العبد الصحيح بأن الله عز وجل يسمعه ويراه يترتب عليه صلاح العبد ، وكم في هذه المعرفة من النفع للعبد لو استحضرها وتذكرها . أحد السلف رأى رجلاً وامرأة في ريبة فقال لهما «إن الله يراكما» سترنا الله وإياكما . ويقول ابن رجب في أحد كتبه : راود أعرابي أعرابية في الصحراء وقال لها نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ،

يعني من ماذا تخافين ما أحد يرانا من أي شيء تخافين؟ قال نحن في مكان لا يرانا إلا الكواكب ، قالت له وأين مكوكبها؟ مكوكب الكواكب أين هو ألا يرانا ؟ فاستحضر العبد لرؤية الله له وسماعه لكلامه من الأسس العظيمة لصلاح العبد في أقواله وأعماله . ولو استحضر العبد رؤية الله له وسماعه لكلامه لاستحيا من الله حق الحياء أن يتكلم بكلام يسخطه أو أن يفعل فعلا يسخطه ، لكن ضعف معرفة العبد بأسماء الله وبأن ربه تبارك وتعالى سميع بصير ضعف المعرفة ، توجد عند الناس المعرفة المجملة لكنها متفاوتة فيهم ، فضعف هذه المعرفة في القلوب تجعل العبد ينخرط فيما ينخرط فيه من معاصي ويقع فيما يقع فيه من آثام .

وهنا يقول عليه الصلاة والسلام لما قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ويضع -أي النبي عليه الصلاة والسلام- إبهاميه على أذنيه والتي تليها السبابة على عينيه؛ قال العلماء رحمهم الله : أراد بذلك تحقيق الوصف وتثبيته ، وأن الله عز وجل له سمعٌ حقيقي وبصر حقيقي ، أراد أن يثبت هذا الأمر ويحقق هذا الوصف ويؤكد ثبوته عليه الصلاة والسلام بوضع الإبهام على أذنيه والسبابة على عينيه، تحقيقاً للوصف وتثبيته له . ولهذا نظائر في سنته ؛ مثل لما كان على المنبر وقال عليه الصلاة والسلام ((إن الله يطوي السماوات يمينه ويهزهن)) وهو على المنبر أخذ يهز النبي عليه الصلاة والسلام يمينه حتى قال الصحابة «أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم!!» أي المنبر .

فهذا كله المراد به تحقيق الوصف وتثبيته ، وأن الله عز وجل له سمع حقيقي وله بصر حقيقي يليق بجلاله ، وليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ، وقرأ هذا المعنى واضحاً في قول الله تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ؛ أثبت لنفسه تبارك وتعالى السمع والبصر بعد نفي المثلية ، فماذا أفاد ؟ قال العلماء : في إثبات السمع والبصر بعد نفي المثلية دليلٌ على أن إثبات الصفات لله تبارك وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله لا يستلزم التشبيه ، فالصفات لله ثابتة على الوجه اللائق بجلال الله تبارك وتعالى وكماله ، وهو سبحانه منزّه عن النقائص والعيوب . وليحذر المسلم في هذا الباب من أن يبالغ في الإثبات إلى حد التشبيه ، أو يبالغ في التنزيه إلى حد التعطيل ؛ فكل منهما ضلال ، والحق قوام بين ذلك ، الحق حسنة بين سيئتين وهدى بين باطلين ؛ باطل المشبهة وباطل المعطلة ، الحق هو إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، هذا هو الحق .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ ؛ لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَعْبِضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا

اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ تبارك وتعالى)) رواه البخاري ومسلم.

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ)) ؛ وهذا الحديث فيه التعريف بالله ببيان كمال علمه وإحاطة علمه وأنه سبحانه وتعالى أحاط بكل شيء علما واختص تبارك وتعالى بعلم الغيب، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] اختص بذلك ، ولم يُطلع أحداً على ذلك إلا في أشياء معينة لحكمة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] فالله عز وجل اختص بعلم الغيب ، لا يعلم الغيب إلا الله كما يدل على هذا هذا الحديث ، وأيضاً كما يدل عليه الآية التي أشرت إليها ؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله : من ادَّعى علم الغيب فهو كافر؛ لماذا ؟ لأنه مكذب بالقرآن ومكذب بسنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولأنه أيضاً ينازع الله في خصائصه وصفات كماله ، يدَّعي لنفسه منازعة الله في خصائصه وصفات كماله . نبينا عليه الصلاة والسلام سمع امرأة تمدحه تقول: «وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ» فغضب صلى الله عليه وسلم وقال : ((لا يعلم ما في غدٍ إلا الله)) ، فعلم الغيب من خصائص الرب العظيم سبحانه وتعالى ، لا يعلم الغيب إلا الله جل وعلا . النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ، والمخلوقات لا تعلم الغيب ، وإنما الذي يعلم الغيب والشهادة هو رب العالمين .

وعندما نقول «عالم الغيب» فالمراد بالغيب أي بالنسبة لنا نحن ، أما في حقه سبحانه وتعالى فالكل شهادة ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية ، فهو غيبٌ بالنسبة لنا لأنه غائب عنا ، أما الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه شيء وهو مطلع تبارك وتعالى على كل شيء ، فهو غيب بالنسبة لنا ، عالمٌ بالغيب أي ما غاب عنا نحن المخلوقات ، أما في حقه سبحانه وتعالى فليس هناك غيب الكل شهادة ، الغيب عنده شهادة والسر عنده علانية لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم ما في بطون الأرض ويعلم ما في السماوات ، أحاط بكل شيء علما وأحصى تبارك وتعالى كل شيء عددا .

قال عليه الصلاة والسلام: ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ)) وهذا فيه التنبيه على اختصاص الله تبارك وتعالى بعلم هذه المغيبات ، قال: ((مفاتيح الغيب)) الغيب: هو ما غاب عنا ولا سبيل للعبد إلى النفوذ إليه أو إلى معرفته فهو غائب عن الإنسان ، ورب العالمين تبارك وتعالى مختصٌ بالعلم بالمغيبات . ((مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ)) ثم ذكرها .

قال: ((لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ)) كل الحوادث التي تكون في مستقبل الإنسان في أيامه القريبة أو في أيامه البعيدة، غد القريب أو غد البعيد الله سبحانه وتعالى هو المختص بعلم ذلك .

((وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ))؛ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨] يعني ما يحصل في الرحم من نقص أو ما يحصل في الرحم من ازدياد من ضمور في الجنين وضعف أو مثلاً اكتمال له ونماء هذا من علمه تبارك وتعالى .

((وَلَا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ)) يعني لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

((وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ)) لا يدري الإنسان متى يموت ، وإذا كانت منيته في بلد وهو في بلد آخر ساقه الله تبارك وتعالى إلى البلد الذي فيه منيته ، وكم من إنسان سافر ليذهب إلى مكان منيته ، كم من إنسان سافر خرج من بيته وركب مطيته ليذهب إلى مكان منيته ، منيته المحددة في مكان معين فيذهب إليها ، تجده يخرج من بيته ويودع أهله ويسافر وقد كُتب له في منتصف الطريق بين مكة والمدينة أن تنتهي حياته فذهب إلى منيته ، كم من إنسان كثير تكون منيته في بلد فيتحرك عندما تدنو منيته يتحرك ليذهب إلى منيته .

وعندما يتفكر الإنسان في القصص التي تحصل في هذا الباب يرى عجباً ويرى كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ، يمر على الناس في واقعهم قصص عجيبة ، من القصص العجيبة في هذا الباب: أن أهل بيت كان والدهم ووالدتهم الكبار الجد والجدة كانوا في سفر وكانوا قادمين فكانوا أبناء الأبناء وهم عدد ينتظرونهم عند الباب لأنه قرب مجيئهم، فدخل والد أحدهم إلى البيت بعد صلاة المغرب وإذا بابنه نائم عمره ست أو سبع سنوات ، فقال لوالدته أيقظيه قالت هو تعشى ونام ، قال: لا أنا أريد أن يكون مع الأولاد يستقبلون والدنا ، فأيقظته أمه وألبسته وخرج ما أمضى ربع ساعة وصدمته سيارة ومات عند الباب ، أيقظته أمه لماذا ؟ نائم! أيقظته أمه لأن منيته جاءت ، أمه توقظه ووالده يطلب إيقاظه ولو يعلم والده أنه يطالب بإيقاظه ليموت وأمّه توقظه وتلبسه ثيابه ليموت ما يدري ، ربع ساعة توقظ ولدها ليذهب ليموت ؛ هذا أمر علمه عند الله ، انظروا للقصة هذه ونظائرها كثير ، إذا جاءت المنية ولا يدري أحد متى تأتي؟ قد تكون بعد ربع ساعة قد تكون بعد دقائق فهذا علمه مختص بالله تبارك وتعالى ، لا يعلم ولا تدري نفس بأي أرض تموت .

((وَلَا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)) ومن ادّعى علم شيء من ذلك فهو مكذب بالقرآن ومكذب بأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وإذا عرف العبد هذا العلم ، عرف علم الله عز وجل ؛ أن الله عز وجل عليم وعلمه محيط بكل شيء ، وأنه اختص بعلم المغيبات وعلم السرائر وما تخفي الصدور أحاط بكل شيء علنا ؛ فهذا يورث العبد مراقبة لله سبحانه وتعالى خشية وإقبالاً على الله وقيامًا بعبادته إصلاحاً لحاله بينه وبين الله عز وجل .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

الدرس الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، اللهم إنا نسألك علماً نافعاً وعملاً متقبلاً ورزقاً طيباً . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْقَلَبَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ؛ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) أخرجاه .

أورد المصنف رحمه الله هنا في «باب معرفة الله والإيمان به» هذا الحديث العظيم حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث من جملة الأحاديث التي يعرف بها المسلم ربه تبارك وتعالى ؛ يعرفه رباً رحيمًا غفورًا توابًا يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، يفرح بتوبة التائبين وإنابة المنيبين واستغفار المستغفرين ، مع أنه تبارك وتعالى غني عن العالمين ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، وهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا إنابة من أناب ولا توبة من تاب ولا استغفار من استغفر ، كل ذلك لا ينفعه تبارك وتعالى ولا يزيد في ملكه شيئًا ، ولهذا قال سبحانه في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره تبارك وتعالى معصية من عصى ، ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥] ؛ ومع هذا كله فمن كمال منه وعظيم لطفه

وجميل إحسانه يفرح تبارك وتعالى بتوبة عبده إذا تاب ، وهذا الفرح هو تفضلٌ ومنٌّ وكرمٌ وإحسانٌ من الله تبارك وتعالى .

وهو جل وعلا يفرح كما أخبر عنه بذلك أعلم عباده به ، إذ لا يوجد في عباد الله من هو أعلم بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد صح عنه الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ أَتَقَاكُمْ وَأَعَلَمَكُم بِاللَّهِ أَنَا)) ، فهو عليه الصلاة والسلام أعلم عباد الله بالله ، وهو لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم ، وأخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الله يفرح ، فنحن نخبر عن الله بما أخبر عنه به رسوله ومجتباه صلوات الله وسلامه عليه ؛ فنقول مؤمنين معتقدين : إن ربنا يفرح بتوبة التائبين ، ولا نشك في ذلك ولا نرتاب ، ولا ندخل في هذا الحديث أو غيره من أحاديث الصفات دخول المبطلين المعطلين الجاحدين المؤولين المحرفين ، فكل هذه طرائق زائغة عن سواء السبيل ، بل تُمرُّ نصوص الصفات كما جاءت ونؤمن بها كما وردت وقاعدتنا في هذا الباب: «من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم» ، فبينما صلى الله عليه وسلم أخبر أن رب العالمين يفرح بتوبة التائبين فنقول معتقدين إن الله يفرح بتوبة التائبين .

وصفات ربنا تبارك وتعالى المضافة إليه سبحانه كلها تليق بجلاله وكماله ؛ فهي ثابتة له سبحانه من غير تمثيل كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١١] أثبت لنفسه السمع والبصر بعد نفي المثلية ؛ فدل ذلك على أن إثبات الصفات لله سبحانه على الوجه اللائق به لا يستلزم التمثيل . والقول في الصفات قول واحد، وباب الصفات بابٌ واحد وهو أنها كلها تمر كما جاءت ويؤمن بها كما وردت دون أن تحرف ودون أن تعطل ودون أن تمثل بصفات المخلوقين ودون أن يحاول العبد تكييف صفات الرب تبارك وتعالى ، فكل ذلك ضلالٌ وباطل . فمن الإيمان بالله ومن معرفة الله : الإيمان بأنه يفرح بتوبة التائبين ، من إيماننا بربنا جل وعلا أن نؤمن بأنه يفرح بتوبة التائبين ؛ وهذا ما أخبر به رسوله عليه الصلاة والسلام ، بل إنه سبحانه يفرح بتوبة التائبين فرحاً عظيماً مع غناه جل وعز عن توبتهم ، ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً عجبياً عظيماً في بيان عظم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده المؤمن ؛ قال صلى الله عليه وسلم: ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَأْسِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٌ)) إلى آخر الحديث .

وقوله ((لَلَّهِ)) قيل اللام لام الابتداء ، وقيل لام التأكيد .

((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا)) وهذا فيه تبيان لعظم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده إذا تاب إليه وأتاب إليه ورجع إلى الله . قال ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ)) ؛ وعنده«» هنا إن كان توبة من الكفر إلى الإيمان فالعبودية هنا العبودية العامة التي هي العبودية لربوبيته سبحانه وتعالى ، وإن كان توبةً من العصيان فيما دون الكفر إلى الطاعة فالعبودية العبودية الخاصة التي هي عبوديةٌ لألوهيته ، لأن العبودية تطلق ويراد بها نوعان: العبودية لربوبية الله ، والعبودية لألوهيته .

١. العبودية العامة التي هي عبودية الذل والطواعية لتدبير الله سبحانه وتعالى وتسخير هذه الكائنات وهذه المخلوقات وكونها جميعها طوع تديره وتسخره سبحانه وتعالى ولا تخرج عن مشيئته وإرادته عز وجل ؛ هذا يشمل جميع المخلوقات، يشمل المسلم والكافر والبر والفاجر .

٢. والنوع الثاني: العبودية لألوهيته وهي عبودية الطاعة ، وهذه يتفاوت الناس فيها بتفاوتهم في طاعتهم لله سبحانه وتعالى .

قال: ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ)) وهنا ينبغي أن يُفقه ما يفرح الرب به ؛ وهو توبة العبد .
والتوبة: هي إنابة العبد ورجوعه إلى الله عز وجل بتركه ما فرط فيه من واجب ، ترك التفريط في الواجبات، وترك ما كان يغشاه من محرمات ومنهيات؛ بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وذلك بفعل ما أمر وترك ما نهي عنه وزجر ، فالتوبة رجوع بترك التفريط في الواجب وترك فعل المحرم والعودة إلى الله عز وجل والإنابة إليه بفعل ما أمر وترك ما نهي عنه تبارك وتعالى وزجر . هذه حقيقة التوبة التي دعا الله سبحانه وتعالى عباده إليها وأمرهم بالنصح فيها ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] ؛ أن يكون ناصحًا في توبته .

والتوبة التي امتدح الله عز وجل أهلها وعظم شأنهم وأخبر عن فرحه تبارك وتعالى بتوبتهم وذكر أنه يحبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وذكر لهم فضائل وثمار وآثار ينالونها في الدنيا والآخرة ، أهل التوبة هم من استجمعت توبتهم شروطًا ، لأن التوبة لا تكون مقبولة إلا إذا استتمت شروطها التي دل عليها كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

❖ وأولها: أن يكون التائب في توبته تائبًا إلى الله عز وجل مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله ، لهذا قال: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ، قال: ﴿تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] فالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، والنبي عليه الصلاة والسلام في قصة الأسير التي سبق أن أشرت إليها لما أعلن ذاك الأسير توبته قال: «إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد» قال عليه الصلاة والسلام: ((عرف الحق لأهله)) ، فالتوبة لله ، ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ ، ولهذا لا بد أن يكون التائب في توبته مخلصًا يبتغي بتوبته وجه الله سبحانه وتعالى ، يريد بها الله عز وجل والدار الآخرة ، لا يتوب من أجل شهرة يطلبها أو مراعاة يقصده أو شيئًا من هذه المقاصد، وإنما يتوب يبتغي بتوبته رضا الله عنه وأن لا يسخط ربه تبارك وتعالى عليه وأن يحظى بثوابه تبارك وتعالى للتائبين . فهذا الشرط الأول؛ أن تكون التوبة خالصة لله عز وجل .

❖ والشرط الثاني: أن يندم التائب على ذنوبه وتفريطه وتقصيره ووقوعه في المحرمات ، يندم على ذلك ندمًا شديدًا ويأسف على ما كان منه من تقصير في جنب الله وفي طاعة الله وفي القيام بالواجبات التي أمر الله تبارك وتعالى بها ، يندم على ذلك .

❖ والأمر الثالث: أن يعقد العزم على أن لا يعود إلى هذه الذنوب؛ يعزم في قلبه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله تبارك وتعالى أن لا يعود إلى هذه الذنوب وأن لا يقارف شيئًا منها وأن يمضي على الاستقامة وعلى طاعة الله وعلى ما يرضي الرب تبارك وتعالى .

❖ والأمر الرابع: أن يقلع عن الذنوب؛ لا يسوّف في الإقلاع وإنما يقلع عنها ويتركها ويقبل على الطاعات ، وكم فوّت كثير من الناس حظهم من إقبال قلوبهم على التوبة إلى الله سبحانه وتعالى بالتسويق والتأجيل ، وكم من أناس أجّلوا التوبة واخترمتهم المنية قبل أن يحققوها ، لا زال يؤجل التوبة يندم على ذنوب فعلها ويتألم على فعله لها ونفسه لا تطاوعه على تركها فيبقى مطاوعًا لنفسه متماديًا في عصيانه مؤجلًا توبته إلى أن يدهاه الموت وهو غير تائب ؛ فيلقى الله عز وجل بغير توبة . ولهذا لا بد في التوبة من الإقلاع ، يقلع عن الذنب فورًا ويتركه ، ومع إقلاعه عنه وتركه له يعزم أن لا يعود إليه عزمًا أكيدًا بينه وبين الله ، ويبقى نادمًا على تفريطه مقبلًا على طاعته لربه سبحانه وتعالى .

❖ والشرط الخامس: أن تكون توبته في وقت قبول التوبة ، والتوبة تُقبل في كل وقت وحين ، في أي ساعة من ليل أو نهار باب التوبة مفتوح ، وسيأتي معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)) فالتوبة بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة من ليل أو نهار بابها مفتوح ، ولكن دلت النصوص على أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة ، مع أن بابها مفتوح في كل ساعة وفي كل لحظة فقد دلت النصوص على أن هناك وقتان لا تُقبل فيهما التوبة :

﴿الأول: أن يغرغر الإنسان وأن تصل روحه الحلقوم وأن يعاين الموت ويشاهد المفارقة لهذه الحياة فيعلن توبته في تلك اللحظات ، فمن كانت توبته في ذلك الوقت لا تُقبل منه ﴿وَكَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾﴾ [النساء: ١٨] هذا ليس وقتًا للتوبة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ)) ، إذا بلغت الروح الحلقوم ثم قال "إني تائب الآن أعلن توبتي أتوب إلى الله" هذا لا ينفع ، قال العلماء لأن هذه التوبة توبة مشاهدة وليست توبة غيب ، والذي ينفع هو الإيمان بالغيب ، أما الذي يشاهد الموت ويعاينه ويرى قدومه على الله سبحانه وتعالى ومغادرته لهذه الحياة ثم في تلك اللحظة يعلن توبته هذا ليس وقتًا لها ، ولهذا لا تُقبل التوبة . والله عز وجل لم يقبل من فرعون قوله «آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل» لأنه قالها عن مشاهدة للموت ومعاناة له لما أدركه الغرق .

ﷺ والوقت الثاني الذي لا تقبل فيه التوبة: طلوع الشمس من مغربها ، وإذا رآها الناس آمنوا جميعاً لكن لا يقبل الله عز وجل التوبة حينئذ ، إذا طلعت الشمس من مغربها وتاب الناس لا يقبل الله عز وجل منهم التوبة في ذلك الوقت كما أخبر بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهذه شروط للتوبة وهي في الوقت نفسه يمكن على ضوء شرح هذا الحديث هي شروط لهذا الأمر العظيم الذي يفرح الله تبارك وتعالى به ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ)) .

ثم ضرب مثالا يبين عظيم فرح الله تبارك وتعالى بتوبة التائبين من عباده قال: ((مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٌ)) أي بصحراء قاحلة لا ماء فيها ولا طعام ولا شراب ((فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ -أي راحلته- وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا)) أي بحث عنها وطلبها هنا وهناك وهو في الصحراء القاحلة فلم يجد لها أثر ولم يقف لها على عين ولا على خبر ، بحث ولم يجدها فأيس ووقع في قلبه يأس من الحصول على الناقة ((فَأَتَى شَجْرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا)) اضطجع على جنبه في ظل تلك الشجرة ((وَقَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ)) وجاء في بعض الألفاظ «فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت» لا طعام ولا شراب ويئس من الراحلة فاستظل في ظل شجرة واضطجع ينتظر الموت . ولنتصور هذه الحال؛ رجل في صحراء قاحلة ، وراحلته ضلت يعني ضاعت عنه ، وبحثها فلم يجدها وأعياء التعب وجلس بلا طعام ولا شراب تحت ظل الشجرة ينتظر الموت الذي يأتيه بالتدريج ضعفاً ضعفاً إلى أن تُزهِق روحه ، فهذه حال شديدة جداً على الإنسان . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا)) إذا بناقته واقفة عند رأسه وهو مضطجع ينتظر الموت وإذا بخطامها يتدلى عند رأسه ، رجعت إليه وعليها طعامه وشرابه ، فأخذ بخطامها وأمسك به فرحاً غاية الفرح، يقول ((فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ)) يقول عليه الصلاة والسلام : ((أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) .

هذا مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأشد ما يكون تصوراً للفرح الذي يقع من العبد ، فرح في غاية الشدة ، وهو مثل ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأعظم ما يكون من فرح العبد في مثل هذه الحالة التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يكتفِ عليه الصلاة والسلام بسوق المثال ((وأمسك بخطام ناقته)) بل زاد في البيان قال : ((فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)) ، وقوله لهذه الكلمة قالها عن ذهول بسبب الفرح الشديد الذي سيطر على عقله ؛ فذهل فقال كلمة الكفر ، ولا يكون من يقولها في مثل هذا الذهول كافراً لأنه لم يقلها عن اعتقاد بما أو قصد لها أو إرادة لقولها ، وإنما لسانه ارتبك من شدة فرحه فقدّم كلمة على كلمة لا يقصد ذلك هو ، لكنه مع ذهوله ومع شدة الفرح الذي عنده تقدمت عنده كلمة على كلمة ، بدل أن يقول «اللهم أنت ربي وأنا عبدك» أخطأ من شدة الفرح فقدم كلمة على كلمة ؛ هذا التقديم والتأخير لو كان الإنسان يقصده ينتقل من ملة الإسلام ويخرج من حظيرة الدين ، ولكنه لذهوله ولسيطرة الفرح

عليه حصل عنده هذا الخطأ ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((أخطأ من شدة الفرح)) فهو نوع من الخطأ المعفو عنه، ولا يؤاخذ العبد عليه إذا حصل له شيء من هذا.

الشاهد أن هذا الفرح الذي ذكر هنا فرحٌ عظيم وهو أشد ما يوصف في فرح العباد ؛ فقال : ((لله أشد فرحا بتوبة عبده إذا تاب)) من هذا الرجل ، وهذا يبين لنا أن إذا كان هذا أعظم فرح يقدر في فرح العباد ، والله عز وجل فرحه بتوبة عبده أعظم من هذا ، فمعنى ذلك أن كل فرح يوجد عند العباد لأي أمر يكون مما يفرحون به فرب العالمين سبحانه وتعالى فرحه بتوبة عبده أشد ، لأن هذا مثل لأشد ما يكون من فرح يكون عند العباد ، فهذا كله يبين لنا عظيم لطف الله عز وجل وعظيم منّه وإحسانه؛ حيث إنه عز وجل مع غناه عن عباده يفرح سبحانه وتعالى بتوبة التائبين .

والعبد العاقل الناصح لنفسه ؛ هذا الحديث عندما يقرأه متأملاً له واقفاً عند دلالاته يفتح له باباً عظيماً في الإقبال على الله والتوبة إليه سبحانه وتعالى ، لو عقل الإنسان وتأمل هذا الحديث ، لو عقل هذا الحديث وتأمله لفتح له باباً عظيماً في التوبة والإقبال على الله سبحانه وتعالى والإجابة إليه ، فالرب جل وعلا يفرح بتوبة عبده إذا تاب وهو غني عن توبة عبده ، والمحتاج إلى التوبة هو العبد ، الفقير إلى التوبة هو العبد ، المنتفع بالتوبة هو العبد ، الذي ينال ثمار التوبة هو العبد، أما الله سبحانه وتعالى غني ، غني عن العباد وغني عن توباتهم ، وانتفاع العبد بتوبته هو انتفاع في الدنيا والآخرة ، لأن التوبة بركة على العبد في دنياه وبركة عليه في أخراه ، والمعاصي والذنوب شؤم ومضرة عليه في دنياه وفي أخراه ، فالحديث يفتح على العبد باباً للتوبة بل باباً للمسارعة إليها والمسابقة إليها والمبادرة إليها وعدم تأخيرها .

هذا الحديث ساقه المصنف رحمه الله لأن فيه تعريفاً بالرب؛ وأنه ربٌ كريم ، ربٌ محسن ، ربٌ جواد ، ربٌ لطيف سبحانه وتعالى ، ربٌ غني عن العباد وعن طاعتهم وعن عباداتهم ، ربٌ يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه ويقبل التوبة.

وليلاحظ هنا أن من دلالات هذا الحديث: أن الله عز وجل فتح باب التوبة للعباد من كل ذنب ، لم يخص ذنباً دون ذنب بالقبول ، فكل ذنب يتوب منه العبد توبة صادقة يقبل الله تبارك وتعالى منه توبته ويفرح سبحانه وتعالى بتوبته، كل ذنب يتوب منه العبد لو كان الذنب من أعظم الذنوب ومن أكبرها وأشنعها من تاب تاب الله عليه ، ولهذا تجد في القرآن الدعوة للتوبة موجهة للنصارى، موجهة للمشركين، موجهة للعصاة، لكل أحد ، كل أحد مدعو للتوبة وكل أحد مفتوح له باب التوبة مهما عظم جرمه وكبر ذنبه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] يعني بدون استثناء ، أيًا كان الذنب من تاب منه صادقاً تاب الله عليه وقبل توبته وفرح سبحانه وتعالى بتوبته .

فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تعرّف الناس ببرهم تبارك وتعالى ، ومن عرف هذا الحديث حسن إقباله على الله ، وزال عنه القنوط من روح الله ، وعظم رجاؤه في الله عز وجل وفي ثوابه ، لم يسيطر عليه يأْسٌ يقيدّه ، أو قنوطٌ عن الخير يحجبه ، بل إنه يقبل على الله عز وجل وينيب إليه ويكون تائبًا أوَّابًا ، فالحديث يفتح للعبد أبواب عظيمة جدًا من أبواب الإقبال على الله سبحانه وتعالى . اللهم تب علينا .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) رواه مسلم .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وهو أيضا من الأحاديث التي فيها تعريف العباد بالرب سبحانه وتعالى . قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) ؛ وهذا الحديث فيه من البيان بما يتعلق بمعرفة الله تبارك وتعالى أنه سبحانه وتعالى تواب يقبل التوبة من عباده مهما كانت ذنوبهم ومهما كانت معاصيهم وجرائمهم، يقبل التوبة في كل وقت وحين ، في أي ساعة من ليل أو نهار ، في أي لحظة يقبل تبارك وتعالى التوبة .

ويقول هنا عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) ؛ فهذا فيه دلالة على أن باب التوبة مفتوح ، وتلقي التوبة حاصلٌ وكائن في كل وقت وفي أي لحظة، من تاب في أي لحظة من اللحظات تاب الله عليه ، وهذا فيه من الدلائل : وجوب المبادرة إلى التوبة وحرمة تأخيرها والتسوية فيها ، حتى إن ابن القيم رحمه الله في كتابه «مدارج السالكين» نبّه على أمر قلّ أن يتفطن له كثير من الناس ؛ وهو: أن تأخير التوبة من الذنب يُعد ذنبًا يجب أن يُتاب منه ، قال : «وكثير من التائبين يتوبون من ذنوبهم وينسون التوبة من تأخيرهم للتوبة منها»، وهي فائدة عظيمة جدا نبه عليها ابن القيم رحمه الله ؛ تأخير التوبة هذا ذنب ومعصية يقع فيها العبد أن يؤخر التوبة ، يعني يعلم أنه مذنّب وأنه مقصر وأن فعله يُسخط الله ويندم على هذا الأمر ثم يقول الشهر القادم أتوب ، وإذا جاء الشهر القادم أجّله للذي بعده وهكذا ، هذا التأخير بحذ ذاته يعد ذنبًا ، وبعض التائبين يتوب من ذنوبه وينسى أن يتوب من تأخيره ، يتوب من المعصية المعينة أو المعاصي المعينة التي كان يفعلها ولا يتوب من تأخيره للتوبة منها .

فالحديث فيه المسارعة للمبادرة للتوبة قبل فوات أوانها وقبل حصول الحرمان منها ، ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) كأنه يقال هنا للتائب: يا من أردت التوبة بادر، لا تَقُلْ أَوْجَلُهَا للوقت الفلاني أفضل، أو لانتهائي من الأمر الفلاني أحسن ، أو نحو ذلك من الخواطر التي تجعل كثير من الناس يؤخرون توبتهم ، بل سارع إليها في أي لحظة ، متى وجد الإنسان من قلبه إقبالا وفي قلبه ندما فليبادر إلى التوبة إلى الله عز وجل توبة صادقة ، وليسأل ربه تبارك وتعالى الثبات على هذه التوبة والعافية والوقاية من الذنوب ويصدق مع الله عز وجل .

((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ)) ولاحظ هنا مسيء الليل ومسيء النهار ؛ وهذا فيه أن إساءات العباد تقع منهم في الليل وتقع منهم في النهار ، وكثير من العباد يتقلب في لياليه وأيامه في إساءة تلو إساءة ، ورب العباد باسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ، وباسط يده في النهار ليتوب مسيء الله ، وذاك غافل عن هذا كله ويتقلب في ليله ونهاره من مساءة إلى أخرى ومن ذنب إلى آخر ، يصبح على ذنوب ويمسي على ذنوب ، ثم يمسي على ذنوب ويصبح على ذنوب ، ويتقلب في ذنوب في لياليه وأيامه، ثم تكون مصيئته عظيمة عندما يلقي الله عز وجل بهذه المساءات المتراكمة التي اجتمعت له في لياليه وأيامه، يقدم على الله سبحانه وتعالى ويلقاه بتلك المساءات التي كانت منه والذنوب التي كان يقارفها في لياليه وأيامه ، ويندم ولا ينفعه حينئذ ندم . فكم يغفل الناس عن هذا الحديث العظيم ، ولو تفكر فيه الإنسان لفتح له بابا عظيما للتوبة إلى الله . وهذا مما يبين لنا أن نقص الناس في إيمانهم وأعمالهم وإنابتهم من نقص معرفتهم بربهم ، ولو تحققت في القلب المعرفة صحيحة قوية لترتب عليها صلاح في أعمال العبد وأقواله ، فإذا نقصت معرفة العبد بربه سبحانه وتعالى ترتب على ذلك من ضعف الدين ورقة الإيمان وفساد الخلق وفساد العمل الشيء الكثير .

قال: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)) أي أنها إذا طلعت من مغربها طُبع على كل قلب بما فيه ؛ إن كان على الاستقامة فهو على الاستقامة ، وإن كان على الضلال والضياع والعياذ بالله كان عليها ، يُطبع على كل قلب بما فيه ، ولا يُقبل التوبة ممن يقول يا رب أنا تبت إليك يا رب أنا تائب إنني تائب أنا نادم ؛ هذه كلها لا تفيد ولا تنفع ، إذا طلعت هذه الآية العظيمة يصبح الناس يوما وإذا بالشمس بدل أن تطلع على عادتھا من المشرق إذا بهم يفاجئون ويرونها تخرج من المغرب ، متجهة من جهة الغرب إلى جهة الشرق إيداناً بتغير حال العالم وخراب الدنيا وانتهائها وقرب انقضائها وزوالها وذهابها وقدم الناس إلى الله سبحانه وتعالى ، فمن تاب عند معاينته هذا الأمر لا يقبل الله تبارك وتعالى توبته، كما أنه أيضا لا يقبل توبته كما تقدمت الإشارة عندما يعاين الموت ويغرغر وتبلغ روحه حلقومه ، فهو في هذه الحالة أيضا لا تُقبل منه توبته .

العاقل عندما يسمع هذا الحديث العظيم يتحرك في قلبه إقبالاً على الله عز وجل ويقول لنفسه محاسباً معاتباً : يا نفس إلى متى هذا التماذي في الإساءة ؟ وإلى متى هذا التماذي في العصيان ؟ متى تقلعين أيتها النفس ومتى تتوبين ومتى تندمين ؟ يا نفس رب العالمين يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل وهو غني عن العباد وأنت يا نفس لا تزال مصرة على العصيان متمادية في الخطأ!! متى يا نفس تتوبين؟ يحاسب نفسه ويعاتبها ؛ وهذا يؤكد ما سبق الإشارة إليه أن معرفة العبد بالله كلما قويت في قلب العبد زان حال العبد وطاب أمره واستقام .

ونسأل الله عز وجل أن يتوب علينا ، وأن يرزقنا أجمعين الاستقامة على صراطه المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن عمر رضي الله عنه قال : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيِ هَوَازِنَ؛ فَإِذَا امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟)) قُلْنَا «لَا وَاللَّهِ» ، فَقَالَ : ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا)).

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم أيضاً في باب تعريف العباد بالرب سبحانه وتعالى ، ومن نصح النبي عليه الصلاة والسلام ومن عظيم بيانه في دلالة الناس وتعريفهم بالله ... معينة التي من خلالها عليه الصلاة والسلام يقوي في القلوب ويمكن في النفوس المعرفة بالله عز وجل ؛ منبهاً بذلك عليه الصلاة والسلام أن معرفة الله عز وجل هي غاية المطالب وأجل المقاصد ، وهي الباب العظيم لهداية العبد وصلاح قلبه وصلاح أموره كلها ، فكان عليه الصلاة والسلام ينوع البيان ويستغل المواقف ليمكّن في القلوب المعرفة بالله تبارك وتعالى .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في ذكر رحمة الله جل وعلا وسعة رحمته وأنه تبارك وتعالى أرحم الراحمين جل وعلا ، واستغل عليه الصلاة والسلام هذا الموقف المثير للقلوب في جانب قوة الرحمة يشد القلوب شداً ، موقف رآه الصحابة يشد القلوب شداً في جانب الرحمة والإحساس بقوتها ، فاستغل هذا الموقف عليه الصلاة والسلام لبيان عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى .

جاء في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ((قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيِ هَوَازِنَ؛ فَإِذَا امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ)) يعني تجري وتعدو هنا وهناك تبحث عن ولدها طفلها رضيعها ، تبحث عنه ، تفتش عنه بين الناس وقلوبها يتفطر ، وأيضاً صدرها وثديها امتلأ بالحليب، وامتلاء صدر المرأة بالحليب يُعد مضرّة لها وأذى لها ، فصدرها امتلأ حليباً ، وولدها مفقود، وتعدو هنا

وهناك تبحث عن ولدها ، وهي في غاية اللفف وغاية الشوق تريد ولدها ، بينما هي كذلك ((إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ فَأَخَذَتْهُ فَأَلَزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا)) يعني ضمته إلى بطنها ضمًّا شديدًا وألصقته ثديها وأخذت ترضعه ؛ هذه الرحمة التي في هذه المرأة في جريها وبحثها عن هذا الولد وسعيها وراءه ثم إلزاقها له وضمه إلى صدرها بحنان وعطف ورحمة ، هذه الرحمة ما هو قدرها؟

وهنا حقيقة يا إخوان ينبغي أن نقف ونعرف فضل الأمهات ؛ كم نغفل عن هذا الأمر؟ كم يغفل الناس عن فضل الأم ورحمتها وحنانها وإحسانها ؟ كم يغفل الإنسان عندما يكبر ويتعرع وينشغل بأمور الحياة عن إحسانٍ قديم وجميلٍ سابق ورحمةٍ متوالية وحنانٍ عظيم كم يغفل الإنسان عن ذلك؟ فهذا الحديث يصوّر الرحمة العظيمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في قلب الأم لولدها ، أمر عجب! حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يبين عظم رحمة الله عز وجل بعباده اختار أعظم مثل يمكن أن يقدر ويوصف ؛ وهو رحمة الأم بولدها . وإذا أراد الناس أن يضربوا مثلاً في رحمة الناس بعضهم ببعض لا يجدون مثلاً أعظم من رحمة الأم بولدها ، والنبي عليه الصلاة والسلام لما اختار هذا المثل اختار المثل في أعظم شيء في بابه وهو رحمة الأم بولدها ، ليست هذه الرحمة في الأم من بني آدم حتى في الحيوانات ، سبحانه الله الحيوان الوحش الضاري جعل الله سبحانه وتعالى في قلبه رحمة لولده ، رحمة عجيبة جداً حتى إنه يرفع خفه وحافره لا يطأ ولده مع أنه وحش ضاري! رحمة جعلها الله سبحانه وتعالى في قلب الأم عجيبة جداً ، ثم في كثير من الناس تُتلقى هذه الرحمة بعقوق وجحود وإساءة وغلظة وفظاظة وينسى ذاك المعروف العظيم، وهذا كله من نقص العقول ونقص الدين ، ولأجل عظم حق الوالدين وحق الوالدة على وجه الخصوص قرن الله سبحانه وتعالى حقها بحقه في أكثر من آية في القرآن الكريم ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَكَوَلَدْتُكَ﴾ [لقمان: ١٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فيقول عليه الصلاة والسلام لما رأى هذا المنظر العجيب من الرحمة المتدفقة والحنان العظيم من هذه المرأة بصبيها وولدها وضمته إلى صدرها وأخذت ترضعه بكل حنان وكل شفقة ؛ فانتهر النبي عليه الصلاة والسلام هذه المناسبة لتعريف الناس بعظيم رحمة الله قال لهم: ((أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟)) يعني هذه المرأة التي بهذه الصفة وبهذه الحال التي رأيتم هل تتصورون أنها تأخذ هذا الولد الذي أرضعته وتلقيه في وسط النار؟ رحمتها تمنعها من ذلك وتمنعها من أمور أقل من ذلك ، فيقول هل تتصورون أن هذه المرأة تلقي ولدها في النار ؟ قال الصحابة قُلْنَا «لَا وَاللَّهِ» ما يمكن ، يعني رحمة بهذا الحجم وبهذا القدر ما يمكن تلقي ولدها في النار .

قال عليه الصلاة والسلام: ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا)) وهذا المعنى موجود في القرآن ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] ؛ يعني مهما قُدِّرَت الرحمة التي في العباد ، بل لو أن رحمت الراحمين من الناس جُمعت كلها وأصبحت رحمة واحدة فالله عز وجل أرحم جل وعلا ، أرحم بعباده من كل رحمة تقدَّر عند العباد .

وهذا أيضا من الدلائل العظيمة والشواهد البينة على أن صفات الله سبحانه وتعالى لا يدرك كُنْهها الواصفون ولا يمكن أن تقدَّر ، كل ما يخطر ببال الإنسان من كمال يظنه وصفاً لله فالله أكمل وأعظم ، لأن صفاته سبحانه وتعالى لا يبلغ كُنْهها الواصفون ، مهما قُدِّر الإنسان في ذهنه من كمال وجلال وعظمة ، وهذا المثل ذكره النبي عليه الصلاة والسلام لتبيين الأمر وإلا رحمة الله عز وجل لا يُبلغ كُنْهها ولا تُعرف كيفيتها ، ورحمة لا يدور عظمها وكماها في بال ولا يخطر في خيال ، وكيف يبلغ كنه رحمته أو صفاته الواصفون وهو سبحانه وتعالى الكبير المتعال! ألسنا نقول «الله أكبر» ؟ الله أكبر من كل شيء ، الله أكبر من كل ما يدور في خيالنا أو في خواطرنا ؛ فهذا مما يبين لنا عظم رحمة الله سبحانه وتعالى .

إذا كان العبد متمادياً في العصيان غير مقبلٍ على طاعة الرحمن ثم يوم القيامة يصلى النيران فهذا غاية الحرمان ، لماذا؟ لأن الله عز وجل رحيم بعباده وأشد رحمة من هذه بولدها ، ثم العبد يعيش في هذه الحياة ولا يعرض نفسه لنيل رحمة الله ، رحمة الله عز وجل للمؤمنين للمتقين للتائبين للمنيبين للمقبلين على الله سبحانه وتعالى . ولاحظ المصنف رحمه الله أورد هذا الحديث بعد الأحاديث التي في التوبة ، يعني كأنه يقول: تفكر وتأمل في عظم فرح الله جل وعلا بتوبة عبده ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى أرحم الراحمين ، ورحمته بعباده لا تقدَّر ولا يُبلغ قدرها أو كُنْهها . فهذا فيه دعوة عظيمة للتعرض لرحمة الله ونيل رحمة الله سبحانه وتعالى ، كما أن الحديثين الذين قبله فيهما الدعوة إلى التعرض للتوبة والإنابة إلى الله عز وجل .

قال: ((اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا)) ؛ فهو عز وجل لا يلقي عباده في النار ، لا يلقي في النار إلا من استحق العقوبة بها، ويلقيه تبارك وتعالى فيها عدلاً منه سبحانه وتعالى . فالحديث يحرك في القلب رجاءً وخوف، رغبةً ورهبة، ويجاهد العبد نفسه على أن لا يكون محروماً من هذه الرحمة التي يكتبها الله عز وجل لعباده المؤمنين التائبين المنيبين .

ونسأل الله عز وجل أن يتغمدنا جميعاً برحمته ، وأن يوفقنا لسلوك صراطه المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)) رواه البخاري .

ثم ساق هذا الحديث في أيضا بيان رحمة الله عز وجل وعظم رحمته جل وعلا ؛ قال : ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ)) ؛ «عنده» أي عند الله ، « فوق العرش » أي العرش المخلوق العظيم الذي ذكره الله عز وجل في القرآن وذكر جملة من صفاته ، وذكره النبي عليه الصلاة والسلام في السنة وذكر جملة من صفاته ؛ وهو سقف المخلوقات وأعلاها وأرفعها ، وأخير جل وعلا في القرآن في سبع آيات أنه استوى على العرش استواءً يليق بجلاله ، فهو سبحانه عليّ على خلقه مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وكماله سبحانه .

وقد كتب كتاباً لما خلق الخلق كتب كتاباً وهو عنده سبحانه وتعالى فوق العرش ((إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي)) وفي رواية «سبقت غضبي» ؛ وهذا فيه كما بين أهل العلم تفاضل الصفات ، قال رحمتي سبقت غضبي ، وأيضا مما يدل على هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ)) .

قال : ((إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)) وهذا من الدلائل الدالة على عظيم رحمة الله تبارك وتعالى بعباده ، لأن رحمته سبحانه وتعالى تسبق غضبه ، ولا ينال غضب الله تبارك وتعالى إلا الظالم المضيع المفرط الذي استحق غضب الله تبارك وتعالى عليه .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَأَّحُمُ الْخَلَائِقُ ؛ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ)) . ولمسلم معناه من حديث سلمان وفيه : ((كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) ، وفيه : ((فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ)) .

وهذا أيضا فيه بيان للرحمة ، قال : ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ)) والرحمة هنا المذكورة في هذا الحديث ليست الرحمة التي هي صفة الله ، وإنما هي الرحمة التي هي أثر صفة الله جل وعلا ، وأن الله عز وجل لما جعل الرحمة أي الرحمة التي يتراحم بها المخلوقين جعلها مئة جزء ، يعني قسّم هذه الرحمة إلى مئة جزء ((فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَأَّحُمُ الْخَلَائِقُ ؛ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ)) فهذه الرحمة الموجودة بين العباد من جملتها ما سبق ذكره في رحمة المرأة بوليدها ؛ هذه رحمة في الحقيقة جزء من مئة جزء .

وقد جاء في الحديث الآخر عند مسلم قال : ((كُلُّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) يعني مئة جزء ، وكل جزء من هذه الأجزاء طباق ما بين السماء والأرض ؛ يعني يملأ ما بين السماء والأرض .

وفيه: ((فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَمَّلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ)) يعني كَمَّلَ التسعة وتسعين جزء بهذه الرحمة ؛ فهذا يبين لنا رحمة الله سبحانه وتعالى ، إذا كانت هذه الرحمة التي بين العباد ويتراحمون بها وهي رحمة مخلوقة وهي من أعمال العباد ، إذا كانت بهذا الوصف بينهم فكيف برحمة معطي هذه الرحمة والمال بهذه الرحمة والمتفضل بها!! فهذا مما يبين عظيم رحمة الله سبحانه وتعالى ، لأن معطي الكمال أولى به، والله المثل الأعلى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ)) رواه مسلم .

وهذا أيضا من الأحاديث التي تبين وتعرف الناس بالله تبارك وتعالى وعظيم إحسانه ولطفه بعبده المؤمن المنيب التائب المقبل على الله عز وجل ، وبيان الفرق بين حاله وحال الكافر ؛ الكافر يعامله الله جل وعلا بعدله ، والمؤمن يعامله الله تبارك وتعالى برحمته ونواله وعطائه وفضله .

ولهذا قال هنا : ((إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا)) ؛ إذا عمل حسنة أي من الحسنات التي لا تفتقر لنية ، لأنه لو صلى وهو على كفره أو صام وهو على كفره أو غير ذلك وهو على كفره لا تُعد حسنات ، لكنه لو ساعد فقيرا أطعم محتاجا إلى غير ذلك من أبواب الإحسان والمساعدات للناس؛ قال: ((إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا)) يعني يعطيه الله سبحانه وتعالى شيئا في الدنيا ، ويأتي يوم القيامة ليس عنده إلا سيئاته، وحسناته التي قدّمها أخذ عليها حظه في الدنيا ؛ فيلقى الله عز وجل بسيئاته فيطرح في النار ويبقى فيها مخلدا أبدا الآباد ، لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها . وهذا يبين لنا أن الكافر بالله سبحانه وتعالى لو كان يقدم من الأعمال أمثال الجبال من النفقات والمساعدات والبذل والمعاملة باللطف وغير ذلك من الأمور كل هذه لا تشفع له يوم القيامة في النجاة من النار ، بل يعطيه الله عز وجل عليها في الدنيا من مثلا الولد أو مثلا الصحة أو التوسيع بالمال أو العافية أو غير ذلك، ويوم القيامة يلقي الله عز وجل بكفره فيعاقبه عليه بالنار خالدا مخلدا فيها.

قال: ((وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ)) يعني يدخر له حسناته ثوابا في الآخرة يثيبه فيها عليها بالثواب العظيم مع ((رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ)) يعني يرزقه في الدنيا ويتفضل عليه في الدنيا بالصحة بالعافية بالمال بغير ذلك على تفاوت بين العباد في هذا الأمر لحكمة يعلمها سبحانه ، ولكنه جل وعلا يدخر

للمؤمن حسنات مع ما يعطيه من الرزق ، حتى وإن كان رزقه كفافاً فقد أعطاه الله من انشراح الصدر والقناعة والرضا وسماحة النفس وسرور القلب إلى غير ذلك من المعاني التي يهبها الله جل وعلا لعبده المؤمن .

فهذا من الأحاديث العظيمة التي تعرّف الناس بعدل الله جل وعلا ورحمته وفضله ومنّه وإحسانه ؛ حتى ينتبه العبد ويطرد الغفلة عنه ويقبل على الله سبحانه وتعالى ، لأنه إذا حسُن إقباله على الله نال خيري الدنيا والآخرة كما هو بيّن في هذا الحديث وفاز بخيري الدنيا والآخرة ، لأنه قال: «يَدْخُرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ» ، «وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» ، فجمع بطاعته ومحافظته على الطاعة بين خيري الدنيا والآخرة ، والكافر خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله .

ونقف إلى هنا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

الدرس الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علماً نافعا وعملاً صالحاً ورزقاً طيباً.

نواصل القراءة في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وله عنه مرفوعاً : ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا))

قال رحمه الله: «وله» أي مسلم في صحيحه «عنه» أي عن أنس بن مالك رضي الله عنه «مرفوعاً» أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا)) ؛ وهذا الحديث فيه إثبات صفة الرضا لله جل وعلا ، فيه التعريف بالله عز وجل ببيان هذه الصفة العظيمة من صفات الرب العظيم جل وعلا، وأنه عز وجل يرضى .

والرضا صفة فعلية لله جل وعلا ، والصفات الفعلية هي المتعلقة بالمشيئة ، مشيئة الله عز وجل ، فهو عز وجل يرضى عمن يشاء ويسخط على من يشاء ، كما أنه يحب من يشاء ويبغض من يشاء ؛ فهذه كلها صفات فعلية لله جل وعلا . والرضا هذه الصفة دل عليها القرآن في غير موضع وفي غير ما آية؛ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ؛ أثبت رضاه عن المؤمنين سبحانه وتعالى ، وأثبت أيضا رضا المؤمنين عنه ، والمؤمن رضي بالله ربا ورضي برسله ورضي بدينه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا)).

والله عز وجل من أوصافه كما يدل هذا الحديث أنه يرضى ؛ يرضى عن أهل الإيمان كما أنه رضي الإسلام دينًا لهم، قال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، فمن ارتضى لنفسه الدين الذي رضي الله تبارك وتعالى لعباده وعمل به وحافظ عليه رضي الله عنه ، ومن لم يرتض لنفسه دين الله تبارك وتعالى الذي ارتضاه لعباده سخط الله عليه، قال عز وجل: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ، وقال عن الكفار: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨] أي بما مالوا إليه من الكفر والإعراض عن دين الله والإقبال على الأمور التي تسخط الله تبارك وتعالى وتغضبه .

فالرضا صفة عظيمة من صفات الله جل وعلا ، ومما يجب على المسلم أن يعرف به ربه : أن يعرف أن ربه يرضى ويسخط ؛ وهذا يدفع العبد إلى النظر في الأعمال والقربات والطاعات التي ينال بها رضا الله تبارك وتعالى ليفعلها فيفوز برضا ربه سبحانه وتعالى ، وأيضا في الوقت نفسه ينظر في الأعمال التي تسخط الله جل وعلا وتغضبه ولا ينال بها العبد رضاه فيبتعد عنها ويحذر من مقارفتها والوقوع فيها .

والمصنف رحمه الله نبه على هذه الصفة وثبوتها لله عز وجل بإيراد هذا الحديث ؛ وإلا فإن النصوص الواردة في إثبات هذه الصفة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جدا .

قال صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)) هذا مما يرضى به تبارك وتعالى عن عبده ؛ إذا أكل أو شرب أن يعترف في قرارة نفسه وفي قلبه بنعمة الله عليه ، وأن هذا فضل الله وأن النعمة نعمة الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؛ فيكون أولا مقرا بنعمة الله عز وجل عليه معترفا بفضله سبحانه وعطائه ونواله ، وعارفا أن المنعم هو الله، المتفضل هو الله ، الرزاق هو الله ، الكريم هو الله ، مقرا بذلك ، ثم يشكر الله عز وجل على النعم ويحمده تبارك وتعالى عليها ، فإذا أكل الأكلة قال "الحمد لله" ؛ لأن هذه الأكلة هي منة الله عليه وفضله ، فيأكل الأكلة فيحمد الله تبارك وتعالى عليها ، ويشرب الشربة فيحمد الله ، وإذا لبس ثوبا جديدا قال "الحمد لله الذي كساني

هذا" ، يحمد الله عز وجل على نعمه ، بل يسأل الله عز وجل أن يوزعه شكر نعمه ، ويستعمل نعم الله عز وجل في طاعته ورضاه وما يقرب إليه .

فإذا كان العبد بهذه الصفة رضي الله تبارك وتعالى عنه ، إذا كان إذا وصلت إليه النعمة اشتغل بالحمد ، بخلاف كثير من الناس في مسألة الطعام والشراب ؛ إذا طعم أو شرب لا يتحدث عن المنعم حمداً له وشكراً وإنما يتحدث عن الطاهي للطعام وصفة طهيهِ للطعام ومهارته فيه وما إلى ذلك من الأمور التي يُشتغل بالحديث عنها ويُغفل عن حمد المنعم سبحانه وتعالى وشكره سبحانه على منّهِ وإفضاله . ولا بأس بالحديث الذي أشرت إليه لا بأس لو وقع إذا كان عن حمدٍ لله واعتراَفٍ بنعمة الله وثناءٍ على الله عز وجل ، أما أن يمضي الإنسان في حياته غافل وكل حديثه عن الأسباب وغافلٌ عن المنعم المتفضل المان فهذا نوع من الغفلة لا ينال بها العبد خيراً ، بل الخير يناله العبد باستشعار نعمة الله سبحانه وتعالى عليه وبحمده لله عز وجل وشكره لنعمه ، ولهذا أثنى سبحانه وتعالى على أنبيائه بذلك ﴿شَاكِرًا لِلنَّعْمِ﴾ [الحل: ١٢١] يشكر نعمة الله عليه ، دائم الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمه ، شكرٌ دائم شكر مستمر ماضٍ مع العبد في لياليه كلها وأيامه جميعها يكثر من حمد الله جل وعلا وشكره سبحانه على نعمه ؛ فهذا مما ينال به رضا الله .

الحديث يثبت صفة الرضا لله جل وعلا ، ويثبت في الوقت نفسه ما يُنال به الرضا ، وهذا الحديث فيه تنبيه على الصفة وتنبيه على ما تقتضيه الصفة من عبودية لله جل وعلا ، وهذا أمر ينبغي أن يُنتبه له في باب الصفات وفقهها؛ أن العبد يؤمن بالصفة ويثبتها لله عز وجل على الوجه اللائق بجلاله وكماله ، ثم يشتغل بالعبوديات التي تختص بالصفة وتقتضيها ، وقد قال أهل العلم : إن لكل اسم من أسماء الله تبارك وتعالى عبودية هي من مقتضياتها وموجبات الإيمان بها ، فإذا آمن العبد بأن الله عز وجل من أوصافه الرضا ، ومن فاز برضا الله عنه فاز بكل خير في الدنيا والآخرة ، وسلم من كل ضر وشر في الدنيا والآخرة ، فإذا علم العبد أن ربه تبارك وتعالى من أوصاف جلاله ونعوت كماله أنه يرضى سبحانه ؛ فهذا يحرك في القلب حرصاً على معرفة الأعمال التي يُنال بها رضاه سبحانه وتعالى وجداً واجتهاداً في القيام بها ، والحديث يرشد إلى شيء من الأعمال التي يُنال بها رضا الله ؛ أن يأكل العبد الأكلة فيحمد الله جل وعلا عليها ، وأن يشرب الشربة فيحمد الله جل وعلا عليها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّقَ لَهَا أَنْ تَطُتَ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَّحْتُكُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى)) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

قوله «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» في الصحيحين من حديث أنس .

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه ، وهو من الأحاديث المبينة لعظمة الله جل وعلا وكمال قدرته وكمال تدييره جل وعلا ، وما أدّخره لمن أطاعه من نعيم وثوابٍ عظيم ، وما أعدّه لمن عصاه من عقاب أليم ؛ وهذه أمور لا تخطر ببال الإنسان من أمورٍ عظيمة وأحوالٍ مهيلة جاء في الكتاب والسنة إشارةً إليها وذكرٌ لأنواعها وأصنافها وشيء من تفاصيلها ، ولكن الحقائق تُدرك يوم القيامة عندما يفوز أهل الإيمان بنعيم الجنة وعندما ينال أهل الكفر عذاب النار . والنبي صلى الله عليه وسلم بيّن بياناً وافياً وفي الوقت نفسه أخبر فيما يتعلق بنعيم الجنة أنه ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء ، والله جل وعلا يقول في سورة السجدة: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَصَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١٧﴾ ، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: ((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) ، وابن عباس رضي الله عنهما يقول : «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء» يعني عنب ورمان هذه أسماء أما الحقائق التي في الجنة فأمرٌ آخر وشأنٌ آخر .

فالشاهد أن الأمور التي أعدها الله عز وجل لعباده المطيعين في الجنة والعقوبات التي أعدها للعصاة أمور عظيمة جداً تدل على عظمة الله عز وجل ، وأنه ما خلق هذا الخلق عبثاً ولا أوجدهم باطلاً ، بل أوجدهم لغاية عظيمة وهي أن يعبدوه ويقوموا بطاعته ، وأعد لمن أطاعه شيئاً عظيماً لا يخطر بالبال ، وأيضاً من نكل وأعرض عما حُلق له وأوجد لتحقيقه أعد الله له عذاباً أيضاً لا يخطر بالبال ، يقول عليه الصلاة والسلام: ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) ؛ أمور مهيلة جداً للناس في غفلة عنها .

قال : ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) ؛ قال المصنف هذا الجزء من الحديث موجود في الصحيحين من حديث أنس ، أما السياق بطوله فهو في الترمذي من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

وقوله في حديث أبي ذر: ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَتَطَّطَّ)) هذا أيضاً مما يبين عظمة الله جل وعلا ببيان عظمة هذه المخلوقات وكثرتها ، فهي تدل على عظمة خالقها وكمال مبدعها سبحانه وتعالى وموجدتها ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الدحر: ٣١] ، فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا يقول: ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَتَطَّطَّ)) يعني ثقلت وصار لها صوت أطيظ ، والأطيظ: صوت من الثقل ، والثقل ناشئ عن كثرة الملائكة الذين على السماء خلقهم الله سبحانه وتعالى وأوجدهم . أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى كثرتهم قال : ((مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ)) ، فالسماء ثقلت وصار لها صوت أطيظ من كثرة الملائكة الذين عليها ، فهذا يدل على

كثرة الملائكة ، قال عز وجل في بيان كثرتهم: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٦] ؛ «كم» للتكثير تكثيرية ، فهم عددٌ كثير لا يعلمهم إلا الذي خلقهم وأوجدهم سبحانه وتعالى .

ثم خلق الملائكة يختلف عن خلق الناس ؛ آتاهم الله عز وجل بسطة وكبر وسعة وعظم في الخلق والقوة والقدرة ، أمور جاء شيء كثير منها مبيناً في كتاب الله عز وجل يدل على عظمة خالقها ، خذ مثلاً واحداً -وسياًتي عند المصنف لاحقاً أمثلة- قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عَنْ أَحَدِ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ؛ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ تَخْفِقُ فِيهِ الطَّيْرُ سَبْعِمِائَةَ سَنَةً)) ؛ يعني لو طار طير من عاتق الملك متجهاً إلى شحمة أذنه يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران حتى يصل إلى شحمة الأذن ، هذا أحد الملائكة .

هذا الخلق العظيم الذي بُيِّنَ ودُكِّرَ والتفاصيل التي ذكرت عن هذه المخلوقات في السنة وفي القرآن وأيضاً في هذا الحديث ثقلت السماء بمن عليها من الملائكة ؛ هذا كله يدل على عظمة الخالق لهذه المخلوقات والمبدع لهذه الكائنات والمسخر سبحانه وتعالى ومن بيده أزمة الأمور . وجميع هذه المخلوقات على تنوعها واختلافها واختلاف مواضعها وأماكنها في السماء وفي الأرض وفي بطون الأرض وفي البحار ؛ كل هذه المخلوقات رب العالمين أخذ بناصيتها ، جميعها تحت تسييره وطوع تدييره جل وعلا ، في حركاتها في سكناتها في جميع أمورها طوع تدير الله سبحانه وتعالى ، أحاط علمه بها كلها ، فما يقع من أي مخلوق من هذه المخلوقات دقٌّ أو جل صغرٌ أو كبرٌ إلا وأحاط به علم الله تبارك وتعالى ونفذ فيه تدييره وتسييره ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، الخلق خلقه والملك ملكه جل وعلا؛ فهذا مما يبين عظمة الله عز وجل بذكر هذه المخلوقات العظيمة التي أوجدتها الرب العظيم وخلقها سبحانه وتعالى . قال: ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَتَطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ)).

((وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ)) أي مما أعده الله سبحانه وتعالى من عقوبة لمن عصاه .
ولاحظ تسلسل الحديث في تقرير معنى مهم ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَتَطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ)) ؛ الملائكة خلقهم الله عز وجل وجعل فيهم العبادة إلهاماً ، فهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ، هم في دوام عبادة الله ، العبادة عندهم مثل النفس عند المخلوقين، منتظمين عليها ليس فيهم معصية ، لا يعرف في الملائكة شيء اسمه معصية بل حياتهم كلها طاعة ، المعصية لا توجد عندهم ولا تُعرف عندهم ، خلق أوجده الله تبارك وتعالى وجعله مطيعاً والله على كل شيء قدير ، خلقهم جل وعلا وأوجدهم بهذه الصفة مطيعين بدون معاصي ، سخرهم وجعلهم مطيعين ، لا يعصون الله هكذا وصفهم في القرآن ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

﴿التحریم: ٦﴾ ، جعلهم الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة ؛ في دوام عبادة ودوام تسبيح ودوام ذكر ودوام تعظيم لله سبحانه وتعالى وامتنال لأوامره ولا يعرف شيء اسمه معصية في حياة الملائكة ، حياتهم كلها طاعة لله سبحانه وتعالى .

فذكر خلقه لهذه المخلوقات وذكر أيضاً شأن هذه المخلوقات في طاعة الله قال: ((أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَتِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لِلَّهِ)) ثم أشار عليه الصلاة والسلام بعد هذا إلى العقوبات المعدّة لمن خرج عن الطاعة وخرج عن الذل والسجود والخضوع لله سبحانه وتعالى والانكسار بين يديه عز وجل فأشار إلى العقوبات المعدّة ؛ فهذا فيه لفت انتباه أن الخلق خُلِقُوا ليعبدوا الله ، وأن الثقلين أوجدتهم الله عز وجل ليقوموا بعبادة الله سجوداً وركوعاً وذلاً وخشوعاً وامتنالاً وانقياداً إلى غير ذلك من الطاعات ، خلقهم الله لذلك ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] . من خرج على هذه الطاعة له عقوبة أعدها الله له يوم القيامة؛ فينبه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على خطورة هذه العقوبة وأنها ليست بالهينة ، أشار إلى خطورتها وشدتها وفداحتها وعظمتها بقوله: ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ)) يعني مما أعده الله لمن عصاه من عقوبات ((لَصَحِحتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) لأنه أمر مهيل جداً ، ((وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ)) لأنه كلما أراد أن يتلذذ الإنسان وردت في ذهنه تلك العقوبات فصرفت عن لذته .

((وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى)) أي بالدعاء أن يرحمكم وأن يغفر لكم وأن يعفو عنكم وأن يطف بكم ؛ «لخرجتم في الصعدات» قالوا «في الصعدات» : في الطرقات تجأرون إلى الله ، وقالوا «في الصعدات» : أي في الصحراء في العراء تجأرون ، و«تجأرون» : أي تلحون على الله عز وجل وتكررون الدعاء والسؤال والطلب ، يقول عليه الصلاة والسلام ((كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ)) ، فالجؤار وتجأرون : أي تكررون وتلحون وترفعون أصواتكم بالدعاء تسألون الله عز وجل أن يطف بكم وأن يعفو عنكم وأن يقيكم من عذابه ومن سخطه .

((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ)) وهذا ينبه إلى فائدة مهمة جدا في باب الإيمان وهو: أن صحة العلم وسلامة العلم فيه نفع للإنسان في صلاح أموره ، وأن نقص العبادة عند العبد والإقبال على الله ووقوعه في المعاصي فرع ضعف العلم ، إذا ضعف العلم ضعف العمل وضعفت الطاعة ، وإذا قوي العلم في قلب الإنسان قوي إقباله على الله سبحانه وتعالى ، ولهذا ربط عليه الصلاة والسلام هنا بين العلم وبين ؛ قال ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَكَذَا)) فيه ارتباط بمعنى أن العلم كلما قويته درجته عند العبد قوي فيه العمل ؛ ولهذا لاحظ الحديث قال: ((إِنَّ أَتَقَاتُكُمْ وَأَعَلَمَكُمُ بِاللَّهِ أَنَا)) فيه ارتباط بين التقوى والعلم ؛ كلما عظم نصيب العبد من العلم بالله عظم حظه من تقوى الله عز وجل .

إذاً هذا الحديث صلته بالترجمة وهي «باب معرفة الله والإيمان به» أن فيها التنبيه على عظمة الله جل وعلا، وفيها التنبيه على أن المعرفة بعظمة الله عز وجل وبما أعده من ثوابٍ وبما أعده من عقاب توجد عند العبد صلاحاً واستقامة وإقبالاً على طاعة الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

ومسلم عن جندب رضي الله عنه مرفوعاً : قَالَ رَجُلٌ «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ» ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ((مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ!! إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)) .

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم في باب معرفة الله والإيمان به سبحانه ، وأن من معرفة الله على ضوء هذا الحديث العظيم أن يعرف العبد أن الله عز وجل واسع المغفرة ، وأنه جل وعلا يغفر الذنوب ، وأنه لا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ؛ يغفر الذنب لو كان الذنب فيه تعدٍ في حق الله من سبٍّ أو قولٍ على الله بلا علم ، أو نسبةٍ لله ما لا تليق به جل وعلا ، أو تفريط في جنب الله ، أو غير ذلك من أنواع الذنوب ، الذنوب كلها يغفرها الله في حق من تاب وأتاب إلى الله جل وعلا ، والله عز وجل أخبر عن نفسه بذلك: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]؛ «جميعاً» : أي بما فيها الشرك والكفر والإلحاد والفسق الذنوب جميعاً ، أيُّ ذنب كان يغفره الله في حق من تاب ، ولهذا قال في الآية ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ : أي توبوا إلى الله وأنيبوا إلى الله ، فإن الله عز وجل يغفر الذنوب جميعاً .

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ؛ في سورة النساء قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ ، وفي آية الزمر قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا تعارض بين الآيتين ، لأن آية الزمر في حق من تاب ، قال ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ أي: توبوا إلى الله، فهي في حق من تاب ، من تاب تاب الله عليه مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه ، وآية النساء في حق من مات على ذلك من مات مشركاً لا مطمع له في مغفرة الله ولا سبيل له إلى نيل رحمة الله، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] ليس له مطمع أبداً في نيل مغفرة الله عز وجل ورحمته بل ليس له إلا العذاب الأبدي والعقاب السرمدي ، أما من كان على قيد الحياة في الدنيا في ميدان العمل مهما كانت ذنوبه ومهما كان جرمه فالله غفور رحيم ، لو بلغت ذنوب العبد عنان السماء يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: ((يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ - أي

السحاب- ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي عَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي)) هذا كلام الرب سبحانه ((يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي عَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي)) ، فالله عز وجل يغفر الذنوب جميعا ولا يتعاضمه ذنب مهما كانت الذنوب .

ولهذا من أيّس الناس من التوبة والإنابة وقنطهم منها فهو متألي على الله سبحانه وتعالى ، كيف يقول في حق الله عز وجل مثل هذا القول؛ والله عز وجل فتح باب التوبة وقيل توبة من تاب واستغفار من استغفر!! والباب فتحه ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)) ، باب الرحمة والمغفرة والتوبة والإنابة مفتوحة لكل أحد ، فإذا من المعرفة بالله عز وجل أن يعرف المسلم أن الرب العظيم واسع المغفرة ، وأنه يغفر الذنوب مهما عظمت ومهما كانت ، فمن قنط عباد الله ويأسهم من التوبة فقد قال على الله عز وجل بلا علم ، وهو من شر الناس وأسوئهم حالاً من يقنط الناس ويأسهم من توبة الله عز وجل .

قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] قال ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ دعاهم إلى التوبة ، أحد السلف قرأ هذه الآية وقال : «انظروا هذا الكرم ، انظروا هذا الجود! قتلوا عباده، أججوا ناراً لأوليائه ألقوهم في النار ويقول ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾!!» ، باب التوبة مفتوح لكل أحد مهما كان ذنبه. فإذا تألى الإنسان على الله عز وجل ونظر في ذنوب وقع فيها أشخاص أو شخص وقال "هذا لا يتوب الله عليه وهذا لا يغفر الله له" ؛ هذا تألي على الله وقول على الله بلا علم .

وانتبه هنا ؛ الحديث ينبهك على مسألة عظيمة جدا في باب الصفات ، ليس هذه الصفة فقط وإنما في عموم الصفات ؛ ألا وهي: خطورة القول على الله بلا علم في صفاته ، وانتبه لها هذه فائدة عظيمة جداً يدل عليها هذا الحديث ؛ خطورة القول على الله بلا علم في صفاته ، سواءً في جانب النفي أو في جانب الإثبات .

● في جانب الإثبات: أن يثبت لله عز وجل من الصفات ما لا يليق به .

● وفي جانب النفي: أن ينفي عن الله سبحانه وتعالى من الصفات ما يليق به .

وهنا في هذا الحديث أشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أي النوعين؟ إلى النوع الثاني : نفي ما أثبتته ، الله عز وجل أثبت في كتابه مغفرة واسعة من الذنوب جميعا ثم يأتي بعض الناس ويقول "هذا الذنب لا يُغفر وهذا الشخص لا يُغفر له" ؛ هذا قول على الله بلا علم ، الله عز وجل أثبت لنفسه مغفرة واسعة ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ، وذكر مغفرته في آيات كثيرة وذكرها النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث عديدة ثم يأتي شخص ويقول على الله بلا علم "هذا لا يغفره الله وهذا الشخص لا يغفر الله له وهذا لا يتوب الله عليه" أو نحو هذا الكلام !! هذا قول على الله بلا علم في صفات الله جل وعلا ، من أنت حتى تقول "الله لا يغفر لهذا؟! أو هذا لا يتوب عليه؟! أو هذا لا يستحق أن يتاب عليه؟! أو هذا مجرم لا يناله مغفرة الله؟! أو نحو ذلك ، هذا أمر بيد الله عز وجل ،

ومن خاض في هذا خاض في صفات الله بلا علم . إذًا الحديث ينبه على مسألة جليلة وعظيمة جدًا وهي خطورة القول على الله بلا علم ، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

أعيد ثانية في هذا الباب : خطورة القول على الله في أسمائه وصفاته بلا علم تتناول الجانبين: جانب الإثبات وجانب النفي ؛ الإثبات القول على الله بلا علم فيه : بأن ينفي الله ما أثبتته الله ، والنفي: خطورة القول فيه بلا علم : أن يثبت الإنسان ما نفاه الله؛ فكل من الأمرين خطير ، وليس لأحد أن يقول في الله عز وجل في باب الإثبات والنفي إلا ما جاء في الكتاب والسنة ، كما قال الأوزاعي رحمه الله : «ندور مع السنة حيث دارت» أي نفيًا وإثباتًا، ما ثبت في الكتاب والسنة أثبتناه ، وما نفي في الكتاب والسنة نفينا لا نتجاوز القرآن والحديث ؛ هذا هو النهج السديد والطريق القويم . أما من خاض في هذا الباب بغير علم فأثبت ما نفي أو نفي ما أثبت فهذا جرماً خطيراً وذنبا عظيماً .

في مجال الإثبات: يقول الله عز وجل مبينا خطورة نفي ما أثبتته الله ؛ قال عز وجل في حق من خاضوا في علمه بغير علم: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] قبلها ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢] ظننتم أن الله لا يعلم ؛ هذا ما هو الآن ؟ هل هو نفي لثبوت صفة العلم لله أصلا؟ أو إثبات لها ولكنهم قالوا إن الله لا يحيط علمه بكل المخلوقات؟ ﴿ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا﴾ يعني الآية تفيد أنهم يثبتون أن الله عنده علم ولكن علمه ليس محيط ، أيضا من يقول الله عنده مغفرة ولكن مغفرته لا تشمل هذا أو لا تشمل ذاك أو نحو ذلك ؛ هذا كله من نوع الغلط في الأسماء والصفات ، الغلط قد يكون بجحد الصفة أصلا ، أو بجحد شيء من تفاصيل هذه الصفة ، فقد يكون بجحدها أصلا ، وقد يكون بإثبات الصفة مثل أن يثبت الإنسان العلم ولكن يجحد شموله لجميع المعلومات ، أو يثبت المغفرة ولكنه يجحد مغفرته لبعض الذنوب أو لبعض الأشخاص أو نحو ذلك ؛ هذا كله قول على الله بلا علم ، ماذا ترتب عليه؟ قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] أي أوقعكم في الردى . هذا الجانب الأول: نفي ما أثبتته الله لنفسه .

الجانب الثاني: إثبات ما نزه الله عنه نفسه هذا ، أيضا غلط عظيم في باب الصفات ، انظر مثالا له في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] ، نوع الخطأ هنا ما هو؟ إثبات شيء نزه الله نفسه عنه ﴿لَمْ

يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿﴾ [الإخلاص: ٣] ، فأثبتوا لله ما نزه الله نفسه عنه ، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿﴾ [مریم: ٨٨-٩١] .

فالخطأ في الصفات سواء في باب النفي أو في باب الإثبات من أعظم الخطأ وأشنع ، فالحديث فيه بيان فيما يتعلق بمعرفة الله عز وجل والنهج القويم في هذا الباب وهو أن المسلم في باب الصفات يثبت لله تبارك وتعالى ما أثبتته الله جل وعلا لنفسه ، وينفي عنه سبحانه ما نفاه عن نفسه ، ويعظم ربه جل وعلا ، ويكون حديثه في هذا الباب في حدود دلالات كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

وانظر خطورة الغلط مرة ثانية في هذا الحديث الذي بين أيدينا ، قال عليه الصلاة والسلام : ((قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِغُلَّانٍ)) ؛ هنا نوع غلط هذا الرجل أنه خاض في صفات الله بغير علم ، وتكلم في صفات الله بلا فهم ولا علم ولا دليل ، أين دليله على قوله هذا "لا يغفر الله" ، ينفي عن الله وصفاً أين الدليل؟ هو لم ينف عنه صفة المغفرة أصلاً، لم يقل إن الله لا يغفر ، يثبتها ، ولكنه قيدها حَجَرٍ واسعاً قيدها "والله لا يغفر الله لفلان" ، فماذا قال عليه الصلاة والسلام؟

((فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ)) ؛ خذ من هذا فائدة أن الخطأ في باب الصفات تألي على الله عز وجل ، قول في الله وفي عظمته وفي رحمته وفي جلاله وفي كرمه وفي مَنِّه قولٌ على الله سبحانه وتعالى بلا علم تطاول ، ((مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِغُلَّانٍ!!))

((إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَك)) أي أنه سبحانه وتعالى هيأ لفلان هذا الذي قال عنه ذاك القائل إن الله لا يغفر له هيأ له إقبالا على التوبة إلى الله عز وجل والإنابة إليه وشرح صدره لها وقبل منه توبته ، وأحبط عمل هذا القائل على الله بلا علم ؛ فهذا يدل على خطورة الغلط وأنه في غاية الخطورة على الإنسان .

قال: ((إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ)) وهنا أيضا فيه فائدة في باب التوبة ؛ توبة الله عز وجل على عبده التي يدل عليها اسمه «التواب» ، أهل العلم يقولون: إن توبة الله على عبده نوعان:

١. توبة من الله على عبده قبل توبة العبد .

٢. وتوبة من الله على عبده بعد توبة العبد .

● التوبة التي قبل توبة العبد هي توفيق الله لعبده للتوبة كما قال عز وجل ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أي شرح صدورهم وهيأها وجعلها تُقبل على التوبة ، فإذا إقبال الإنسان على التوبة وعلى الاستغفار وعلى الإنابة وعلى الرجوع إلى الله هذا أمر بيد من ؟ بيد الله سبحانه وتعالى ، لولا أن الله يشرح صدر العبد للتوبة ويهديه لها ويوفقه إليها وإلا لا يتوب العبد ، فتوبة العبد بيد الله .

● وأيضا قبول التوبة والعفو عن السيئات وغفران الذنوب أيضا الأمر بيده سبحانه وتعالى .

وهذا مما يبين لنا عظم جرم هذا القائل لما قال على الله "إن الله لا يغفر لفلان" ؛ هذا جرم عظيم ، من أنت حتى تقول في شأن الله هذا "لا يتوب على فلان أو لا يغفر لفلان" ؛ بيده أزمة الأمور ، يهدي من يشاء سبحانه وتعالى ويضل من يشاء ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، تجد الإنسان نشأ في بيوت كلهم أموات بالكفر ويحييه الله من بينهم ، يخرجهم من بينهم حيًا بالإسلام ينقذه الله سبحانه وتعالى ، وترى آخر ينشأ في بيوت الإسلام ويرتد على عقبيه والعياذ بالله ، فلا يتألى الإنسان على الله ، ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ الْيَشَاءِ ﴾ [فاطر: ٨] ... إقبال على الله لأن الأمور كلها بيد الله ، غفران ذنوبك توبتك إلى الله إنابتك إليه ، ثباتك على طاعته ، سلامتك من الضلال ، كل ذلك بيد الله سبحانه وتعالى .

وانظر هذا الرجل الذي كان في غفلة وضياع ومقارفة للمعاصي وارتكاب للجرم والذنوب هيئ الله عز وجل له هذا السبب فكان سببًا لتوبته وإنايته ورجوعه إلى الله عز وجل . انتبه هنا ، يعني قد يقول الإنسان مقالة في شخص ما من العصاة هذا فيه ما لا فيه ، وهذا لا يمكن أن يتوب وهذا .. فيتحول بإذن الله تبارك وتعالى هذا الشخص الذي قيل فيه هذا الكلام يتحول إلى أصلح الناس وأحسنهم حالا ، التوفيق بيد الله ، وقد يُخذل الآخر بسبب سوء ظنه بالله وقوله على الله بلا علم . فالواجب على العبد أن يعرف نفسه أنه عبد لله ؛ فيتدلل بين يديه ، وينكسر ويطلب منه الهداية والمغفرة والعون ، ويدعو إلى دينه على بصيرة ، ويحذر غاية الحذر من مثل هذا المنزلق الذي هو أخطر المنزلاقات وأشنعها وهو باب القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم .

وأختم هنا فيما يتعلق بهذا الحديث ؛ هذا الحديث من أعظم الدلائل على فساد الطرائق المنحرفة التي عليها أرباب الكلام ، عندما يخوضون في صفات الله تبارك وتعالى بلا علم . أوضح لكم القضية ؛ هذا الرجل الذي قال "إن لا يغفر لفلان" هذا الاستنتاج الذي توصل إليه "إن الله لا يغفر لفلان" مبني على ماذا ؟ هل هو قالها هكذا؟ وإلا مبنية على استنتاج معين؟ مبنية على استنتاج ؛ ما هو؟ عقله ، بدأ يحرك عقله القاصر في هذه المسألة ، وعقله بدأ يعدد : فلان أذنب كذا ويوم كذا فعل كذا وفعل كذا واعتدى على كذا ، وأخذ يحلل المسألة عقليا وتوصل بعقله القاصر إلى ماذا؟ إلى جحد هذا ، النتيجة التي توصل إليها بعقله ما هي؟ لا يغفر الله لفلان ؛ أحبط الله عمله ، استنتج بعقله ثم وصل إلى نتيجة لا يغفر الله لفلان ، هذا الاستنتاج العقلي الذي توصل به هذا الرجل إلى هذا الجحد -وهو أيضا لم يجحد الصفة من أصلها وإنما جحد شيئا من تفاصيلها وقيد الصفة - هذا الاستنتاج العقلي الذي توصل إليه بعقله ترتب عليه حبوط عمله . اقرأ مثل هذه الاستنتاجات العقلية المبني عليها جحد صفات الله في كتب المتكلمين، ليس لها حد ، استنتاجات عقلية وبينون عليها جحد الصفات ، تجدهم يقول مثلا : لو قلنا إن الله عز وجل يرضى للزم أن يكون كذا ، ولو كان كذا للزم أن يكون كذا ، ويأتي باستنتاجات عقلية يسردها في

الكتاب على أنها نوع من العلم وحقائق و يقينيات يسمونها ، ثم النتيجة جحد الصفات ، رب العالمين يثبت لنفسه وهم يحددون! .

هذه خلاصة الأمر رب العالمين يثبت؛ أثبت لنفسه الرضا ، أثبت لنفسه الاستواء على العرش، أثبت لنفسه الرحمة، أثبت لنفسه العلو ، أثبت أثبت أثبت صفات كثيرة وفي كتب المتكلمين قوائم من الاستنتاجات يُبنى عليها جحد الصفات، هذا من أخطر ما يكون لو تفكر هؤلاء لو كانوا يعقلون وتفكروا في هذا الحديث فقط لأوجد في قلوبهم خوفاً من هذا الباب ، لو تفكروا في هذا الحديث فقط لعرفوا النهج المبارك الذي كان عليه أئمة السلف ، ما يقولون حرف في صفات الله إلا بآية وحديث ، تجد كتب السلف رحمهم الله يقولون : "من صفات الله الرضا مثلاً، أو من صفاته اليبين ، أو من صفاته كذا ؛ حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن فلان قال صلى الله عليه وسلم، أو يأتي بالآية من القرآن" ؛ هذه طريقتهم . وهؤلاء أقحموا عقولهم القاصرة وبدأوا يستنتجون وكانت نتيجة الاستنتاجات هي ماذا؟ جحد صفات الله سبحانه وتعالى ، تقرأ في كتب المتكلمين نفياً موسعاً مطولا لصفات تراها ثابتة في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وها هنا يأتي سؤال وهو: أي الفريقين أحق بالأمن؟ أي الفريقين أحق بالسعادة؟ أي الفريقين أحق برضا الله سبحانه وتعالى؟ من جعلوا طريقتهم في هذا الباب الإثبات لما أثبتته الله ولما أثبتته رسوله عليه الصلاة والسلام ونفي ما نفاه الله ونفاه رسوله عليه الصلاة والسلام لا يتجاوزون القرآن والحديث ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله «نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا نتجاوز القرآن والحديث» ، هذا الفريق؟ أو الفريق الذي مبني اعتقاده على الاستنتاجات؟ وها أنت قد خبرت نتيجة الاستنتاج العقلي بصفة واحدة ، أيضا لم يُبين على هذا الاستنتاج العقلي جحد الصفة من أصلها وإنما جُحد بعض تفاصيلها فما بالك باستنتاجات عقلية كثيرة بُني عليها جحد الصفات من أصلها ومن أساسها !! فيقولون عن الله لا يرضى ولا يجب ولا يسخط ، ويقولون عن الله لم يستو ، ويقولون عن الله أشياء كثيرة الله أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويا سبحان الله أنتم أعلم أم الله؟! ونبينا عليه الصلاة والسلام يقول عن نفسه: ((إِنَّ أَتَقَاكُمْ وَأَعَلَمَكُم بِاللَّهِ أَنَا)) ، ثم يتركون هذا العلم الذي جاء عن الله وهذا العلم الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقحمون عقولهم التائهة التافهة الحقيمة ويستنتجون بناءً عليها هذه الاستنتاجات الباطلة ، بل قالوا - وكبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا- بل قالوا : "إن العقل مقدّم على النقل" ، العقل الذي ورط هذا الرجل الذي جاء الآن ذكره في الحديث مقدم عندهم على النقل ، النقل فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وعقل هذا الرجل استنتج أن في ذنوب معينة لا تُغفر ؛ فأحبط الله عمله ، ويقولون إن العقل مقدم على النقل ، وإذا تعارض يقولون عقل على نقل نقدّم العقل، إذاً ما فائدة بعثة الرسل إذا كانت عقولكم هي المقدمة!! أحد السلف قال هؤلاء في الرد عليهم «إذاً ليقلّ الواحد منكم أشهد أن عقلي رسول الله» ، مادام أن العقل هو

المقدم وما جاء عن الرسول يزنه الإنسان بعقله فما وافق عقله قبله وما لم يوافق عقله رده ؛ أي إجرام وأي تضييع للدين أفضع من هذا وأشنع نسأل الله العافية والسلامة .

وعلى كل حال نرجع للحديث السابق وهو حمد الله على النعمة ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا)) ، على الإنسان هنا أن يقف وينظر ما هداه الله إليه من معرفته للحق والصواب ولزوم الكتاب والسنة والبعد عن تلك الخرافات والضلالات التي تزينت في عقول أصحابها وتزخرفت في أذهانهم وأصبحوا يرونها علمًا سديدًا وأصبحوا هي علمهم الذي يتحدثون به ويسطرونه في كتبهم ؛ وهي كلها ضلال وضياع ، على العبد أن ينظر في هذه النعمة التي هداه الله إليها في معرفة الحق فيحمد الله عز وجل عليها .

فحمد الله حمدًا كثيرًا على كل نعمة أنعم بها تبارك وتعالى علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية ، ونسأله تبارك وتعالى أن يوزعنا شكر نعمته ، وأن يثبتنا على صراطه المستقيم .

وصلّى الله وسلّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٥ إلى الدرس ٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٥/١٠/١٤٤٠ هـ

الدرس الخامس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، واجعل ما نتعلمه حجةً لنا لا علينا يا ذا الجلال والإكرام . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :
وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)).

قال رحمه الله: ((وله)) أي للإمام مسلم رحمه الله في صحيحه ((عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) هذا الحديث ساقه المصنف رحمه الله في باب معرفة الله والإيمان به لأنه حديث عظيم في التعريف بالرب جل وعلا ؛ وأنه سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً ولا أوجدهم سدى ، بل خلقهم ليأمرهم وينهاهم ، ومن أطاعه أعد له ثواباً عظيماً ، ومن عصاه أعد له عذاباً أليماً . الجنة أعدت للمتقين الطائعين ، والنار أعدت للكافرين الجاحدين ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي النار من النكال والعذاب الأليم والأهوال ما لا يخطر ببال .

والمصنف رحمه الله ساق هذا الحديث في باب معرفة الله عز وجل ليعرف المسلم من خلال هذا الحديث أن الله عز وجل عدلٌ وذو فضل ؛ فمن قام بطاعته سبحانه وتعالى وعبادته نال من فضل الله ونعيمه ورحمته ومنه سبحانه ، ومن نكل عن الصراط وكفر بالله وأعرض عن دينه عامله الله سبحانه وتعالى بعدله وأناله ما أعدّه سبحانه وتعالى للناكِلين المعرضين من العقاب الأليم .

فهذا الحديث بابٌ عظيم في التعريف بالله عز وجل ببيان أنه عدلٌ ، وأنه سبحانه وتعالى ذو فضل ، وأنه جل وعلا ذو رحمةٍ ومنٍّ وإنعام ، وفي الوقت نفسه ذو عذابٍ أليم ، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَبٰى عِبَادِیْ

أَنِّیْ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِیْمُ (٤٩) وَأَنِّ عَذَابِیْ هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِیْمُ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] ؛ فالحديث فيه من التعريف بالله ما في

هذه الآية ونظائرها ، ﴿تَبَيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنْزَعَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فهو جل وعلا ذو رحمة واسعة وأيضا عذابه أليم ؛ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ﴾ [غافر: ٣] ، فالله جل وعلا عنده نعيم وعنده عذاب ، والحديث يدل على هذا المعنى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ؛ فعنده نعيم عظيم ورحمة واسعة ، وفي الوقت نفسه عنده عذاب أليم وعنده نار وعقاب .

وهذا الحديث كما نبه العلماء رحمهم الله من الأحاديث العظيمة التي تُحدث عند الإنسان إذا أحسن فهم الحديث وتأمله تحدث عنده توازن في باب الرجاء والخوف ؛ وهما ركنان قليبان للتعبد لله سبحانه وتعالى ، فالله عز وجل يُعبد رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، وقال جل وعلا: ﴿وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] . فهذا الحديث يُحدث للعبد بتأمله له وتأمله في معانيه توازناً في باب الرجاء والخوف ، والعلماء قالوا : ينبغي للعبد أن يكون رجاءه وخوفه متوازنين ، لا يغلب الرجاء على الخوف ، ولا يغلب الخوف على الرجاء ، وإنما يمضي في عبادته وتقربه إلى الله عز وجل باعتدال وتوازن بين الرجاء والخوف. حتى إن بعض العلماء شبههما بجناحي الطائر ، الرجاء والخوف ، وأن الطائر إذا قُصَّ أحد جناحيه لم يتمكن من الطيران أو إذا اختل أحد جناحيه لا يتمكن من الطيران ، ولا يتوازن طيرانه إلا إذا كان جناحيه يعملان بشكل متوازن دقيق ، وهكذا الذي ينبغي أن يكون عليه المتعبد أن يكون في تعبده لله سبحانه وتعالى بين الرجاء والخوف ، لا يغلب الرجاء على الخوف ؛ لأنه إذا غلب الرجاء وأصبح جانب الرجاء مغلبا عنده وليس عنده خوف يحدث عنده عدم خوف من عقوبة الله جل وعلا ، فلا يأمن مكر الله سبحانه وتعالى ، وإذا غلب جانب الخوف على جانب الرجاء أيضا يختل عنده الأمر ؛ فقد يئس من روح الله عز وجل بسبب تغلبه لجانب الخوف ، بينما إذا أتى بهما باعتدال وتوازن راجٍ خائف اتزنت الأمور عنده ، والذي يُحدث التوازن عند العبد في هذا الباب: أن ينظر في نصوص الكتاب والسنة التي في الرجاء وأيضا نصوص الكتاب والسنة التي في الخوف ؛ فمن أعمل نصوص الرجاء وأهمل نصوص الخوف ، أو أعمل نصوص الخوف وأهمل نصوص الرجاء اختل الأمر عنده ، فالمطلوب هو التوازن بإعمال والنظر والتدبر في نصوص الخوف والرجاء معا . وهذا الحديث جمع الأمرين للعبد ؛ جمع له أمر النعيم العظيم وسعته وسعة رحمة الله عز وجل ، وأيضا جمع ذكر العقاب الأليم وبشكل واضح وقوي جدا ؛ مما يجعل العبد بتأمله للحديث يكون متوازنا في رجائه وخوفه.

قال: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ)) يعني من شدتها وأهوالها وأنواعها وفظاعتها ((مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) هذا يفيد فائدة في قوله «مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ» من ينظر إلى شدة العقوبة وأهوالها ويقف في نظره إلى هذا

الحد ما الذي سيحدث له؟ من نظر إلى هذا الجانب «ما عند الله من العقوبة» ووقف عند هذا الحد لم ينتقل إلى الجانب الآخر في الحديث ما الذي سيحدث له؟ الجواب أمامك؛ قال: ((مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) يقنط الإنسان ، لو وقف الإنسان عند نصوص الخوف والوعيد يصاب بالقنوط ، ولهذا قال: ((مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ، ولهذا لا يصح أن تقف عند هذه الجملة من الحديث ولا تقرأ الجملة التي بعدها حتى يتزن الأمر عندك؛ مثل حال من يقرأون ﴿تَبٰى عِبَادِىْ اَنِىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ ويقف ولا يكمل ما بعده ﴿وَاَنْزَعٰى عَذَابِىْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ﴾ ، فهذا الذي يقول ﴿تَبٰى عِبَادِىْ اَنِىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ ويقف ؛ تجده يأمن من مكر الله ، فتراه مستمر في المعاصي والذنوب والأخطاء والآثام وغير ذلك وهو لا يزال يقول: ﴿تَبٰى عِبَادِىْ اَنِىْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ فيكون آمناً من مكر الله عز وجل ؛ وهذا باب شر على العبد وباب تفلت من الأمر والنهي والقيام بطاعة الله سبحانه وتعالى ، ولهذا قال هنا: ((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوْبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ)) .

((لَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ)) ؛ الله عز وجل عنده رحمة واسعة ، رحمة عظيمة جدا ، لكنه أخبر عز وجل أنه سيكتبها لأهل الإيمان ، وأن الكافر عندما يلقي الله يوم القيامة لا مطمع له في رحمة الله ، لكن لو أن الكافر علم بالرحمة الواسعة ، وممر معنا شيء من التفاصيل التي تبينها ((لله أرحم بعباده من هذه بولدها)) ، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد . إذاً هذا الحديث الجانب الآخر في الحديث يفيد بأن الإنسان لو نظر إلى جانب الرحمة فقط ولم ينظر إلى جانب الخوف يأمن من مكر الله ، يبقى يقول أن الله رحيم وأن الله غفور وأن الله كريم إلى آخر هذه الأمور وينسى عذابه الأليم .

فالشاهد أن الحديث يعطي العبد توازناً عظيماً في باب الرجاء والخوف وفي باب معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأيضاً فيه تنبيه في باب المعرفة أن المسلم كما أنه ينبغي عليه أن يعرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته التي هي أسماء الرحمة والبر والإحسان والإنعام والإكرام والمن والعطاء إلى غير ذلك ، ينبغي أيضاً أن يعرفه بصفاته عز وجل التي هي صفات العقوبة والانتقام والبطش بالظالمين وإهلاك المبطلين ، حتى يكون عنده أيضاً توازن في باب الرجاء والخوف؛ رجاء الله وخوف عقابه، لكن من اقتصر على أسماء وصفات الإكرام والإحسان ولم يتأمل في عقاب الله وانتقامه وما أعده من العذاب والنكال فهذا لا يتحقق له الاستقامة في هذا الباب ولا يستتم له طيرانه وسيره لله عز وجل وما يقرب إليه . فهذا الحديث حديث عظيم جداً في باب معرفة الله سبحانه وتعالى والإيمان به .

قال رحمه الله تعالى :

وللبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)).

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)) ؛ شراك النعل: هو سير النعل ، ونعل الإنسان قريب منه لأنه في قدمه؛ فهو قريب منه ليس عنه ببعيد .

قال: ((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ)) فهذا الحديث له تعلق بما قبله بمعرفة الله عز وجل وذلك بمعرفة ثوابه وعقابه ؛ ثوابه الذي أعده لمن أطاعه ، وعقابه الذي أعده لمن عصاه ، وفي الحديث هذا تبين إلى أن ثواب الله قريب وعقابه قريب ، ثواب الله عز وجل لمن أطاعه قريب جدًا أقرب لأحدكم من شراك نعله، وعقاب الله عز وجل لمن عصاه أقرب لأحدكم من شراك نعله ، الثواب قريب والعقاب قريب .

فهذا الحديث يفتح للإنسان باب زوال الغفلة عن قلبه وطول الأمل والانقطاع عن العمل والطاعة أو الوقوع في المعصية ؛ فيقال له : انتبه إن كنت مطيعًا فاعلم أن ثواب الله سبحانه وتعالى لك قريب ، وإن كنت خلاف ذلك فاعلم أن عقابه قريب . ولا أبلغ من هذا الوصف قال: ((أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ)) ، ولهذا يأتي أحاديث كثيرة تبين قرب الجنة والنار ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءَ دَخَلَ النَّارَ))، ((مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) الجنة قريبة ، ((مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ذُبِرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَوْتُ)) ، الجنة قريبة من أهلها والنار قريبة من أهلها ، ليس بين أهل الجنة والجنة إلا الموت ، وليس بين أهل النار والنار إلا الموت ، والموت قد يأتي الإنسان بعد لحظة ، يعني بعد ساعة وساعتين أو أقل أو أكثر، فليس بين الإنسان وبين ثواب الله ونعيمه وجنته -الإنسان المؤمن- إلا أن يموت ، وليس بين الكافر وبين عقاب الله وناره إلا أن يموت ، فالجنة قريبة والنار قريبة .

إذاً هذا حديث في باب معرفة الله عز وجل وأنه سبحانه وتعالى ثوابه وجنته قريبة ممن أطاعه ، وأن عقابه وناره أيضاً قريبة ممن عصاه ، وهو كسابقه يفتح للإنسان باب الاعتدال في الرجاء والخوف ، فيكون بين ناظره في أعماله وطاعاته قرب الجنة وقرب النار ، فعلة للطاعة وتركه للمعصية يقربه من الجنة ، وتركه للطاعة وفعله للمعصية يقربه من النار ، وهو لا يريد النار وإنما يريد الجنة فيحدث عنده توازن ؛ رجاء وخوف يمضي به بإذن الله تبارك وتعالى إلى سديد الأقوال وصالح الأعمال .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبُئْرِ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَعَتْ لَهُ مَوْقَهَا فَسَقَتْهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ)) ، وقال : ((دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ

أَطْعَمَتَهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ)) ، قال الزهري : «لئلا يَتَّكِلَ أَحَدٌ وَلَا يِيَأَسَ أَحَدٌ»
أُخْرِجَاه .

ساق رحمه الله هذين الحديثين لبيان ما سبق وهو أن يكون الإنسان في أعماله معتدلاً متوازناً في رجائه وخوفه ، وعقاب الله عز وجل قريب ، قد يفعل أمراً لا يُلقِي له بالاً يهوي به في النار سبعين خريفاً ، وقد يعمل شيئاً من أعمال البر يراه الناس قليلاً وهيناً يصدق فيه مع الله ويخلص فيه لله تبارك وتعالى فيرتفع به في عالي الدرجات في جنات النعيم، فالرجاء بابه مفتوح وواسع ، وأيضا العقوبة سبيلها كبيرٌ وواسع ، وأمورٌ يسيرة تدني الإنسان من الثواب وعالي الدرجات ، وأمورٌ أيضاً يسيرة من السيئات قد يبلغ بها مبلغاً عظيماً في نيل العقوبة ، ولهذا ينبغي للعبد أن ينظر في هذه الأحاديث ؛ الأحاديث التي تحرك الرجاء في القلب والأحاديث التي تحرك الخوف في القلب .

أورد أولاً حديث أبي هريرة ((أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا)) يعني كانت ترتكب البغي وهو الحرام والفاحشة ((رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبُئْرِ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ)) رأت كلباً بهذه الصفة في يوم حار يعني يوم صائف واشتد به العطش وكان عند بئر ولا يتمكن أن ينزل للبئر ليشرب ، فيطوف حول البئر يريد الماء وأدلع لسانه من شدة العطش ، فوقع في قلبها رحمة له ، رحمت هذا الكلب وقع في قلبها رحمة له ((فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا)) يعني خفها الذي في قدمها ، ونزلت في البئر وملئت موقها ، وأمسكت بموقها في الغالب في فمها ، وأخذت بيديها تصعد من هذا البئر، كل هذا العمل لا يعلم به إلا الله عز وجل ، هي لم تقم به ليراها إنسان فيمدحها ويقول مثلاً شهمة أو مثلاً صادقة أو شيء من هذه الألقاب ، هي لم تفعل ذلك إلا رحمةً بهذه البهيمة وصدقاً مع الله سبحانه وتعالى وطلباً لثوابه عز وجل . لا يقبل الله عز وجل أي عمل من الأعمال إلا إذا كان قُصِدَ به التقرب إلى الله ، يعني هذه المرأة لو أنها كانت قامت بهذا العمل من أجل أن ناساً حولها يمدحونها على هذا العمل لم يكن عملاً صالحاً .

ولهذا نبه العلماء أن هذه المرأة لما قام في قلبها من الصدق والإخلاص والنصح والرحمة فباشرت بسبب ذلك هذا العمل نالت هذا الثواب العظيم، ولهذا قال العلماء عند هذا الحديث : فيه دلالة على فضل التوحيد والإخلاص في عظم الثواب وكبر الثواب ؛ فهذه امرأة لما قام في قلبها من التوحيد والصدق والإخلاص لله سبحانه وتعالى ونزلت في هذا البئر صادقةً مخلصَةً لله عز وجل غُفِرَ لها ، وإلا كم من إنسان يعمل أموراً أعظم من ذلك ولكن لا يقوم فيه من الإخلاص والصدق مع الله فلا ينال هذا الثواب . فالحديث من الدلائل العظيمة على أهمية الإخلاص والصدق مع الله جل وعلا ، وأن العمل القليل يعظم بالتوحيد والإخلاص ، ولهذا قال العلماء: قليل العمل بالتوحيد خيرٌ من كثير العمل بغير التوحيد أو بالرياء أو بالسمعة. قليل من العمل بتوحيد وإخلاص مع الله

سبحانه وتعالى خير للإنسان من عمل كثير بلا توحيد ولا إخلاص لله جل وعلا ، فهذه المرأة فازت بهذا الثواب العظيم قال: ((فَغُفِّرَ لَهَا بِهِ)).

الحديث الثاني قال : ((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا)) يعني جاءت بها عندها في حجرة وأغلقت باب الحجرة ونافذتها ولم يصبح لهذه الهرة مكان تخرج منه حتى تأكل من خشاش الأرض الفئران وغيرها من الحشرات ، ولا هي أيضا جلبت لها طعاما في هذه الحجرة تأكل منه ؛ فبقيت الهرة محبوسة مغلق عليها الباب تريد طعاما ، وماتت وهي على هذه الحال .

الحديث الأول يدل على رحمة القلب ولينه وما فيه من الشفقة والعطف والإحسان، وهذا الحديث يدل على غلظة القلب وقسوته وشدته وعدم رحمته ، تأتي بهذا الحيوان وتجعله في حجرة وتغلق الباب عليه ثم يبقى في جوع إلى أن يموت!! هذا يدل على قسوة في القلب وغلظة وشدة .

فيقول هنا : ((دَخَلَتِ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))؛ عندما تقرأ هذا الحديث والحديث الذي قبله يعرفك بالله سبحانه وتعالى ويزيل عنك ما يقع فيه كثير من الناس من خلل في هذا الباب ؛ إما برجاء عندهم لا خوف معه ، أو خوف لا رجاء معه؛ وهذا كله خطأ ، بل الحق هو التوازن .

في باب الأعمال الصالحة لا تستهين بأي عمل ، اصدق مع الله في أي عمل صالح يرضاه عنك سبحانه وتعالى وشرعه لك ، اصدق مع الله فيه وإن كان في عينك أو في أعين الناس يعتبر عملاً زهيدا أو عملاً قليلا أو عملاً يُظن أن ليس له ثوابا عظيما دعك من هذا التفكير ، العمل الصالح وإن قل اصدق مع الله فيه ، قد يكون عملاً صالحا تفعله مرة تراه يسيراً سبب لغفران ذنوبك ، جاء في صحيح مسلم أن رجلاً مر بطريق ووجد في الطريق غصن شجرة ذا شوك فقال : «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» فنحّاه عن الطريق ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة. إزالة هذا الغصن من الطريق قد يُزال لسبب آخر ، يمشي الإنسان في طريق ويرى غصن شوك وأناسٌ بعيدون يقول أنا أحمل هذا الغصن حتى يروني ويقولون فلان يُحسن ، ما أصبح عملاً تقرب به صاحبه إلى الله ، أو مثلاً يقول "هذا حتى لا أقع فيه" يصبح عملاً خاصاً به هو ، لكن نظر هذا ما قام في قلبه من إحسان للناس قال «والله لا أدع هذا في طريق المسلمين فيؤذيهم» ، ففي قلبه رحمة وإحسان ولطف كبير في حق الناس فأماط عنهم الأذى من طريقهم ، فشكر الله عمله فأدخله الجنة . إذاً في باب الأعمال الصالحة لا يتقاع الإنسان عملاً ((ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق)) صادقاً مع الله في جنب المودة بين المسلمين والمحبة تلقى أخاك بوجه طليق قد ترتفع بهذا درجات عالية ، ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا)) ، ((الْمُؤَطَّنُونَ أَكْنَفًا)) ، فلا يستهين الإنسان بعمل .

فهذا الحديث يفتح لك بابا عظيما في باب الرجاء حتى في الأعمال الزهيدة القليلة التي تُرى في عين الناس أنها قليلة وأن ثوابها قد يكون قليل جدًا ما يدريك ، قد يكون هذا العمل بصدقك مع الله ونصحك لعباد الله سبب لغفران ذنوبك ورفع درجاتك عند الله عز وجل وعتقك من النار ودخولك الجنة .

وعندما تأتي للحديث الآخر؛ هذه دخلت الجنة بكلب ، وهذه دخلت النار بكرة ، فكلبٌ دخلت به امرأة الجنة وهرة دخلت بها النار ؛ فلا يستهين الإنسان بأعماله ؛ هذه عاملت الهرة بإساءة فكانت إساءتها سببًا لدخولها النار، فهذا أيضا ينبهك أنك لا تستهين بمعصية ، لا يقول الإنسان وماذا يعني هرة وهلكت وماتت وماذا يكون! لا يستهين الإنسان بمعصية ، قد يتحاصر الإنسان عمل ويراه في عينه حقيرًا وهو مثل الجبال في خطورته عليه، ثم يمضي في حياته مستهينًا بالذنوب حتى يصبح حاله مثل حال المنافق والعياذ بالله ، وقد جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا)) يفعل الذنب تلو الآخر ولا يبالي ولا يكثر.

فعلى كل حال هذا الحديث من الأحاديث العظيمة في باب التعريف بالله عز وجل وما أعده من ثواب وما أعده من عقاب ، وأن ثواب الله قريب من الإنسان ، وجنته قريبة من الإنسان ، ما شاء الله هذه المرأة كانت في عمل فاسد وكتب الله لها هذه الخاتمة الطيبة من الصدق مع الله والنصح لمخلوقاته جل وعلا والرحمة والشفقة ونحو هذه المعاني التي قامت في قلبها ؛ فكانت سببًا لغفران ذنوبها . كم يتساءل كثير من التائبين : عندي ذنوب كثيرة وربما يستولي عليه شيء من القنوط بكثرة ذنوبه "عندي ذنوب فعلت كذا وفعلت كذا وما تركت كذا إلا.." انظر هذا العمل انظر إلى الأعمال الصالحة التي هي أكبر منه والطاعات المقربة إلى الله فهذه ترفع عن الإنسان القنوط. والجانب الآخر أو الحديث الآخر أيضا يفتح لك بابًا عظيما في الخير وهو أيضا أن تكون دائما خائفًا من عذاب الله .

إذا حديث الكلب يقوي فيك الرجاء ، وحديث الهرة يقوي فيك الخوف ، وأنت مطلوب منك هذا ومطلوب منك هذا ، حديث الكلب هذا يقوي فيك جانب الرجاء ، وحديث الهرة هذا يقوي فيك جانب الخوف ، وينبغي أن تمشي في الأمرين معًا خوف ورجاء ؛ ترجو رحمة الله سبحانه وتعالى وتخاف عذابه . وإياك أن يكون تعبدك لله بواحد من هذين دون الآخر ، يعني بالرجاء دون الخوف أو بالخوف دون الرجاء ؛ فهذا يحرفك عن الإيمان الصحيح والمعتقد الحق ، ولهذا قال من قال من العلماء : «من عبد الله بالحب وحده -يعني بدون رجاء وبدون خوف- فهذا زنديق ، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري يعني من الخوارج ، ومن عبد الله بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد» الذي يجمع بين هذه الأمور الثلاثة الحب والرجاء والخوف .

والعلماء رحمهم الله يسمونه هذه الأمور الثلاثة «أركان التعبد القلبية»؛ بمعنى أن كل عبادة تقترب بها إلى الله عز وجل يجب أن تقيمها على هذه الأركان؛ تعبد الله رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه وحباً له جل وعلا ، كل عبادة تصلي تصوم تتصدق أي عبادة تقوم بها تقيمها على هذه الأركان : الرجاء للثواب ، والخوف من العقاب ، وحب الله سبحانه وتعالى .

وقد جُمعت هذه الأركان الثلاثة كما نبه على ذلك المصنف في بعض رسائله جمعت في فاتحة الكتاب ؛ ففي قولك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحب ، لأن الحمد: هو الثناء مع الحب ، فإذا قلت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مستحضراً ما يُحمد عليه سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلا والنعم التي لا تعد ولا تحصى تحرك في قلبك جانب الحب . فإذا قلت ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وتدبرت هذا الاسم وما يدل عليه ما الذي يتحرك في قلبك؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ثم إذا أتيت إلى الآية التي بعدها ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وتفكرت أيضاً في هذا الأمر ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٧-١٩] ما الذي يحصل لك؟ تخاف . فإذا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تحرك الحب ، ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تحرك الرجاء ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تحرك الخوف؛ بهذه الثلاثة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ، ولهذا قال رحمه الله «فجاء قوله إياك نعبد بعد هذه الثلاثة» والمعنى: إياك نعبد أي نخصك يا الله بالعبادة بالحب الذي دل عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، وبالرجاء الذي دل عليه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، وبالخوف الذي دل عليه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ . وهذه السورة المتكرر قراءتها للمسلم في صلواته المفروضة وفي نوافله أيضاً تُحدث له التوازن في هذا الباب؛ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه رحمة وفيه يوم دين يوم حساب وعقاب وجزاء ، وكل هذا الأمر لابد أن يستحضره المسلم حتى يكون على توازن في معرفته بربه سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه مرفوعاً : ((عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ)) رواه أحمد والبخاري.

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ((عنه)) أي عن أبي هريرة رضي الله عنه ((مرفوعاً)) إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ)) ؛ فهذا أيضاً من الأحاديث التي تفتح للعبد باباً في معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأن الأمر بيده سبحانه وتعالى ؛ أمر الهداية والصلاح وأمر الضلال كل ذلك بيد الله

كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] ، فالهداية بيد الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى إذا كتب لعبده هدايةً يسرّها له ، فبعض عباده يكتب له سبحانه وتعالى هدايةً ينشرح صدره للخير يشرح صدره للإسلام ويُقبل عليه ويتقوى ويتمكن منه ، وآخرون يكتب لهم هدايةً ولا تكون هدايتهم بقوة الأولين وإنما هداية يُقادون فيها إلى الهداية بالسلاسل ، فيكونون مهتدين قودًا إلى الهداية ، وآخرون يكونون مهتدين منشحة صدورهم إلى الهداية مقبلة عليها والأمر بيد الله ، وآخرون لا تكتب لهم هداية ؛ فهذا يجعل الإنسان يُقبل على الله ويعرف الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ، وأن هذا الخلق بتدبيره وتيسيره سبحانه وتعالى ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ فهذا يفتح للإنسان باب عظيم في معرفة الله .

قال : ((عَجِبْ رَبُّنَا)) وهذا فيه إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى التي وصفه بها رسوله عليه الصلاة والسلام . وفي قراءة في القرآن الكريم ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢] وعلى هذه القراءة تكون هذه الصفة ثبتت في القرآن الكريم ، وأما في السنة فقد ثبتت في أحاديث كثيرة جدا ؛ ((عَجِبْ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ)) ، ((عجب ربكم إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة)) ، أحاديث في هذا المعنى كثيرة جدا فيها إثبات العجب صفة لله تبارك وتعالى .

والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة والجماعة : أن ما أثبتته الله جل وعلا لنفسه وما أثبتته له رسوله عليه الصلاة والسلام يُمرُّ كما جاء ويُؤمن به كما ورد ، لا يُتلقى بتحريفٍ باطل ولا أيضا يتلقى بتشبيهٍ فاسد ، بل يُثبت لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى على حد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ؛ ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه نفي التمثيل ، وفي قوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإثبات لما أثبتته الله سبحانه وتعالى من الصفات الكاملة والنعوت العظيمة التي أضافها سبحانه وتعالى لنفسه .

فثبت ما ثبت لله عز وجل من صفة في هذا الحديث بإثبات الرسول عليه الصلاة والسلام لها ، فمن إيماننا بالله ومن معرفتنا به سبحانه وتعالى أن نؤمن بأنه يعجب كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا الحديث وفي أحاديث أخرى أخبر عليه الصلاة والسلام أمور يعجب منها الله سبحانه وتعالى ، وعجبه ليس كعجب المخلوق ، المخلوق قد عجب من شيء لكونه لا يعلمه ، أو لكونه لا يدرك أبعاده ، أو لحصوله على خلاف ما يتوقعه ، أو لغير ذلك من الأسباب ، وهذه كلها لوازم لعجب المخلوق ، ولا يجوز بحال أن يُجعل لازم الصفة باعتبار إضافتها إلى المخلوق لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ، بل صفات الله سبحانه وتعالى تخصه وتليق بجلاله وكماله سبحانه ، وصفات المخلوق تخص المخلوق وتليق بضعفه وعجزه وكونه مخلوقاً ، وما أضيف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات فلوازمها الكمال ، وما أضيف إلى المخلوق من الصفات فلوازمها النقص ، ولا يصح بحال أن يُجعل

لازم الصفة باعتبار إضافتها للمخلوق لازماً للصفة باعتبار إضافتها إلى الخالق ؛ هذا كلام باطل ، بل الصفة التي تضاف إلى الله تخص الله جل وعلا وتليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى . فالعجب هنا صفة ثابتة لله وهي تضاف إليه عز وجل على الوجه الذي يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه .

قال هنا : ((عَجِبَ رَبُّنَا)) ، وأيضا قوله «عجب ربنا» فيه التنبيه على أن الأمور كلها بتسخيره لأنه هو الرب ربنا، فالرب هو المالك ، الرب هو الخالق ، الرب هو المتصرف ، الرب هو الذي بيده أزمة الأمور ، الرب الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، هذه كلها من معاني الربوبية ((عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِالسَّلاْسِلِ)) .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي شعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((وَمَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) رواه البخاري .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في باب التعريف بالله والإيمان به سبحانه وتعالى ؛ قال صلى الله عليه وسلم : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ)) عندكم رُسِمت خطأ «ما أحداً صَبَرَ على أذى» ، والألف التي بعد الدال تتبع الكلمة الثانية «أصبر» ، فالألف ليست لكلمة «أحد» وإنما للكلمة التي تليها .

((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) وهذا فيه معرفة الله عز وجل بهذه الصفة «الصبر» ، وأنه سبحانه وتعالى صبور جل وعلا ، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر عن ربه جل وعلا بذلك ؛ ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ)) ففيه أن الله عز وجل صبور ، فنحن نؤمن بهذا الوصف الذي وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ونعرف ربنا بذلك أنه سبحانه وتعالى صبور ، وأخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام على مثال على صبره سبحانه وتعالى ، ولهذا قال : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يَعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) ؛ دعوى الولد هذا قولٌ عظيم قولٌ إِدَّ كبيرٌ جدا ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿ [مرجم: ٨٨-٩١] كلمة عظيمة جداً في غاية الخطورة وفي غاية الكفر والضلال والإلحاد في حق الله سبحانه وتعالى أن يُدعى له الولد ، وهو جل وعلا يدعون له الولد ويصبر ، صبور ، ما أحد أصبر على الأذى منه ، يدعون له الولد ثم يعافيه ويرزقه!! فأنت ترى في الناس من هو ملحدٌ زنديقٌ كافِرٌ عنيدٌ يحارب الله ويحارب أوليائه ويحارب دينه ولا يزال الله عز وجل يعافيه في صحته ويرزقه مالا ، لا يهلكه فور إعلان ما يعلن من الكفر والزندقة ؛ فهذا من صبره جل وعلا وأنه سبحانه وتعالى صبور .

فالواجب على المسلم أن يعرف ربه بما عرّفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهذا يفتح للإنسان باب في هذه المسألة «مسألة المعرفة بالله» ؛ أن الإنسان إذا وقع في المعاصي ووقع في الآثام وفي الكفر وفي الإجماع ويرى نفسه لا يزال ممتعاً ولا يزال يأتيه الرزق والمال ويوسع عليه في الرزق ليس هذا دليل على مكانته عند الله ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كلاً﴾ [الفجر: ١٥-١٧] يعني ليس الأمر كما تظنون ، قد يكون الإكرام بالتوسعة والصحة والعافية قد يكون هذا استدراج ، وكذلك قد يكون ما يصيب الإنسان من مرض أو سقم أو غير ذلك أو فقر ليس مهانة للإنسان عند الله ، «كلاً» يعني ليس الأمر كما تظنون ؛ يعني أن الإنسان إذا وسع عليه فيه المال والصحة والعافية هذا دليل على مكانته عند الله ، أو إذا ضيق عليه في الرزق وأصيب بالفقر أو المرض هذا دليل على مهانته عند الله كلاً ليس الأمر كذلك ، فالإنسان قد يوسع له في الرزق والعافية وهو ليس له مكانة، كافر معرض لكن الله عز وجل يمهله ، وإمهال الله له هذا من صبره سبحانه وتعالى؛ فهو صبور يمهّل ولا يهمل ، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] يمهّلهم ولا يهملهم سبحانه وتعالى .

فإذا هذا باب في المعرفة بالله جل وعلا ؛ إذا عرف الإنسان أن الله عز وجل يصبر على الأذى يسمعه فلا يكون متماداً في الأذى لأن هذا يكون صبر من الله عز وجل على الأذى الذي يسمعه من العبد ثم بعد ذلك يأتي هلاك العبد بغتة ، فلا يغتر الإنسان بأنه فعل أموراً عظيمة أو آثاماً خطيرة وصحته باقية ، بعض الناس يغتر يرى صحته باقية ، يرى ماله باقياً ، يرى الخير عنده والنعمة متوالية .. فيظن أن الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها ليست مؤثرة ويقول في نفسه "لو كانت مؤثرة لأثرت في النعمة كان أخذ الله مني هذا الذي أعطاني ، فكونه لم يأخذ مني هذا دليل على أن هذه الأمور ليست مؤثرة" ؛ فهذا من الأشياء التي يخطئ فيها كثير من الناس فيتمادى في العصيان ، عندما يكون ممتعاً بصحة وعافية ونعمة ومال إلى آخره وفي الوقت نفسه لا يزال مستمراً في أخطائه ، فلينبه العبد في معرفته بالله إلى هذا الحديث قول النبي : ((مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَىٰ أَدَىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)).

قال رحمه الله تعالى :

وله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَىٰ: يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ؛ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يَنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ)).

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث في التعريف بالله سبحانه وتعالى بهذه الصفة العظيمة وهي أنه يحب جل وعلا، كما قال عن نفسه في القرآن: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، فهذه صفة ثابتة لله ثبتت في القرآن وثبتت في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فمما يجب على المسلم أن يعرف ربه به أنه يحب جل وعلا ؛ يحب أنبياءه ، يحب أوليائه ، يحب طاعته ، يحب الطائعين من عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، فالمسلم عليه أن يعرف هذه الصفة، يعرف أن الله عز وجل يحب ، ويعرف أنه يحب الطاعة ويبغض المعصية ويكره الكفر ولا يرضى لعباده الكفر ، وإذا عرف ذلك يجاهد نفسه في معرفة الأمور التي ينال بها محبة الله جل وعلا . والله وضع لنا في القرآن ميزاناً في هذا الباب ، قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] يحبكم الله متى ؟ مرتبطة بقوله «اتبعوني» ، بمعنى: كلما عظمت متابعتكم للرسول عليه الصلاة والسلام واثتساؤكم به واقتداؤكم بهديه عظم نصيبكم وحظكم من محبة الله لكم .

فمحبة الله للعبد لا ينالها العبد بمجرد ادعائه ، اليهود إخوان القردة والخنازير أحقر عباد الله وأخسهم وأشهرهم وأعظمهم بغياً وظلماً وعدواناً يقولون «نحن أبناء الله وأحباؤه» ، إذا كان هؤلاء إخوان القردة والخنازير يقولون هذه المقالة «نحن أبناء الله وأحباؤه» ؛ هذا يدلنا على أن الدعوى هذه سهلة على اللسان ، سهل على لسان أي إنسان أن يقول الله يحبني أو نحن أحباء الله ، هذه من أسهل ما يكون ، سهلة وكثير من الناس خفيفة على لسانه ، وربما ربط محبة الله له بأمور معينة ، دولة من الدول الكافرة مشهورة بالفوز في لعب كرة القدم ، فالشعب هناك يقولون كما ذكر لي بعض الإخوة يقولون "نحن الله عز وجل يحبنا بدليل أننا دائماً ننتصر في كرة القدم" ، الدعوى هذه سهلة جداً على اللسان ، يقول "الله يحبني بدليل أنا كذا ، الله يحبني بدليل أعطاني كذا" هذه سهلة جداً . ولهذا ابن كثير رحمه الله عليه نقل كلمة جميلة جداً رائعة لأحد السلف في تفسيره لهذه الآية، قال أحد السلف: «ليس الشأن أن تحب ولكن الشأن أن تُحَبَّ» ، يعني ليس الشأن في هذا الأمر أن تدعي أن الله يحبك ، لكن الشأن أن يحبك الله فعلاً ، فانتبه بماذا تنال محبة الله لك . ولهذا أيضاً قال ابن كثير رحمه الله : أن هذه الآية تدل على أن من ادَّعى محبة الله دون لزوم الشرع الحمدي والنهج النبوي بأن دعواه كاذبة ، ونقل عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : «زعم قوم أنهم يحبون الله حباً شديداً فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾» ، ولهذا أيضاً يسمي العلماء هذه الآية «آية المحنة» ، بمعنى: من أراد أن يمتحن نفسه في هذا الباب فليمتحن نفسه على ضوء هذه الآية ؛ ينظر قدر الاتباع عنده للرسول عليه الصلاة والسلام فهو المقياس الذي يظهر به هذا الأمر والميزان الدقيق الذي يتبين به هذا الأمر .

فمما يجب على المسلم أن يعرف به ربه أن ربه يحب ، ويجتهد أيضا في معرفة الأعمال التي يحبها سبحانه وتعالى من عباده ويرضاها عنهم حتى يجتهد في تطبيقها والقيام بها لينال بذلك محبة الله عز وجل .

فإذا أحبه الله اسمع ما في الحديث قال : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى يَا جِبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ)) يعني فأحبه يا جبريل ((فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ)) لا إله إلا الله ! انظر هذا الخير العظيم إذا أخلص العبد مع الله وصدق وأقبل على الأعمال الصالحة بينه وبين الله صادقًا مع الله عز وجل وأحبه الله جل وعلا لإقباله وصدقه ونصحه وإخلاصه وجده واجتهاده وتقربه إلى الله ؛ إذا أحبه الله نادى رب العالمين جبريل «إني أحب فلانا» ، رب العالمين يقول لجبريل «إني أحب فلانا» ، ما أعظم مكانة من فاز بهذا الأمر ، ما أعظم مكانته أن يقول رب العالمين وخالق هذا الخلق سبحانه وتعالى إني أحب فلانا يسميه باسمه ، رب العالمين يسميه لجبريل باسمه يقول «إني أحب فلانا فأحبه» يأمر سبحانه وتعالى جبريل أن يحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء : «إن الله يحب فلانا فأحبوه» فيحبه أهل السماء ، مر معنا قريبا ((أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله سبحانه وتعالى)) ، كل هؤلاء بالآلاف بالملايين كلهم يحبونه ، يحبونه باسمه بشخصه ، أحبه الله ونادى جبريل أن يحبه فأحبه جبريل ونادى جبريل أهل السماء أحبوا فلانا؛ فأحبه أهل السماء، ويُطرح له القبول في الأرض ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي مودة في قلوب الخلق .

فهذه الأمور : محبة الله لعبده ، ومحبة أهل السماء له ، والقبول الذي يطرح له في الأرض لا ينال بالدعوى ولا ينال بالتظاهر ، لا يُنال إلا بشيء بين الإنسان وبين الله ؛ صدق مع الله وإخلاص لله وإقبال على الله، فهذا مما يجب أن يعرف الإنسان به ربه سبحانه وتعالى، أنه لا يفوز ولا يربح ولا يغنم ولا ينال سعادةً وطمأنينةً وقبولا وراحة في الدنيا والآخرة إلا بشيء بينه وبين الله يصدق فيه مع الله سبحانه وتعالى ويخلص فيه لله جل وعلا ، والأمور بيده سبحانه وتعالى ، فإذا أحب الله عبده لصدق العبد ونصحه وإقباله وجده واجتهاده نادى جبريل «أحب فلان» ، ينادي جبريل باسم الشخص أحب فلانا يذكره باسمه ، وجبريل يحبه وينادي أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ؛ فيحبه أهل السماء ثم يطرح له القبول في الأرض . فهذا الأمر الذي هو محبة الله لعبده وثبوت المحبة صفةً له لا تُنال بمجرد الدعوى ، الدعوى رخيصة جدًا قالها كما قدمت لكم إخوان القردة والخنازير ، من لعنهم الله وجعل منهم القردة والخنازير هؤلاء منهم أخبر الله عنهم أنهم يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، فالكلمة رخيصة على اللسان سهلة على اللسان ، مجرد الدعوى لا يحظى الإنسان بمكانة ، لكن الذي يحظى بها شيء بينه وبين الله يصدق مع الله فيه .

فهذا الحديث يفتح لك بابًا في معرفة الله ، وأهمية الصدق معه والإخلاص له وحسن الإقبال عليه ، وأن يكون الإنسان بينه وبين الله أعمال يكسب بها قربه وثوابه ونيل أجره ورحمته والنجاة من عذابه سبحانه وتعالى ، بمثل هذا ترتفع درجات العبد وتعلو منازلُه عند الله سبحانه وتعالى .

والله تعالى أعلم . وصلى الله وسلم على رسول الله .

الدرس السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا ، اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا . ونواصل مستعينين بالله عز وجل القراءة في هذا الكتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قَالَ : ((إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا)) ، ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠] . رواه الجماعة .

أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث جرير بن عبد الله البجلي في باب معرفة الله عز وجل والإيمان به ؛ ففيه الدلالة على أن مما ينبغي أن يعرف به المؤمنون ربهم سبحانه وتعالى أنه جل وعلا يكرم أهل الإيمان وأهل الطاعة والعبادة والإحسان بأعظم كرامة وأجل منة وأعظم عطية؛ ألا وهي رؤيتهم لمن خلقهم وأوجدهم سبحانه وتعالى ، فهذه أكبر المنن وأعظم العطايا ، ولهذا جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ)) بعد أن يأخذ أهل الجنة في نعيمها ويسعدون بما جعل الله سبحانه وتعالى لهم فيها من أنواع النعم والمنن والعطايا والأفضال يسألهم الله جل وعلا ((تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟))

فَيَقُولُونَ: «أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا! أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ! وَتُخْرِجَنَا مِنَ النَّارِ»، ((فَيُكْشَفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ)) رواه مسلم في صحيحه ؛ فهذا يدل على أن هذه النعمة هي أعظم النعم ، كرامة الله عز وجل لأهل الإيمان ومنته عليهم سبحانه وتعالى بأن يكرمهم يوم القيامة بالنظر إلى خالقهم الجليل العظيم سبحانه وتعالى ينظرون إليه ، وهذا نظر إكرام وإنعام ويحصل لهم بهذا النظر نضرة في وجوههم وهو حُسن وبهاء وجمال وزينة ، كما قال الله عز وجل: ﴿وَجُوهُهُمْ مُنِيرَةٌ مُضِيئةٌ مَشْرِقةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ؛ «ناضرة»: أي حسنة بجملة جميلة مضيئة مشرقة ، «إلى ربها ناظرة»: أي تنظر إلى الله سبحانه وتعالى بأبصارها يوم القيامة ، قال بعض السلف كلاما معناه : كيف لا تكون ناضرةً وهي تنظر إلى الله!! الإنسان في نظره لأشياء يسيرة جدًا في الحياة الدنيا من المناظر الجميلة أشجار أو نحو ذلك تجلب لقلبه شيء من البهجة والراحة في أمور يسيرة جدا فكيف إذا كان نظر الإنسان إلى النعيم الذي في الجنة!! وكيف إذا كان النظر الإنسان إلى الرب العظيم!! جل جلاله سبحانه ، فهذه أكبر النعم أكبر النعم التي ينالها أهل الإيمان يوم القيامة أن ينظر أهل الإيمان في الجنة إلى من خلقهم وأوجدهم سبحانه وتعالى؛ ينظرون إلى جلاله وجماله وكماله جل وعز ، فهذه أكبر العطايا .

فالمصنف رحمه الله ساق هذا الحديث العظيم ليبين أن مما ينبغي أن يُعرف به الرب سبحانه وتعالى الخالق لهذا الكون الموجد لهذه المخلوقات أن أهل الإيمان سيرونه يوم القيامة ، وهذه خاصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم ، خاصةً بهم يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة رؤيةً إنعام وإكرام وفضل ومنّ ، ويترتب عليها من الخير العائد لهم ما لا يخطر لهم ببال ؛ من نضرة الوجوه ، وقرّة العيون ، وسرور القلوب ، وأنس الخواطر ، وتوالي الخيرات ، إلى غير ذلك من أمور عظيمة ينالها أهل الإيمان .

فنبينا عليه الصلاة والسلام يخبر بهذا الأمر في هذا الحديث فيقول: ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ)) أي يا أهل الإيمان ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ)) وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام نظر إلى القمر في ليالي الإبدار في منتصف الشهر ، نظر إلى القمر وهو مكتمل في السماء كل يراه مكتملا فقال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إليه : ((إنكم سترون الله جل وعلا كما ترون هذا القمر)) .

والكاف هنا في قوله ((كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ)) ليست تشبيهاً للمرئي بالمرئي ، وإنما تشبيهاً للرؤية بالرؤية ، أي كما أنكم ترون القمر رؤيةً حقيقيةً بأبصاركم فإنكم سترون الله سبحانه وتعالى ، كما أن رؤيتكم للقمر رؤية حقيقية ترونه من فوقكم رؤية حقيقية الكل يراه الكل ينظر إليه لا يحتاج أن ينضم بعضكم إلى بعض من أجل النظر لدقته أو لحفائه أو لبُعده وإنما الكل يراه ؛ فالتشبيه هنا للرؤية بالرؤية ؛ أي أنها رؤية حقيقية بالأبصار كما أنكم ترون القمر من فوقكم رؤيةً حقيقيةً بالأبصار، هذ معنى قوله ((كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ ليلة البدر)) ليلة البدر هي ليلة التمام .

وفي بعض ألفاظ الحديث ((إنكم سترون ربكم يوم القيامة)) فهذه الرؤية ليست حاصلة لأحد إلا في يوم القيامة ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((اعلموا أنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا)) ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام هل رأى ربه عندما عُرج به إلى السماء؟ قال ((نورٌ أنى أراه)) فهو عليه الصلاة والسلام لم ير الله جل وعلا عندما عُرج به إلى السماء ، والرؤية رؤية الله عز وجل في الدنيا ليست حاصلة لأحد ولم يجعل الله عز وجل للناس قدرة على هذه الرؤية، لكنه يوم القيامة سبحانه وتعالى يجعل لهم من القدرة والقوة على النظر له جل وعلا .

قال : ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) ، ((لَا تَضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) ، ((لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) روايات وألفاظ وردت في هذا الحديث وكلها دالة على معاني صحيحة ، ((لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) أي لا يحصل لكم ضيم في الرؤية بل الكل يحصل له الرؤية بدون عنت وبدون مشقة ، ((لَا تَضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) أي لا يحصل لكم تضار بسبب تزاخم الناس أو تدافعهم لرؤية أمر معين ، ((لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) أي لا يحتاج أن ينضم بعضهم إلى بعض من أجل الرؤية ، وعادة عندما يريد الناس النظر إلى شيء يكون دقيقاً يجتمعون حتى يحدّدوا أو يستطيعوا النظر أو الرؤية ، فكل هذا لا وجود له فسترون الله سبحانه وتعالى رؤية حقيقية بأبصاركم ، وأكد هذا المعنى بعدة مؤكّدات صلوات الاله وسلامه عليه ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ ، أَوْ لَا تَضَارُونَ ، أَوْ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ)) .

وينبغي أن يُعلم هنا من سياق هذا الحديث ودلالة أحاديث ونصوص أخرى: أن رؤية الله عز وجل أعظم منال وأكرم نعمة وأفضل عطية ينالها أهل الإيمان ، وهذه العطية والمنة العظيمة الكبيرة لا بد في العبد من أجل أن يحصلها وأن ينالها وأن يكون من أهلها لا بد له من أمور تؤهله لهذه الرؤية ، فهي ليست حاصلة لكل أحد ، ولهذا هنا خاطب أهل الإيمان قال : ((إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ)) ، فليست كل الوجوه تنتظر ولهذا الله عز وجل قسّم الوجوه في القرآن إلى وجهين يوم القيامة ، قال : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَِاسِرَةٌ (٢٤)

تُظَنُّ أَنْ يَفْعَلُ بِهَا قَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥] نسأل الله العافية والسلامة ، فالوجوه يوم القيامة على وجهين :

١. وجه ناضر؛ يعني حسن بهي جميل يكرمه الله عز وجل بالنظر إليه .

٢. ووجوه عليها غبرة ترهقها فترة محجوبة عن الله ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [الطغفان: ١٥]

إذاً هناك أمور في الدنيا لا بد أن يقوم بها العبد لتؤهله للرؤية وهي الإيمان وتحقيق طاعة الله عز وجل ، فالجنة التي أعظم إكرام وإنعام فيها رؤية الله لا يمكن أن يدخلها أحد إلا بالإيمان ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: ((لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ)) ، فالإيمان لا بد منه ، والأعمال الصالحة التي ترتفع بها درجات العبد وينال بها عالي المقامات ورفيع الدرجات لا بد منها ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] ، ولهذا

سيأتي عند المصنف رحمه الله إيراد ما يدل على ذلك من السنة ؛ تفاوت أهل الجنة في نعيم الجنة ، وتفاوت الجنة في درجاتها لتفاوت أهل الإيمان في أعمال الإيمان وطاعاته وتفاوتهم فيها في حياتهم الدنيا . فنبه النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا المعنى؛ نبه على الإيمان بقوله ((إِنَّكُمْ)) أي يا أهل الإيمان ((سَتَرُونَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، ونبه على العمل والتقرب إلى الله عز وجل والمجاهدة مجاهدة النفس على ذلك ولا سيما وبخاصة الصلاة ، ولهذا قال هنا في هذا الحديث : ((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا)).

وهنا رعاك الله لا بد أن تنتبه إلى فائدة عظيمة وهي الارتباط بين العقيدة والعمل ، وثمره العقيدة الصحيحة في حسن العمل ، فثمره ارتباط وثيق بينهما ؛ العقيدة الصحيحة الإيمان الصحيح الإيمان الراسخ يورث عملاً يحرك في القلب العمل والعناية بالعمل ، لما ذكر الرؤية التي هي أكمل نعيم وهي عقيدة يعتقدونها أهل الإيمان ، أهل الإيمان يعتقدون من جملة عقائدهم أن أهل الإيمان يرون الله يوم القيامة ، فهذه العقيدة تثمر ماذا ؟ لا تثمر بطالة ، لا تثمر كسلاً ، لا تثمر فتوراً إنما تثمر جدّاً واجتهاداً ، تحرك في القلب شوقاً لنيل هذه الرؤية وطمعاً فيها ، وهذا الشوق والطمع يحرك في النفس إقبالاً على الأعمال وعلى الطاعات التي يُنال بها هذا الأمر العظيم ، فالعقيدة تثمر العمل وتحرك في القلب العمل ولهذا هنا قال : ((إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ)) هذه العقيدة ، العمل الذي يترتب عليها وتتطلبه ما جاء في آخر الحديث في قوله ((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ)) ، فثمره ترابط وثيق بين العقيدة والعمل ، العقيدة تثمر العمل الصحيح تثمر الخلق الفاضل والجد والاجتهاد في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وكأن الحديث يشار فيه إلى سامعه يقال له : يا من عرفت أن أهل الإيمان يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ويكرمهم بهذه الرؤية فاجتهد أن تكون من هؤلاء بتقديم العمل والطاعة ، واحذر أن تفرط في الصلاة ، لأن تفريطك في الصلاة وتضييعك لها حكمٌ على نفسك بالحرمان من هذا الأمر ، فالذي لا يصلي حكم نفسه بالحرمان من هذا .

وينبغي يا إخوان أن نلاحظ هذه الملاحظة وهي: أن هناك ارتباط وثيق بين الصلاة والرؤية ، الصلاة على وجه الخصوص ولا سيما المكتوبة ، بين الصلاة ورؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة رابطة وثيقة تراها جلية واضحة في كثير من النصوص ، والصلاة سميت صلاة لأنها تصل العبد بالله تبارك وتعالى ، وهي أيضاً توصل العبد إلى رؤية الله يوم القيامة ، وانظر هذه الرابطة في نصوص كثيرة منها هذا النص الذي بين يديك الآن ؛ ((إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ)) يعني لا يغلبكم على الصلاة أي غالب ، لأنه إذا غلب الإنسان على صلاته حصل له بذلك الحرمان ، حرم نفسه ((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا)) يعني كأنه يقال إن كنت تريد ولا أحد يأبى ذلك لنفسه إن كنت تريد لنفسك ذلك فحافظ على الصلاة ؛ هذا معنى الحديث ومدلوله .

ففي الحديث ارتباط بين الصلاة والرؤية ، انظر هذا الارتباط في القرآن الكريم بين الصلاة والرؤية ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَظَرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] هذا القسم من الوجوه الذي يكرمهم الله سبحانه وتعالى بالرؤية .

انظر إلى القسم الآخر الذي يُحجب ويُمنع ويُحرم ما هي صفاته ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّتِى السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٢٤-٣١] هذه من موجبات الحرمان ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ هذا القسم الذي لا ينظر إلى الله سبحانه وتعالى ، من القسم الذين قال عنهم في سورة أخرى في آية أخرى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦] ، فمن أعمالهم التي استحقوا بها ذلك ما ذكره الله هنا ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ . إذا المفهوم هنا أن أولئك ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَظَرَةٌ﴾ من أهل الصلاة ، والصلاة هي التي أوصلتهم وغيرها من الطاعات أوصلتهم إلى هذا الثواب العظيم .

فالرؤية مرتبطة بالصلاة ولهذا جاء في حديث عمار بن ياسر في سنن النسائي وغيره بسند ثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو في صلاته ((اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ وَقُدِّرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي)) إلى قوله في هذا الدعاء ((وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرَبِّنَا الْإِيمَانَ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)) ، ولاحظ أيضا الارتباط بين الصلاة والرؤية في هذا الحديث ؛ فبيننا عليه الصلاة والسلام في الصلاة التي هي من أعظم موجبات نبل الرؤية يسأل الله عز وجل لذة النظر قال : ((أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) لذة النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى هي أعظم لذة وليس في اللذات لذة تدانيها أو تقاربها ، أعظم لذة على الإطلاق هي لذة النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى ، فيقول هنا ((أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) ولذة النظر غاية ، والشوق إلى لقائه وسيلة لنيل هذه الغاية ، وقدم الغاية لعظمها وفخامتها ، ((أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ)) هناك شوق في القلب يحدو الإنسان يحركه يبعثه يدفعه إلى الأعمال والقربات إلى الله عز وجل حتى ينال هذا الفوز العظيم والنعيم المقيم .

قال: ((فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)) أي أسألك أن يكون نيلي لهذا الأمر في غير ضراء ولا فتنة ، قال العلماء: لا تكون الرؤية إلا بعد الموت كما تقدم الحديث بهذا ، والموت قد يطلبه الإنسان لنفسه لضراء أصابته ولهذا جاء في حديث آخر : ((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ)) ، فقد يطلب الإنسان الموت لضراء

أصابته فيريد الموت للخلاص من هذه الضراء ، أو أيضا يصاب الناس في زمانه بفتن فيخشى على نفسه منها فيتمنى الموت خوفا من الفتن ، فهنا يحقق هذا الدعاء ويخلص هذا الدعاء أنه يسأل الله عز وجل النظر إليه ولذة النظر إليه شوقا إلى الله عز وجل ليس طلبا للموت فراراً من مصيبة أملت بالإنسان في الدنيا أو ضراء أصابته في الدنيا ، وليس أيضا فراراً من فتنة، وإنما هو في شوق وفي طمع وفي لهف وفي رغبة تملأ جوانحه لرؤية الرب العظيم سبحانه وتعالى .

قال: ((وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرَبِّينَا (الإيمان)) وهذا مما يوضح لكم الارتباط بين الإيمان طاعاته ، ومن طاعاته العظام الصلاة ، والصلاة إيمان ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم الصلاة إيمان ، فانظر الارتباط الذي أشير إليه أيضا فيما سبق .

حديثنا يقول فيه عليه الصلاة والسلام ، هنا لفظة لا بد نقف عندها ، يقول ((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا)) قف هنا متأملا ودقق النظر وزد في التأمل في قوله عليه الصلاة والسلام «تغلبوا» ماذا تستفيد منها ؟ ((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا)) ماذا تستفيد من هذا البيان؟ يعني كأنه يقال لك : هذه الرؤية وهذه منزلتها وهذه مكانتها وهذه الصلاة هي أعظم ما تنال به الرؤية وانتبه في الدنيا أشياء كثيرة ستغلبك على الصلاة ، فانتبه أن تغلب على صلاتك لا يغلبك على صلاتك أي شيء .

((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا)) ؛ الصلاة التي قبل طلوع الشمس هي صلاة الفجر ، والصلاة التي قبل غروبها هي صلاة العصر ، وهاتين الصلاتين في النصوص خصوصية عظيمة جدا ، وورد فيهما نصوص خاصة من ضمنها قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ)) الملائكة الذين يتعاقبون على الناس بالليل والنهار يجتمعون في هذين الصلاتين ((ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاثُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) لما جاءوا الفجر وجدوهم في صلاة ، ولما صعدوا العصر كانوا في صلاة ، والذين جاءوا بعدهم أيضا وجدوهم في صلاة لما أتوهم ، ولما صعدوا منهم كانوا أيضا في صلاة الفجر ، وهؤلاء الملائكة الذين يتعاقبون يرون عباد الله عندما ينزلون في صلاة وعندما يصعدون في صلاة ((تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، النائم على فراشه والمشتغل بأعماله واللاهي عن صلاته ليس داخل مع هؤلاء ، هذا يختص بالمصلين ((تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ)) ، الذي ينام عن صلاة الفجر محروم هذا والذي ينام عن بقية الصلوات أيضا محروم .

وقد تسأل هنا لماذا خصت هنا صلاة الفجر وصلاة العصر بالذكر؟ خصت هاتان الصلاتان بالذكر لأنهما أعظم الصلوات وفيهما من الفضائل والخصائص ما ليس لغيرهما ، فإذا حافظ عليهما العبد فإن هذا يدفعه إلى المحافظة

على ما سواهما ، وإذا ضَيَّعَهما العبد فهو لما سواهما أضيع من بقية الصلوات وغيرها من الطاعات ، وصلاة الفجر تأتي في مفتح اليوم وباكورته وأوله ، فمن منَّ الله عز وجل عليه ولم يُغلب على صلاة الفجر وأحسن في صلاته كانت هذه الصلاة عوناً له على أداء بقية الصلوات ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فإذا استهل يومه بنشاط وهمة وتعوذ من الشيطان وذكر الله إقبال على صلاة الفجر سيكون أيضاً بعون الله محافظاً على بقية الصلوات ، فلأجل هذا خص هاتين الصلاتين بالذكر ، قال: ((فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا)).

أيضاً لمزيد الفقه في هذا الباب؛ لك أن تسأل ما هي الأمور التي تغلب الناس على صلاتهم؟ وهذا من الأمور المهمة التي ينبغي أن تنتبه لها ، ما هي الأمور التي تغلب الناس على صلاتهم؟ تعرفها حتى لا تغلبك على صلاتك ، ما هي الأمور التي تغلب الناس على صلاتهم؟ صلاة الفجر كثيراً ما يغلب الناس عليها ، تجد الأذان أذن والمنادي نادى «الصلاة خير من النوم» وهذا مستمر في نومه إلى طلوع الشمس ، اليوم وغداً وبعد غد وهو على هذه الحال ، ما الذي غلبه هنا؟ غلبه النوم وما يسبق النوم من طول في السهر ، سهر في لهُ وباطل ونوم عن فرائض ، يسهر في لهُ وفي باطل وفي ضياع وينام عن فريضة كتبها الله سبحانه وتعالى عليه!! فأى حرمان أقطع من هذا؟! أن يضيع ليله في لهُ وباطل وأن يبدأ نهاره بتضييع الفريضة ، فأى حرمان أقطع من هذا؟ الليل يضيع في لهُ وباطل! والنهار يفتح بتضييع فريضة من فرائض الله سبحانه وتعالى التي كتبها جل وعلا على عباده!!

أيضاً يغلب الناس على صلاتهم: اللهُ والإقبال على الدنيا والتكالب عليها وملاً القلب بها ؛ هذه أمور تغلب الناس على صلاتهم ، أصبح الآن من الناس من يغلبه على صلاته فنجان شاي ، بيده فنجان الشاي يصبه ؛ ماء حار في داخله ورق أحمر وينادى للصلاة فيجلس يشرب الشاي ما يريد أن يترك الشاي والصلاة يتركها!! أمور كثيرة الآن حتى أشياء من أتعفه وأحقر الأمور تغلب الناس على صلاتهم ، وأصبح الصلاة في ميزان كثير من الناس لا قيمة لها، وقد قال بعض السلف رحمهم الله كلمة عظيمة جداً معناها : من أراد أن يعرف وزن الإسلام في قلبه فلينظر إلى وزن الصلاة عنده ، لأن حظك من الإسلام بحسب حظك من الصلاة ، ومن ضيع الصلاة فهو لما سواها أضيع ، ومن حافظ على الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام : ((كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ)) ، الصلاة نور تضيء للإنسان طريقه في هذه الحياة وبرهان على إيمانه وحسن صلته بربه سبحانه وتعالى ، ونجاة له يوم القيامة فيلقى الله عز وجل يوم القيامة مصلياً مقبلاً مطيعاً لله جل وعلا .

قال : ((إنكم سترون ربكم يوم القيامة فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا)) ؛ قوله «فافعلوا» فيه تنبيه للمجاهدة ، مجاهدة النفس ومداومة جهادها على المحافظة

على الصلاة ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . اللهم اجعلنا من المقيمين الصلاة ، ومُنَّ علينا يا ذا الجلال والإكرام بلذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠] هذه الآية فيها إشارة إلى هاتين الصلاتين ؛ صلاة الفجر التي هي قبل طلوع الشمس ، وصلاة العصر التي هي قبل غروبها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بَدَ لَهُ مِنْهُ)) رواه البخاري .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث العظيم في باب معرفة الله عز وجل والإيمان به ، والحديث يدل على أن مما ينبغي أن يعرف المؤمن به ربه سبحانه وتعالى أنه عز وجل يتولى أوليائه والصالحين من عباده بحفظه وكلاءته ورعايته سبحانه وتعالى ، يتولاهم بتوقيفه وتسديده وعونه ، يتولاهم بحفظه ونصره جل وعلا ؛ هو وليهم ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، ﴿ إِنْ اللَّهُ يُدَافِعْ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج: ٣٨] ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] . فأوليائه الله والصالحين من عباده يبين هذا الحديث ما لهم من الفضل والتوفيق والحفظ والتسديد والمعونة من الله جل وعلا ، فهذا مما ينبغي أن يُعرف به الله جل وعلا ؛ فيقبل العبد على الله عز وجل ويجاهد نفسه ليكون من أولياء الله .

وباب كون العبد من أولياء مفتوح لكل أحد ، لا يختص بجنس دون جنس أو لون دون لون أو نسب دون نسب لا يختص بأحد ، الباب مفتوح لكل أحد ؛ بمجاهدة النفس على تحقيق أمرين الإيمان بالله وتقواه ينال العبد الولاية ويكون من الأولياء ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً» ، فبالتقوى والإيمان تنال ولاية الله عز وجل ، لا تنال الولاية بدعوى يدعيها الإنسان أو نوع لباس يتميز به الإنسان أو مظاهر يتظاهر بها أو نحو ذلك

لا تنال الولاية بهذا، وإنما تنال الولاية بشيء بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

واجتماع الإيمان والتقوى يدل على أمرين يلزم العبد لزومهما والمحافظة عليهما وهما: العناية بالأوامر فعلا ، والبعد عن الناهي والمحرمات وما نهى الله تبارك وتعالى عباده عنه . فالإيمان تعني فعل الأوامر والطاعات مع صلاح المعتقد، والتقوى تعني اجتناب المحرمات واتقائها والبعد عنها ، فمن كان بهذه الصفة نال هذه المنزلة العلية والرتبة الرفيعة .

والحديث هنا فيه بيان ما للأولياء من مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة عند رب العالمين وخالق الخلق سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول الله عز وجل في بيان مكانة أوليائه ومنزلتهم قال : ((إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)) وهذا فيه أن من بارز أولياء الله بالعدوان والظلم والإساءة والاعتداء فقد آذنه الله جل وعلا بالحرب، ومن آذنه الله عز وجل بالحرب فقد تحقق هلاكه في دنياه وأخراه، لأنه سبحانه وتعالى بيده أزمة الأمور ومقاليذ السماوات والأرض، عطاؤه كلام وعذابه كلام سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] .

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)) أيضا يفهم من الحديث كما نبه العلماء أن من صافى الأولياء وأحبهم وعرف مكانتهم وقدرهم فقد فاز برضا الله سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى ما جاء في الحديث ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ)) ، فمن أحبهم في الله سبحانه وتعالى فاز برضا الله سبحانه وتعالى ومن عادى أولياء الله وتلقاهم بالشنئان والبغض والعدوان والظلم ونحو ذلك فقد آذنه الله سبحانه وتعالى بالحرب ، قال ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)) .

ثم ذكر صفة الأولياء ، كآنه قيل : من هم الأولياء ، الله قال: ((من عادى لي وليا)) فكأنه قيل من هم الأولياء ما هي صفتهم ؟ فذكر جل وعلا في هذا الحديث القدسي أن أوليائه على درجتين وعلى مرتبتين:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الدرجة الأولى بينها في قوله سبحانه وتعالى : ((وَمَا تَقْرَبْ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ)) هذه مرتبة من مراتب الولاية: المحافظة على الفرائض ، حفظ الفرائض والمحافظة عليها والبعد عن المحرمات ما حرمه الله عز وجل لعباده ، وهذه الدرجة يسميها أهل العلم «درجة المقتصدين» وإليها الإشارة في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٢٢٠] ، والمقتصد : هو الذي يحافظ على الفرائض ويترك المحرمات ؛ هذا ولي من أولياء الله، ويوم القيامة يدخله الله سبحانه وتعالى الجنة بدون حساب ولا عذاب ، من حافظ على الفرائض وترك المحرمات دخل الجنة يوم القيامة بلا حساب ولا عذاب .

والدرجة الثانية للأولياء وهي أرفع وأعلى وأسمى من هذه الدرجة إليها الإشارة هنا في هذا الحديث في قوله : ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)) هذه الدرجة الثانية وهي أعلى من الدرجة الأولى ، هذه الدرجة فيها ما في الدرجة الأولى وهو المحافظة على الفرائض وترك المحرمات وزيادة على ذلك بالعناية بالنوافل . وانتبه لقوله ((ولا يزال)) لأن هذه الكلمة كما يقول العلماء تفيد الاستمرار والمداومة ، ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ)) يعني مستمرا مداوما محافظا على النوافل ، هذه الدرجة الثانية وهي أعلى وهي درجة المقربين أو قل أيضا «درجة السابقين بالخيرات» .

قال عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ بُدِئَ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢] وقد قال العلماء: المقتصد والسابق بالخيرات كلاهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب دخولاً أولياً ، من كان محافظاً على الفرائض مبتعداً عن المحرمات ، ومن كان أيضاً محافظاً عليها وإضافة إلى ذلك مسابقاً في الرغائب والنوافل والمستحبات ؛ فهذان يدخلان الجنة بدون حساب ، ورتبتهما في الجنة ليست متساوية، السابقون لهم درجة عالية ، والمقتصدون لهم درجة دون ذلك ، ولهذا سيشير المصنف رحمه الله في الحديث الآتي إلى هذا المعنى بذكر الجنات التي في الجنة جنة المقربين وجنة المقتصدين ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، ﴿وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٦٢] يشير إلى هذا المعنى في الحديث القادم .

وإتيانه بالحديث القادم بعد حديث الولي في غاية المناسبة ؛ لأن حديث الولي ذكر أن أولياء الله عز وجل ... على كل أحد ، فهي لا تنال بمجرد الدعوى وإنما تنال بمجاهدة ولاحظ المجاهدة هنا ((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)) يعني حتى ينال منزلة عظيمة عند الله سبحانه وتعالى في المحبة ، وإلا فإن من يؤدي الفرائض ويترك المحرمات له نصيب وحظ من حب الله تبارك وتعالى له ، لكن الذي حافظ على النوافل نصيبه أوفر وحظه أعظم ، ولهذا قال: ((حتى أحبه)).

ثم انظر ماذا يترتب على حب الله عز وجل لوليه ؟ قال : ((حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ)) هذه ثمار وآثار ((فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ)) أي أنه سبحانه وتعالى يؤيده ويسدده في سمعه وفي بصره وفي قدمه وفي يده ويستجيب دعاءه ويكون محفوظاً بحفظ الله سبحانه وتعالى له ، هذا معنى قوله كنت سمعه وكنت بصره وكنت يده وكنت قدمه ؛ أي أنه سبحانه وتعالى يسدده في سمعه وفي بصره وفي يده ، هذا معنى الحديث .

وقد أساء قوم أعظم إساءة عندما توهوا معنى فاسد في قوله «كنت سمعه» أي أن سمع الإنسان يصبح سمع الله وبصر الإنسان يصبح بصر الله إلى غير ذلك من الكلام الباطل الذي لا يقوله من عرف دين الله عز وجل ومن عرف الله سبحانه وتعالى ، والله جل وعلا ذكر في الحديث سائلاً ومعطياً ، عبداً ومعبوداً ، رباً ومربوباً ، حافظاً

ومحفوظا ، كل هذه ذكرت مفصول بينها ، الله عز وجل بصفاته وهذا العبد بصفاته ، إذًا ما معنى ((كنت سمعه كنت بصره كنت..)) ؟ أي أن الله عز وجل يؤيده بسمعه وبصره وقدمه ويتولى حفظه سبحانه وتعالى ، ولهذا قال: ((بي يسمع وبي يبصر)) يعني بتأييد الله له وبعبونه وبحفظه وتوفيقه سبحانه وتعالى له ، هذا معنى قوله ((كنت سمعه الذي يسمع به..)) إلى آخر الحديث .

وهنا انتبه رعاك الله إلى فائدة عظيمة جدًا تعالج مشكلة نراها ظاهرة في حياتنا جميعا ، وهي راجعة إلى كثرة تفريطنا وتضييعنا في مجاهدة النفس على العبادة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وهي كثرة المشاكل والأمور التي تقلق الإنسان ، سواء ما يصل إليه منها من طريق السمع أو ما يصل إليه من طريق البصر أو ما يصل إليه من طريق اليد أو ما يصل إليه من طريق القدم ، وقلة التوفيق في الأمور وقلة التسديد ؛ فالحديث يعطيك العلاج يعطيك الدواء الناجع لحل هذه المشكلة وهو أن تقبل على الله سبحانه وتعالى ، ونيلك التسديد والتوفيق والمعونة في سمعك وفي بصرك وفي قدمك وفي سيرك وفي رواحك وفي أمورك كلها نيلك هذا التسديد والتوفيق بيد الله ، ولا تناله إلا إذا فعلت ما تنال به رضا الله والإقبال على طاعة الله سبحانه وتعالى . فالحديث يفتح لك باب التوفيق وباب التسديد وباب نيل معونة الله سبحانه وتعالى لك في أمورك كلها ؛ أن تصلح ما بينك وبين الله سبحانه وتعالى .

وهذا ينبهك على خطأ دارج عند كثير من الناس عندما يُنبه أحدهم على خطأ يفعلهُ أو أمر يقع فيه تجده مثلا يقول "الله يهديني أو اسأل الله أن يهدينا" لكنه ما يجاهد ، الحديث ينبه إلى الخطأ هذا ، لابد مع قولك "الله يهدينا أو اللهم اهدنا أو ادعوا الله أن يهدينا" مع هذا لابد أنت أن تجاهد نفسك ((لا يزال عبدي)) مجاهدة ، يجاهد الإنسان نفسه في المحافظة على الفرائض ويجاهد نفسه في الجد والاجتهاد فيما استطاع من النوافل تأتيه الثمرة العظيمة؛ يحبه رب العالمين ثم تأتي الثمار التي وراء ذلك؛ يسدده في سمعه يسدده في بصره يسدده في قدمه يسدده في يده ، يجيب دعاءه ((وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهٗ ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِذَّنَّهُ)) إن طلب من الله شيئا أعطاه ، وإن استعاذ بالله تبارك وتعالى واعتصم به من شيء أعاده ووقاه وحماه ، فهذه الأمور ثمار للمجاهدة التي دل عليها الحديث .

فالحديث ينبه العبد إلى أن ولاية الله سبحانه وتعالى لابد فيها من المجاهدة ، مجاهدة النفس على أولا حفظ الفرائض ثم بعد ذلك النوافل ، وانتبه هنا لتقديم الفرائض على النوافل ، لأن الفرائض مقدمة وبها يبدئ ، بعض الناس تجده يحافظ على بعض النوافل ويفوّت بعض الفرائض ، وبعضهم نسأل الله العافية والسلامة يحافظ على بعض البدع لا يفوّتها ويضيع الفرائض ، وهذا من عجائب الناس ؛ بعض البدع ما يمكن يفرط فيها ولا يساوم فيها ومهما كانت ظروفه ما يضيعها ، بدع ما أنزل الله بها من سلطان ، والفرائض مضيعة!! ثم ربما يأتيه إحساس داخلي وهو مضيع للفرائض ومحافظ على البدع أنه من أولياء الله ، وربما بعضهم يخبر بذلك؛ يلبس زيا معينا وهيئة

معينة من اللباس ويضيع فرائض الله سبحانه وتعالى ويحافظ على بدع لا دليل عليها لا في كتاب ولا في سنة ويشار إليه بين أصحابه بالبنان "هذا ولي من أولياء الله" ، وهو ربما أيضا يخبر عن نفسه بذلك . وبعضهم ربما قال بل قال بعضهم "لا أعلم وليا لله إلا فلان وفلان وأنا" ، وهذه كلها من حماقات أهل الضلال وأهل الضياع والعياذ بالله .

والولي الصادق ما هو شأنه؟ هل هو يأتي عند الناس ويقول أنا ولي وأنا صاحب كرامات؟ هل عهدتم واحد من الصحابة أو غيرهم كان يقول ذلك؟ لا والله ، قال الله عن أوليائه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، يقول عبدالله بن أبي مليكة «أدركت أكثر من ثلاثين صحابيا كلهم يخاف النفاق على نفسه» ما منهم من يزكي نفسه ويقول أنا ولي من أولياء الله ، والله يقول في القرآن: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] أي تزكية للنفس أن يدعي الإنسان لنفسه أنه من الأولياء!! ولهذا لا يصح أن يدعي هذا الأمر الإنسان لنفسه ولا يدعيه لغيره ، يعني لو رأيت شخصا عليه ظاهر الصلاح والاستقامة والمحافظة على الفرائض والمحافظة على النوافل لا تجزم ولكن قل "نحسبه من الأولياء، نرجو أن يكون من الأولياء" أو نحو ذلك أما الجزم لا ، لا يجزم به ، إذا كان قتيل المعركة الذي يرفع السيف ويبلي بلاء عظيم في النكاية بالأعداء لا يجوز أن يقال شهيد! وفي صحيح البخاري «باب لا يقال فلان شهيد» لماذا؟ لأن الشهادة تترتب على أمر يوجد في القلب ما نراه وهو ماذا؟ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، هناك قتال للحمية ، وهناك قتال للعصبية ، وهناك قتال لأغراض أخرى ، وهذه كلها مكانها القلب لا يطلع عليها الناس ، «باب لا يقال فلان شهيد» وأورد من النصوص ما يدل على المنع من ذلك، لكن من قُتل في المعركة ورآه الناس أبلى بلاء حسنا يقال ماذا؟ "نحسبه من الشهداء ، أرجو أن يكون من الشهداء، هو من الشهداء إن شاء الله" أو نحو ذلك ، أما الجزم لا . والولاية هذه المنزلة العظيمة لا يجزم بها لأحد، لكن إذا روي شخص ظاهره الصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله سبحانه وتعالى يقال "نحسبه، نرجو" أو نحو ذلك أما الجزم لا ، لا يجزم بذلك لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ ولأدلة أخرى كثيرة.

وهذا الذي يبين لكم الفرق بين حال الأولياء الصادقين من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان وحال غيرهم ، ما كان أحد من الصحابة يدعي لنفسه ذلك ، ولو تقرأ سيرهم ترى عجبا ، حتى إن الحسن البصري رحمه الله قال كلمة عجيبة ، قال : «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن» تجده مضيع للفرائض ويظن أنه أحسن الناس ، والمؤمن تجده في جد واجتهاد ومحافظة على العبادة وفي الوقت نفسه في خوف ، وهذا هو معنى الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، قالت عائشة رضي الله عنها كما في المسند وغيره

بسند ثابت قالت: «قلت يا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ؟» قَالَ: ((لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يُخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)) هذا هو معنى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أي خائفة أن يرد عليهم عملهم ، والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٧] .

فالشاهد أن العبد في هذا الباب العظيم يجاهد نفسه وهو يجمع بين الرجاء والخوف ؛ يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ولا يدّعي لنفسه رتبةً عليّة أو منزلة رفيعة وإنما يرجو الله ويقول أنا مقصر وأنا مفطر ، ولا يزال في المجاهدة إلى أن يلقي الله سبحانه وتعالى وهو على حال ينال بها أعظم منال بإذن الله سبحانه وتعالى .

ثم قال في تمام الحديث: ((وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ)) أي أنه سبحانه وتعالى يجب دعاء من كان بهذه الصفة ولا يردّه في مسائل ((وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيدَتِهِ)) .

يقول الله سبحانه وتعالى: ((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بَدَ لَهُ مِنْهُ)) ؛ وهذا فيه من المعرفة بالله سبحانه وتعالى: معرفة فضله وكرمه ولطفه ورحمته وإحسانه ومكانة عبده المؤمن عنده سبحانه وتعالى ، مع أنه جل وعز غني عن المؤمن ، لا تنفعه طاعته إن بقي حيا ، ولا تضره معصية من عصي ، لكن هذا الكرم هذا الجود هذه الرحمة هذا اللطف والإحسان منه جل وعز ؛ فانظر هذا الكرم وتأمل هذا اللطف والإحسان .

يقول الغني سبحانه وتعالى ((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ)) أي أنه سيفعله سبحانه وتعالى كتب ذلك وقدره وقضاه ((تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ)) وانتبه هنا رعاك الله لا يخطر ببالك التردد الذي تفهمه من صفة الإنسان ، التردد الذي هو في صفة الإنسان هذا يليق بالإنسان وبضعفه وبعجزه وبقلة علمه وقلة بصيرته ، الإنسان عندما يتردد في أمر أن يفعله أو لا يفعله يكون تردده مبني على ماذا؟ قد يكون تردده مبني على جهل بالعواقب ، ما يدري هل الأصلح كذا أو الأصلح كذا فتجده متردد ، ولهذا شرع لنا إذا تردد الإنسان في أمر أو تحير أن يصلي صلاة الاستخارة ويفوض الأمر لمن أحاط بكل شيء علما ، ((اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ؛ فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وأنت علام الغيوب)) يفوض الأمر إلى الله سبحانه وتعالى. هذا تردد العبد وهو مبني على جهل بالعواقب ، ولا يجوز بحال عندما تقرأ صفات الله سبحانه وتعالى أن تُخطر في بالك أو تورّد في ذهنك أوصاف المخلوقين هذا باطل ، فصفات الله جل وعلا التي أضافها إلى نفسه تليق بجلاله وكماله ، فنحن نثبت ما أثبتته الله لنفسه وهو قوله ((ما ترددت)) نثبت هذا كما أثبتته الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي الوقت نفسه نثبت معه كمال العلم المحيط العلم بما كان وما يكون وبما لم يكن أن لو كان كيف يكون ، وأنه عز وجل أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، نؤمن بذلك كله .

فإذا التردد الذي ذكر هنا وأضافه الله سبحانه وتعالى لنفسه في هذا الحديث القدسي ما معناه ؟ الجهل بالعواقب رب العالمين منزله عنه ، أحاط بكل شيء علما ، ما معناه ؟

قال مبينا معناه في الحديث نفسه: ((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بَدَ لَهُ مِنْهُ)) هذا هو التردد: أن الله سبحانه وتعالى فاعل شيء وهو قبض روح المؤمن ، والعبد يكره الموت والله عز وجل يكره مساءة العبد ، قال ((وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ)) يعني فاعل ذلك سيقبض الله روحه ، لكن قال ((يَكْرَهُ الْمَوْتَ)) والله يكره المساءة فهذا معنى التردد في الحديث . ولا يصح لإنسان أن يقول "لا يجوز أن يُثبت هذا لله لأن التردد يعني الجهل بالعواقب والله منزله عن ذلك" ، يكون قائل هذه الكلمة جمع بين سيئتين ما هما ؟ التشبيه أولا والتعطيل ثانيا ، أولا شبه التردد الذي أضيف إلى الله بالتردد الذي يُعهد في المخلوق ، ثم بنى على هذا التشبيه تعطيل ما أثبتته الله سبحانه وتعالى لنفسه ، وهذه جادة باطلة جمعت بين سوءتين ، والسلامة في هذا الباب أن ثبت لله ما أثبتته سبحانه وتعالى لنفسه على الوجه اللائق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

وإذا أردت أن تتأمل هذا المعنى في أقوى صوره تأمل في فضل قبض الله جل وعلا لروح عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم خليل الله عليه الصلاة والسلام ، ولهذا نبه عليه الصلاة والسلام على هذا المعنى وأشار إليه عندما قال ((مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ)) فقَبَضَ الله عز وجل روح عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وخليله صلوات الله وسلامه عليه وحمل عليه الصلاة والسلام ميتا ووضع في الأرض ودفن في التراب صلوات الله وسلامه عليه وهو خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)) متفق عليه .

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث العظيم أيضا في باب معرفة الله سبحانه وتعالى ، وأن مما نعرف الله به أنه ينزله سبحانه وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا كما أخبر بذلك الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام . وهذا الحديث حديث متواتر رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم قرابة الثلاثين صحابي كلهم سمعوه عليه الصلاة والسلام يقول هذا ، يقول ((ينزل ربنا)) أثبت النزول وأضافه إلى الله جل وعلا ، قرابة الثلاثين صحابيا عددهم ابن القيم رحمه الله

في كتابه الصواعق المرسلة ثمان وعشرين كلهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((ينزل ربنا)) يضيف النزول إلى الله سبحانه وتعالى ينزل ربنا إلى السماء الدنيا .

وهنا أيضا ينبغي أن تنتبه إلى ما سبق بيانه وإيضاحه الصفات التي تضاف إلى الله جل وعلا تخصه وتليق به ، وإذا خطر ببالك اللوازم التي تلزم صفة المخلوق فثق تمامًا أن رب العالمين واعلم تماما ويقينًا أن رب العالمين منزّه عن ذلك، الآن عندما ننظر في نزول المخلوق تجد أن نزول المخلوق يلزمه لوازم كثيرة تعرفها أنت من نزولك ونزول غيرك من الناس ، هذه لوازم المخلوق ومن الباطل والفساد والضلال أن تضاف اللوازم التي تخص المخلوق إلى الخالق سبحانه وتعالى ، فعليك هنا عندما تقرأ هذا الحديث وأمثاله أن تثبت الصفة لله جل وعلا على الوجه اللائق بجلاله ، وإياك وأن تشبّه الله عز وجل في صفاته أو في شيء منها بصفات المخلوقين أو بشيء من صفاتهم .

فهنا يقول: ((ينزل ربنا)) نحن أيضا نقول كما قال عليه الصلاة والسلام : ((يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا)) ، نقول كما قال عليه الصلاة والسلام وكما نقل الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، خلافا لأهل البدع ممن جحدوا ذلك ونفوه وعطلوا هذه الصفة وقالوا بكل صراحة النزول لا يليق به ، هكذا قالوا وكأنهم أعلم بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن ربه جل وعز أنه ينزل وهم يأتون فيما بعد ويقولون النزول لا يليق به ، ثم ماذا يذكرون؟! يذكرون اللوازم التي تلزم نزول المخلوق وبناءً عليها بحثوا نزول الخالق سبحانه وتعالى فجمعوا بين المساءتين مساءة التشبيه ومساءة التعطيل ، ولو سلّموا من التشبيه لسلّموا من التعطيل . فالواجب هنا وفي كل الصفات أن تثبت الصفة لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به ، أحد السلف سئل عن النزول فأجاب فيه بما أجاب مالك رحمه الله في الاستواء فقال : «النزول معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» ، وقل مثل هذه الكلمة في كل صفة من صفات الله تبارك وتعالى .

((ينزل ربنا)) النزول هنا أضيف إلى الله وأسند إليه ، فالذي ينزل هو الله ، قال المعطلة لهذه الصفة والمشتغلون بتعطيل الصفات : ليس النزول نزول الله سبحانه وتعالى وإنما النزول نزول ملك ، قالوا والمعنى في قوله ((ينزل ربنا)) ينزل ملك ربنا ، قالوا فيه محذوف مقدر ، والمحذوف المقدر لم يكتشفه إلا هؤلاء في عصور متأخرة!! النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكره والصحابة ما ورد على ألسنتهم والتابعون لهم بإحسان لم يأت على ألسنتهم حتى جاء زمن أولئك واكتشفوا هذا المحذوف المقدر!! قالوا هناك محذوف مقدر تقديره ملك ربنا . إذا وضعتم هذه الزيادة في الحديث ماذا سيكون معنى الحديث؟ أكملوا الآن الحديث حتى تعرفوا فساد ما عليه هؤلاء ، أكملوا الحديث وأضيفوا هذا المحذوف المقدر الذي قاله هؤلاء وانظروا ماذا سيحصل الآن في الحديث ؟ ولنقرأ الآن الحديث بالمحذوف المقدر المدعى في كتب أكثر أهل الكلام ، ماذا سيكون ؟ "ينزل ملك ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة

فيقول من يسألني فأعطيه من يدعوني فأستجيب له من يستغفري فأغفر له" . إذا الملك ادّعى نفسه إله من دون الله ؛ ينزل كل ليلة وليس ليلة واحدة كل ليلة ينزل ويدّعي أنه إله يقول من يسألني فأعطيه من يستغفري فأغفر له من يدعوني فأستجيب له، والله عز وجل قال في القرآن: ﴿ وَمَنْ يُقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩٠] فهؤلاء ترتب على مقالمهم هذا اللازم . وجاء في بعض ألفاظ هذا الحديث في بعض طرقه أن الله عز وجل يقول: ((ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة في ثلث الليل الآخر فيقول لا أسأل عن عبادي أحداً غيري)) ، أيضا إذا أضيف هذا المحذوف المدعى وقيل "ينزل ملك ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول لا أسأل عن عبادي أحداً غيري" فهذا يبين لك فساد هذا الكلام ، ويريدون أن يفروا من شيء ويقعون في شر منه ، فالسلامة لا تكون إلا بالوقوف على قدم التسليم ، وأن يثبت الإنسان لله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله عليه الصلاة والسلام من صفات الكمال ونعوت الجلال ، يثبت ذلك لله على الوجه اللائق به .

ثم هذا الحديث فيه ما في قبله من الارتباط بين العقيدة والعمل ؛ فأخبر عليه الصلاة والسلام أن الله ينزل في ثلث الليل الآخر ثم نبه على الجد والاجتهاد في ذاك الوقت في العمل بالسؤال والدعاء والاستغفار ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧] ، ﴿ وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨] وبالصلاة وبذكر الله جل وعلا ودعائه وهذا عمل يترتب على قوة إيمان العبد واستحضاره لهذا المعنى الجليل وهذه العقيدة العظيمة الثابتة في هذا الحديث . وبهذا أيضا تدرك أمرا نبه عليه العلماء وهو: أن تعطيل الصفات وجحدها وتأويلها شؤم على الإنسان في أعماله وتعطيل له في طاعته لربه سبحانه وتعالى .

فالشاهد أن هذا الحديث مما يرشد إليه ويدل عليه في معرفتنا بربنا سبحانه أنه ينزل كل ليلة في ثلث الليل الآخر ويقول: من يسألني؟ من يدعوني؟ من يستغفري؟ ؛ فهذا وقت فاضل ووقت إجابة الدعاء يتفضل الله سبحانه وتعالى فيه بالنزل إلى سماء الدنيا نزولا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى وعظمته ، الله أعلم بكيفيته سبحانه وتعالى ويقول من يسألني من يستغفري من يدعوني ، فهذا يحرك في العبد إقبالا على الطاعة والذكر والاستغفار والدعاء في هذا الوقت الفاضل العظيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((جَنَّاتٍ مِنْ فَضَّةٍ
 آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيَتْهُمَا ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءً
 الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ)) رواه البخاري .

ثم ختم هذا الباب رحمه الله بهذا الحديث الذي فيه بيان معرفة الله عز وجل ببيان ما أعدّه لأوليائه وعباده وما هيا
 لهم من النُّزُل في دار كرامته جل وعز ؛ فذكر هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((جَنَّاتٍ مِنْ
 فَضَّةٍ آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ آيَتْهُمَا وَمَا فِيهِمَا)) ؛ فهذا الحديث فيه التفاوت في نعيم الجنة
 وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩] ، في الحديث الآخر قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ
 أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبُ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ
 لِيَتَفَاضَلَ مَا بَيْنَهُمْ)) ، والقرآن فيه إشارة إلى التفاضل في الجنان والتمايز بينها ؛ في سورة الرحمن قال عز وجل:
 ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم ذكر أوصاف هاتين الجنتين، ثم قال بعدها: ﴿وَمَنْ دُونَهُمَا
 جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر أوصافهما ، وفي سورة الواقعة ذكر سبحانه وتعالى أوصاف جنة المقربين وذكر أيضا بعد
 ذلك أوصاف جنة أصحاب اليمين ، فهي جنان متفاوتة ومتفاضلة في الآنية ، في الطعام ، في الأكل في الأنهار ،
 فيما أعدّه الله سبحانه وتعالى من النزل والكرامة لأهلها ، متفاوتة ليست على درجة واحدة ، ولهذا نصح عليه
 الصلاة والسلام عباد الله نصيحة عظيمة قال: ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ)) ؛ هذه نصيحة لعباد الله ، وقد
 قال الله عز وجل عن هذا الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه ﴿النَّبِيِّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾
 [الأحزاب: ٦٠] ، ولهذا بعض العوام ماغ ينصح لنفسه في هذا الباب ، بعضهم ربما يقول "يا رب أدخلني الجنة ولو عند
 الباب" ، ما ينصح لنفسه، فانظر لكلام النبي: ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ،
 فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ)) ، فنصح عليه الصلاة والسلام كل عبد من عباد الله أن يقبل على الله بصدق واجتهاد وجد
 وسؤال وإلحاح على الله سبحانه وتعالى ، وليس عزيز على الله سبحانه وتعالى أن يكرم عبده بعالي الدرجات ورفيع
 المنازل ، فالعبد يجتهد ويسأل ربه الكريم ويتوجه إليه عز وجل بالأعمال الصالحة والدعوات والإقبال على الله عز
 وجل حتى يلقي الله عز وجل وينال هذا الثواب العظيم .

ثم ذكر أكبر نعيم وأعظمه مما يناله أهل الجنة في الجنة قال : ((وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءً
 الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ)) وهذا فيه إثبات الكبرياء صفة لله كما يبين ذلك الحديث الذي في الصحيح
 يقول عليه الصلاة والسلام : ((قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْكِبَرِيَاءُ رِداءً وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا

قَدَفْتُهُ فِي النَّارِ)) ، فالله عز وجل من صفاته الكبرياء ومن صفاته العظمة ، قد كان عليه الصلاة والسلام يقول في ركوعه ((سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)).

قال: ((وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ)) ومما يوضح هذا أيضا ما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم قال : ((فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ)). ما ذكر في هذا الحديث هو معنى قوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنى: الجنة ، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا ، اللهم إنا نسألك علماً نافعا وعملاً صالحاً ورزقاً طيباً والتوفيق لما تحبه وترضاه . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلةً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رُمي بنجم فاستنار فقال : ((ما كنتم تقولون إذا رُمي بمثل هذا؟)) قالوا : كنا نقول وُلِدَ الليلةَ عظيم أو مات عظيم ، فقال : ((إنها لم تُرَمَ لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمراً سَبَّحت حملة العرش حتى يسبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، فيقول الذين يلون حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال ،

فيستخير أهل السماوات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهه فهو الحق ولكنهم يقذفون ويزيدون)) رواه مسلم والترمذي والنسائي .

قال المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: ((باب قول الله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [س:٢٣])) ؛ هذه الآية جاءت لبيان وجوب توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له وإفراده جل وعز بالعبادة ، وبطلان الشرك واتخاذ الأنداد الذين يُدعون من دون الله وتصرف لهم العبادة من دون الله جل وعلا . فهذه الآية جاءت مقررّة لتوحيد الله مبطلّة للشرك . وفهم هذه الآية يتطلب التأمل في الآيتين التين قبلها .

قال الله عز وجل: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ؛ فالسياق من أوله جاء لتقرير التوحيد وإبطال الشرك؛ إبطال اتخاذ الأنداد الذين يدعون من دون الله عز وجل ، بل إن هذه الآيات كما نبه العلماء رحمهم الله من أعظم الآيات التي تبطل الشرك ، بل قال بعض العلماء إنها تقطع شجرة الشرك من عروقها وتجثتها من أصولها ، بحيث إنها لا تبقي لمشرك متعلق ولا تبقي لمندد متمسك فهي تحتث الشرك من أصله وتقتلعه من عروقه ، ومن تدبر هذه الآيات وفهمها نفعه الله تبارك وتعالى بها نفعا عظيما في إبطال الشرك ودحضه وتقرير التوحيد وتأصيله .

وقد بيّن العلماء رحمهم الله وجه دلالة هذه الآية على اجتثاث شجرة الشرك واقتلاعها من عروقها؛ أن ما يتمسك به المشرك في دعائه لغير الله تبارك وتعالى وسؤاله لغيره جل وعلا لا يخرج عن أمور جاءت هذه الآية مبطلّة لها واحداً تلو الآخر ، فلم تُبق لمشرك متعلق أو متمسك ، ذلك أن من يُدعى من دون الله تبارك وتعالى لا بد أن يكون متصفاً بصفاتٍ إن وجدت فيه استحق أن يُدعى وإلا فإن دعاءه باطل وضلال ، وهذه الصفات جاءت هذه الآيات مبطلّة لها واحداً تلو الآخر .

❖ الأمر الأول: أن من يُدعى من دون الله يستحق أن يدعى لو كان يملك في هذا الكون ولو قدراً يسيراً أو شيئاً ضئيلاً ولو مثقال ذرة ملكاً استقلالياً ، فلو وُجد أحد بهذه الصفة فإنه يستحق أن يُدعى لهذا الملك الاستقلالي، ومعنى ملكاً استقلالياً أي ملكه بدون أن يملكه الله تبارك وتعالى إياه وإنما استقل هو بملكه وانفرد بملكه . فأبطل الله عز وجل هذا الأمر الأول بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

مِقَال ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿٢٦﴾ ، كل من يدعى من دون الله من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء أو غيرهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ؛ أي مُلْكًا استقلاليا بدون أن يملكهم الله تبارك وتعالى إياه ، والله يقول: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، هذا الأمر الأول أبطل .

❖ أمراً ثاني أو احتمال آخر إن وجد في أحد استحق أن يدعى ؛ وهو أن يكون شريكا للمالك في ملكه أو في شيء من ملكه ، فلو وُجد بهذه الصفة شريك للمالك للرب في ملكه أو في شيء من ملكه استحق أن يدعى لهذه الشركة التي له مع المالك ؛ فأبطل الله عز وجل هذا الاحتمال الثاني بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ﴾ ؛ «وما لهم» أي من يدعون من دون الله ، «فيهما» أي السماوات والأرض ، «من شرك» أي من مشاركة ، ليس لمن يدعى من دون الله تبارك وتعالى أي مشاركة في السماوات ولا في الأرض ، فهو لا يملك شيئاً استقلالياً ، وليس له أيضاً شيء في السماوات والأرض على وجه المشاركة مع المالك في ملكه ولو في جزء يسير ، فأبطل الله عز وجل هذا الاحتمال الثاني .

❖ يبقى احتمال ثالث إن وجد استحق من وُجد به ذلك أن يدعى ؛ إن لم يكن مالِكًا ولم يكن شريكًا للمالك في ملكه هناك احتمال ثالث إن وُجد فيمن يدعى من دون الله استحق أن يدعى لوجود هذه الصفة فيه وهي : أن يكون معاونًا للمالك ، ليس مالِكًا ولا شريكًا للمالك ولكنه معاون للمالك وظهير ومساعد ، فإذا وُجد أحد بهذه الصفة استحق أن يدعى فأبطل الله عز وجل ذلك بقوله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ؛ «وما له» الضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، «وما له» أي الله «منهم» أي ممن يدعون من دونه سبحانه وتعالى «من ظهير» أي من معاون ومساعد ووزير ونحو ذلك هذا أمر نفاه الله قال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ .

إذاً بطلت احتمالات ثلاثة أبطلها الله عز وجل واحداً تلو الآخر حسب أهميتها ومكانتها ؛ نفى أولاً أن يكون أحد مالكا لشيء في السماوات ولا في الأرض ملكاً استقلالياً ، ثم أتبع ذلك بنفي وجود مشارك لله عز وجل في شيء من الملك ولو في قدر يسير ، ثم أتبع ذلك بنفي العوين أو الظهير أو المعين أو الوزير بقوله ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ .

❖ يبقى بعد هذه الاحتمالات الثلاثة احتمال رابع إن وُجد فإن من يوجد فيه هذا الوصف يستحق أن يدعى فأبطله الله عز وجل وهو: الشفيع الذي يشفع عند المالك ابتداءً ، أي بدون إذن المالك ، مثل شأن الناس الوجهاء والذين لهم مكانة عند أصحاب السلطة ولهم مكانة أيضاً وثقل في المجتمع فيستغل مكانته وجاهه ومنصبه فيدخل في الوقت الذي شاء ويشفع فيمن شاء ويطلب مستغلاً جاهه وهيبته ومكانته بدون إذن ،

ولهذا قال العلماء : إن المشركين في اتخاذهم الشفعاء شبَّهوا الله عز وجل بملوك الدنيا الذين يدخل عندهم الشفعاء بدون إذن وبدون استئذان ويطالب لفلان بكذا ولفلان بكذا ويرضخ الوالي أو السلطان لأمرهم تقديرًا لمكانته أو خوفًا من منزلته أو نحو ذلك فيعطيه ما أراد ولا يرُدُّه فيما طلب خوفًا أو هيبة أو طمعا أو نحو ذلك من الأمور التي توجد . فنفى الله عز وجل الشفيع الذي هو بدون إذن المالك سبحانه وتعالى . وقد كان المشركون يعتقدون في أصنامهم أن لها مكانة عند الله فتشفع لمن شاءت وتقرّب من شاءت إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا يتعلقون بها ويكون عندها وترق قلوبهم ويسألونها ويرجونها لأنها تملك شفاعةً عند المالك تقرب من شاءت منه ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٢٣] ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] أي أنها عندها استطاعة وقدرة بأن تشفع لنا عند الله فتدنينا منه وتقرّبنا منه وهذا شيء تملكه بزعمهم ، فأبطل الله سبحانه وتعالى هذا المتعلق الرابع بقوله: ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ .

فما بقي لمشرك متعلق ، من يدعو غير الله بماذا يتعلق ؟ هذا الذي يتجه إليه بالدعاء والسؤال والطلب والإلحاح والذل بماذا يتعلق؟ هو ليس مالكا ، ولا شريكا للمالك ، ولا عوينا للمالك ، ولا يستطيع أن يشفع عند المالك بدون إذن ؛ فلماذا يتعلق به؟! فإذا الآية كما وصف العلماء رحمهم الله اجتثت شجرة الشرك من عروقها واقتلعتها من أصولها بحيث إنه لم يبق لمشرك متعلق .

ثم في هذا السياق العظيم جاء هذا الموضع الذي جعله المصنف رحمه الله هنا عنواناً للترجمة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ ؛ أنت الآن فهمت السياق ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ من هم ؟ السياق الآن في إبطال الشرك وإبطال دعاء غير الله ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ومن يُدعون من دون الله ويُلْتَجأ إليهم من دون الله ملائكة الله ، فأیضا في أثناء هذا السياق الذي جاء لإبطال الشرك بيّن رب العالمين سبحانه وتعالى حال هؤلاء الملائكة الذين هم أعظم المخلوقات أجسامًا وقوة وقدرة أن حالهم إذا تفكر فيها المتفكر وتأمل فيها المتأمل حالهم مع الله تكشف كشفًا واضحًا وتبين بيانًا جليًا أن العبادة لا يستحقون منها ولا ذرة ، لا يستحقون منها شيئًا ، وأن العبادة حق لمن خلقهم وأوجدهم ، وأن حالهم مع الخالق العظيم سبحانه وتعالى هي حال ضعف وحال فزع وحال خوف ، مع قوتهم وما آتاهم الله عز وجل من البسطة في الأجسام والقوة والقدرة كل هذه الأمور ليست محوِّلة لأن يصرف لهم شيء من العبادة لأنهم عباد لله عز وجل ، عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ورب العالمين يقول في شأن هؤلاء الملائكة: ﴿ وَمَنْ يُقُلْ

مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴿[الأنبياء: ٢٩]﴾ ، فهم عباد الله سبحانه وتعالى وحالهم مع الله جل وعلا حال ضعف .

وأنت إذا جمعت هنا في هذا الموضع بين نظرين:

- النظر الأول : تتفكر في حال الملائكة من حيث ضخامة الأجساد القوة التي آتاهم الله القدرة التي آتاهم الله .
 - والنظر الثاني: تأمل أيضا في حالهم مع الله تجدها حال خشية خوف فرع التجاء إلى الله تسبيح تضرع ؛ هذه حالهم مع الله سبحانه وتعالى عبادُ الله عز وجل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
- النظر الأول استعن فيه بالآيات والأحاديث التي تصوّر لك حال الملائكة ، الملائكة أعطاهم الله عز وجل من كبر الأجسام شيء لا يخطر ببالك وأعطاهم الله عز وجل من القوة والقدرة شيء لا يخطر ببالك ، منحهم الله عز وجل أموراً وأقدرهم على أشياء سبحانه وتعالى والأمر بيده سبحانه ، ولهذا تأتي أحاديث كثيرة تدهش عندما تقرأها في بيان ما يتعلق بأجسام الملائكة وكبرها ، أو ما يتعلق بقوة الملائكة وقدرتهم وما آتاهم الله عز وجل من أمور ، تدهش عندما تقرأ ذلك . على سبيل المثال ما جاء في الحديث الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ)) يعني لو أن طيرا أراد أن يطير من العاتق إلى شحمة الأذن يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران حتى يصل إلى شحمة الأذن . بالنسبة لنا نحن المسافة هذه ما تكفي أن يقف الطير فضلا عن أن يطير يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران ، هذه المسافة ما بين شحمة الأذن إلى العاتق فما هي المسافة بين بقية أجزاء بدنه ؟ هذه ضخامة في الأجسام وأيضا ما أعطاهم الله عز وجل من قوة أحد الملائكة يحمل قرية بكاملها بما فيها من سكان ويقلبها رأسا على عقب ((لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين)) جبلين يطبقهما على من فيهما ، أعطاهم الله جل وعلا قدرة .

فيتفكر الإنسان في هؤلاء الملائكة من جهة ما أعطاهم الله من القوة ومن القدرة ، وأيضا تفكر في الجانب الثاني الذي لا ينبغي أن يغفل عنه وهو ذل هؤلاء الملائكة وانكسارهم بين يدي الله جل وعلا وضعفهم وافتقارهم إلى الله وعدم غناهم عنه طرفة عين؛ هذه المعاني لابد أن تكون حاضرة عند الإنسان ، إن غفل عنها ونسيها ولم يحضرها في ذهنه تورط فيما تورط فيه غيره ممن وقع في الشرك ، إذا غفل عن أن هؤلاء عباد الله مسخرون مريبون مدبرون بتدبير الله سبحانه وتعالى وقع فيما وقع فيه غيره من الشرك والاستنجاد بغير الله ، إما ينظر إلى قدرة من يدعو أو ينظر إلى قوته أو ينظر إلى مكانته أو ينظر إلى أمور أخرى من هذا القبيل ويغفل عن جانب آخر كان يجب أن ينظر إليه وهو أنهم عباد الله سبحانه وتعالى طوع أمره وتسخيروه وتديبره جل وعلا . فالآية تبين لك هذا المعنى .

قال : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ ما معنى «فزع عن قلوبهم»؟ قال العلماء في كتب التفسير: أي زال الفزع عن قلوبهم ، هذا الفزع متى يحدث؟ يحدث كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف أن الله عز وجل عندما يتكلم بالوحي تخر الملائكة صعقة ، الملائكة الذين عرفت شيئا من أوصافهم وقوتهم وأجسامهم وضخامتهم وقدرتهم إذا تكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي خرت صعقة ، الملائكة تصاب بغشي يغشى عليها تصعق خضعانا لقوله وذلا وانكسارًا بين يديه تبارك وتعالى ، إذا تكلم بالوحي . ثم يصف الله عز وجل حال الملائكة عندما يزول عنهم الفزع الذي أصابه عندما تكلم الله جل وعلا بالوحي ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي أزال الله عنهم الفزع الذي في قلوبهم ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ يسأل الملائكة بعضهم بعضا ماذا قال ربكم ؟ فيجيبون ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

ويجب أن تنتبه هنا أن هذه الآية سيقّت لإبطال الشرك ، إذا قرأت معها الآيتين قبلها فهمت أنها سيقّت لإبطال الشرك ، فكأنه يقال: هؤلاء الملائكة الذين آتاهم الله ما آتاهم من القوة والقدرة وضخامة الأجسام إلى غير ذلك لا يستحقون من العبادة شيء ، كأنه يقال لك تأمل حالهم عندما يتكلم الله بالوحي ؛ ما أن يتكلم سبحانه وتعالى بالوحي إلا وتخر الملائكة صعقة ، تُصعق ويصيبها غشي ، وإذا زال عنها هذا الصعق والغشي وقامت من هذا الفزع سألت الملائكة ماذا قال ربكم؟ فيجابون «قال الحق وهو العلي الكبير» . فهذا كله جاء لإبطال الشرك ، حتى ما حُتِمت به الآية بذكر هذين الاسمين الكريمين هما أيضا في تقرير التوحيد إبطال الشرك «العلي الكبير» ، العبادة حق لمن؟ العبادة حق للعلي الذي له العلو علو الذات وعلو القدر وعلو القهر ، والكبير الذي لا أكبر منه سبحانه وتعالى . وانتبه هنا لقوله «الكبير» كل ما يخطر في بالك من كبر كل ما يخطر في بالك من عظمة فهي ليست شيئا أمام عظمة الله سبحانه وتعالى وكبره ، كبر الملائكة ضخامتها قدرتها قوتها ليست شيئا أمام قدرة الله سبحانه وتعالى، فهي قدرة أقدرهم الله عليها وأجسام منحهم الله تبارك وتعالى إياها ؛ فكيف يصرف لهم العبادة التي هي حق لله ولا يتوجه فيها لمن أعطاهم ولمن منحهم ولمن تفضل عليهم وهو رب العالمين الذي بيده تبارك وتعالى أزمة الأمور .

فإذاً قوله سبحانه وتعالى ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ هذه الآية جاءت مقرّرة للتوحيد مبيّنة لعظمة الله سبحانه وتعالى وجلاله وكماله وأنه الرب المتصرف المالك المدبر وجميع المخلوقات عظمت أو صغرت طوع تديبره وتسخره جل وعلا ، لا خروج لأحد عن قدره جل وعلا وأمره ، أمره نافذ وقدرته سبحانه وتعالى شاملة ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ؛ كل هذه المعاني العظيمة تبين للإنسان عظمة الله جل وعلا وأنه وحده الذي يستحق أن يُصرف له الذل ويصرف له الخضوع وتصرف له العبادة بجميع أنواعها.

ثم أورد رحمه الله حديث ابن عباس في مسلم والترمذي والنسائي وهو من الأحاديث التي تبين معنى الآية الكريمة ، قال عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رُمي بنجم)) المراد بالنجم هنا : الشهاب التي ترجم ويرمى بها الشياطين ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] ، فهذه النجوم أو هذه الشهاب جعلها الله سبحانه وتعالى رجوماً للشياطين تُرجم بها ، والمراد بالشياطين: أي الشياطين الذين يصعد بعضهم فوق بعض من أجل استراق السمع ، أي استراق الكلام الذي يدور بين الملائكة ، وهذا الكلام الذي يدور بين الملائكة هو نتيجة تكلم الله سبحانه وتعالى بالوحي ، فهو إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صعقة ، ويكون أول من يفيق جبريل فيخبره سبحانه وتعالى من وحيه بما يشاء ، ثم جبريل يخبر أهل السماء ، ثم أهل كل سماء يخبرون أهل السماء التي دونها إلى أن يبلغ الأمر إلى أهل السماء الدنيا من الملائكة ؛ فيتحدثون بهذا الأمر والشياطين تصعد بعضها فوق بعض من استراق كلمة واحدة ، لماذا هذا الصعود؟ بل لماذا هذه المخاطرة؟ هذه مخاطرة عجيبة جداً ومغامرة يخاطرون بأرواحهم وبأعمارهم ويضئون يصعد الواحد فوق الواحد إلى أن يقرب من السماء الدنيا حتى يلتقطوا كلمة واحدة ، ثم قد يلتقط الكلمة وقد يضربه الشهاب قبل أن يلتقطها ، وإذا التقط الكلمة ما ينزل بها بل هو متوقع أن الشهاب سيضربه قبل أن ينزل فيلقبها إلى الذي تحته مباشرة ومن تحته يلقبها ، بحيث لو ضرب الأعلى أو ضرب من هم في الأعلى تكون الكلمة تنزلت ، ويذهب ضحية هذه المخاطرة عدد منهم ، يضربهم شهاب فيموتون ويهلكون ، يخاطرون لماذا ؟ ماذا وراء هذه المخاطرة وماذا وراء هذه المغامرة؟ إضلال بني آدم وهم يدركون أن مخاطرتهم هذه لها ثمرات في إضلال الناس وصددهم عن دين الله سبحانه وتعالى ، يخاطرون ثم يأتون بهذه الكلمة إلى الكاهن، يلقونها على الكاهن فيمزج الكاهن بها مئة كذبة ، ليس عشر ولا عشرين يمزج بها مئة كذبة ثم يبدأ يتكهن ويجعل من ضمن الأمور التي يقولها لهم هذا الأمر الذي وصله مما استرقه الجن ، ما الذي يحدث في الناس؟ قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر : ((فيذكرون صدقه في هذه المرة وينسون كذبه في المرات الكثيرة، ويقولون ألم يقل في يوم كذا كذا وكذا؟)) تبقى هذه عالقة في أذهانهم ليروج من خلالها كذبه المتراكم ، ألم يقل يوم كذا كذا وكذا؟ وكان فعلا صادقا وكان الأمر على ضوء ما أخبر ! فيذكرون صدقه وينسون كذبه ؛ فتكون الفتنة في الناس ويكون تصديق الكهان والتعلق بالشياطين والانصراف إلى غير الله عز وجل بالذل والخضوع وطلب الشفاء ، هذا كله من مكر الشياطين وكيدهم ومن مصائدهم التي يضعونها لبني آدم لصددهم عن دين الله وعن عبادته سبحانه وتعالى .

قال عليه الصلاة والسلام : ((ما كنتم تقولون إذا رُمي بمثل هذا ؟)) ما كنتم تقولون أي: في الجاهلية قبل أن يرمي الله عز وجل عليكم بالإسلام بهذا الدين العظيم ؛ إذا رمي بهذه الشهاب أي شيء كنتم تقولون ؟

((قالوا كنا نقول: **وُلِدَ اللّيلة عظيم أو مات عظيم**)) هذه عقيدتنا ، عقيدتنا دائما إذا رأينا الشهاب يرمى قلنا وُلِدَ عظيم هذه الليلة أو مات عظيم ، فيجعلون رمي الشهاب دليل على موت عظيم أو ولادة عظيم ، وانظر كيف صرفهم الشيطان عن الحكمة من رمي الشهب وشغلهم بهذا الاعتقاد أنه وُلِدَ الليلة عظيم أو مات الليلة عظيم، وصرفهم الشيطان عن هذا الرمي ما هو مقصده وما المراد به؛ فماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ؟ قال : ((**إنها لم تُرَمَ لموت أحد ولا لحياته**)) هذه العقيدة التي تعتقدون عقيدة خاطئة لا أصل لها ولا صحة لها ، ليست ترمى لموت أحد ولا لحياته ، إذا لماذا ترمى؟ يأتي السؤال؛ فيبين عليه الصلاة والسلام قال : ((**ولكن ربنا عز وجل إذا قضى أمراً**)) أي من قضائه الكوني وأمر بأمر ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [يس: ٨٢]

((**إذا قضى أمراً سبّحت حملة العرش**)) سبّحت الله عز وجل أي نزّهته ، لأن التسبيح هو التنزيه ، فسبّحت حملة العرش أي: قالوا سبحان الله سبحان الله ، يسبحون الله جل وعلا، وهذا يفيدنا عظمة هذه الكلمة وجلالة قدرها وأنها كلمة من كلمات الدين العظيمة جدا .

قال: ((**سبّحت حملة العرش**)) وهذا فيه الدليل على إثبات حملة العرش من الملائكة وثبوت هذا في القرآن ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ [غافر: ٧٠]

((**سبّحت حملة العرش حتى يسبح أهل السماء الذين يلونهم**)) يعني يسبح أهل السماء الذين يلون حملة العرش ((حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، فيقول الذين يلون حملة العرش)) بعد هذا التسبيح الذي تداولوه كلهم إلى أن نزل إلى أهل السماء الدنيا ((فيقول الذين يلون حملة العرش : ماذا قال ربكم ؟)) أي ماذا قال من الأمر الذي أمر به سبحانه وتعالى ((**فيخبرونهم ماذا قال**)) أي يخبرونهم بالشيء الذي قاله الله سبحانه وتعالى .

قال: ((**فيستخير -أي يسأل- أهل السماوات بعضهم بعضاً حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ؛ فتخطف الجن السمع**)) تخطف: أي تلتقط السمع ، وهم لا يلتقطون إلا شيئاً يسيراً جداً ، والله حمى السماوات من استراقهم للسمع بالشهب التي تأتيهم من كل جهة ، قال عز وجل ﴿ **دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ** ﴾ (٩) **إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾ [الصافات: ٩-١٠] فهم الشهب تأتيهم من كل جانب ومن كل جهة والسماء محمية بالشهب ولا يأخذون من السمع إلا شيء يسير ، ولا يزالون في مخاطر متوالية ، مخاطرة تلو مخاطرة وأرواح من أرواحهم تزهق كثيرة جداً ولا يبالون بذلك في سبيل أن يضل بني آدم .

قال: ((فتخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم)) أي من الكهنة والسحرة والعرافين والمشعوذين وغيرهم من إخوان الشياطين

((فيلقونه إلى أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهه فهو الحق)) يعني فهو حق مما التُّقط ، مما التقطه الجن واسترقوه من السمع ((ولكنهم يقذفون ويزيدون)) يقذفون فيه أي يقذفون فيه ويلقون فيه أشياء كثيرة ويزيدون فيه زيادة كبيرة والهدف من هذا كله إضلال بني آدم.

أنت إذا قرأت هذا السياق المبارك العظيم بين لك حال الملائكة وأن الملائكة عندما يتكلم الله بالوحي أو بالقضاء فالملائكة تسبح وتعظم الله وتنزه الله تبارك وتعالى ، وليس لها حول ولا قوة والأمر بيد الله سبحانه وتعالى التدبير تدبيره والتسخير تسخير ، ولا يكون في ملكه سبحانه وتعالى شيء إلا شيء شاءه وأراد ، الملائكة ليس بيدها شيء ، مع ما آتاهم الله من القدرة والقدره ليس بيدهم شيء أبداً ، الأمر كله بيد الله جل وعلا . أيضا الحديث الآخر يوضح هذا المعنى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة -أو قال رعدة شديدة- خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا أو قال خروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل عليه السلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سألها ملائمتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول ﴿قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل)) رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبراني وابن أبي حاتم واللفظ له .

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث النواس بن سمعان وهو يفسر الآية ويبين معناها ، والسنة شارحة للقرآن ومفسرة له ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام: ((إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي)) وهذا فيه إثبات الكلام لله عز وجل ، أنه جل وعلا إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي ، والملائكة عباد لله عز وجل وكل الله عز وجل إليهم مهام متنوعة ؛ منهم من وكل بقبض الروح ، منهم من وكل بالمطر ، منهم من وكل بكتابة أعمال العباد ، إلى غير ذلك من الأمور التي وكلها الله سبحانه وتعالى للملائكة أو أمر الملائكة بالقيام بتنفيذها .

((إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة)) أي ترتجف السماوات إذا تكلم الله بالوحي ارتجفت السماوات أو ارتعدت شك الراوي ((أخذها رجفة أو رعدة)) ، وهذا يبين لنا أن السماوات

تحصل لها هذه الرعدة خوفا من الله وخشية من الله، هذه السماوات الطباق مترامية الأطراف إذا تكلم الله بالوحي ارتعدت أخذها رعدة خوفا من الله سبحانه وتعالى ، قال ((أخذت السماوات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفا من الله))

((إذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا)) أي أصيبوا بالصعق عندما يسمعون ذلك ، والسماوات ترتعد تصاب السماوات برعدة خوفا من الله عز وجل ، الملائكة في هذه الحال يصعقون يصابون بالصعق يُغشى عليهم . قال: ((صعقوا أو قال خروا لله سجدا)) وجاء في بعض الأحاديث ((خضعنا لقوله)) أي خاضعين لقول الله تبارك وتعالى ؛ هذه حال الملائكة : ذل وانكسار وخضوع وخشية وخوف من الله تبارك وتعالى يصعقون ، هذه حالهم بين يدي ربهم ومالكهم جل وعلا .

((فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام)) حتى هو أيضا يصاب بما يصاب به الملائكة ؛ فيصاب بما يصاب الملائكة من الصعق والغشي لكنه يكون أول من يفيق .

((فيكلمه الله من وحيه بما أراد)) فيسمع جبريل عليه السلام كلام الله من الله ، فالذي يكلم جبريل من الوحي بما يشاء ليس إلا رب العالمين جل وعلا ، الله هو الذي يكلمه ، وجبريل يسمع كلام الله من الله بلا واسطة ، يسمعه منه جل وعلا بحروفه وبصوته سبحانه وتعالى ؛ ولهذا من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل يتكلم بحرف وصوت ، والذي يسمعه جبريل من الله هو كلمات بصوت يسمعه جبريل عليه السلام ، وهذا كلام ثابت لله جل وعلا يليق بجلاله وكماله وعظمته . وما يقوله أهل البدع يلزم من هذا كذا ويوردون لوازم عقلية ينشئونه هذا كله لا قيمة له ، كلام باطل نتيجته جحد ما أثبتته الله وجحد ما أثبتته رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمسلم العاقل لا يلتفت إلى كلام المتكلمين وخوض هؤلاء الخائضين في الله وفي صفاته وأسمائه بغير علم ، بل هذا كله يعرض عنه ولا يلتفت إلى شيء منه . فالله يتكلم سبحانه وتعالى وكلامه بحرف وصوت ، وجبريل يسمع كلام الله من الله؛ ولهذا قال هنا في الحديث ((فيكلمه الله من وحيه بما أراد)) يكلمه الله ليس الذي يكلمه غير الله بل الله يكلمه بوحيه بما أراد وهو العلي ﴿قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ .

((فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل)) ﴿قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ، والرواية الأخرى فيها أيضا بيان أنه يخبرهم بما تكلم الله به وبما سمعه من الله سبحانه وتعالى ، ولهذا مر معنا في الرواية السابقة ما يدل على هذا المعنى قال : ((فيقول الذين يلون حملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال)) يعني يخبرونهم بالشيء الذي قاله سبحانه وتعالى . قال ((فيقولون كلهم مثلما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث امره الله عز وجل)) . الشاهد أنك إذا تأملت هذا الحديث وضَّح لك معنى الآية ، والآية سيقَّت لتبين لك ضعف الملائكة وحالها مع الله، وأنها تصعق وتخاف وتصاب بالغشي ، وأنها تخر صعقة لله سبحانه وتعالى إذا تكلم بالوحي ؛ فأنت إذا عرفت

حال الملائكة بهذه الصفة تبين لك أنها لا تستحق من العبادة شيئا ، وإذا بطلت عبادة الملائكة فغيرها من المخلوقات من باب أولى ، لأن الله عز وجل أتى الملائكة من كبر الأجسام والقدرة والقوة ما لم يؤت غيرها من المخلوقات .

فالشاهد أن هذا كله مما يبين لنا عظمة الله جل وعلا وأنه مستحق للعبادة وأن العبادة حق له جل وعلا ؛ فلا يدعى إلا الله ولا يُسأل إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يُطلب المدد والعون إلا من الله جل وعلا ، ومن صرف شيئا من هذه الأمور لغير الله ما عرف التوحيد ولا عرف ربه سبحانه وتعالى وكان أمره في ضياع ؛ حيث يصرف الغاية المقصودة التي خلُق لأجلها إلى غير الخالق العظيم والرب الجليل عظم وتقدس سبحانه وتعالى .
والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

الدرس الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا والتوفيق لما تحبه وترضاه . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟)) رواه البخاري .

قال المصنف رحمه الله : ((باب قول الله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧])) ؛ هذه الترجمة معقودة لبيان عظمة الله جل وعلا وجلاله

وكماله، وأنه عز وجل هو المستحق وحده أن يُفرد بالعبادة وأن يخص بالطاعة وأن لا يُجعل معه شريك في شيء منها ، لأنه تبارك وتعالى المتفرد بخلق السماوات خلق الأرض وخلق الناس وإيجاد هذه المخلوقات لا شريك له في شيء من ذلك ، فالواجب أن يُفرد تبارك وتعالى وحده بالعبادة، ومن لم يفرد جل وعلا بالعبادة فما قدره تبارك وتعالى حق قدره ؛ أي لم يعظمه حق تعظيمه .

قال عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي لم يعظموه جل وعلا التعظيم اللائق به ، وهذا حال المشركين كلهم ؛ فمن اتخذ مع الله الشركاء ما عظم الله ولا قدره تبارك وتعالى حق قدره ولم يرجُ وقاراً لله عز وجل وعظمةً ، قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣-١٤] ؛ فهذه كلها تبين سوء حال المشرك الذي اتخذ مع الله تبارك وتعالى الأنداد . ولهذا يأتي في القرآن في آيات كثيرة من ذكر عظمة الله وجلاله وكمال اقتداره سبحانه وقوته وتدبيره لهذا الكون ، وأنه تحت تدبيره جل وعلا وبقبضته وتحت تصرفه وطوع أمره إلى غير ذلك من المعاني المبينة لعظمة الله جل وعلا وأنه تبارك وتعالى وحده المستحق للعبادة .

هذه الآية الكريمة صُدِّرت ببيان أن من اتخذ مع الله تبارك وتعالى الأنداد لم يقدر ربه تبارك وتعالى حق قدره ، وحثمت بتنزيه الله تبارك وتعالى عن أفعال هؤلاء المشركين المنددين المتخذين الشركاء مع الله تبارك وتعالى ، وذكر في أثناءها من الدلائل البينات والبراهين الواضحات التي تبين فساد الشرك وما بطلان ما عليه أهله .

قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ؛ «الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي تكون في قبضة يده جل وعلا ، وهذا فيه إثبات اليد لله ، يداً تليق بجلاله وكماله موصوفة في القرآن وفي السنة بصفات اليد الحقيقية التي يُعرف معناها في لغة العرب ، ولهذا جاء في القرآن وفي السنة من أوصاف يد الرحمن تبارك وتعالى ما يدل على أنها يد حقيقية تليق بالله سبحانه وتعالى ، مثل القبض ، والطي ، والبسط ، والأخذ ((إلا أخذها الله بيمينه)) ، بل إن صفات اليد التي وردت في الكتاب والسنة يد الرحمن جل وعلا تقارب المئة صفة ، عددها ابن القيم رحمه الله في كتابه الصواعق المرسله تقارب المئة صفة كلها شاهدة على أنها يد حقيقية تليق بالله وبجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

ومن أنكر ثبوت اليد صفةً له فهو جاحد معطل ، ومن شبه يد الله تبارك وتعالى بأيدي المخلوقين فما قدر الله حق قدره ويكون بذلك كافر مشبه . وكيف يصح من عاقل أن يشبه يد الله عز وجل وهي مضافة إليه عز وجل موصوفة بالكمال والجلال والعظمة! كيف يصح من عاقل أن يشبه يد الله بيد المخلوقين والله يقول عن يده سبحانه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ، أي عقل هذا الذي يقول "إن أثبتنا لله اليد حقيقة لزم من ذلك أن تكون يده كيد المخلوق" !! تعالى الله عما يقولون ، وسبحان الله عما يصفون وتنزه وتقدس عما يفترون سبحانه وتعالى . فهذه اليد أثبتها الرب جل وعلا لنفسه فالواجب الإيمان بها كما جاءت

وإمرارها كما وردت ، وكذلك الإيمان بكل صفاتها التي جاء ذكرها في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ كالقبض والطي والأخذ والبسط والأصابع وغير ذلك من صفات اليد التي ذكرت في كتاب الله العزيز وسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ أي أنه تبارك وتعالى يطوي السماوات بيمينه ، والطي هو جمع أطراف الشيء بعضها إلى بعض . فالسماوات مطويات بيمينه : أي يطويها تبارك وتعالى ويجمع أطرافها بعضها إلى بعض بيمينه سبحانه وتعالى .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزه نفسه في ختام هذا السياق العظيم عن الشرك واتخاذ الأنداد؛ أي تنزه وتقدس تبارك وتعالى عن شرك المشركين الذين سَوَّوا به تبارك وتعالى ترابا ، وسَوَّوا به تبارك وتعالى أحجارا ، وسَوَّوا به تبارك وتعالى من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا ، سبحانه وتعالى عما يشركون : أي تنزه وتقدس تبارك وتعالى عن أن يُشرك به غيره وأن يسوَّى به غيره وأن يعدل به غيره وأن يجعل غيره عدلا له تنزه وتبارك وتعالى وتقدس عن ذلك .

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة في معنى هذه الآية الكريمة ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض؟)) هذا أمر يفعل الله تبارك وتعالى يوم القيامة يقبض الأرض بيده ويطوي السماء بيمينه ، وعرفنا معنى الطي ، ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض؟ وجاء في بعض الروايات ((يهزهن تبارك وتعالى ويقول : أنا الملك أين ملوك الأرض؟)) أين ملوك الأرض: أين من كانوا يملكون في الأرض يملكون مدن أو ديار أو مناطق أين هم ؟ وأين ما يملكون ؟ وأين ملكهم ؟ ، وهو تبارك وتعالى الملك في الدنيا والآخرة الذي بيده أزمة الأمور ومقاليده السماوات والأرض ، لكن هذه الحقيقة لا تنكشف جليلة لجميع الناس وعموم الخلق إلا إذا وقفوا وقد تجردوا من أمور الدنيا كلها وليس معهم منها أي شيء ، ووقفوا بين يديه تبارك وتعالى ليس معهم من الدنيا شيء الملوك والرؤساء والصغار والكبار وأصحاب الأموال والفقراء كلهم يقفون على صعيد واحد ليس معهم من الدنيا شيء ، من كان يملك فيها ومن كان لا يملك ، من كان عنده شيء قليل ومن لا شيء عنده ومن عنده شيء كثير ، الكل يقف في صعيد واحد في أرض عفراء ، أرض جرداء ، أرض لا ظل فيها ولا سكنى ولا مأوى ، يقفون وقد تجردوا من أمور الدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر ((يحشر الله الناس يوم القيامة حفاة عراة بهمًا)) قالوا وما بهما يا رسول الله؟ قال : ((أي ليس معهم من الدنيا شيء)) أي: أي شيء كانوا يملكونه في الدنيا لا يكون معهم لا درهم ولا دينار ولا تجارة ولا مسكن ولا غير ذلك؛ فينجلي الأمر ويتجلى للجميع ويظهر من كان مغترا بملكه مغترا بسلطانه مغترا برئاسته مغترا

بتجارته كل هذه الأشياء تذهب ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩] كلها تذهب ولا يبقى منها شيء .

يقول الرب تبارك وتعالى : أين ملوك الأرض؟ أين ملكهم ؟ أين ذلك الملك المدعى؟ أين تلك السلطة؟ أين ذاك الأمر والنهي؟ أين ذاك التعالي والتكبر الذي يوجد في كثير من الناس؟ أين ملوك الأرض؟ يقول أنا الملك في حديث آخر يقول : ((أنا الملك أنا الديان)) الديان: المجازي المحاسب ؛ فهو تبارك وتعالى يجازي العباد في ذلك اليوم ويحاسبهم على ما قدّموا في حياتهم الدنيا . يقول ((أنا الملك أين ملوك الأرض)) .

قال رحمه الله :

وله عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه ثم يقول أنا الملك)) ، وفي رواية عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها ويقبل بها ويدبر ؛ يمجّد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا العزيز أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرن به . رواه أحمد .

ورواه مسلم عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يأخذ الله سماواته وأرضيه بيديه فيقبضهما فيقول أنا الملك ويقبض أصابعه ويبسطها فيقول: أنا الملك)) حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.

ثم أورد المصنف رحمه الله الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه)) أي أنه تبارك وتعالى يطويها بيمينه كما هو مبين في الرواية التي قبله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تكون السماوات بيمينه ((ثم يقول أنا الملك)) وقوله عز وجل «أنا الملك» : أي الذي له الملك كله ؛ملك الدنيا وملك الآخرة وملك الخلائق الذي بيده أزمة الأمور . واسمه تبارك وتعالى «الملك» يدل على ثبوت صفة الملك لله جل وعلا ، والملك الذي هو صفة الله تبارك وتعالى يتناول أمورًا كلها يشملها كونه تبارك وتعالى الملك ، منها : اتصافه جل وعلا بصفات الجمال والجلال والعظمة والعزة والقدرة والقوة إلى غير ذلك من الصفات التي هي

صفات الملك جل وعلا ، فاسمه تبارك وتعالى «الملك» يدل على صفات الملك التي هي صفات الجلال والكمال والعظمة، صفات القوة والقدرة والتدبير والتصرف .

أيضا يشمل اسمه تبارك وتعالى «الملك» ويدل على أنه له الحكم ؛ له الحكم الشرعي ، فهو الذي يأمر وينهى ويشرع ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] ، وله الحكم القدري فهو الذي له الأمر تبارك وتعالى كله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، لا رافع لما خفض ولا خافض لما رفع ، لا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض ، الأمر بيده تبارك وتعالى لأنه هو الملك وهو الذي يتصرف في مملكته تبارك وتعالى كيف شاء ويحكم فيها تبارك وتعالى بعلمه وحكمته ويدبر كما أراد ، ولا يمكن أن يكون في ملكه تبارك وتعالى ولا ذرة إلا بمشيئته جل وعلا ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى . وأيضا يشمل الحكم الجزائي ؛ وهو المجازة والمحاسبة وإثابة المطيع ومعاقبة العاصي ، كل ذلك من ملكه ، من ملكه تبارك وتعالى وتديره ما ينزله من الكتب ويرسله من الرسل ويهدي إليه من الشرائع ويرضاه تبارك وتعالى من الدين كل ذلك من معاني الملك .

وقوله سبحانه وتعالى يوم القيامة ((أنا الملك أين ملوك الأرض)) هذه الحقيقة كما قدمت لا تبرز جليلة واضحة لكل الناس وعموم الخلق بكافة أصنافهم وجميع فئتهم إلا إذا وقفوا متجردين من الدنيا ليس معهم منها شيء ، اضمحلت الأمور وانقضت الحقيقة وتجلي الأمر فيقول تبارك وتعالى: ((أنا الملك أين ملوك الأرض)) أين ذاك الملك الذي يُزعم والسلطان الذي يدعى والتعالي الذي يوجد؟ كلها تذهب وتضمحل ولا يبقى منها شيء والملك بيد الله تبارك وتعالى الواحد القهار ، كل ملك يفنى وكل ملك يزول ويبيد والله تبارك وتعالى المالك الذي بيده الملك جل وعلا ؛ ملك الدنيا وملك الآخرة ، ملك السماوات وملك الأرض وملك الخلائق ، الذي يحكم في خلقه وفي ملكه تبارك وتعالى كيف شاء وكما يريد سبحانه وتعالى .

قال : ((وفي رواية عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر)) وهذا فيه فائدة أن مما ينبغي أن يوعظ الناس به على المنبر ومما ينبغي أن يسمعون في الخطابة الجامعة التي تعالج مشكلات الناس وتفتح لهم أبوابا في الهداية والصلاح وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى غرس الاعتقاد الصحيح وبيانه للناس وإيضاحه ، كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام يصنع في خطبته ؛ غرس الاعتقاد الصحيح وأن يُزرع في قلوب الناس تعظيم الله جل وعلا وقدره عز وجل حق قدره وتعظيمه حق تعظيمه ، وأن يعرف الناس كمال قدرته وكمال قوته وكمال تدبيره جل وعلا ، فهذه المعاني العظيمة يفتقر الناس إلى بيانها وإيضاحها وتبيينها ولا سيما في الخطب الجامعة التي يوعظ فيها الناس ويذكرون بالله تبارك وتعالى ويذكرون بعظمته وجلاله وكمال اقتداره سبحانه وتعالى .

قال : ((قرأ هذه الآية يوما على المنبر)) فهذا كما قدمت يدل على مشروعية هذا العمل والحاجة إليه أن تُقرأ هذه الآيات وأمثالها من آيات التوحيد والآيات التي تبين عظمة الله جل وعلا ؛ تُبين للناس وتقرأ على المنبر وتشرح معانيها وتوضح دلالاتها حتى تقوى صلة الناس بالله وإيمانهم به .

قرأ قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ؛ قرأ هذه الآية صلوات الله وسلامه عليه وهو واقف على المنبر يخاطب الناس صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر: ((ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها ويقبل بها ويدبر)) لما قرأ عليه الصلاة والسلام قول الله تبارك وتعالى ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ قبض النبي صلى الله عليه وسلم بيده وأخذ يهزها عليه الصلاة والسلام يحركها إلى الأمام وإلى الخلف يقبل بها ويدبر ، يحركها عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر إلى الأمام وإلى الخلف يقبل بها ويدبر ، حتى إن الصحابة رضي الله عنهم لما رأوا المنبر يهتز قالوا : ليخرن به ؛ يعني خشوا أن يخر المنبر يعني أن يسقط من الاهتزاز ، وهذا يدل على حماسة النبي عليه الصلاة والسلام ونصحه صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام .

وقبضه صلى الله عليه وسلم بيده وهزها هذا كما بين أهل العلم المراد به: تحقيق الوصف ، وأن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يقبض الأرضين بيده حقيقة ويطوي السماوات بيمينه حقة ويهزهن تبارك وتعالى بيده حقيقة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام قبض بيد نفسه لأجل تحقيق الوصف وبيان أن هذا أمرٌ يكون يوم القيامة حقيقة يفعل رب العالمين جل وعلا ، ليس هنا تشبيه للقبض بالقبض ولا تشبيه لليد باليد ولا تشبيه للفعل بالفعل ، حاشا أن يكون ذلك ، وإنما المراد تحقيق الوصف . نظير هذا ما تقدم عندما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] فوضع عليه الصلاة والسلام اصبعه الإبهام على أذنه والسبابة على عينه، قال العلماء: المراد بذلك تحقيق الوصف أنه تبارك وتعالى سميع حقيقة بصير حقيقة ، سميعٌ بسمع بصيرٌ ببصر يليقان بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

فهذه الإشارة التي كانت منه عليه الصلاة والسلام بيده المراد بها تحقيق الوصف وتأكيد الأمر وأنه يكون الأمر يوم القيامة بأنه سبحانه وتعالى يقبض الأرضين ويطوي السماوات ويهزهن تبارك وتعالى ويقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟

قال: ((يحركها ويقبل بها ويدبر، يمجّد الرب نفسه)) أي أنه سبحانه وتعالى لما يقبض الأرضين بيده ويطوي السماوات بيمينه ويهزهن يمجّد نفسه ، والتمجيد: هو السعة في الثناء ، ومن أسمائه تبارك وتعالى «المجيد» وهو

دال على ثبوت المجد صفة له تبارك وتعالى ، والمجد معناه في اللغة: السعة ، وتمجيد الرب نفسه تبارك وتعالى: أي أنه عز وجل يكثر من ذكر الثناء على نفسه جل وعلا بذكر أسمائه العظيمة وصفاته العليا الكريمة سبحانه وتعالى يذكر ذلك بمجد نفسه . فالتمجيد: هو السعة ومما يوضح لكم هذا المعنى ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن الله سبحانه وتعالى قال: ((قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ «مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ» قَالَ: مَجْدِي عَبْدِي)) التمجيد: هو السعة في الثناء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴿ هذا تمجيد لله تبارك وتعالى وتوسعة في الثناء على الله عز وجل في تعداد صفاته وأسمائه.

فقال هنا: ((**يمجد الرب نفسه**)) أي يذكر من أسمائه وصفاته ما يمجد به نفسه أي يثني على نفسه بها جل وعلا، فذكر من الأسماء التي يذكرها تبارك وتعالى ممجداً بها نفسه : ((أنا الجبار أنا المتكبر أنا العزيز أنا الكريم)) يذكر هذه الأسماء سبحانه وتعالى ممجداً بها نفسه .

((أنا الجبار)) والجبار: اسم من أسماء الله تبارك وتعالى ، والمعنى الذي يدل عليه هو الجبر وهو يتناول أموراً منها : جبر القلوب المنكسرة بإصلاحها وتركيتها ، وكذلك من معاني الجبار: انتقامه تبارك وتعالى من العتاة وقصمه لظهور الجبابة والمعتدين ، فالجبار يعطي معنى البطش والقوة والانتقام ويعطي أيضاً معنى إصلاح قلوب أهل الإيمان وجبر قلوبهم وتركيتهم وإصلاح أحوالهم ، فهذه كلها من المعاني التي يدل عليها هذا الاسم العظيم ((أنا الجبار)).

((أنا المتكبر)) والمتكبر: اسم يدل على صفة الكبرياء لله تبارك وتعالى ، والكبرياء صفة مختصة به ، ومن نازع الله عز وجل في كبريائه قذفه الله عز وجل يوم القيامة في النار كما جاء في الحديث الذي في صحيح ((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ)) ، فالله عز وجل هو المتكبر أي الذي له الكبرياء . ومن الذكر الذي كان يقوله عليه الصلاة والسلام في ركوعه وسجوده «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» ، قوله والكبرياء أي ذي الكبرياء ، والعظمة أي وذو العظمة ، فالله عز وجل مختص بذلك جل وعلا ؛ فهو العظيم الذي له العظمة ، وهو المتكبر الذي له الكبرياء .

ومن كان يتكبر في هذه الحياة الدنيا ويتعالى على الناس ويتعاضم ويرفع على عباد الله سينجلي له الحق وتبين له الحقيقة عندما يقف على صعيد وعرصات يوم القيامة ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [٥٠: ٤١] ، عندما يقف ذاك الموقف العظيم يذكر أن كبريائه سرابٌ وأن كبريائه ضياع عندما يقف بين يدي الله تبارك وتعالى يوم القيامة ، الكبرياء لله ، ومن يتكبر في هذه الحياة على الناس ويتعالى على خلق الله تبارك وتعالى هو في الحقيقة ما عرف

نفسه، وإلا لو تأملا في حقيقة نفسه وتدبر أمره لذهب من قلبه الكبرياء ، الإنسان ما هو حتى يتكبر؟ الإنسان مخلوق أوله نطفة وآخره جيفة يلقي أو يدفن في حفرة وتأكّل لحمه الديدان وتأكله الأرض ، وهو بين ذلك يحمل في بطنه العذرة على أي شيء يتكبر؟! ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] على ماذا يتكبر الإنسان؟ من يتكبر ما عرف حقيقة نفسه ، لكن يوم القيامة يُحْشَر المتكبرون في غاية الذل وهم في غاية الصغار والضعفة ويعرفون حقيقة تكبرهم ، فيقول الله سبحانه وتعالى : ((أنا الجبار أنا المتكبر)) ، وكما قدمت هذه معاني تظهر للناس كلهم ؛ في الدنيا يوجد من يتجبرون ومن يتكبرون ومن يتعاضمون ومن أيضا يغتر بتكبرهم وتعاضمهم وتكبرهم ويظنهم على شيء ، لكن هذه كلها تنقشع وتنجلي وتتضح لعموم الخلائق يوم القيامة .

يقول جل وعلا ((أنا الجبار أنا المتكبر أنا العزيز)) والعزيز: هو القاهر الذي لا يغلب الذي بيده أزمة الأمور تبارك وتعالى قال أنا العزيز .

((أنا الكريم)) يذكر تبارك وتعالى كرمه جل وعلا وجوده وسخاءه ومنه وأفضاله جل وعلا ، وكرمه سبحانه الذي يثني على نفسه به في ذلك اليوم العظيم ليس لكافرٍ فيه مطمع ولا حظٌ له فيه ولا منال ، فالرب العظيم واسع الكرم واسع الجود واسع المن واسع العطاء عظيم الصفح جل وعز ، ليس لكافر في كرمه سبحانه وتعالى ورحمته ومغفرته مطمع ، وهذا أمرٌ قُطِع به في كتاب الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] . قال ((يقول أنا الكريم)).

يقول ابن عمر : ((فيرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر)) يرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يهز يده يقبل بها ويدبر ؛ فيهتز جسمه لاهتزاز يده مقبلة مدبرة ، ويهتز المنبر تبعا لاهتزاز جسم الرسول عليه الصلاة والسلام عليه ، حتى إن الصحابة لما رأوا اهتزاز المنبر من تحته عليه الصلاة والسلام قال : ((حتى قلنا ليخرن به)) ليخرن أي يسقط المنبر برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا كما قدمت مما يبين لنا كمال نصح النبي عليه الصلاة والسلام ، كمال نصحه في خطابته للناس وبيانه لهم ، وقد وصفه بعض أصحابه أنه عليه الصلاة والسلام «إذا خطب الناس احمر وجهه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم» ، منذر الجيش معروفة صفته عندما يداهم الجيش بلدًا من البلدان فيأتي واحد من أهل هذا البلد يخبر أهل البلد بالجيش الذي داهمهم كيف تكون صفته ؟ قال: كأنه منذر جيش أي كأنه منذر قومه من جيش وصلهم وداهم بلدهم ، كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ؛ جاءكم الجيش يعني في هذا الصباح وصلكم أو في هذا المساء ، كأنه منذر جيش . فكان عليه الصلاة والسلام معلماً أميناً وناصحاً مشفقاً صلوات الله وسلامه عليه ، وما ترك إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرهما منها .

وهنا يا إخوان يعجب المسلم غاية العجب عندما يتأمل في نصيح النبي العظيم هذا في بيانه للدين وبيانه للاعتقاد وبيانه لأصول الإيمان بهذه القوة وبهذا النصح الكامل منه صلوات الله وسلامه عليه ثم يجد أقوامًا وهم كثيرون يدعون الانتساب إليه ولا يأخذون الاعتقاد عنه!! وإنما يأخذون الاعتقاد عن عقولهم هم ، ويننون اعتقادهم على عقولهم ، حتى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بما فيها هذا الحديث الذي فيه نصحه عليه الصلاة والسلام لا يأخذون منه عقيدة بل يتشاغلون بتأويل هذا الحديث وردّه ورد غيره من نصوص الصفات ، سواء منها ما جاء في كتاب الله أو ما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فترى هؤلاء يقفون عند مثل هذه النصوص ويقول قائلهم : اليد ما تليق بالله ، ولو أثبتنا اليد للزم كذا ولزم كذا .. ويدخل في تحركات عقلية وخوض باطل وقول على الله تبارك وتعالى بلا علم وجحد وإنكار لما وصف الله تبارك وتعالى به نفسه وما وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ويتألى على الله جل وعلا ويقول عليه لا علم في أسمائه وصفاته ، وهذه من أنكر المنكرات وأعظم المحرمات؛ القول على الله تبارك وتعالى بلا علم ﴿ اَلَا تَعْلَمُ اَمَ اللّٰهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠] ، هل هم أعلم بالله من رسوله عليه الصلاة والسلام !! يقف صلى الله عليه وسلم ناصحًا للأمة خطيبًا على المنبر يقرأ هذه الآية الكريمة ويقبض عليه الصلاة والسلام بيده ويهزها أمام الناس مؤكدًا هذا الأمر مؤكدًا وقوعه وأنها حقيقة ستكون يوم القيامة ثم يأتي أقوامٌ ينتسبون إليه عليه الصلاة والسلام ويحدثون ذلك وينفون!! وينفون ثبوت اليد صفة لله جل وعلا ويقولون : لو أثبتناها للزم كذا وللزم كذا من أمور عقلية واستنتاجات عقلية نتيجتها جحد صفة الله سبحانه وتعالى .

وقد نبهت فيما سبق أن من أرخى لعقله الزمام وأطلق له العنان يخوض في هذا الباب متخرفًا متكلفًا قائلًا بلا علم يأتي بالأباطيل وأنواع الأضاليل ، ولعلنا نذكر جميعًا حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي مر معنا قريبًا قال عليه الصلاة والسلام : ((إن رجلا قال إن الله لا يغفر لفلان، فقال الله عز وجل من هذا الذي يتألى عليّ غفرت له وأحببت عملك)) ؛ قال إن الله لا يغفر لفلان ، قوله "إن الله لا يغفر لفلان" هذا الرجل أرخى لعقله العنان وأخذ يستنتج وأخذ يسبر حال ذلك الرجل وجد عنده معاصي كثيرة وجد عنده تفريط وتقصير عظيم وأخذ يستنتج وتوصل لعقله إلى هذه النتيجة الله لا يغفر لفلان ، لم يحدد أن الله غفور ولكنه حجّر المغفرة حجّر واسعًا وأقحم عقله في مشيئة الله وفي علمه وحكمته ، من أنت حتى تقول الله لا يغفر لهذا أو لا يرحم هذا أو يرحم ذاك ؟! هذا أمر بيده ويرجع إلى حكمته ومشيئته سبحانه وتعالى . فالقول على الله سبحانه وتعالى بلا علم من أعظم الجرائم وأخطرها ؛ ولهذا الجادة السليمة والطريق القويم في هذا الباب : أن يثبت المسلم لله تبارك وتعالى صفاته كما أثبتتها الله لنفسه وكما أثبتتها له رسوله عليه الصلاة والسلام .

ثم أورد المصنف رحمه الله رواية أخرى لهذا الحديث عن ابن عمر قال : ((روى مسلم عن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأخذ الله سمواته وأرضيه بيديه فيقبضهما)) وقوله «بيديه» فيه إثبات اليدين لله سبحانه وتعالى ، وثبوتهما جاء في القرآن

الكريم في مواضع منها : قوله سبحانه وتعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله جل وعلا ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ، فالله سبحانه وتعالى له يدان حقيقتان تليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

قال : ((يأخذ الله سماواته وأراضيه بيديه فيقبضهما)) ذكر في الحديث هنا صفتان لليد الأخذ والقبض ومر معنا الطي ؛ فهذه كلها صفات ليد الله ، وذكرت لكم أن ابن القيم رحمه الله أوصلها إلى قرب المئة صفة في كتابه الصواعق، كلها صفات تؤكد ثبوت اليد حقيقةً لله جل وعلا كما يليق بجلاله وكماله وعظمته .

وهنا خذوا فائدة مهمة في هذا الباب قبل المواصلة وهي: أن العلماء رحمهم الله يقولون «الإضافة تقتضي التخصيص»، معنى ذلك أن ما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات ومنها اليد كما هنا في هذا الحديث ، ما يضاف إلى الله سبحانه وتعالى من الصفات تخصه وتليق به ، وما يضاف إلى المخلوق من الصفات تخص المخلوق وتليق به ، فاليد إذا أضيفت إلى من ليس كمثله شيء ماذا يكون شأن هذه اليد؟ -انتبهوا يا إخوان - يكون شأنها ليس كمثله يد أضيفت إلى من ليس كمثله شيء ، وعندما تضاف اليد إلى المخلوق الناقص أي شيء يكون شأنها؟ تكون بحسب من أضيفت إليه ؛ فيد المخلوق تليق بالمخلوق ويد الخالق تليق به ، فاليد المضافة إلى الله شأنها كما قال الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته متفرد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فهو جل وعلا أحد لا سمي له ولا مثيل ولا ند ولا نظير تنزه وتقدس عن ذلك ، فاليد عندما تضاف إلى الله جل وعلا فهي يد تخص الرب سبحانه وتعالى وتليق بجلاله وكماله ، فلا تُجحد اليد ولا أيضا تشبّه بأيدي المخلوقين كل ذلك ضلالٌ وباطل ، والحق قوام بين تعطيل المعطل وتمثيل الممثل ، الحق إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، على حد قول الله تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

قال : ((يقبضهما فيقول أنا الملك ، ويقبض أصابعه ويبسطها)) أي أنه عليه الصلاة والسلام كان على المنبر يقبض أصابعه ويبسطها ، وهذا كما قدمنا المراد به تحقيق الوصف وأنه ثابت حقا ، وأن هذا الأمر يكون يوم القيامة كما أخبر الله عن ذلك في كتابه العزيز وكما أخبر عن ذلك رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

((يقبض أصابعه ويبسطها فيقول أنا الملك)) وهذا فيه إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يكون منه ذلك ؛ يقبض السماوات ويقبض أصابعه تبارك وتعالى ويبسطها ، وهذا فيه ثبوت الأصابع ، والأصابع ثابتة في السنة لله جل وعلا على الوجه اللائق بجلاله ، والحديث في الصحيحين وغيرهما ((أن حبرا من أحبار اليهود جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : إن الله يوم القيامة يضع السماوات على اصبع ، والثرى على إصبع، والشجر على اصبع،

فلما ذكر ذلك ذاك الخبر ضحك النبي عليه الصلاة والسلام حتى بدت نواجذه ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] لماذا ضحك عليه الصلاة والسلام ؟ قال ابن مسعود راوي الحديث : «ضحك تصديقاً لقوله» ، فهذا الضحك في هذا المقام المراد به تصديق قوله ، أي يمكن أن يكون ضحك النبي عليه الصلاة والسلام منكراً لقوله ؟ من يقول ذلك ما قدر الرسول عليه الصلاة والسلام قدره ، إذ كيف يقال في حقه صلى الله عليه وسلم أنه في مجلسه وعنده يقال في حق الله ما لا يليق به فيضحك حتى تبدو نواجذه !! كان عليه الصلاة والسلام إذا انتهكت حرمت الله لا يقوم لغضبه شيء ، حتى إن عائشة رضي الله عنها ذكرت أنه ما غضب لنفسه قط عليه الصلاة والسلام ، فإذا انتهكت حرمت الله لا يقوم لغضبه شيء يشتد غضبه عليه الصلاة والسلام ، فكيف يقال فيمن هذه صفته أنه يقال أمامه وفي مجلسه وبين يديه في حق الله ما لا يليق به ولا يزيد إلا أن يضحك حتى تبدو نواجذه ، فهو عليه الصلاة والسلام ضحك لما سمع هذا الخبر يقول ذلك تصديقاً لقوله عليه الصلاة والسلام .

الأصابع ثابتة في هذا وفي غيره من الأحاديث منها قوله عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)) ، وجادة أهل السنة رحمهم الله وألحقنا بهم جادة مباركة ، جادة آمنة ، جادة سالمة ما فيها عثار وليس فيها منزلقات وليس فيها ورطات ، جادة مستقيمة تثبت لله ما أثبتته الله لنفسه ، وتثبت له ما اثبتته له رسوله عليه الصلاة والسلام على الوجه اللائق بجلال الرب تبارك وتعالى وكماله .

قال : ((فيقول أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه)) أي من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك من تحت قدميه صلوات الله وسلامه عليه .

((حتى إني لأقول -أي ابن عمر- أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم)) أي خشي أن يسقط المنبر من تحرك النبي صلوات الله وسلامه عليه على المنبر . وكما قدمت كل ذلك من كمال النصيح الكريم عليه الصلاة والسلام . وأعيد ما ذكرته من تعجب من حال أقوام نصح نبيهم عليه الصلاة والسلام لأمتهم غاية النصيح فهجروا نصحه وأعرضوا عن بيانه وأقحموا عقولهم القاصرة قائلين على الله تبارك وتعالى بلا علم .

قال رحمه الله :

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إقبلوا البشرى يا بني تميم)) قالوا قد بشرتنا فأعطنا قال : ((إقبلوا البشرى يا أهل اليمن)) قالوا : قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر ؟ قال : ((كان الله قبل كل شيء وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر

كل شيء)) قال : فأتاني آتٍ فقال : يا عمران انحلت ناقتك من عقاها ، قال : فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي .

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أبو نجيح ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((اقبلوا البشرى يا بني تميم)) وهذا كان عام الوفود في أواخر عهده عليه الصلاة والسلام كانت تأتية الوفود من الأنحاء يفدون عليه -عليه الصلاة والسلام- ويعلمهم عليه الصلاة والسلام ويفقههم في دين الله ويبين لهم ما أمره الله تبارك وتعالى ببيانه ، فجاءه هذا الوفد من بني تميم فقال ((اقبلوا البشرى)) ، والبشرى هنا أطلقت والمراد: البشرى بسعادة الدنيا والآخرة بقبول هذا الدين الذي جاء به عليه الصلاة والسلام والإقبال عليه ، وأن من أقبل على هذا الدين وحفظه وحافظ عليه والتزم به وثبت عليه إلى الممات يفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، يفوز بالبشارة مطلقة التامة الكاملة ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] لهم أكمل البشارة ، لهم البشارة المطلقة ولهم البشارة المقيدة ؛ البشارة المطلقة بكل خير ، والبشارة المقيدة ما جاء منها مقيدة إما بالجنة أو برضا الله أو نحو ذلك مما جاء ذكره في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

((اقبلوا البشرى يا بني تميم)) وهو عليه الصلاة والسلام بعث بشيرا ونذيرا ؛ يبشر بالخير وبسعادة الدنيا لمن التزم وتمسك بذلك ، وينذر من الشر ومن النار وسخط الله تبارك وتعالى الذي يناله من أعرض ومن كفر بالله عز وجل قال ((اقبلوا البشرى يا بني تميم)) .

((قالوا قد بشرتنا فأعطنا)) كأنهم أرادوا عطاء منه عليه الصلاة والسلام مما آتاه الله عز وجل من أمور الدنيا ومتاعها

ثم جاء وفد آخر من أهل اليمن قال لهم عليه الصلاة والسلام : ((اقبلوا البشرى يا أهل اليمن)) قالوا : «قد قبلنا فأخبرنا عن أول هذا الأمر؟» أول هذا الأمر الإشارة هنا إلى هذا الأمر أي الأمر المشاهد هذا الكون المشاهد السماوات والأرضون والجبال وهذه المخلوقات ما هو أولها؟ أخبرنا عن أول هذا الأمر ما هو أوله؟ والإشارة هنا إلى هذا الكون المشاهد وهذه المخلوقات المعاينة المشاهدة السماوات والأرض والجبال ، أخبرنا عن أول هذا الأمر؟

قال : ((كان الله قبل كل شيء)) مثل هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة إذا أراد أن ينام إذا أوى إلى فراشه ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيء)) كان الله ولم يكن شيء قبله .

((وكان عرشه على الماء)) والعرش مخلوق من مخلوقات الله لوجوده أولية ولوجوده بداية ، لم يكن موجودا فخلقه الله ، وكل مخلوق من مخلوقات الله مسبوق بعدم ، والله سبحانه وتعالى أول ليس قبله شيء ، وكل مخلوق لوجوده بداية وهو مسبوق بعدم وكان بعد أن لم يكن ، والله سبحانه وتعالى كان ولم يكن شيء قبله . قال ((وكان عرشه

على الماء)) وهذا فيه إثبات العرش وخلق الله تبارك وتعالى للعرش ؛ خلقه سبحانه وتعالى وأوجده بعد أن لم يكن ، والعرش هو أعلى المخلوقات وسقفها . قال ((وكان عرشه على الماء)) .

((وَكُتِبَ فِي اللّٰوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرُ كُلِّ شَيْءٍ)) فبين هنا عليه الصلاة والسلام أن أول المخلوقات فيما يتعلق بهذا العالم القلم ، ولهذا جاء في بعض الروايات ((إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)) ، وليس في هذا دلالة على أن القلم خلق قبل العرش ، العرش مخلوق قبل القلم لكن الأولوية هنا تتعلق بما سئل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو هذا العالم ؛ السماوات والأرض والجبال.

قال: ((وَكُتِبَ فِي اللّٰوْحِ الْمَحْفُوظِ ذِكْرُ كُلِّ شَيْءٍ)) وجاء في بعض الروايات ((كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة)) كتب ما هو كائن بتفصيل تام كامل ، ومن فقه الصحابة لهذا العموم والشمول في الكتابة يقول ابن عباس رضي الله عنه: «كل شيء بقدر حتى وضعك كفك على ذنك هكذا بقدر»، كل شيء بقدر أي حركة يتحركها الإنسان وأي سكون وأي قيام وقعود كل ذلك بقدر كُتِبَ في اللوح المحفوظ .

هذا يبين لنا عظمة الخالق سبحانه وتعالى وكمال علمه جل وعلا ، كل ما هو كائن بالتفاصيل الدقيقة بالجزئيات الدقيقة بالأمور اليسيرة كلها كُتِبَتْ تفصيلاً بدقة لا يفوت شيء في اللوح المحفوظ ، متى؟ حتى هذا الاجتماع الذي من الله عز وجل علينا به ونسأل الله ان يتقبله بقبول حسن ، سخره ويسره فنسأل الله أن يتقبله ، كُتِبَ في اللوح المحفوظ متى؟ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، هذه التفاصيل كلها بدقة وما يكون من الناس من حركات ؛ حركة يسيرة أو قليلة خائنة الأعين ما تخف الصدور الأعمال التي في القلوب كل التفاصيل كُتِبَتْ بدقة لم يترك منها جزء يسير لم يترك منها ذرة واحدة ، هذا يدل على ماذا؟ كمال علم الله عز وجل ، علم ذلك في الأزل وأحاط علمه وكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، خلق سبحانه وتعالى القلم ، والقلم مخلوق لله أوجده بعد أن لم يكن وقال له اكتب ، وقال القلم لله سبحانه وتعالى ماذا أكتب؟ أي شيء أكتب؟ قال ((اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)) فأجرى الله عز وجل القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة ، كل التفاصيل التي تكون إلى يوم القيامة كُتِبَتْ بالقلم في اللوح المحفوظ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣] كل ذلك مكتوب ؛ فهذا يدل على كمال علم الله ، وسيأتي عند المصنف بابٌ عظيم في إثبات القدر بمراتبه : العلم المحيط الشامل ، والكتابة لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، والمشية النافذة مشيئة الله سبحانه وتعالى النافذة ، وأن كل ما يكون ويوجد هو خلق له ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ، سيأتي عند المصنف رحمه الله باب خاص في هذا . قال ((وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء)).

الحديث لا يزال متصلا من النبي عليه الصلاة والسلام لكن عمران يقول : ((فأتاني آتٍ -يعني جاءني رجل- وقال: يا عمران انحلَّت ناقتك من عقالها)) والعقال: ما يوضع في يد الناقة وهو المكوّر المدور يوضع في يد الناقة إذا بركت بحيث لا تستطيع أن تقوم ، كلما أرادت أن تقوم منعها العقال ، ولا تزال الناقة تحاول أن تقوم وفي يدها العقال فتجد العقال ينحل من يدها شيئا فشيئا إلى أن يسقط العقال فتقوم ، فهي تتكرر منها المحاولة ، ولهذا صاحب الإبل يحتاج أن يتعاهدها دائما ، إذا وضع فيها العُقل يحتاج أن يتعاهدها دائما يمر فما انحل منها عقاله يعيده ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((تَعَاهِدُوا هَذَا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ هُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا)).

قال: ((فأتاني آتٍ قال يا عمران احلت ناقتك من عقالها فخرجت في إثرها)) يعني خرج يطلب ناقتة قال : ((فلا أدري ما كان بعدي)) وهذا اعتذار من عمران عن سبب ذكره بقية الحديث لهذا العذر الذي حصل له وهو ان ناقتة انحلّت من عقالها وذهبت وذهب في إثرها يُرجعها ويعيدها فيقول لا أدري يقول ذلك معتذرا رضي الله عنه وأرضاه . وهذا أيضا من كمال أدب الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم ونصحهم في بيان كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما كان للكلام بقية فاتته لهذا السبب اعتذر بهذا الأمر العارض الذي حصل له .

هذا الحديث والأحاديث التي قبلها وكذلك الأحاديث الآتية كلها في بيان عظمة الله جل وعلا ، وأنه سبحانه وتعالى الرب العظيم والخالق الجليل والملك المتصرف المدبر لهذا الكون ، وأنه تبارك وتعالى المستحق للعبادة وحده تبارك وتعالى دون سواه ، وأن من صرف شيئا من العبادة والذل والخضوع لغيره ما قدر ربه تبارك وتعالى حق قدره وما عظمه سبحانه وتعالى حق تعظيمه .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٩ إلى الدرس ١٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٠/١٩ هـ

الدرس التاسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، اللهم إنا نسألك علماً نافعاً وعملاً صالحاً ورزقاً طيباً ونسألك التوفيق لما تحبه وترضاه . ونواصل قراءتنا في كتاب «أصول الإيمان» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :
وعن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال وهكت الأموال وهلك الأنعام فاستسقى لنا ربك فإنا نستشفع بك على الله وبالله عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ويحك أتدري ما تقول؟)) وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : ((ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما الله ؟ إن عرشه على سماواته هكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيظ الرجل بالراكب)) رواه أحمد وأبو داود .

أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث ؛ حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه في باب قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ، وقد ساق المصنف رحمه الله هذا الحديث لما فيه من بيان وجوب تعظيم الله سبحانه وتعالى ، وأن من تعظيمه جل وعلا أن يصون المسلم كلامه من كل قول يتنافى مع التعظيم ويتنافى مع معرفة العظمة لله جل وعلا ، وفي الحديث تنبيه إلى أن خطأ الإنسان فيما يتعلق بالله جل وعلا أو أسمائه وصفاته فرغ عن نقص المعرفة بالله جل وعلا ، وأن المعرفة به سبحانه وتعالى إذا تمكنت من القلب فإن أقوال الإنسان بإذن الله تبارك وتعالى يكون فيها السلامة ؛ لأنه يتكلم عن تعظيم الله تبارك وتعالى على ضوء ما جاء في كتابه وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

حديث جبر الذي ساقه المصنف فيه أن أعرابيا جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : ((يا رسول الله جهدت الأنفس)) أي أصابها الجهد؛ وهو المشقة والتعب .

((وضاعت العيال)) لأنه لم يجد لهم أولياءهم ما ينفقون عليهم ، لم يجدوا لهم القوت، الطعام .

((وهكمت الأموال)) أي الأموال بدأت تقل وتضعف وتنقص .

((وهلكت الأنعام)) أي بسبب القحط وقلة المياه وجفاف الزروع والنبات .

((فاستسق لنا ربك)) أي اطلب من الله وادع الله أن يسقينا أن ينزل علينا الغيث . وهذا الأمر كان يفعله الصحابة، ولا يزال يفعله المؤمنون ؛ يُطلب من الإمام الذي يصلي بالناس أن يستسقي بهم ، يتوجه إلى الله عز وجل وهم وراءه صفوف يصلُّون ويتجهون الله تبارك وتعالى بالدعاء ، ويرفع يديه في دعائه ويرفعون أيديهم ويدعو ويؤمنون ((استسق لنا)) أي اطلب من الله تبارك وتعالى أن يسقينا . وهذا التوسل لا بأس به وهو التوسل بدعاء الصالحين الأحياء ، أن يُطلب من الصالح الحي أن يدعو الله له ، ولا يخاطب بهذا غائب بل حي حاضر ، ولا يخاطب بذلك أيضا ميت ، بل هذا توسل بالصالحين الأحياء ، ولهذا لما مات النبي عليه الصلاة والسلام لم يُفعل هذا معه ، وإنما كانوا في حياته عليه الصلاة والسلام يقولون له : استسق لنا أو اطلب لنا من الله ، أما بعد مماته لم يكن أحد من الصحابة وسلف الأمة يفعل شيء من ذلك ، بل قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أصيبت الديار في زمانه بالقحط : «اللهم إنا كنا نستسقي بنينا والآن نستسقي بعم نبينا ، قم يا العباس فادع الله لنا» لماذا قال قم يا العباس فادع الله لنا وعدل عما كانوا عليه من طلب الدعاء من النبي عليه الصلاة والسلام ؟ الجواب واضح ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام مات ، وقد قال : ((إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)) ، فهذا التوسل مشروع؛ التوسل بدعاء الصالحين الأحياء ولا يزال المسلمون يفعلونه .

قال : ((استسق لنا ربك ؛ فإننا نستشفع بك على الله وبالله عليك)) ؛ «نستشفع بك على الله» أي نطلب منك أنه تشفع لنا عند الله سبحانه وتعالى، بمعنى استسق لنا ربك يعني اطلب لنا من الله تبارك وتعالى أن يسقينا أن ينزل علينا الغيث ((إننا نستشفع بك على الله وبالله عليك)) «بالله عليك» أي نستشفع بالله عليك معنى الكلام أي نطلب من الله أن يشفع لنا عندك «وبالله عليك» ، وهذا الكلام كلام خاطئ ولا يليق أن يقال في حق الله سبحانه وتعالى ، ومعرفة الله عز وجل وتعظيمه جل وعلا حق تعظيمه تأبى هذا الكلام ، لأن الاستشفاع يكون من الأدنى للأعلى ، أما ان يطلب من الأعلى الذي بيده أزمة الأمور ومقاليده السماوات والأرض ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يُطلب منه أن يشفع!! هو بيده أزمة الأمور جميع المخلوقات نواصيها بيده وكلها طوع أمره وتدييره وتسخييره والأمر له جل وعلا من قبل ومن بعد ، فكيف يقال في

حق من هذا شأنه اشفع لنا عند فلان؟! «نستشفع بالله عليك»!! فهذه الكلمة في حق الله تبارك وتعالى لا تليق في حقه سبحانه ولا يصح أن يقال ، وهي تتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من التعظيم لله جل وعلا .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((ويحك أتدري ما تقول ؟)) انتبه لهذه الكلمة جيداً ((أتدري ما تقول)) هذه الكلمة تكشف لك عن حقيقة في واقع كثير من الناس ما هي ؟ أن كثيراً منهم يقول كلاماً ولا يدري ما يقول ، يعني لا يدري أبعاد قوله ، يكون في قوله جنوح أو زلل أو خطأ أو انحراف ولا يدري عن أبعاد قوله ، حتى إن كثيراً منهم عندما ينبّه على خطأ درج عليه لسانه وتكرر عليه مدة طويلة في زمانه وعمره ماذا يقول؟ سبحانه الله أول مرة أنتبه لهذا ، أول مرة أعرف هذا ، ما سبق أن ، وتجده ربما هذه الكلمة قالها مئات المرات في حياته .

إذاً هذا يبين لنا أن ثمة مشكلة في كثير من الناس في أقوالهم أنه يقول كلاماً وهو في الحقيقة لا يدري ما يقول ، ومعنى لا يدري ما يقول: يعني لا يعرف أبعاده لا يعرف ماذا يحتوي عليه هذا الكلام من خطأ ، لأنه لو كان يدري ما يقول لما قال كلاماً يتنافى مع تعظيم الله ، لأنه هو في نفسه معظم لله ، في قلبه معظم لله ، لكن هذا خطأ درج عليه لسانه بسبب نقص المعرفة ونقص العلم ؛ لهذا قال : ((أتدري ما تقول)) هذه حقيقة ينبغي أن نقف عندها لتكون مفتاحاً لنا في التنبيه ، وأن الواجب على الإنسان أن لا يكون خوضه في كل كلام ما يدري عن حقيقته وما لا يدري عن حقيقته ، بل يجب عليه أن يكون كلامه موزوناً ، وأن يحسب للكلمة حساباً .

الخطأ في القول له خطر ، قد يقول الرجل الكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً ، ((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)) ، فالمخاطرة هكذا بالكلام وبالأقوال ورمي الكلام جزافاً وكل ما دار في خلد الإنسان أو خاطره من كلام قاله وهو ما يدري ما هو ؛ هذه مخاطرة . فالحديث يفتح للعبد باباً في التنبيه لكلامه وللخطأ في أقواله . وإذا سبرت مجالس الناس أو مجالس العوام تجددها لا تخلو من كثير من الكلمات التي تنطوي على مخالفات شرعية ، إما مخالفات في باب القدر ، أو مخالفات في باب الإيمان ، أو مخالفات في باب الأسماء والصفات والتعظيم لله تبارك وتعالى ، أو مخالفات في حق جناب الرسول عليه الصلاة والسلام ، إلى غير ذلك من المخالفات اللفظية الكثيرة التي تدرج وتنتشر في كثير من العوام وهي مبنية على أنهم لا يدرون ما يقولون .

إذاً قوله عليه الصلاة والسلام ((أتدري ما تقول)) فيه تنبيه إلى وزن الكلام وضبطه بضوابط الشريعة ، وأن لا يكون الإنسان في ألفاظه منطلقاً يقول كل قول وكل كلام ما صح منه وما لم يصح ، بل يضبط كلامه ويزن كلامه بموازين الشريعة ، ((أتدري ما تقول)) يعني هذا كلاماً لا يقوله من يدري بكلامه ويعرف أبعاد كلامه .

((أتدري ما تقول)) وهذا أيضاً فيه تنبيه إلى أهمية العلم في ضبط الكلام ، أهمية العلم الشرعي ، لأن الإنسان متى ما خلا من العلم الشرعي وضعف حظه منه حصل فيه من فساد الكلام بحسب ما فرط فيه من العلم الشرعي ، فالعلم الشرعي يصون الإنسان ويصون ألفاظه ويصلح منطقه وتكون به زكاته .

قال : ((ويحك)) وقوله «ويحك» هذه كلمة تقريع وزجر تأتي بها العرب للتقريع والزجر ((ويحك أتدري ما تقول)) ((وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح)) يعني بعد ان يقال للرجل ((ويحك أتدري ما تقول)) أخذ يسبح ؛ سبحان الله سبحان الله يكررها عليه الصلاة والسلام ، يرددها عليه الصلاة والسلام ، مازال يردد تسبيح الله تبارك وتعالى .

((حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه)) يعني عُرف تغير النبي عليه الصلاة والسلام وظهور الغضب عليه صلوات الله وسلامه عليه . ((حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه)) وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يعرفون من وجهه عليه الصلاة والسلام الأمر ؛ إذا كان محرمًا عرفوه من وجهه ، إذا كان باطلاً عرفوه من وجهه ، إذا كان أمرا طيبا مباحًا عرفوه من وجهه ، ((حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه)) أي التأثير الذي كان ظهر على النبي عليه الصلاة والسلام الغضب .

ثم أعاد الخطاب للرجل منبهًا له على خطأه بعد أن سبح عليه الصلاة والسلام ، والتسبيح: تنزيه لله ، والحديث يدل على مشروعية الاتيان بالتسبيح عندما يقال في حق الله سبحانه وتعالى قول خطأ أو كلام لا يليق بجلاله وعظمته ، قال عز وجل ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَكْدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦] وقال جل وعلا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿[الصافات: ١٨٠-١٨١] ينزه تبارك وتعالى هنا نفسه عما يصفه به أعداء الرسل والمخالفون للرسول ، فالله جل وعلا ينزه عن كل ما لا يليق به ، والتسبيح تنزيه الله جل وعلا، فلما قال هذا الأعرابي كلاما لا يليق بالله أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يسبح ويكرر التسبيح تنزيهاً لجناب الرب العظيم من أن يقال فيه مثل هذا .

قال : ((ويحك إنه لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك)) ؛ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ؛ يقول الشافعي رحمه الله : إنما يُستشفع من الأدنى للأعلى ، يعني يُطلب من الأدنى أن يشفع عند الأعلى ، والأدنى لا يُستشفع عند الأعلى الذي هو رب العالمين إلا بإذنه سبحانه لأن الشفاعة ملكه ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] ، أما أن يستشفع بالله على أحد من خلقه هذا كلام باطل ، لأن الله عز وجل بيده أزمة الأمور وجميع الخلق ممالك له ومخلوقات له أوجدتهم من العدم تحت مشيئته وتصرفه وتدييره ، فمن عرف الله سبحانه وتعالى وعظمته لا يمكن أن يقول في حق الله اشفع لنا عند فلان أو نحو هذه الكلمة ، فهذه تأتي من نقص المعرفة ونقص التعظيم لله تبارك وتعالى .

قال : ((إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك)) وهذا فيه الشاهد للترجمة ولسوق المصنف رحمه الله لهذا الحديث لبيان وجوب تعظيم الله ؛ لأن قوله في الباب ((باب قول الله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا

اللَّهُ حَقَّ قَدْرُهُ ﴿[الزمر: ٦٧]﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه ، وكل خطأ يتعلق بجانب الله سبحانه وتعالى هو من نقص التعظيم ، حتى الأخطاء التي تكون في ألفاظ الناس هذه من نقص التعظيم ((شأن الله أعظم من ذلك)). .
 ((ويحك أتدري ما الله؟)) يعني أتدري من هو الذي قلت في حقه هذه الكلمة «نستشفع بالله عليك» .
 قال: ((إن عرشه على سماواته هكذا وقال بأصابعه مثل القبة عليه ، وإنه ليُط به أطيّط الرجل بالراكب)) هنا ينبه النبي عليه الصلاة والسلام أن الرب العظيم جل وعلا مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى كما أخبر ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، مستو على عرشه ومما يليكه كلهم تحته وأيضا تحت تديره، ومشيتته سبحانه وتعالى فيهم نافذة وقدرته شاملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ، وكلهم طوع تديره وتسخيره سبحانه وتعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، لا خافض لا رفع ولا رافع لما خفض ، الأمور كلها بيده ، فهل إنسان عرف الله عز وجل بهذه الصفة يليق به أن يقول مخاطبا الرب العظيم "اشفع لنا عند فلان!!" والملك ملكه والخلق خلقه وهو عليّ عليهم وهم تحت تديره وتسخيره ، أيقال في حق من هذا شأنه اشفع لنا عند فلان؟! وفلان وغيره وجميع المخلوقات ملك له وتحت تديره سبحانه وتعالى

((أتدري ما الله؟)) يعني من عرف الله سبحانه وتعالى ما يقول هذا الكلام ، وهذا فيه فائدة: أن معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته سبب صلاح العبد ، وأن العبد كلما كان بالله أعرف وبأسمائه سبحانه وتعالى وبصفاته صلحت أموره ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ، «من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته أبعد» ، المعرفة بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته هي التي تسوق العبد إلى كل خير ورفعة وعز وفلاح في الدنيا والآخرة ، وإذا نقصت هذه المعرفة ونقص حظ العبد ونصيبه منها يحصل عنده من أنواع الفساد وأنواع الخطأ وأنواع الانحراف الشيء الكثير . قال ((أتدري ما الله؟)) يعني أتدري من الذي قلت في حقه هذه الكلمة؟ بمعنى أنك لو عرفته حق المعرفة عظمتته حق التعظيم لا يمكن أن تقول فيه مثل هذا الكلام .

((أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته هكذا ، وقال بإصبعه كالقبة عليه)) بمعنى أن العرش سقف للمخلوقات، وهذا أمر دلت عليه النصوص وشواهد كثيرة في السنة ، العرش سقف المخلوقات بل المعنى الذي جاء في هذا الحديث وهو أن العرش للمخلوقات كالقبة بعض أهل العلم استشهد له بالحديث الذي في الصحيح وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ)) ، قال أهل العلم : ومثل هذا لا يكون إلا ما كان على هيئة القبة ، فعرش الرحمن هو سقف المخلوقات وهو أعلاها وأرفعها وأوسعها ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] أي الواسع ، فهو أوسع المخلوقات وأكبرها وأعظمها ، وهو فوق المخلوقات والله تبارك وتعالى مستو على عرشه يدبر أمر المخلوقات ؛ يأمر وينهى ، يخفض ويرفع ، يعز

ويذل ، يعطي ويمنع ، ييسط ويقبض ، يحيي ويميت ، يدبر الأمر والكل تحت تدبيره ، لا يكون في هذا الملك وهذا الكون لا يكون في العالم من حركة إلا بتدبير الملك مُلكه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

((قال باصبعه هكذا مثل القبة وإنه لينط به أطيظ الرجل بالراكب)) فهنا الحديث في ذكر العرش وذكر علو الله تبارك وتعالى واستواءه على عرشه ، وفيه تعظيم الله جل وعلا ، وفيه صيانة الألفاظ والبعد عن الخطأ والغلط في حقه سبحانه وتعالى ، وهذه المعاني كلها معاني صحيحة لها شواهدا ودلائلها في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والحديث رواه أبو داود في سننه ، ومن أهل العلم من حسن هذا الحديث ، ومنهم من تكلم فيه من جهة الاسناد لأن فيه عننة محمد بن إسحاق ، فبعض أهل العلم ضعّف الحديث من جهة إسناده ومنهم من حسن الحديث ، لكن المعاني التي في الحديث التي هي إثبات العرش وإثبات استواء الله على العرش وإثبات عظمة الله تبارك وتعالى والنهي عن مثل هذه الألفاظ ونحو ذلك هذا كله شواهدا ودلائلها في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة .

قال رحمه الله :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله عز وجل: كَذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، أما تكذّبه إياي: فقلوه "لن يعيدني كما بدأني" وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي: فقلوه "اتَّخَذَ اللهُ ولداً" وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)) . وفي رواية : عن ابن عباس رضي الله عنهما : ((وأما شتمه إياي: فقلوه "لي ولد" وسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً)) رواه البخاري .

ثم أورد المصنف رحمه الله في باب تعظيم الله جل وعلا حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله عز وجل)) ، وكل حديث يرويه الرسول عليه الصلاة والسلام عن ربه يقول فيه ((قال الله عز وجل)) فهو حديث قدسي ، وهو بألفاظه ومعانيه كلام الله عز وجل .

قال الله عز وجل ((كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك)) قوله سبحانه وتعالى ((كذبني ابن آدم)) المقصود بـ«ابن آدم» ليس جميع بني آدم ، وإنما المقصود من بني آدم الكفار الذين ينكرون البعث ويشركون بالله سبحانه وتعالى ويتخذون الأنداد وينسبون لله الولد ، سواء من مشركي العرب أو من أهل الكتاب أو من غيرهم .

قال: ((كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك)) قوله في الموضعين «ولم يكن له ذلك» فيه الشاهد للترجمة؛ لأن الواجب في حق الله سبحانه وتعالى أن يعظم وأن لا يخطئ الإنسان في حقه جل وعلا ، لا بقول فيه تكذيب ولا بقول فيه شتم أو انتقاص ، وأن تعظيم الله سبحانه وتعالى يتنافى مع ذلك قال (((ولم يكن له ذلك)) أي ليس له أن يقول في حق الرب العظيم والخالق الجليل سبحانه وتعالى مثل هذا الكلام فجناب الله اعظم عز وجل . قال ((كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك)) ثم بيّن ذلك ، بيّن التكذيب وبيّن الشتم ما هو .

قال : ((أما تكذبه إياي؛ فقلوه: لن يعيدني كما بدأي)) وهذا كلام الدهرية وغيرهم من منكري البعث ﴿رَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧] هذا كلام من ينكر البعث . قال ((كذبي ابن آدم))، قال ((أما تكذبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأي)) أي أن الله لن يعيد المخلوقات ولن يعيد الناس كما بدأهم ؛ وهذا تكذيب لله سبحانه وتعالى لأن الله أخبر وأخبرت رسله بأن الناس يبعثون ويقفون بين يدي الله وإليه يعودون ويجازيهم بأعمالهم يثيب المحسن ويعاقب المسيء ، فمن نفى ذلك كذب الله جل وعلا .

قال : ((أما تكذبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأي ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته)) أول الخلق: أي خلقه لهذه المخلوقات من العدم ، خلق آدم من التراب ، خلق التراب جل وعلا أوجد التراب بعد أن لم يكن ، من العدم أوجده سبحانه ، وخلق آدم من التراب ، وخلق بني آدم من نطفة ، نطفة آدم ثم نطف ذريته فوجد بني آدم بالتوالي ، فالذي أوجد هذه المخلوقات من العدم أهون عليه ، والأمر كله هين عليه سبحانه وإنما هذا لبيان الأمر وتوضيحه ، خلق المخلوقات بعد أن تموت ، عندما تنظر للأمر من حيث هو لا من حيث قدرة الله وإنما الأمر من حيث هو ؛ خلق المخلوقات وإيجادها من العدم أو إيجادها بعد أن تموت؛ أي الأمرين أهون من حيث هو ؟ فهذا المقصود ، أما الله عز وجل كل شيء عليه هين ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] قدرته شاملة لكل شيء ومشيتته نافذة جل وعلا، ولا راد لحكمه ، عطاءه كلام ومنعه كلام ، إذا أراد شيء قال له كن فكان جل وعلا ، ولكن هذا لبيان الأمر وتوضيحه ، خلقكم من العدم لا يعيدكم بعد أن أماتكم!! من يتفكر في عقله يجد الأمر في غاية الخطأ والانحراف ، لأن من أوجد من العدم قادر على أن يوجد بعد أن يميت الناس ، والأمر كله هين عليه سبحانه وتعالى .

قال : ((وأما شتمه إياي فقلوه : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)) أي نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا شتم ، انتقاص لله سبحانه وتعالى.

قال: ((وأنا الأحد الصمد)) هذا فيه فائدة أن معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته تصون الإنسان من الغلط، من عرف الله بأنه الأحد ومن عرفه تبارك وتعالى بأنه الصمد فإنه ينزهه عما يتنافى مع أحديته وصمديته سبحانه وتعالى ، واسمه «الأحد» دال على أحديته أي تفرد سبحانه وتعالى بالكمال والجلال وتنزهه عن الشبيه والمثال جل وعلا ، و«الصمد» يدل على كمال صفاته وكمال غناه وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فالصمد هو الذي كمل في سؤدده كُمل في علمه كُمل في حكمته كمل في رحمته كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والصمد الذي تصمد إليه الخلائق وتفزع إليه في حوائجها ، فالصمد من الأسماء التي لا تدل على معنى مفرد وإنما تدل على معاني ، من معاني «الصمد» كمال صفاته ، ومن معاني «الصمد» شدة افتقار المخلوقات إليه وفزعها إليه في حوائجها ، فالصمد الذي هو الكامل في صفاته لا يليق أن يقال في حقه له ولد أو له صاحبة ، والأحد المتفرد بصفات الكمال ونعوت الجلال لا يليق في حقه أن يقال له ولد ؛ فهذا من وصفه بما لا يليق به من النقائص والعيوب تنزه وتقدس عن ذلك .

قال: ((وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)) ؛ «لم يلد» نفي لوجود فرع ، «ولم يولد» نفي لوجود الأصل ، بل هو عز وجل المتفرد بأحديته وصمديته وكمالته وجلاله وعظمته جل وعلا ، « ولم يكن له كفواً أحد» والكفو: هو النظير والمثيل والسمي ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] استفهام بمعنى النفي أي لا سمي له ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤] ، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل: ٦٠] ، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] فالله عز وجل لا سمي له ولا كفؤ له ولا نظير له ، تنزه وتقدس عن ذلك .

قال ((وفي رواية : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وأما شتمه إياي فقلوه: لي ولد)) أي نسبة الولد إلى الله ((وسبحاني)) سبح تبارك وتعالى نفسه أي نزه نفسه ، وتسبيح الله تبارك وتعالى لنفسه كثير في القرآن ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿ [الصافات: ١٨٠-١٨١] سبح نفسه جل وعلا عما يقوله أعداء الرسل ، وسلّم على المرسلين لسلامة ما قالوه في حق الله تبارك وتعالى من النقص والعيوب .

قال: ((سبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً)) فنسبة الولد لله كذلك نسبة صاحبة هذا فيه انتقاص وهو يتنافى مع التعظيم ، والواجب هو تعظيم الله عز وجل وقدره حق قدره سبحانه كما هو المقصود والمراد بهذه الترجمة قول الله جل وعلا ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] .

قال رحمه الله :

ولهما عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر
بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)). .

ثم أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: ((يؤذيني ابن آدم))
أيضاً المراد بابن آدم ليس الجميع وإنما المراد بابن آدم : أي من يقع منهم هذا الخطأ ومن يقع منهم مثل هذا
الكلام ، أما من كان سالماً من ذلك وهم الرسل وأتباع الرسل بإحسان ؛ هؤلاء لم يقع منهم هذا الأمر وحفظهم
الله عز وجل منه وصانهم ، فالمراد بابن آدم : أي من يقع في هذا الخطأ ومن يقع في مثل هذا الكلام .

وقوله هنا ((يؤذيني ابن آدم)) لا يتنافى مع ما جاء في الحديث القدسي الآخر حديث أبي ذر ((يا عبادي إنكم
لن تبُلُغُوا ضُرِّي فتَضُرُّوني)) ؛ فالعبد مهما فعل ومهما كان منه من قول أو فعلٍ لن يبلغ ضر الله سبحانه
وتعالى، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١] ، وهو جل وعلا القدير على كل شيء ، وهو القاصم لظهور الجبابة
والظلمة والبغاة ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ، ((لَنْ تَبْلُغُوا
ضُرِّي فتَضُرُّوني)) . فقولُه هنا ((يؤذيني ابن آدم)) لا يتنافى مع قوله ((لن تبُلُغُوا ضُرِّي)) لأن هذا أذى قولي يعني
كلام قولي يقوله الإنسان وهو كلامٌ فيه أذى ، كلام فيه سوء ، كلام فيه قبح .

قال: ((يؤذيني ابن آدم)) ثم بيّن ذلك قال: ((يسب الدهر)) أي يشتم الدهر ، والدهر: هو قلب الليل والنهار ،
الأيام ، الشهور، السنوات، الأسابيع، الساعات، الدقائق كلها أجزاء للدهر ، فالدهر هو قلب الليل والنهار ،
تقلب الليل والنهار في سنوات وفي شهور وفي أسابيع وفي أيام وفي ساعات وفي دقائق هذا كله تسخير من الله
سبحانه وتعالى وتدير ، فالأسبوع واليوم والشهر والساعة والدقيقة كلها لا تملك من أمرها شيء بل هي مسخرة
مدبرة لا تملك شيئاً ، المسخر لها رب العالمين والمدبر لها رب العالمين ، فالله يقول : ((يؤذيني ابن آدم يسب
الدهر)) ما هو سب الدهر؟ أن يقول الإنسان عندما يحصل له مشكلة معينة أو أمر معين أو شيء مؤذي معين
فيسب الدهر ؛ يسب الساعة ، أو يسب اليوم ، أو يسب الشهر ، أو يسب الزمان ، أو نحو ذلك من الأوقات
، يعني مثلاً يدرج على ألسنة الناس كثير من الألفاظ التي تدخل في الحديث ، ليس المراد يسب الدهر أن يكون
السب متجه إلى هذه اللفظة بذاتها ، بل كل ما كان بمعنى الدهر أو جزء من أجزائه سبه من سب الدهر ، فتجد
بعض الناس على سبيل المثال إذا وقع له مشكلة مع شخص معين سب الساعة يقول : "الله مثلاً.." يشتم
الساعة التي أو يصفها بصفات وهي ليس لها من أمرها شيء ، الساعة واليوم ليس لها من أمرها شيء هي مسخرة
ومدبرة .

وهنا تنتبه أيضا للمعنى ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر)) ؛ «أنا الدهر» ما معناها ؟ ليس المراد أنا الدهر أي أن الدهر اسم من اسمائه أو صفة من صفاته ليس هذا المعنى ، جاء المعنى مبينا في الحديث ((أقلب الليل والنهار)) هذا هو المعنى والمراد بقوله «وأنا الدهر» ، فالدهر الذي هو تقلب الليل والنهار تقلبه بمشيئة الرب سبحانه وتعالى ، فالدهر مقلب ليس له من تقلبه أمر أو اختيار ، فسب المقلب سب لمقلبه فالذي يسب الدهر الذي هو مقلب يقلبه رب العالمين كيف يشاء ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: ٦٢] الله جل وعلا جعل الليل والنهار بهذه الصفة ، والليل والنهار والساعات والدقائق كلها بتسخيره وتديره سبحانه وتعالى ، فسب المسخر سب لمسخره ، سب المدبر سب لمدبره ، سب المقلب سب لمقلبه .

قال: ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)) فأمر الدهر بيد الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يقلب تبارك تعالى الليل والنهار ، فسب الدهر سب لمقلبه ومسخره ومدبره وهو رب العالمين ، هذا معنى قوله ((يؤذيني ابن آدم يسب الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)) .

والشاهد في الحديث للترجمة : أن سب الدهر يتنافى مع تعظيم الله سبحانه وتعالى ؛ فمن نقص تعظيم المرء لله أن يسب الإنسان الساعة أو يسب الزمان أو يسب اليوم أو يسب الدقيقة أو اللحظة أو ما أشبه ذلك كل ذلك سبه من نقص تعظيم الله جل وعلا . والمصنف رحمه الله عندما ساق أنواع الأحاديث في هذا الباب أراد أن ينبهك تنبيهها جميلا نافعا أن باب التعظيم لله باب واسع جدا يصحبك في كل حياتك في كل كلماتك في كل حركاتك ، يجب أن تكون دائما في كل ما تقول وفي كل ما تفعل معظما لله تبارك وتعالى ، وإياك أن ينزلق بك الكلام هنا أو هناك وفي أي موطن فتأتي بكلمات تتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من تعظيم الله جل وعلا .

الإيذاء ليس بمعنى الضر ، يعني الله عز وجل نفى الضر وأثبت الإيذاء ؛ قال ((يؤذيني ابن آدم)) ، والإيذاء كما عرفنا كلمات يقولها ابن آدم وهي مؤذية ، والعبد مهما قال من كلام أو فعل من أمر لن يبلغ ضر الله تبارك وتعالى ((إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوْنِي)) .

والله تعالى أعلم .

الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه أصول الإيمان :

باب الإيمان بالقدر

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الانباء: ١٠١] ، وقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ، وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «أصول الإيمان» : ((بابُ الإيمان بالقدر)) ؛ الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الدين وأساس من أسسه العظام ، بل لا إيمان لمن لا يؤمن بالقدر ، لا يؤمن بالله عز وجل من لا يؤمن أن الأمور بقدره جل وعلا . فالإيمان بالقدر أصلٌ عظيم من أصول الإيمان ، ولهذا لما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور عن الإيمان قال : «أخبرني عن الإيمان» قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، فذكر عليه الصلاة والسلام أصول الإيمان ستة وعدَّ منها الإيمان بالقدر . فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان ، ولا ينتظم لعبد إيماناً ولا توحيداً إلا إذا آمن بالقدر ، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيدَه» أي نقض تكذيبه بالقدر توحيدَه لله عز وجل ، بمعنى أنه لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله عز وجل إلا إذا آمن بالقدر ، ويوضح هذا المعنى الذي قرره ابن عباس رضي الله عنهما قول الإمام أحمد رحمه الله «القدر قدرة الله» ، فالذي يححد القدر ولا يؤمن به ليس مؤمناً بقدرة الله ، ومن لا يكون مؤمناً بقدرة الله تبارك وتعالى فهو ليس مؤمناً بالله تبارك وتعالى ؛ فينتقض الإيمان وينهدم التوحيد إذا جحد الإنسان القدر أو لم يؤمن بقدر الله تبارك وتعالى . فالإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان وركن عظيم من أركان الدين ودعامة من دعائمه ، كما قال ابن أبي داود رحمه الله في حائيته المشهورة :

وبالقدر المقدور أيقن فإنه دِعامَة عقد الدين والدين أفصح

فالإيمان بالقدر دعامَة لهذا الدين ، ومن المعلوم أن دعامَة الشيء هي أساسه الذي عليه بناؤه وقيامه

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدةٍ ولا عماد إذا لم تُرس أوتاد

فالإيمان لا يقوم إلا على أصول عظيمة وأسس متينة ودعائم قوية عليها بناؤه وقيامه ، من هذه الأصول العظام والأسس الكبار: الإيمان بقدر الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا عقد الإمام رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه الإيمان، مبيّنًا فيها هذا الأصل العظيم ألا وهو الإيمان بالقدر .

والإيمان بالقدر أساسٌ لسعادة الإنسان وفلاحه في الدنيا والآخرة وطمأنينة قلبه وسكون نفسه ، أسعد الناس في الدنيا والآخرة وأهنئهم عيشًا وأكثرهم طمأنينةً وسكونًا وقرارًا أهل الإيمان بالقدر ، فالإيمان بالقدر يجلب للعبد الخيرات والمسرّات والراحات في الدنيا والآخرة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) ، المؤمن يعلم أن ما وُفِّقَ له أو ما ناله من نعمة فهي من الله عز وجل فيحمد المنعم جل وعلا لأنه يسرّها وقدرها وكتبها فيحمده تبارك وتعالى عليها ، وإذا أصيب بمصيبة أو بلاء أو نحو ذلك فإنه يعلم أنه من عند الله ﷻ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ [التغابن: ١١] يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ويصبر ، ولهذا قال: ((ولا يكون ذلك إلا للمؤمن)) ، لأن الإيمان هو الذي يوجد هذه الطمأنينة ويوجد هذه الراحة والقرار والسكون للقلب . فالإيمان بالقدر له آثاره العظيمة على العبد من حيث قوة صلته بالله وتتمام التجائه إليه وكثرة دعائه سبحانه وتعالى وسؤاله والإلحاح عليه ، لأن الأمور بيده وبقضائه وقدره سبحانه ؛ فله فوائد عظيمة وجليلة جدًا ، والمصنف رحمه الله عقد هذه الترجمة ليبين هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان .

وينبغي أن يُعلم هنا : أن العبد لا يكون مؤمنًا بالقدر إلا إذا آمن بمراتب القدر التي دل عليها القرآن ودلت عليها سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلا يؤمن بالقدر من لا يؤمن بمراتبه المذكورة في القرآن والسنة ، وهي كما بيّن أهل العلم أربعة مراتب :

١- الأولى: الإيمان بعلم الله تبارك وتعالى الشامل المحيط الذي وسع كل شيء ؛ علمه تبارك وتعالى بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه عز وجل أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ووسع كل شيء رحمة وعلما ، وأن علمه تبارك وتعالى محيط بكل شيء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا . فمن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله ، وأنه سبحانه وتعالى علم ما كان وعلم ما سيكون وأحاط بعلمه بكل شيء في الأزل علما محيطا بكل شيء ، كل ما وقع وكل ما

يقع أحاط به علم الله سبحانه وتعالى في الأزل ، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله عز وجل وأنه علم محيط وسع كل شيء .

﴿المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ما هو كائن من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة؛ كتبه جل وعلا في اللوح المحفوظ ، وهذه الكتابة لمقادير الخلائق كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، الآن الذين بدأوا يتوافدون على هذه البلاد الطيبة لأداء فريضة الحج والعمرة وزيارة مسجد النبي عليه الصلاة والسلام هذا أمر كتبه الله عز وجل لهم قبل خلق السماوات والأرض بخمسين الف سنة كتب ذلك، وكل ما يكون كُتب وسيأتي الدليل عند المصنف رحمه الله من السنة ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) كل شيء كُتب ، فمن الإيمان بالقدر أن نؤمن بأن الله عز وجل كتب كل شيء ، كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ من حركة ، من سكون ، من قيام ، من قعود ، من نوم ، من طاعة ، من فتور ، من بر أو إحسان أو عصيان أو غير ذلك ، كل ذلك كُتب ، كتبه الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر ﴿الفر: ٥٢-٥٣﴾ ، فكل شيء كُتب كتبه الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ . فهذه المرتبة الثانية؛ فمن لا يؤمن بالكتابة لا يؤمن بالقدر ، لأن من الإيمان بالقدر أن نؤمن بالكتابة ، كما أن من الإيمان بالقدر أن نؤمن بعلم الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيء .

﴿المرتبة الثالثة : أن نؤمن بمشيئة الله سبحانه وتعالى النافذة وقدرته سبحانه وتعالى الشاملة ، وأنه جل وعلا على كل شيء قدير وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن كل شيء يقع إنما يقع بمشيئته وإذنه جل وعلا ، قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يُسْقِمْ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] ، فالأمور لا يمكن أن تكون إلا بمشيئة الله تبارك وتعالى ، فمشيئته نافذة ، ومعنى مشيئته نافذة: أي أن أي شيء يشاءه لابد أن ينفذ ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى ، فأى شيء يشاءه سبحانه وتعالى لابد أن ينفذ وأن يقع طبقا لما شاء ، لأن مشيئته سبحانه وتعالى نافذة وقدرته جل وعز شاملة ، فهو قدير على كل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بالمشيئة النافذة والقدرة الشاملة وأن ما شاء الله عز وجل كان وما لم يشأ لم يكن ، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في أبيات له جميلة:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ	وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ	وَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْقَتَى وَالْمُسِينُ
عَلَى ذَا مَنْنَتَ، وَهَذَا حَذَلْتُ	وهذا أعنت ، وذًا لم تُعِنُ

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ ، وَمِنْهُمْ حَسَنٌ

كل ذلك بتقدير الله سبحانه وتعالى وكل ذلك بمشيئته سبحانه وتعالى النافذة ، «ما شئت كان وإن لم أشأ» أي أي شيء تشاء يا الله يكون ويقع وإن لم أشأه أنا ، والشيء الذي أشأه أنا أيها العبد إن لم تشأه يا الله لا يكون، وهذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] . إذاً من إيماننا بالقدر أن نؤمن بمشيئة الله تبارك وتعالى النافذة وبقدرته تبارك وتعالى الشاملة، ومن لا يؤمن بهذا لا يؤمن بالقدر .

المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر : الإيمان بأن الله خالق كل شيء ؛ خالق العباد وخالق أيضاً حركات العباد وسكناتهم وأعمالهم ، فالعباد مخلوقون وأيضاً أعمالهم مخلوقة لله عز وجل ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، أي أنه تبارك وتعالى الخالق للعباد والخالق أيضاً لأعمال العباد ، فالكل مخلوق لله تبارك وتعالى ، العباد في أشخاصهم وذواتهم وهيئاتهم وصورهم مخلوقين لله «فمنهم قبيح ومنهم حسن» ، وأعمال العباد من أعمال بر وإحسان أو أعمال فسق وعصيان كل ذلك مخلوق لله تبارك وتعالى ، فنؤمن بأن الله خالق كل شيء، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ، وقال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ، فمن الإيمان بالقدر أن نؤمن بأنه جل وعلا خالق كل شيء.

فهذه مراتب أربعة للقدر جمعها أحدهم في بيت فقال :

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقهُ وهو إيجادٌ وتكوين

فهذه المراتب الأربعة التي لا يؤمن بالقدر من لا يكون مؤمناً بها ؛ العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والإيجاد . «العلم»: أي علم الله المحيط بكل شيء ، و«الكتابة»: أي كتابة الله عز وجل لمقادير الخلائق ، و«المشيئة»: أي مشيئته تبارك وتعالى النافذة ، و«الخلق»: أي كونه تبارك وتعالى خالق كل شيء . وهذا كما تلاحظ كله من الإيمان بالله ؛ إيمانٌ بعلمه، إيمانٌ بأنه كتب كل شيء ، إيمانٌ بمشيئته بقدرته ، إيمانٌ بأنه الخالق جل وعلا ، فكيف يكون مؤمناً بالله من لا يؤمن بهذه المراتب للإيمان بالقدر !!

وبهذا البيان نعلم أن التوحيد كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لا ينتظم ولا يستقيم ولا يصلح إلا إذا آمن العبد بأقدار الله تبارك وتعالى وأن الأمور كلها بقدر الله جل وعلا ، وهذا الأصل العظيم من أصول الإيمان وردت عليه دلائل كثيرة تدل على وجوب الإيمان بالقدر وتقرر أن الأمور كلها بقدر الله سبحانه وتعالى ومشيئته سبحانه وهي كثيرة جداً في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أورد المصنف رحمه الله تعالى طرفاً من هذه الأدلة .

عنها: أي عن النار التي ذُكرت في الآية التي قبل هذه الآية ، فهم عنها مبعدون أي: لا يسمعون حسيسها ولا يقتربون منها ولا يدخلونها بل ينجيهم الله تبارك وتعالى منها بمنّه وكرمه .

مبعدون عن النار لا يدخلونها وينجيهم الله تبارك وتعالى منها ، لأنهم سبقت لهم من الله تبارك وتعالى الحسنى .

قَالَ: ﴿إِذْ سَقَّتْ لَهَا مِنَ الْحُسْنِ أُولَئِكَ عَنْهَا مُعْدَّوْنَ﴾ .

قدر ذلك وكتبه سبحانه وتعالى .

قال: وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٦] وهذا فيه أن الأمور كلها خلقٌ لله ؛ العباد بأشخاصهم وذواتهم وهيئاتهم ، وأيضا في أعمالهم من بر وفجور ، وطاعة وعصيان ، وإيمان وكفر وإيمان وغير ذلك كل ذلك مخلوق لله ، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وخلق ما تعملون ، فالله عز وجل خالق كل شيء .

ثم ختم أدلة القرآن بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القم: ٤٩] فكل شيء خلقه الله عز وجل وأوجده أوجده بقدر ، قَدَرُه سبحانه وتعالى وكتبه جل وعلا في اللوح المحفوظ ثم خلقه وأوجده كما قَدَرَه وكما كتبه سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ.

فهذه بعض الأدلة من القرآن الكريم على الإيمان بالقدر ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣] فالأمور كلها بقدره تبارك وتعالى. ثم بعد ذلك شرع رحمه الله تعالى في ذكر الأدلة على الإيمان بالقدر من السنة.

قال رحمه الله تعالى :

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرضه على الماء)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) ؛ إن الله كتب مقادير الخلائق ، وهنا ينبغي أن تفهم قوله «مقادير الخلائق» أي: الأمور التي قُدِّرَ للخلائق أن يفعلوها وأن تقع منهم ، فمقادير الخلائق كتبها الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . وقوله «مقادير الخلائق» شامل لكل أمر قدر للخلائق أفراد وجماعات أن يقع منهم ، فكل ما يفعله الخلائق قُدِّرَ عليهم وكتب في اللوح المحفوظ أيّا كان حتى ولو دق الأمر ولو كان من الأمور الصغيرة أو الأمور التي لا يأبه بها الناس ، فكل شيء يقع من الإنسان كُتِبَ وقدر ؛ ولهذا انظر إلى فقه الصحابة رضي الله عنهم في هذا الباب ، جاء عن الصحابي الجليل رضي الله عنه عبد الله بن عباس أنه قال : «كل شيء بقدر ، حتى وضعك كفك على ذقنك هكذا بقدر» أي: أي شيء يقع من الإنسان قُدِّرَ كُتِبَ في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

تبارك الله رب العالمين الذي وسع كل شيء علما والذي وسعت قدرته كل شيء ولا يعجزه شيء تبارك وتعالى ، وكيف يؤمن بالله من يجحد هذه الحقائق العظيمة والأصول الكبار التي دل عليها كتاب الله ودلت عليها سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه !!

قال: ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء)) وهذا فيه إثبات العرش والإيمان به وأنه مخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى العظيمة، بل هو أكبر المخلوقات وأعظمها وأوسعها، والله عز وجل خلقه من العدم وأوجده بعد أن لم يكن ، واستوى عليه تبارك وتعالى استواء يليق بجلاله وكماله كما أخبر بذلك عن نفسه في آيات في القرآن ؛ منها قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥٠] قوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، فنؤمن بالعرش ووجوده ونؤمن باستواء الله تبارك وتعالى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

الشاهد هنا : الإيمان بالكتابة والتقدير العام الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، والله سبحانه وتعالى في حكمته بهذه المخلوقات وعموم الكائنات أنه قدر كل ما هو كائن منها تقديراً عاماً شاملاً قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم بعد هذا التقدير العام الشامل تأتي تقديرات أخرى مندرجة وداخله في هذا التقدير العام ، وسيدكر المصنف رحمه الله تعالى تلك التقديرات التي هي داخله في هذا التقدير العام؛ كالتقدير الذي قدره الله سبحانه وتعالى على الخلائق عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، فهذا تقدير وسيأتي دليله ، وأيضا التقدير العمري الذي يتعلق بعمر كل إنسان سيأتي دليله عند المصنف ، وأيضا التقدير الحولي أو السنوي في ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] ، وأيضا التقدير اليومي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فهذه التقديرات كلها داخله ومندرجة في التقدير العام ، فهي تقديرات من بعد التقدير العام الذي قدره الله سبحانه وتعالى وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

قال رحمه الله :

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما منكم إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة)) قالوا: يا رسول الله افلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة)) ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)

فَسُنِّيَسِرُّهُ لِّلْغُيُورِ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسُنِّيَسِرُّهُ لِّلْغُيُورِ ﴿[الليل: ٥-١٠]﴾
متفق عليه .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما منكم إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار ومقعده من الجنة)) ؛ وهذا هو موضع الشاهد من الحديث للترجمة أن المقادير كُتِبَتْ ، والتقدير هنا مثل سابقه؛ التقدير العام الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وأن رب العالمين جل وعلا كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل خلقه السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فقوله هنا في حديث علي رضي الله عنه ((وقد كُتِبَ مقعده)) أي كُتِبَ في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ فهذا هو التقدير العام وهو نظير ما دل عليه الحديث السابق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

قال: ((ما منكم من أحد)) وهذا أيضا يفيد العموم وأنه لا يشذ أحد ولا يند ، فكل فرد من أفراد الناس كل عمل من أعماله كتب في اللوح المحفوظ وكتب هل هو من أهل الجنة أو من أهل النار ، كل فرد من أفراد الناس كتب أمره وحاله وأعماله كل ذلك كتب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة)) .

هنا عندما يسمع المؤمن هذه الأدلة البينة في باب القدر وأن الأمور قُدرت وكتبت وكُتِبَ مقعد الإنسان من الجنة ومقعده من النار كُتِبَ هل هو مؤمن أو كافر هل هو بر أو فاجر كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ عندما يسمع المسلم هذه الآيات البينات والدلائل الواضحات المقررة للقدر وأن الأمور كُتِبَتْ وقدرت وقضيت يأتي سؤال في ذهنه وينقدح في باله وهو سؤال كما يقال يفرض نفسه ، سواء طلبه الإنسان أو لم يطلبه نحو سؤال ينقدح في الذهن رأساً عندما يسمع هذه الأدلة؛ أن الأمور بقدر وأن مقعد الإنسان من الجنة أو مقعده من النار كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، عندما يسمع هذه الأدلة لابد أن ينقدح في ذهنه سؤال ، وهذا السؤال الذي أشير إليه طرحه الصحابة رضي الله عنهم في أكثر من مناسبة على النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمعوا منه بيان القدر وأن الأمور مكتوبة وأن مقعد الإنسان من الجنة ومقعده من النار كتب ، والسؤال هو: إذا كانت الأمور مقدرة ومكتوبة فيم العمل؟ ((ألا نتكل على القدر؟)) ألا يقول الواحد منا طالما أن الأمور كتبت وقدرت وعُلم مقعد الإنسان من الجنة أو مقعده من النار ليس هناك حاجة للعمل ، بل لا أعمل شيئاً متكلاً على قدرتي السابق وعلى ما كتبه الله تبارك وتعالى علي في اللوح المحفوظ ، ولهذا قال علي رضي الله عنه ، ومثل هذا السؤال جاء عن غير واحد من الصحابة قال علي : ((قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟)) هذا السؤال مبني على التقرير السابق النبي صلى الله

عليه وسلم ذكر لهم أنه ما من أحد إلا علم مقعده من الجنة ومقعده من النار، فقالوا على إثر هذا البيان ((ألا نتكل على كتابنا وندع العمل)) ، جاء في بعض الروايات أنهم قالوا: ((فقيم العمل يا رسول الله؟)) طالما أن الأمر كُتب وقُدِّر ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ نتكل أي نعتمد نتكل على كتابنا أي نعتمد على ما كتب علينا ونبني على ذلك وندع العمل ، لا نعمل شيئا متكلين على كتابنا فما الجواب على هذا السؤال ؟

أجاب النبي عليه الصلاة والسلام بجواب وافٍ كافٍ مع أنه في جملة لا تتجاوز السطر الواحد لكن فيها الغنية والكفاية وفيها الشفاء لمن وفقه الله تبارك وتعالى لفهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم والعمل به ، أما من لم يفهم كلام النبي عليه الصلاة والسلام ولم يستضيئ بضياء هديه صلى الله عليه وسلم فإنه سيتخبط في الظلمات ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [البور: ٤٠] ، فذكر عليه الصلاة والسلام كلمات أو جملة جمعت الخير كله في هذا الباب ؛ لما قالوا له «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) .

هذا هو الجواب ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) وما بعده بيان له ، أما الجواب انتهى هنا ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) هذا هو جواب هذا السؤال في هذه الجملة المختصرة التي جمعت الخير كله . وهذا مما يبين لك أن نبينا عليه الصلاة والسلام أعطي جوامع الكلم ، يقول الكلمات القليلة والأحرف اليسيرة التي تجمع للعباد خير الدنيا والآخرة ، فلما سألوا هذا السؤال الكبير العظيم السؤال الذي ينقذ في الأذهان ويستشكله كثير من الناس أجاب عنه عليه الصلاة والسلام بكلمة لا تبلغ سطرا ، قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) . وهنا أنه لا يمكن لأحد أن يستفيد من هذه الجملة المختصرة إلا إذا وعاهها وفهمها وحقق ما دلت عليه كما كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم ، قال ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))؛ فهي كلمة فيها شفاء وفيها بركة وفيها وفاء بهذا المطلب العظيم الجليل .

قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) ؛ وهذا الجواب الذي ورد في هذه الجملة بيّن فيه النبي عليه الصلاة والسلام أصلين عظيمين في هذا الباب لا يتحقق للعبد سعادة إلا بتحقيقهما والالتيان بهما على التمام والكمال :

- الأصل الأول مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام ((اعملوا)) وهذا أمر لهم بالعمل ، «اعملوا» يدخل تحتها: صلوا صوموا تصدقوا قوموا بأعمال البر والإحسان، أيضا يدخل تحتها تجنبوا الحرام ابتعدوا عن الآثام، كل ذلك داخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام «اعملوا».

وغير خافٍ عليك أن مثل هذا الخطاب اعملوا أو اعمل أو صلي أو صم أو تصدق أو نحو ذلك لا يخاطب به إلا من له مشيئة وإرادة ، أما من لا مشيئة له ولا إرادة لا يقال له اعمل ، فالأمر بالعمل لا يكون إلا لمن له مشيئة ، وهذا فيه إثبات المشيئة للعبد والإرادة وهي ثابتة في القرآن ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨-٢٩] ، فالعبد له مشيئة ، ليس منزوع المشيئة والإرادة وليس

كالورقة في مهب الريح كما يدّعيه بعض أهل الضلال والباطل ، فالعبد له مشيئة وله إرادة ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البند: ١٠] طريق الخير وطريق الشر ، فالذي يمشي إلى طريق الخير مشى إليه بمشيئته وإرادته ومن أيضا مشى إلى طريق الشر مشى إليه بمشيئته وإرادته ، أريتم الرجل إذا رغب في عمل صالح واتجهت إليه عزيمته كيف أنه يبحث عن وسائله وأسبابه ويسعى في تحقيقه ونيله ، وكذلك والعياذ بالله إذا بُلي بطلب أمر سيء كيف أنه يسعى في تحصيله فالعبد له مشيئته.

فإذاً مما يجب أن نُقر به هنا وأن نؤمن به أن العبد له مشيئة وإرادة يختار بها طريق الخير يختار بها طريق الشر ويعمل بموجب هذه المشيئة ، ولهذا إذا عمل الصالحات يثاب عليها ، وإذا عمل السيئات يعاقب عليها ؛ لأنه فعل ذلك بمشيئته . فإذا قوله عليه الصلاة والسلام ((اعملوا)) هذا يفيد أن العبد له مشيئة وإرادة ولهذا خوطب بهذا الأمر قيل له اعمل ، ويدخل تحت قوله «اعملوا» كما سبق الأمر بالصلاة لأمر بالصيام الأمر بالبر الأمر بالإحسان الأمر بالبعد عن المعاصي والآثام.

وهنا التطبيق العملي لتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله ((اعملوا)) أن يجاهد الإنسان نفسه على العمل كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، قال جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، لو لم يكن للإنسان مشيئة هل يقال له اصبر وصابر وربط واتق الله ؟ لا يقال له إذا كان ليس له مشيئة إذا كان حاله وأمره كالورقة في مهب الريح، فقول «اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله» هذا يدل على أنه له مشيئة ، فإذا العبد هنا مطالب بأن يجاهد نفسه على العمل ويصابر ويرابط ويدفع نفسه إلى الاستقامة وسلوك سبيلها والبعد عن مواطن الآثام والمعاصي ؛ هذا كله مستفاد من قوله ((اعملوا)) وهو الأصل الأول .

● الأصل الثاني مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام ((فكل ميسر لما خلق له)) ؛ وهذا فيه أن الأمور كلها بتقدير الله وبتييسره وبمشيئته وبإذنه وبقدرته جل وعلا ، فكل ميسر لما خلق له : أي لما خلقه الله عز وجل له من كفر أو إيمان ، طاعة أو عصيان ، دخول جنة أو دخول نار ، ((كل ميسر لما خلق له)) أي لما خلقه الله سبحانه وتعالى له . فهذا يستفاد منه أن الأمور كلها بمشيئة الله سبحانه وتعالى وبقدرته جل وعلا وأنه لا يمكن أن يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله عز وجل ، فالمملك ملكه والخلق خلقه جل وعلا ولا يمكن أن يقع في هذا الكون أمرٌ خارج عن مشيئته أو أمرٌ ليس مخلوقا له تبارك وتعالى . ولهذا من لا يؤمن بهذا الأمر ((فكل ميسر لما خلق له)) من لا يؤمن بهذا الأمر ان الأمور كلها بتيسير الله وتقديره فإنه من لازم عدم الإيمان بهذا الأمر ادّعاء أن مع الله خالفاً ، ولهذا جاء عن السلف وجاء في حديث يُرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم حسنه بعض أهل العلم «أن القدرية مجوس هذه الأمة» ، لأن من ينفي القدر من لازم نفيه للقدر أن يثبت خالفاً مع الله تبارك

وتعالى ، من لا يؤمن أن الأمور كلها بتيسير الله وتوفيقه وخلقه وإيجاده من لازم ذلك أنه يثبت مع الله خالقا ولهذا قالوا القدرية محوس هذه الأمة ، المراد بالقدرية: أي نفاة القدر . إذا نستفيد من قوله ((فكل ميسر لما خلق له)) أصل عظيم في هذا الباب ألا وهو: أن الأمور كلها بتقدير الله وتيسيره وعونه وتوفيقه وتأيدته جل وعلا . فنستفيد من هذا فائدة في الباب ألا وهي : أننا نجاهد أنفسنا على الأعمال كما يدل على ذلك شطر هذه الجملة الأول ، وفي الوقت نفسه لا نتكل على أعمالنا ولا نلتفت إليها بل نتوكل على الله سبحانه وتعالى ونطلب مدّه وعونه وتوفيقه سبحانه ، قال ((فكل ميسر لما خلق له)) ؛ فيجاهد الإنسان نفسه على الأعمال الصالحة وفي الوقت نفسه يسأل ربه تبارك وتعالى الثبات ، التوفيق ، التأيد ، الهداية ، أن لا يزيغ قلبه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] ، «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى» ، «اللهم إني أسألك الهدى والسداد» ، «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»؛ هذه كلها أحاديث ثابتة عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وكان إذا خرج من بيته قال : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ أَوْ أُظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» لأن الأمور بقدره جل وعلا .

فإذا الجواب المسدد في هذا الباب في السؤال الذي طرحه الصحابة ألا نتكل على القدر وندع العمل؟ «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) أي جاهد نفسك على الأعمال الصالحات والبعد عن الأعمال السيئات وسل الله التيسير واطلب منه العون والتوفيق كما قال جل وعلا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كما قال جل وعلا ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] كما قال عليه الصلاة والسلام : ((أحرص على ما ينفعك واستعن بالله)) ، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((اعقلها وتوكل)) فجمع عليه الصلاة والسلام بين هذين الأمرين . وكما قدمت هذا الجواب جواباً وافي في الباب ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) وخلاصة الجواب أنه لا بد لكل عبد في هذا الباب لينال السعادة في الدنيا والآخرة أن يحرص على فعل الأسباب ويجاهد نفسه عليه الأسباب الطيبة التي ينال بها رضا الله والفوز بجنته والنجاة من غضبه ، وفي الوقت نفسه يسأل الله عز وجل دوماً وأبداً التوفيق والسداد والهداية والرشاد ، ويتعوذ به جل وعلا من الزيغ والضلال والانحراف .

قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة)) أما من كان من أهل السعادة أي من كان ممن كتب الله عز وجل لهم السعادة في اللوح المحفوظ فسييسره له لعمل أهل السعادة ، وهذا معنى قوله ((فكل ميسر لما خلق له)) : إن خلق للسعادة يُيسر لعملها ، وإن خلق للشقاوة يسر لعملها ، وأما من كان من أهل السعادة فسييسره الله لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسره الله لعمل أهل الشقاوة . إذا السعادة لها أهل

كتبوا في اللوح المحفوظ ، والشقاوة لها أهل كتبوا في اللوح المحفوظ ، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة ؛ وهذا يتطلب من المسلم كما قدمت كما جاء مبينا في الحديث أن يجاهد نفسه على العمل بعمل أهل السعادة ويطلب من الله التيسير ، وبيان ذلك في الآية التي أوردها النبي عليه الصلاة والسلام والآيات قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) ﴾ لاحظ هذه أسباب يفعلها العبد ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ هذا مثل قوله في الحديث ((اعملوا)) ﴿ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [البقره: ١٠-١١] ، فالعبد يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات وفعلها ، ويطلب من الله تبارك وتعالى دوما التيسير والتوفيق .

قال رحمه الله تعالى :

وعن مسلم بن يسار الجهني قال : سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية فقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : ((إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون)) ، فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال : ((إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار)) رواه مالك والحاكم وقال على شرط مسلم. ورواه أبو داود من وجه آخر عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة عن عمر .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن معنى قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ؛ ما معنى هذه الآية وما المراد بها ؟ سئل عمر رضي الله عنه وأرضاه عن معناها فقال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها)) أي سئل عن معنى هذه الآية ما المراد بقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ما معنى هذا ؟

فيقول عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : ((إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه)) أي مسح الله سبحانه وتعالى ظهر آدم بيمينه سبحانه وتعالى ((فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون)) وهذا كما بين أهل العلم تقدير من بعد تقدير ، تقدير داخل في التقدير العام الذي مر في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، تقدير عندما أخرج الله سبحانه وتعالى ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، أخرجهم في عالم من العوالم أوجدتهم تبارك وتعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ وقسمهم فريقين فريق في الجنة كما قال هنا ((خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون)) ، ثم أخرج من ظهره ذرية وقال ((خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون)) ؛ فهذا يسميه أهل العلم التقدير الذي كان عندما أخرج ذرية آدم من ظهره وجعلهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ، وهذا التقدير داخل في التقدير العام ، داخل في التقدير الذي كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة هذا الأمر طرحوا السؤال المتقدم ؛ ((قال رجل : يا رسول الله فقيم العمل؟)) قول هذا الرجل فقيم العمل هو نظير ما تقدم في حديث علي ((ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟)) ، وكما قلت لكم سابقاً هذا سؤال يطرح نفسه ؛ عندما يسمع الإنسان أن أهل الجنة كتبوا وأهل النار كتبوا وأن هذا كله في اللوح المحفوظ قُدر وقضي يأتي هذا السؤال فقيم العمل؟ أو ألا نتكل على القدر؟ أو ألا ندع العمل؟ ((قال رجل فقيم العمل يا رسول الله؟))

فقال صلى الله عليه وسلم : ((إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار)) وهذا فيه تنبيه لما سبق بيانه في حديث عليه الصلاة والسلام ألا وهو: أن العبد ينبغي عليه أن يجاهد نفسه على العمل بعمل أهل الجنة والبعد عن أعمال أهل النار ، ويسأل ربه تبارك وتعالى العون التيسير التوفيق كما جاء في الدعاء الذي علّمه النبي عليه الصلاة والسلام عائشة رضي الله عنها وهو في المسند وغيره قال: ((وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ تَقْضِيهِ لِي خَيْرًا)) ، يسأل الله عز وجل أن يقدر له الخير وأن يكتب له الخير حيث كان ، يرجو الله سبحانه وتعالى يطمع في فضله في الوقت نفسه يجاهدها على الأعمال الصالحات .

الشاهد أن هذا الحديث فيه تقدير داخل في التقدير العام الذي كان كُتب في اللوح المحفوظ وهو التقدير الذي قدره الله عز وجل على الخلائق عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير .

وهذا الحديث في سنده شيء من الكلام لكن هناك شواهد له يتقوى بها ويكون بها صحيحا لغيره ومن شواهد
الحديث الآتي بعده .

قال رحمه الله تعالى :

وقال اسحاق بن راهويه حدثنا بقية بن الوليد أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد ع راشد بن سعد عن عبد
الرحمن بن أبي قتادة عن أبيه هشام بن حكيم بن حزام أن رجلاً قال : يا رسول الله أبتدأ الأعمال أم قد
قُضي القضاء ؟ فقال : ((إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه
فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ليسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ليسرون لعمل أهل
النار)).

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ((أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أبتدأ الأعمال
أم قد قُضي القضاء ؟)) معنى قول الرجل في سؤاله ((أبتدأ الأعمال)) أي هل أن أعمالنا ليست مقدرة وليست
مكتوبة فنفعها نحن ابتداءً دون أن تكتب علينا ودون أن تقدر؟ أي أن الأمر أنف وليس مقدراً؟ هل الأمر
كذلك؟ «أبتدئ الأعمال؟» أي هل الأعمال تقع منا ابتداءً دون قضاء مسبق ودون قدر مسبق؟ «أم قد قضي
القضاء؟» أي الأمرين ؟ هل الأعمال التي تقع منا تقع ابتداءً دون أن تُقدر؟ أم هي مقدرة ومقضية علينا ومكتوبة
علينا؟ أي الأمرين الحق والصواب؟ يسأل النبي عليه الصلاة والسلام .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في
كفيه فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ليسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ليسرون لعمل
أهل النار)) فبين عليه الصلاة والسلام أن الأمر قدر وقضي وليس أمراً أنفاً وليس أمراً يقع ابتداءً من العباد دون
سبق تقدير وقضاء ، بل الأمر قدر وقضي؛ هذا هو معنى الجواب ومفاده .

قال: ((إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه فقال : هؤلاء
للجنة وهؤلاء للنار)) هذا في العالم الذي أخرج فيه الناس من ظهر آدم، كما تدل عليه الآية الكريمة والأحاديث
المبينة لمعناها قسمهم الله عز وجل لما أخرجهم من ظهر أبيهم إلى فريقين : قال ((هؤلاء للجنة وبعملها يعملون ،
وهؤلاء للنار وبعملها يعملون)) ؛ أي أن الأمر مقضي ومقدّر ومكتوب ، مكتوب على كل إنسان هل هو من
أهل الجنة أو من أهل النار ، ومن كان قُدر له أنه من أهل الجنة فإنه بعملها يعمل ، ومن قُدر له أنه من أهل
النار فإنه بعملها يعمل. والواجب على من عرف هذا الأمر وفهمه من كلام نبينا عليه الصلاة والسلام أن يجاهد
نفسه على تحقيق التوجيه النبوي الكريم الذي مر معنا في حديث علي ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) وهذه

منهج في الباب اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وكلما وقع في نفسك شيء من التكاسل أو التثبط أو التواني أو نحو ذلك فداوها بهذه الكلمة ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) ؛ «اعملوا» أي جاهد نفسك على العمل لا تتواني ولا تكسل ولا تفتّر عن أمور الخير وأبواب البر ، «فكل ميسر لما خلق له» سل الله تبارك وتعالى العون والتيسير والتوفيق .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الحادي عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «أصول الإيمان» تحت «باب الإيمان بالقدر» :
وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات ؛ فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) متفق عليه .

هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أورده المصنف رحمه الله تعالى في باب الإيمان بالقدر ، وقد مضى الحديث عن أهمية الإيمان بالقدر وأنه أصل من أصول الإيمان العظيمة وركن من أركان هذا الدين ، وأنه نظام التوحيد كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما «الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله وكذب القدر نقض تكذيبه توحيده» ، فالإيمان بالقدر شأنه في الدين عظيم ومكانته فيه عليّة . وأيضاً مر معنا الكلام على مراتب القدر الأربعة التي لا إيمان لأحدٍ بالقدر حتى يؤمن بها ، وساق المصنف رحمه الله تعالى جملة من الأدلة

الدالة على مكانة الإيمان بالقدر وعظم شأنه في دين الله تبارك وتعالى من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

ثم بعد ذلك شرع رحمه الله تعالى في ذكر الأدلة التي تتعلق بمراتب التقدير ، وذلكم أن من الإيمان بالقدر الإيمان بالتقديرات التي قدرها الله سبحانه وتعالى على فترات؛ كالتقدير العام الذي مر معنا في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكالتقدير الذي مر معنا في حديث عمر وحديث هشام بن حكيم ، وذلك عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره ، كذلك ما سيأتي معنا في هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فهذه التقديرات الإيمان بها من الإيمان بالقدر ؛ ولهذا ينبغي على المسلم أن يجعل من إيمانه بالقدر إيمانه بهذه التقديرات التي ثبتت في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والنصوص دلت على أنواع من التقديرات :

■ أولها التقدير العام ؛ وهو الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهذا التقدير العام يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) ، وهذا يقال له «التقدير العام» ، وقد كان هذا التقدير العام قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . ثم يأتي بعد هذا التقدير تقديرات أخرى قال أهل العلم هي كالتفصيل للتقدير العام وهي داخلة فيه ليست خارجة عنه ، فهي كالتفصيل للتقدير العام وهي تقديرٌ من بعد تقدير ، وكل التقديرات التي أتت بعد التقدير العام هي داخلة فيه ليست خارجة عنه . فإذاً التقدير الأول هو التقدير العام .

■ ثم بعد ذلك يأتي التقدير الذي كان عندما أخرج الله سبحانه وتعالى ذرية آدم من ظهر أبيهم وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ؛ فهذا أيضا تقديرٌ دل عليه حديث عمر والحديث الذي بعده حديث هشام بن حكيم وغيرهما من الأحاديث الواردة في هذا الباب .

■ ثم النوع الثالث من أنواع التقدير أو المرتبة الثالثة من مراتب التقدير: التقدير العمري الذي يتعلق بعمر كل إنسان بعينه أو بشخصه ، وذلك عندما يكون جنينا في رحم أمه حيث يبعث الله تبارك وتعالى إليه ملكا ويؤمر بكتب أربع كلمات؛ بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي هو أو سعيد ، فهذا التقدير الذي جاء في حديث عبد الله بن مسعود الذي أورده المصنف هنا هذا يسمى «التقدير العمري» وهو الذي يتعلق بعمر كل إنسان في شخصه ؛ حيث يرسل الملك ويؤمر بكتب أربع كلمات كتب رزقه وأجله وعمله وشقي هو أو سعيد ، وهذه الأمور التي يكتبها للملك هي تقديرٌ يتعلق بشخص هذا الإنسان ؛ ماذا يرزق؟ ومتى يموت؟ وما هي أعماله أطاعات أم سيئات؟ كل ذلك يُكتب عليه ، وهذه الكتابة التي تكون على الإنسان وهو في رحم الأم ليست خارجة عن التقدير العام الذي كُتب في اللوح المحفوظ بل هي داخلة فيه ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله تعالى

عن هذه التقديرات أنها تقديرٌ من بعد تقدير ، وقالوا أيضا أن هذا تقديرٌ يعتبر تفصيلا للتقدير السابق ؛
التقدير العام الذي كُتب في اللوح المحفوظ .

■ النوع الرابع أو المرتبة الرابعة من مراتب التقديرات: التقدير السنوي ؛ أي التقدير الذي يكون في كل سنة، والله عز وجل شاء أن يقدر كل سنة ما هو كائن فيها إلى السنة الأخرى وذلك في ليلة القدر ، كما قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] ، قد جاء عن غير واحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أن معنى قوله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يقدر فيها ما هو كائن طوال السنة إلى ليلة القدر الأخرى، فيقدر في تلك الليلة من يموت في هذه السنة من يمرض من يهتدي.. إلى آخره ، حتى ذكر بعض المفسرين أنه يُكتب فيها من سيحج ، فلان بن فلان وفلان بن فلان هؤلاء سيحجون هذه السنة يُكتب في ليلة القدر ، فيكتب في ليلة القدر ويقدر في ليلة القدر ما هو كائن إلى ليلة القدر الأخرى ، ولهذا لما سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم ماذا تقول ليلة القدر ؟ قال: ((تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي)) ، لأنك إذا كتبت في ليلة القدر من أهل العافية وأهل المعافاة سعدت في العام كله، ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فهي ليلة ليست كالليالي ليلة لها شأن عظيم ولها مكانة عليا وهي خير من ألف شهر وفيها يقدر ما هو كائن إلى ليلة القدر الأخرى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٤] . وقوله هنا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ نظير قوله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ؛ فليلة القدر يُكتب ويقدر فيها ما هو كائن إلى ليلة القدر الأخرى ، هذا يسميه أهل العلم «التقدير السنوي» أي التقدير الذي يكون في يوم من السنة لما هو كائن في السنة كلها ، وشاء الله عز وجل أن يكون هذا اليوم الذي يقدر فيه ما هو كائن في السنة كلها هو ليلة القدر خير الليالي وأشرفها وأفضلها .

■ ثم يأتي التقدير اليومي لما هو كائن في كل يوم بعينه ، وهذا يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] قال أهل العلم في تفسير الآية: الشأن أن يحيي هذا ، ويميت هذا ، ويعرض هذا ، ويسقم هذا، ويصح هذا ، ويهدي هذا ويضل هذا ، إلى آخره .

فهذه تقديرات ثابتة في كتاب الله وثابتة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ومن إيمان العبد بأقدار الله تبارك وتعالى أن يؤمن بهذه التقديرات ، وهي خمس تقديرات: التقدير العام ، والتقدير الذي كان عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره ، وبعض أهل العلم يعرض عن ذكر هذا التقدير ويكتفي بالتقدير العام ، والتقديرات الثلاثة التي ذكرت على اعتبار أنه داخل في التقدير العام وهو قريب من التقدير العام من حيث أنه يُكتب فيه ما

هو كائن لذرية آدم بعمومهم إلى أن تقوم الساعة ، بخلاف التقدير العمري يتعلق بعمر كل إنسان بعينه ، والسنوي يتعلق بكل سنة بخصوصها ، واليومي يتعلق بتقدير كل يوم بخصوصه ؛ ولهذا بعض العلماء يعدّها أربع تقديرات: العام والعمري والسنوي واليومي ، وبعضهم يضيف إليها التقدير الخامس الذي هو التقدير الذي كان عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير كما مر معنا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

وهذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد بدأه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: ((حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق))؛ «الصادق»: أي فيما يخبر به عن الله وفيما يبينه من دين الله وشرعه ، فهو صادق عليه الصلاة والسلام بل لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، و«مصدق»: أي مؤيد من ربه بالشواهد والآيات والحجج والبراهين التي تدل على صدقه صلوات الله وسلامه عليه وصدق ما جاء به .

قال : ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة)) «إن أحدكم» هذا يشمل كل بني آدم ، شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون خلق كل واحد وكل فرد من أفراد بني آدم يمر بهذه المراحل ، فأول ما يكون هذا الإنسان السوي الممتع بالسمع والبصر والقوى أول ما يكون نطفة من ماء مهين تخرج من صلب الأب وتستقر في رحم الأم، ولهذا قال هنا ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة)) تستقر النطفة في رحم الأم وتبقى على هذه الهيئة وكونها نطفة أربعين يوماً ، وتأخذ بالتغير إلى علقة إلى قطعة صغيرة من الدم تأخذ وقتاً تتغير بالتدريج وتتحوّل بالتدريج بقدرة رب العالمين تبارك وتعالى فتتحوّل هذه النطفة إلى علقة أي قطعة صغيرة من الدم ، وهذه المرحلة الثانية من المراحل التي ينتقل إليها الإنسان والتي يمر بها الإنسان في تكوين الله تبارك وتعالى له .

قال : ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك)) أي أن هذه النطفة تتحوّل إلى علقة وتبقى أربعين يوماً على هذه الصفة ، والعلقة: هي القطعة الصغيرة من الدم .

ثم بعد ذلك تتحوّل هذه القطعة الصغيرة من الدم إلى مضغة ولهذا قال: ((ثم يكون مضغة مثل ذلك)) والمضغة كما قال أهل العلم رحمهم الله تعالى هي القطعة الصغيرة من اللحم ، بقدر ما يمضغه الإنسان أو ما يتمكن الإنسان من مضغه من اللحم ؛ وهذا إشارة إلى أنّها قطع صغيرة ليست هبرة أو قطع كبيرة وإنما هي قطعة صغيرة من اللحم. وهذه المرحلة الثالثة نطفة ثم علقة ثم مضغة .

بعد ذلك يكون أكمل في رحم الأم من حين أن استقر نطفة فيها يكون أكمل مئة وعشرين يوماً ؛ أربعين يوماً نطفة ، وأربعين يوماً علقة ، وأربعين يوماً مضغة ، فيكون بذلك أكمل في مراحل تكوينه مئة وعشرين يوماً . وتفكر الإنسان في مثل هذه المراحل التي مر بها يهديه إلى كمال الخالق وعظمة الرب سبحانه وتعالى كيف أن هذه النطفة تتحوّل هذه التحويلات إلى أن أصبح الإنسان سويًا ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ

الدَّهْرَ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿[الإنسان: ١-٣]﴾ فتفكر الإنسان في هذه المراحل يهديه ، بل إنه يفيد فوائد عظيمة في حياته في مسلكه ، ولهذا أحد السلف يقول متعجباً معنى كلامه يقول : كيف يتكبر الإنسان ويختال ويتعاضم وقد خرج من مخرج البول مرتين!! لأنه لو تفكر الإنسان في مخرجه لابتعد عن الكبر ولتواضع ولأن جانبه ولعرف حقيقة نفسه ، خرج من مخرج البول مرتين: مرة نطفة من مخرج بول والده ، ومرة طفلاً صغيراً من مخرج بول أمه ، فخرج من مخرج البول مرتين فكيف يتكبر! وكيف يختال! وكيف يتعاضم! وكيف يغتر وهذه حقيقة حاله!! بل قال بعض أهل العلم أيضاً قريباً من هذا المعنى : كيف يتكبر الإنسان وأوله نطفة وآخره جيفة في القبر عندما يدفن وهو بين ذلك يحمل العذرة في بطنه!! فلماذا يختال ولماذا يتكبر وهذه حقيقة حاله!!

الشاهد أن تفكر الإنسان في هذه المراحل من الأمور العظيمة المهمة التي تفيد الإنسان فوائد عظيمة جداً لا حد لها ، حتى من الفوائد التي تستفاد: بيان قدرة الله سبحانه وتعالى الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥] هذا من البراهين على كمال قدرة الله ، ﴿إِنِ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ يعني إن كنتم في شك من قدرة الله سبحانه وتعالى على بعث الأجساد بعد دفنها ومواراتها في التراب فانظروا في الخلق الأول ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فخلق الإنسان من نطفة ثم من علقته ثم من مضغة إلى غير ذلك من المراحل كل ذلك من الأمور التي تبعث في الإنسان وتحرك في الإنسان أبواباً كثيرة من الهداية .

والإنسان مر بمراحل سبعة جاء ذكر بعضها في هذا الحديث وفي بعض الآيات وجمعت في الآيات التي جاءت في سورة المؤمنون ، قد كان جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يقول : «إن ابن آدم خلق في سبع مراحل» أي التي يمر بها ابن آدم ، ثم كان يتلو قول الله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) هذه المرحلة الأولى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿ثم أصبح إنساناً سوياً له السمع وله البصر وله اليد وله.. ، حتى تحول قطعة اللحم إلى العظام ثم من هذه القطعة من اللحم ينهض الرأس ويبدأ ثم تخرج الأيدي ثم الأرجل كل هذه المراحل التي تتكوّن ويمر بها الإنسان كلها من دلائل قدرة الله تبارك وتعالى ولهذا قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . فتفكر الإنسان في هذه المراحل العظيمة من الأمور التي تهديه إلى الإيمان بكمال قدرة الله وكمال صنعه وخلق تبارك وتعالى ، وكمال

تقديره وتدييره ، وأنه عز وجل المستحق للعبادة والذل والخضوع جل وعلا ، وأيضا يهديه إلى قدرته على البعث ، يهديه أيضا إلى معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وحقيقة حاله ، إلى غير ذلك من أنواع من الهدايات .

ثم وأنت تتأمل في الهدايات المستفادة هنا في هذا الباب العظيم تعجب غاية العجب عندما ترى أقواما خلقهم الله عز وجل ومروا بهذه المراحل العظيمة العجيبة إلى أن استووا على هيئة الإنسان السوي بالسمع والبصر ثم تراهم يعكفون على أحجار أو على قباب أو على أرضحة يسألونها ويرجونها ويخضعون لها وينطرحون بين يديها راغبين راهبين ينسون رب العالمين تبارك وتعالى الذي أوجدهم وخلقهم وأمدّهم بالسمع والبصر ؛ أين عقول هؤلاء في التفكير بهذا الخلق وهذا الإيجاد وهذا الإبداع وهذا التصوير وهذا التكوين من الله جل وعلا !! لو فكر هؤلاء في حقيقة حالهم لما كان منهم ذل ولا خضوع ولا انكسار إلا لله تبارك وتعالى الذي خلقهم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ ﴾ [فاطر: ٣] هو الخالق وحده ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] هو الخالق وحده ﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] كل ذلك لله تبارك وتعالى فكيف يُذل لغيره! وكيف يلتجأ لغيره! وكيف ينكسر بين يدي غيره! وتصرف العبادة لغيره! مع أنه جل وعلا المتفرد بخلق الأشياء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢] أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله تبارك وتعالى .

قال هنا في حديث ابن مسعود: ((إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات))؛ «يُبعث» أي يرسل «ملكاً» أي ملكا من الملائكة وكل الله عز وجل إليه هذه الكتابة كتابة ما يتعلق بالإنسان إلى أن يموت يكتب كل ما هو متعلق به .

قال: ((فيكتب عمله)) أي ماذا سيعمل؟ صلاة صيام حج صدقة بر الوالدين إلى آخره ، وأيضا إن كانت أعمالا سيئة تُكتب من سرقة من كذب من غش من زنا من فواحش إلى آخره كل ذلك يكتبه الملك ، يكتبه في هذا الوقت كما بين نبينا الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ((فيكتب عمله)) أي الأعمال التي سيقوم بها . و«عمل» هنا مفرد مضاف فيعم كل عمل سيقوم به الإنسان ، ((فيؤمر بكتب أربع كلمات عمله)) : أي كل عمل يقوم به الإنسان إلى أن يموت ، جميع الأعمال يكتبها الملك ، وكلها تسطر وتُكتب .

قال: ((وأجله)) أي متى سيموت؟ كم عمره؟ ما هو الوقت الذي يموت فيه؟ والله عز وجل يقول ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٨] ويقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] ، فالأجل محدد وكتب

على الإنسان كما أنه كتب على الإنسان في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة فكتب أيضا ثانية على الإنسان وهو في رحم أمه ، كتب الملك متى سيموت؟ فموت الإنسان والأجل الذي أُجِّل له وُحِد له لن يتجاوزَه ولن أيضا يموت قبل أجله ، لن يموت الإنسان إلا إذا جاء الأجل وحضرت المنية التي كُتبت

قال ((ورزقه)) أيضا يكتب ما سيطعم وما سيشرب كل ذلك يُكتب الطعام والشراب الذي يتناوله الإنسان على مر الأيام كل ذلك يُكتب على الإنسان وهو في رحم أمه قبل أن يخرج إلى الدنيا وقبل أن يشاهد الدنيا يُكتب كل ما هو متناول له أو طاعم له أو شارب له مدة حياته كل ذلك يكتب ؛ وهذا فيه إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته ﴿الْأَيُّعَلْمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١١] فيه إحاطة علم الله تبارك وتعالى بمخلوقاته أحاط بها علما جل وعلا ، وهذا أيضا إضافة إلى علم الله به يكتب على الإنسان ، يُكتب ماذا سيطعم ماذا سيتناول ماذا سيشرب كل ذلك يكتب على الإنسان .

وخلق الله سبحانه وتعالى لهذه المخلوقات وإيجاده لها هو من الشواهد والدلائل على إحاطة علمه بها كما قال جل وعلا ﴿الْأَيُّعَلْمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؛ هذا من الشواهد والدلائل ، ولهذا من بديع الاستدلال وجميله في الرد على الملاحظة ما ذكره الإمام الحافظ التيمي رحمه الله تعالى في كتابه الحجة عندما أشار إلى أن أحد الملاحظة أراد أن يشكك بعض المسلمين في هذه المسألة أن الله عز وجل هو المتفرد بالخلق ؛ فأحضر كوبا ووضع فيه أشياء متعفنة من اللحم أو غيره وأغلقها وتركها بضعة أيام ثم أحضرها وإذا بها ممتلئة من الدود فقال لهم مشككا "هذه أنا الذي خلقتها ، الكوب لم يكن فيه شيء من هذه الكائنات وأنا بهذه الطريقة وبهذه العملية أنا الذي خلقت هذا الدود" فقال له أحد الحاضرين وهو أصغرهم سنا يسر الله عز وجل الحجة على لسانه فقال له: لم يكن أحدا ليخلق إلا ويعلم عدد ما خلق وأرزاقهم وآجالهم فأين لنا ذلك كله ؟ إذا كنت تدعي أن هذه مخلوقات لك وأنت الذي خلقتها كم عدد مخلوقاتك؟ كم عدد هذا الدود الذي خلقتة؟ هذا السؤال الأول ، السؤال الثاني: كم عدد الذكور من الإناث؟ السؤال الثالث: كل واحدة من هذه الدود ماذا ستطعم وماذا ستأكل؟ والسؤال الرابع: كل دودة متى ستموت؟ مادمت تدعي أنها مخلوقات لك ﴿الْأَيُّعَلْمُ مَنْ خَلَقَ﴾ هذا برهان ، الخلق دليل على العلم ولهذا من مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله الأزلي ، الإيمان بعلمه تبارك وتعالى المحيط بما كان وبما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه تبارك وتعالى أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا .

فإذا هذا الذي يمر علينا الآن في حديث ابن مسعود ألا وهو أن الله عز وجل يبعث ملكا ويأمره بكتابة عمل الإنسان ورزقه وأجله وشقي هو أو سعيد هذه كلها من الدلائل والبراهين على كمال إحاطة الله علم الله جل وعلا بكل شيء؛ بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون .

قال: ((فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد)) أي يُكتب هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ، جعلنا الله وإياكم من أهل السعادة ، يُكتب هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ، وممر معنا في حديث علي رضي الله عنه قال لما قال النبي عليه الصلاة والسلام ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة)) وهذا فيه تمييز للسعداء من الأشقياء فقال علي : «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)) ، فهنا يقول : ((وشقي هو أو سعيد)) أي يكتب ، وهذه الكتابة شقي هو أو سعيد هي أيضا كتبت في اللوح المحفوظ ، كتب في اللوح المحفوظ السعداء وكتب أيضا في اللوح المحفوظ الأشقياء ((ومن كان من أهل السعادة يسره الله تبارك وتعالى لعمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَصَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠] .

قال: ((ثم يُنفخ فيه الروح)) أي يُنفخ في هذا الكائن في رحم الأم الذي تحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، فبعد أن يكمل مئة وعشرين يوما ينفخ فيه الروح وتصبح الروح تتحرك فيه . قال: ((فوالذي لا إله غيره)) يقسم صلوات الله وسلامه عليه بالله .

قال: ((فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) ؛ «فيسبق عليه الكتاب» ذكر النبي عليه الصلاة والسلام مقسماً بالله تبارك وتعالى على ذلك تأكيدا إلى أن الأمور مكتوبة وأن من كان كتب من أهل الشقاوة ومن كتب من أهل النار حتى لو عمل بعمل أهل الجنة يُحتم له بعمل أهل النار ((فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) ، ولهذا كان السلف ويُثقل عنهم في هذا نقول كثيرة أورد بعضها الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى في شرحه للأربعين في شرحه لهذا الحديث في الأربعين النووية أنهم كانوا يخافون من شيئين: كانوا يخافون من الكتاب السابق ، ويخافون من الخواتم؛ لا يدري الإنسان ماذا كُتب له؟ وبماذا يُحتم له في كتابه الذي كتب له؟ ويخافون من الخواتم أي من سوء الخاتمة أن يموت الإنسان والعياذ بالله على خاتمة سيئة لا ينال بها إلا غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه وناره ، فكانوا يخافون من ذلك ويؤرقهم هذا الأمر ويؤرقهم الكتاب السابق ويؤرقهم أيضا الخواتم ، وكل من هذين الأمرين مستفاد الخوف من قوله عليه الصلاة والسلام ((فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما

يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب)) هذا الكتاب السابق ((فيعمل بعمل أهل النار)) هذه الخواتيم السيئة والعياذ بالله ((فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)).

ولهذا حق على العاقل أن يخاف من هذا الأمر وأن يحسن الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وأن يصلح -وهذا أمر في غاية الأهمية- أن يصلح سريره بينه وبين الله تبارك وتعالى ، وأن يجتهد في أن يبعد من قلبه الدواخل السيئة والنيات السيئة ، يجتهد في البعد عن ذلك كله ، ولهذا جاء في بعض روايات هذا الحديث من حديث سهل ابن سعد وهي إضافة مهمة صحت عن النبي عليه الصلاة والسلام وفيها بيان لهذا الأمر قال عليه الصلاة والسلام: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) ، فقله عليه الصلاة والسلام ((فيما يبدو للناس)) فيه تنبيه على أمر ألا وهو: أن من صلحت سريره بينه وبين الله وصدق مع الله في التجائه ، في إصلاح نفسه ، في صدقه مع ربه ؛ فإنه بإذن الله لا يختم له بالخواتيم السيئة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] ، لكن البلاء عندما يكون في قلب الإنسان دواخل سيئة ونوايا سيئة وأمور غير نظيفة وأعماله فيما يظهر للناس أعمال جيدة وأعمال صالحة فمثل هذا هو الحقيق بأن يبوء بمثل هذه الخواتيم ؛ ولهذا نقل ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الجواب الكافي عن بعض أهل العلم أنه قال كلاما معناه: لا يُعرف لمن صحت عقيدته أن يختم له بخاتمة سيئة ، من صحت عقيدته بينه وبين الله في قلبه وبينه وبين ربه تبارك وتعالى لا يُعرف من كان بمثل هذا الصلاح أن يختم له بخاتمة سيئة ، لكن الخاتمة السيئة إذا كان صلاح الإنسان الظاهر فيما يبدو للناس أما في الداخل ليس ففيه نوايا وفيه خبايا سوء وفيه دواخل سيئة في قلبه.

ولهذا كان من أهم ما ينبغي أن يعتني به المسلم أن يصلح سريره بينه وبين الله تبارك وتعالى وينقيها ويسأل الله تبارك وتعالى أن يصلح له قلبه ، وفي الحديث ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا))، فیدعو الله ويجاهد نفسه على صلاح قلبه بالبعد عن مثل هذه الأمور أو مثل هذه الدواخل السيئة التي تكون في القلوب .

فإذاً هذه الزيادة التي جاءت في حديث سهل بن سعد هي زيادة مهمة وعظيمة جداً وفيها بيان لهذا الأمر قال ((فيما يبدو للناس)) أي فيما يظهر للناس أما في الداخل ففيه نوع من الخلل أو نوع من الفساد . فأفادنا هذا الأمر أن من أهم ما ينبغي أن يعنى به المرء بينه وبين الله سبحانه وتعالى أن يجاهد نفسه في إصلاح قلبه وتنقية سريره وأن يجاهد نفسه على سلامة القلب ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] .

قال: ((فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)) أي يدخل النار ، وهذا فيه من الفائدة أن العبرة بالخواتيم ، ((إنما

الأعمال بالخواتيم)) والعبرة في حال الإنسان بما يُحْتَم له ، فمن حُتِم له بالخاتمة الحسنى كان من أهل الحسنى ، ومن ختم له بخاتمة اهل الشقاوة والعياذ بالله كان من أهل الشقاوة ، وفي الحديث ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)).

قال: ((وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)) وهذا فيه أن من الناس من يعمل حياته بعمل أهل النار من المعاصي والآثام والفسوق والفجور والكفر والعصيان ، فيسبق عليه الكتاب يكون له سابقة حسنى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] يكون له سابقة حسنى فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، حتى إنه بعض الناس تكون هذه السابقة سابقة الحسنى له قبل وفاته بلحظات يسيرة جدا ، قد يكون حياته كلها على الكفر ويكون كتب الله سبحانه وتعالى له فيما كتب في اللوح المحفوظ أن يسلم ويهتدي قبل أن يموت بلحظات بدقائق ليس ساعات ، تكون حياته كلها على الكفر ويكون اهتداؤه واستقامته في دقائق ! مثل ما جاء في القصة التي أوردها الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى وجوّد إسنادها عند تفسيره لقول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨٢) ؛ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوه بشيء ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي أمن تام واهتداء تام في الدنيا والآخرة .

أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قصة رجل من الأعراب أتى يطلب النبي عليه الصلاة والسلام ويبحث عنه بحثًا عن الإسلام وطلبًا له وقطع مسافات طوال ، راكب على بعيره حتى جاء ووصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم قائما على قدميه ، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام عما بُعث به وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه وكان الرجل راكبا على بعيره ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ((تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة)) ذكر له مباني الإسلام ، فقال الرجل وهو على بعيره «أقررت» أي أقررت بهذا الذي تدعوني إليه ، فدخل بإقراره هذا في الإسلام ، لما قال أقررت ساخت قدم بعيره في حفرة جرذان، وحفرة الجرذان هو الفأر الكبير وحفرته تكون الأرض هشة وإذا وطأ عليها البعير تسبخ قدمه ثم يسقط ، فساخت قدم بعيره في حفرة جرذان فسقط الرجل من فوق البعير على عنقه ومات من لحظته ، حياته كلها على الكفر وحظه من الإسلام هو «أقررت» !! وأقررت هذه لم يعيش معها حياة الإسلام إلا يمكن دقيقة واحدة أو دقيقتين أو ثلاث دقائق ! وحياته كلها على الكفر بالله سبحانه وتعالى ، فأسلم وليس له من الإسلام إلا هذه الكلمة «أقررت» أي أقررت بما تدعوني إليه وسقط ومات ؛ فسبق له من الله سبحانه وتعالى سابقة الحسنى والخاتمة الحسنة ولم يكن له حظ من هذا الإسلام إلا هذا الإقرار الذي مات على إثره هذا الرجل .

جاء في بعض روايات الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((من أراد منكم أن ينظر إلى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فهذا منهم)) ؛ ولهذا أورد ابن كثير رحمه الله هذا الحديث عند هذه الآية ، لم يلبس إيمانه بظلم آمن ؛ قال «أقررت» ومات فلم يخلط إيمانه بشرك وختم له بهذه الخاتمة ، وجاء في بعض الروايات أنه قال : ((إذا أردتم أن تروا الذين عملوا قليلا وأجروا كثيرا فهذا منهم)) ، وجاء أيضا في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قال للصحابه ((قوموا إلى صاحبكم)) سماه صاحبها له ، وقال أيضا في بعض الروايات ((إني رأيت الملائكة تدس الفاكهة في فيه)) لعله كان جائعا ، ختم له بهذه الخاتمة وهذا من الشواهد .

قال: ((وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)) ؛ ومن الفوائد هنا العظيمة: أن ينتبه من مضى في حياته وقتا طويلا وعمرا مديدا على الآثام والمعاصي والرزايا والحزايا والإعراض عن الله تبارك وتعالى أن يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه وتعالى وطلب الخاتمة الطيبة ، جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه لقي رجلا كبيرا في السن وكأنه يعرف عنه بعض المعاصي أو بعض الآثام فقال له الحسن البصري منبهاً : كم تبلغ من العمر؟ قال ستون سنة ، قال أوما علمت أنك في طريق وقد أوشكت أن تبلغ نهايته؟ فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له الحسن أوتعرف تفسيره؟ هذا الكلام هل تفهم معناه؟ قال وما تفسيره؟ قال: «إنا لله» أي أنا لله عبد ، «وإنا إليه راجعون» أي أنا إليه راجع ، فإذا علمت أنك لله عبد وأنتك إليه راجع فاعلم أنه سائلك ، وإذا علمت أنه سائلك فأعد للمسألة جوابا ؛ فانتبه الرجل قال وما الحيلة؟ أي أنا مقصر مفرط ماذا أفعل الآن؟ ما الحيلة؟ فقال له كلمة عظيمة جداً هي كنز من الكنوز ، قال له: «أحسن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت فيما بقي وفيما مضى» ، وهذا الذي ذكره الحسن البصري صح بلفظه مرفوعا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال هذا الكلام ((أحسن فيما بقي يغفر لك ما قد مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت فيما بقي وفيما مضى)) .

ولهذا من مضى في حياة تفريط وتقصير وإهمال ووقوع في الذنوب يتدارك ما بقي من حياته ، ولربما الذي بقي من حياته أيام قلائل أو ساعات قلائل ما يدريه!! فيصلح ما بينه وبين الله ويصلح سريره ويصدق مع الله تبارك وتعالى ويبدأ صفحة جديدة وحياة مباركة وأياما عامرة ويترك تلك الحياة حياة الضياع وحياة التفريط ، والعبرة بالخواتيم يصلح خواتيمه بالتجائه إلى ربه وسؤاله ومجاهدة نفسه على طاعة الله تبارك وتعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

ومن القصص التي في هذا الباب التي هي من شواهد الواقع لقوله عليه الصلاة والسلام ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار)) إلى آخره : ما ذكره أحد الطلبة في هذا المجلس من إحدى الدول دول الكفر يقول إن جدته كانوا

يحاولون معها على الإسلام محاولات كثيرة جدًا وعمرها فوق التسعين ، يقول حاولنا معها كثيرا وتأبى ، ثم ساق لنا البشارة في هذا المكان أن جدته أسلمت وماتت بعد إسلامها بثلاثة أيام ، أكثر من تسعين سنة على الكفر وثلاثة أيام على الإسلام!! فالعبرة بالخواتيم .

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يهتم بأمر الخاتمة ، وأن يجاهد نفسه على إصلاح السريرة بينه وبين الله تبارك وتعالى وتطهير القلب وتنقيته وتركية النفس والاجتهاد في العمل الصالح والبعد عما يسخط الله تبارك وتعالى ، ومع هذا كله يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى لجوءًا كاملاً أن يهديه ، أن يثبتته ، أن لا يزيغ قلبه ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ ﴾ [آل عمران: ٨٠] ، قد كان أكثر دعاء سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) ، تقول أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها وجاء عن أنس وغيرهما من الصحابة «كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، قالت أم سلمة: فقلت يا رسول الله أوإن القلوب لتتقلب؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاعه)).

فيكون الإنسان دائم الالتجاء إلى الله ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ كان من دعائه صلوات الله وسلامه عليه كما في الصحيحين: ((اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون)) ، وكان عليه الصلاة والسلام في كل مرة يخرج فيها من بيته يقول : ((اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يُجهل علي)) دعوات مأثورة عنه في هذا المعنى كثيرة جدا ، وكل ما سبق يتلخص في قوله عليه الصلاة والسلام ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) وسيأتي الحديث بهذا عن النبي صلى الله عليه وسلم عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقي أو سعيد؟ فيكتبان ، فيقول : يا رب أذكر أو أنسى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص)) رواه مسلم.

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث حذيفة رضي الله عنه وهو في صحيح مسلم ، وهو بمعنى حديث ابن مسعود ولهذا ساقه بعده . قال عليه الصلاة والسلام : ((يدخل الملك على النطفة)) الملك: أي الذي وكل الله سبحانه وتعالى إليه هذا الأمر ، يدخل الملك على النطفة: أي في الرحم .

((يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة)) وهنا في هذا الحديث أن دخول الملك وإتيانه وكتابته بعد أن يتم أربعين ليلة أو خمس وأربعين ليلة ، وفي حديث ابن مسعود المتقدم أن الكتابة بعد مئة وعشرين ؛ ولهذا بعض العلماء وفق بين الحديثين بأن الكتابة تكون في الرحم مرتين : مرة في الأربعين أو الخمس والأربعين كما في حديث حذيفة ، ومرة بعد المئة والعشرين كما يستفاد ذلك من حديث ابن مسعود . وبعض أهل العلم قالوا لا، إن الكتابة واحدة ليست مرتين ، والملك يكتب على الإنسان شقي أو سعيد إلى آخره مرة واحدة وهي بعد الأربعين ، يعني في تمام الأربعين أو الخمس والأربعين يكتب ذلك ، وأن ما جاء في حديث ابن مسعود ذكر تأخير كتابة الملك روعي فيه ترتيب المراحل ((إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك)) ذكرت المراحل التي يمر بها الإنسان متوالية متتابعة مراعاةً لذكر ترتيب المراحل ثم بعد ذلك ذكر إتيان الملك وأمره يكتب أربع كلمات . فمن أهل العلم من رجح أن هذه الكتابة تكون بعد الأربعين ليلة إما أربعين أو خمس وأربعين كما هنا قال ((أربعين أو خمس وأربعين ليلة)) أن الكتابة تكون في هذا الوقت ، وأن ما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنهما روعي فيه ذكر ترتيب المراحل أولاً ، ثم بعد ذلك ذكرت مسألة كتابة الملك وبعثه إليه وأنه يكتب أربع كلمات رزقه أجله وعمله وشقي هو أو سعيد .

قال: ((فيقول يا رب أشقي أو سعيد)) أي هذا الإنسان الذي أمرت بكتابة حاله وعمله أشقي أو سعيد؟.

((فيكتبان)) أي يكتب عليه هل هو من أهل الشقاء أو من أهل السعادة ؟

ثم يسأل الملك: ((فيقول : يا رب أذكر أو أنسى؟ فيكتبان)) يكتب عليه هل هو ذكر أو أنثى؟

((ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه)) يكتبها الملك ، فهذه كلها تكتب على الإنسان .

قال: ((ثم تطوى الصحف فلا يزداد فيها ولا ينقص)) مثل ما جاء في الحديث الآخر ((رفعت الأقلام وجفت الصحف)) ، فتطوى الصحف أي أن ما كتب للإنسان لا بد أن يكون . وإذا عرفنا أن ما كتب للإنسان لا بد أن يكون ألنا بناء على هذه المعرفة أن نتكل على الكتابة وندع العمل؟ لا والله ، الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي عن هذه المسألة وتقدم السؤال ، قالوا «يا رسول الله ألا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟» ، ألا نتكل على هذا الذي طوي وفرغ منه وكتب وندع العمل؟ قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) أي جاهد نفسك على العمل واحرص على ما ينفعك وفي ذلك كله استعن بالله ؛ استعن به أن يهديك أن يوفقك أن يثبتك أن يعيذك من الضلال أن يختم لك بالخاتمة الحسنى ، الأمور بيده جل وعلا والخلق خلقه والأمر أمره تبارك وتعالى ، فتلجأ إليه

وفي الوقت نفسه تجاهد نفسك مجاهدة تامة على القيام بالأعمال الطيبات والطاعات الزاكيات التي تتقرب بها إلى الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : دُعِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: «طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءاً ولم يُدركه» فقال : ((أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وشاهد هذا الحديث للترجمة ونبدأ به هو قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)) وهذا فيه أن الأمور مقدرة ومكتوبة ، وأن السعداء كتبوا وأن الأشقياء كتبوا ، وأن الأمر قدّر للإنسان وطويت الصحف بما هو كائن . فهذا شاهد الحديث للترجمة أن الأمور مقدرة والسعداء من الأشقياء وأهل الجنة من أهل النار كل ذلك كُتب والحديث واضح في الدلالة على هذا الأمر .

قال: ((إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)) فهذا واضح تماماً وهو في الدلالة في معنى الأحاديث والنصوص المتقدمة التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى لتقرير هذا الباب وأن الأمور كلها بقدر بما في ذلكم أعمال العباد وأهل السعادة من أهل الشقاوة وأهل الجنة وأهل النار كل ذلك بقدر ؛ لأجل هذا ساق المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الجملة جاء على إثر قول عائشة رضي الله عنها عندما دُعِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي أي طفل صغير من الأنصار ، فقالت عائشة رضي الله عنها : ((طوبى له عصفور من عصافير الجنة)) وهذه شهادة له بالجنة .

قالت: ((طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يُدركه)) أي لم يعمل السوء ولم يدرك وقت عمل السوء لأنه مات صغيراً .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : ((أو غير ذلك)) أي أولاً تقولين غير هذا ؟

((أوغير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)) وقيل إن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله عنها تنبيهها لها إلى عدم

المسارعة في مثل هذا الجواب وفي مثل هذه التزكية والشهادة ، وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك قبل أن يبلغه أو أن ينزل عليه أو أن يوحى إليه بأن أطفال المؤمنين في الجنة ، قد حكى بعض أهل العلم الإجماع على ذلك، لكثرة الشواهد والدلائل على أن أطفال المؤمنين وفرطهم في الجنة وأنهم أيضا يوم القيامة يشفعون لأبائهم وأمهاتهم ويكونون شفعا لأبائهم وأمهاتهم ، وجاء في هذا أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ساق جملة منها الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح وأيضا في كتابه الأدب المفرد ، ففي هذا دلائل عديدة فيها أن أطفال المؤمنين في الجنة. فقيل لعل النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة هذا قبل أن يبلغه ، أو قاله لها تنبيها إلى عدم المسارعة إلى مثل هذا الجواب أو مثل هذه التزكية .

الشاهد من الحديث للترجمة هو قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله خلق للجنة أهلا..)) إلى آخر الحديث .

قال رحمه الله :

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)) رواه مسلم .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كل شيء بقدر)) وقوله « كل شيء » يتناول كل ما هو كائن ، لأن الخلق خلق الله والمُلك ملكه سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يقع في ملكه إلا ما قدره ، لا يمكن أن يقع في ملك الله ما لم يقدره الله وما لم يشأه سبحانه وتعالى ، فالخلق خلقه والمُلك ملكه سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يقع في ملكه وفي خلقه إلا ما قدره جل وعز وشاءه سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام ((كل شيء بقدر)) وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القصص: ٤٩] ، فكل شيء بقدر أي كل ما هو كائن بقدر ، سواء الأشخاص والذوات ، أو الأعمال والحركات والسكنات وغير ذلك كل ذلك بقدر .

((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)) أيضا هذا بقدر ؛ عجز الإنسان وكيسه أي نباهته وفطنته وذكاؤه إلى غير ذلك كل ذلك بقدر ، العجز: أي ما يكون عليه الإنسان من فتور وخمول وكسل وتوانٍ وتفريط هذا بقدر ، وأيضا الكيس ما يكون عليه الإنسان من نباهة وفطنة وحذق ونحو ذلك كل ذلك بقدر ((حتى العجز والكيس)) أي حتى العجز الذي يكون عليه بعض الناس والكيس الذي يكون عليه بعض الناس وهو النباهة أيضا هو بقدر ، والكيس: هو النباهة والفطنة، قد جاء في حديث يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام وفي سنده كلام ومعناه صحيح قال: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)) لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أما من حيث المعنى المعنى صحيح ، الكيس أي من الناس

النبية الحاذق الفطن العاقل من هو؟ من دان نفسه أي حاسبها ولامها وعمل لما بعد الموت ، والعاجز: من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ، فذكر الكيس وذكر العجز هنا قال ((حتى العجز والكيس)) أي ما يكون عليه الإنسان من عجز أو ما يكون عليه من كيس أي نباهة وفطنة كل ذلك بقدر .

وإذا علم المسلم أن كل شيء بقدر حتى العجز والكيس هذا أيضا كما قدمت يقوي صلة الإنسان بالله سبحانه وتعالى ، ويقوي أيضا توجه العبد إلى الله وحسن سؤاله والطلب منه جل وعلا ، لأن الأمر بيده جل وعلا وبتقديره سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء في الدعاء الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ((وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا)) وهذا من أعظم الأدعية التي ينبغي أن يعتنى بها في هذا الباب كما جاء في المسند والأدب المفرد للإمام البخاري رحمه الله تعالى أنه قال لعائشة رضي الله عنها : ((يا عائشة عليك بكوامل الدعاء وجمله)) قالت «قلت وما كوامل الدعاء وجمله؟» قال : ((تقولين اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك من خير ما سألك منه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا)) لأن الأفضية والتقدير بيده سبحانه وتعالى ؛ فيسأل الإنسان ربه هذا السؤال العظيم ((وأن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا)) لأن العجز والكيس بقدر كل شيء بقدر ، فتسأل الله عز وجل أن يجعل كل قضاء قضاه لك خيرا ، وهي دعوة عظيمة ومباركة . وأيضا من الدعاء العظيم في هذا الباب أن تقول: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء» لأن القضاء بيده تبارك وتعالى فتستعيز بالله من سوء القضاء ، مثل أن يقضى للإنسان بكفر أو بفسق أو بمعصية أو غير ذلك، تعوذ بالله من ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام : ((تعوذوا بالله من سوء القضاء ودرّك الشقاء وشماتة الأعداء)) أمر عليه الصلاة والسلام بالتعوذ من هذه الأمور .

وقوله عليه الصلاة والسلام : ((تعوذوا بالله من سوء القضاء)) يدلنا إلى الخطأ في الدعوة المشهورة على ألسنة كثير من العوام "اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه" هذا خطأ ، قولهم في هذا الدعاء "اللهم إني لا أسألك رد القضاء" جاء في هذا الدعاء التعوذ من سوء القضاء فكيف يقول القائل في دعائه "لا أسألك رد القضاء!!" ، فهذا خطأ ولا ينبغي الدعاء بهذه الدعوة لما فيها من خطأ وغلط وإن كانت مشتهرة ، حتى إنه من شهرتها أن بعض العوام يظنها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى إن أحد العوام مرة سمع التنبيه على هذا الحديث فجاء إليّ وقال: كيف هذا وهذا جاء في الحديث!! قلت له هذا لم يأت لا في حديث صحيح ولا ضعيف وليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام ولا من كلام أهل العلم ، هذا كلام غير صحيح ومخالف للأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عندنا علماء كثيرين يقولونه!! قلت العبرة بالمعاني الصحيحة وبالموافقة هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهذا أيضا يؤكد ما سبق التنبيه عليه

إلى أن الذي ينبغي على المسلم أن يحرص على دعوات النبي صلى الله عليه وسلم الماثورة عنه ؛ فإن فيها السلامة والعصمة ، وفيها التمام والكمال والرفعة .

قال رحمه الله تعالى :

وعن قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] قال : «يُقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها» رواه عبد الرزاق وابن جرير ، وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبير ومقاتل .

ثم ذكر رحمه الله تعالى هنا هذه الآية : ﴿ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] وأورد فيها ما يروى عن السلف في بيان معناها ، وأنه يُقضى فيها ما يكون في السنة إلى مثلها . وأن هذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وأبي عبد الرحمن السلمي وسعيد بن جبير وغيرهم .

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] أيضا قوله ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ هذا مثل ما مر التقدير السنوي ، ثم يأتي بعد ذلك التقدير اليومي الذي يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] وسيأتي عند المصنف . ويكون المصنف بما ساقه رحمه الله تعالى من روايات ذكر التقديرات الخمس : التقدير العام أولا ذكره في حديث علي ، ثم التقدير الذي عندما أخرج الله عز وجل ذرية آدم من ظهره وهذا في حديث عمر وهو الحديث الذي بعده ، ثم التقدير العمري وهذا ساق فيه حديث عبدالله بن مسعود وحديث حذيفة ، ثم بعد ذلك التقدير السنوي وأورد فيه رحمه الله تعالى هذه الآية وتفسير السلف لها ، ثم التقدير اليومي أورد فيه قول الله سبحانه وتعالى ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درّة بيضاء دَفَّتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويُعزّز ويُنزّل ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]» رواه عبد الرزاق وابن المنذر والطبراني والحاكم .

ثم ختم الله تعالى ذكر الأحاديث والنصوص المتعلقة بالتقديرات بهذا الحديث عن ابن عباس أنه قال : ((إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درّة بيضاء دقّتاه من ياقوتة حمراء، قلمه نور وكتابه نور ، عرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويُعز ويذلل ويفعل ما يشاء فذلك قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾)) ؛ هذا موقوف على ابن عباس وسنده إليه فيه كلام ، لكن المصنف رحمه الله تعالى ساقه للآية الكريمة التي تدل على التقدير اليومي . وجاء عن عدد من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان تفسير الآية بهذا المعنى الذي أورده المصنف في قوله «يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ويعز ويذلل ويفعل ما يشاء» هذا معنى قوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، فالمراد بقوله ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي من إحياء وإماتة وهداية وإضلال إلى غير ذلك ، فهذا هو التقدير اليومي تدل عليه هذه الآية الكريمة .

ولما أنهى رحمه الله تعالى هذه الأدلة المشتملة على التقديرات الخمس ختم ذلك بكلمة جامعة للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها وقال : «فهذا تقديرٌ يومي ، والذي قبله تقدير حولي ، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به ، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض ، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق ؛ وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه» . ثم قال : «فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يُوجب الاتكال عليه بل يُوجب الجدّ والاجتهاد ، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنتُ بأشدّ اجتهاداً مني الآن ، وقال أبو عثمان النهدي لسلمان رضي الله عنه : لأننا بأول هذا الأمر أشدّ فرحاً مني بآخره ، وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهيأه ويسّره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي يأتي بها» .

هنا المصنف رحمه الله تعالى ذكر هذه الكلمة العظيمة لابن القيم وفيها تلخيص لما احتوت عليه الأحاديث الواردة في التقديرات ، وأنها خمس تقديرات ذكرها ابن القيم رحمه الله بعد أن سرد الأحاديث الواردة في الباب ، فقال رحمه الله بعد ذكره للأحاديث وختمها كما هو الترتيب عند المصنف هنا ختمها بالتقدير اليومي قال : ((فهذا

تقدير يومي)) أي الوارد في قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

قال : ((والذي قبله تقدير حولي)) أو قُل سنوي أيضا وهو الوارد في قوله ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ، وفي قوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ ؛ هذا يقال له حولي أو يقال له أيضا سنوي ، لأنه يتعلق بكل حول أو كل سنة بخصوصها .

قال : ((والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به)) أي بالإنسان ، وهذا يشير فيه رحمه الله إلى حديث ابن مسعود المتقدم وحديث حذيفة أيضا .

قال : ((والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة)) هذا الذي في حديث حذيفة ، وأشارت إلى أن بعض أهل العلم يذكر أن الكتابة كتابتين: كتابة كما يدل عليه حديث حذيفة عند أول كونه مضغة ، وكتابة أخرى بعد ذلك عند تعلق الروح به كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود ، ولعل هذه الجملة تفيد أن ابن القيم رحمه الله يرى أنها كتابتان: كتابة يدل عليها حديث ابن مسعود ، وكتابة يدل عليها حديث حذيفة .

أعيد مرة ثانية قول ابن القيم قال : ((والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به)) إشارة إلى قوله ((فينفخ فيه الروح ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فيؤمر بكتب أربع كلمات)) ، فعند تعلق الروح به يكتب .
قال: ((والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة)) وهذا كما جاء في حديث حذيفة الذي ساقه المصنف رحمه الله .

قال : ((والذي قبله تقدير سابق على وجوده)) أي في هذه الدنيا ((لكن بعد خلق السماوات والأرض)) .
((والذي قبله)) الذي هو التقدير العلم الذي جاء في حديث عبدالله بن عمرو ((والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) هذه خلاصة جميلة ووافية لما اشتملت عليه النصوص في ذكر التقديرات .

قال : ((وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق)) يعني إذا نظرت الآن أو تأملت في قوله في ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هل الذي يُفَرَّقُ في ليلة القدر ويقدر هل هو أمر خارج عما كُتِبَ في اللوح المحفوظ أو داخل فيه؟ داخل فيه ولهذا قال: كالتفصيل للتقدير السابق ، تفصيل لما كتب في اللوح المحفوظ فيما يتعلق بعموم الكائنات وعموم المخلوقات ، فهذا كالتفصيل له ليس خارجا عنه بل هو تقدير من بعد تقدير وهو داخل في التقدير السابق .

قال : ((وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه)) أنت هنا عندما تنظر في هذه التقديرات تهديك وتدللك إلى كمال علم الله سبحانه وتعالى وكمال قدرته وتديره وأن الأمر بيده سبحانه وتعالى .

ثم قال ابن القيم : ((فاتفتت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يُوجب الاتكال عليه)) وهذه فائدة جليّة ومهمة وهي من أنفس ما يكون في هذا الباب ، لأن بعض الناس عندما يقرأ الأحاديث ربما يدع العمل أو تحدّثه نفسه بترك العمل اتكالا على القدر ، وهذا منهج خاطئ ، وقد عرفنا أن الصحابة رضي الله عنهم لما بيّن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أمر القدر قالوا له : «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» فنهاهم عن ذلك وأمرهم بالعمل قال ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فمن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة)).

قال : ((كل هذه الأحاديث تدل على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه بل يُوجب الجِدَّ والاجتهاد ، ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت بأشدّ اجتهادا مني الآن)) وهذا من فقه الصحابة وكمال علمهم . يقول ما كنت بأشدّ اجتهادا مني الآن ، أي أنه لما سمع هذه الأحاديث وسمع قول النبي عليه الصلاة والسلام ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) صار أمره بعد سماع الحديث أكثر اجتهادا ومحافظة وجداً في العمل منه قبل سماعه لهذا الحديث ، وهذا يدلنا على كمال فقه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم . ((وقال أبو عثمان النهدي لسلمان : لأنا بأول هذا الأمر أشدّ فرحاً مني بآخره)) أول هذا الأمر سابقة الحسنى التي يكتبها الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن ، أعظم مني فرحا بآخره .

قال ابن القيم موضحا : ((وذلك لأنه إذا كان قد سبق له من الله سابقة وهياً ويسره للوصول إليها كان فرحه بالسابقة التي سبقت له من الله أعظم من فرحه بالأسباب التي يأتي بها)) أي يأتي بها العبد من جد واجتهاد وصبر ومصابرة ومراقبة وبذل الوسع ، وفرحه بسابقة الحسنى والتوفيق للهداية التي أكرمه الله سبحانه وتعالى ومنّ عليه بها أعظم من فرحه بمباشرة هذه الأسباب ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

﴿يونس: ٥٨﴾ .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، اللهم إنا نسألك علماً نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا . أما بعد

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له في كتاب «أصول الإيمان»:

باب الإيمان بالقدر

وعن الوليد بن عباد قال : دخلت على أبي وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال : أجلسوني فلما أجلسوه قال : «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره» ، قلت : يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشره ؟ قال : «تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((أول ما خلق الله القلم قال اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) ، يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار» رواه أحمد .

أورد المصنف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في باب الإيمان بالقدر ، وصلة هذا الحديث بالترجمة ظاهرة من جهة دلالة هذا الحديث على أن الإيمان بالقدر أصلٌ من أصول الإيمان وأساسٌ من أسسه العظام ، وأنه لن يذوق أحد طعم الإيمان وحقيقة العلم بالله تبارك وتعالى إلا بالإيمان بالقدر خيره وشره ، وهذا أتى في وصية عبادة بن الصامت لابنه الوليد .

يقول الوليد بن عبادة : ((دخلت على أبي وهو مريض أتخايل فيه الموت)) أي أحس وأشعر أنه قارب من العلامات التي يراها على والده واشتداد المرض عليه ، قال ((أتخايل فيه الموت)) أي أشعر وأحس أنه قد دنت منيته واقترَب أجله .

يقول ((فقلت : يا أبتاه أوصني)) وهنا أيضا نلاحظ لطف الخطاب من الابن لوالده وجمال المناداة ((يا أبتاه أوصني)) أي أريد منك وصية جامعة أنتفع بها . قال ((يا أبتاه أوصني)) وعادةً من دنت منيته تكون وصيته من أبلغ الوصايا وهي ما يسمى بوصية المودع ، في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : «وعظنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله كأنها وصية مودع فأوصنا»، فوصية المودع لها وقع كبير وتتناول جوامع الخير بحسب نصح المودع وحاله من العلم والفهم .

قال: ((يا أبتاه أوصني واجتهد لي)) أي في الوصية أريد شيئاً جامعاً ، أمراً أفوز بتحقيقه بخيري الدنيا والآخرة ، أعطني كلاماً جامعاً جامعاً توصيني به أحافظ عليه واجتهد لي في هذه الوصية .

فقال عبادة رضي الله عنه : ((أجلسوني)) ؛ وطلبه رضي الله عنه لأن يجلس لكي يوصي ابنه هذا من اهتمامه بالأمر وعنايته به رضي الله عنه ، كان بإمكانه أن يوصي ابنه وهو في حال اشتداد المرض وهو مستلقٍ على ظهره ، لكن من شدة اهتمامه بالأمر وعنايته به طلب أن يُجلس قال أجلسوني . وقوله رضي الله عنه «أجلسوني» فيه دلالة على شدة التعب الذي كان عليه ، لو لم يكن في معاناة وتعب شديد لما طلب أن يُجلس وإنما يجلس بنفسه ، لكن من شدة الإعياء والتعب قال أجلسوني .

فلما أجلسوه ((قال : يا بني)) وهذا أيضاً فيه لطف الخطاب من الوالد لولده «يا بني» ، وأجمل ما ينادي به الوالد ولده هي هذه الكلمة ، فهي أرق كلمة وأجمل كلمة من والد لولده «يا بني» ، وهي أفضل من مناداة الابن باسمه أو مناداته بألفاظ أخرى تكثر على ألسنة بعض الناس يا ولد أو يا غلام أو يا طفل أو يا جاهل أو بعضهم يأتي بعبارات قاسية في مناداتهم لأولادهم وبنينهم .

قال : ((يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره)) وهنا ينبغي أن نلاحظ قيمة الإيمان بالقدر في تحقيق السعادة في حياة الإنسان ، وذلكم أن الوليد بن عبادة طلب من والده في هذا المقام وصية جامعة وأراد من والده أن يجتهد في ذلك ، فلم يزد والده في وصيته له على ذكر الإيمان بالقدر والتأكيد عليه وبيان أهميته وأنه أصلٌ عظيم وأساسٌ متين ؛ فهذا يفيدنا أن الوصية بالإيمان بالقدر من جماع الوصايا ومن أعظم أسباب السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، بل لا سعادة للمرء في دنياه وأخراه إلا بالإيمان بالقدر كله خيره وشره من الله تعالى .

قال: ((يا بني إنك لن تذوق طعم الإيمان)) وهذا فيه أن الإيمان له طعم وله حلاوة وله ذوق ، وليس كل أحد يذوق طعم الإيمان ، بل لذوق طعم الإيمان أسس لا بد منها ومسالك لا بد من سلوكها ، وقد نبّه عبادة رضي الله عنه أن الإيمان بالقدر من أعظم ما يكون به ذوق طعم الإيمان وذوق حلاوة الإيمان ، الإيمان له حلاوة له ذوق له طعم ، ومن أسباب ذوق طعم الإيمان والإحساس والشعور بحلاوة الإيمان: إيمان العبد بالقدر .

قال: ((إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر)) ؛ لاحظ هنا أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه نبه على عظم شأن الإيمان بالقدر وعظم مكانة الإيمان بالقدر في الدين من جهتين :

■ الجهة الأولى : أن الإيمان بالقدر يذاق به طعام الإيمان ، ولا يذاق طعم الإيمان إلا بالإيمان بالقدر ؛ بمعنى أن من لا يؤمن بالقدر لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوة الإيمان ، فهذا مما يبين مكانة الإيمان بالقدر في دين الله تبارك وتعالى وأن حلاوة الإيمان وذوق طعمه لا يمكن أن ينال إلا بالإيمان بالقدر .

■ الأمر الآخر الذي بيّن به عبادة بن الصامت رضي الله عنه مكانة الإيمان بالقدر في دين الله عز وجل بقوله «ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى» ، يعني لن تكون من أهل العلم بالله حقيقة إلا إذا آمنت بالقدر ، لن تكون من أهل العلم بالله والمعرفة به سبحانه وتعالى إلا إذا كنت من أهل الإيمان بالقدر ، وكيف يكون عارفاً بحقيقة العلم بالله من يحدد أقداره سبحانه وتعالى !! والقدر قدرة الله ، ومن جحد القدر جحد قدرة الله ، فكيف يكون عارفاً بالله وعالماً به من يحدد أقداره أو يشك بها !! ولهذا بيّن رضي الله عنه أنه لن يبلغ أحد حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى إلا إذا آمن بالقدر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى في آخر آية من سورة الطلاق ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ ، أين إيمان الإنسان بالله تبارك وتعالى خالق هذا الكون ومبدع هذه الكائنات من لا يحقق الإيمان بأنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير وأنه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، وهذا هو الإيمان بالقدر ، فكيف يكون مؤمناً بالله عارفاً به محققاً العلم به تبارك وتعالى من لا يؤمن بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى !! .

قال: ((يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره)) «حتى تؤمن بالقدر خيره وشره» : أي ما يقدر من أمور خيرٍ أو ما يقدر من أمور شر ، أمور الخير مثل الطاعات وأبواب البر وعموم المنافع والمصالح ، والشر أضداد ذلك من الكفر والفسوق والفجور والآثام وغير ذلك ، فمن لا يؤمن أن كل شيء بقدر الخير والشر لن يبلغ حقيقة الإيمان ولن يبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى ، لأن من لا يؤمن بالقدر من لازم عدم إيمانه بالقدر ادّعاء وجود خالق مع الله تبارك وتعالى ، ولهذا قال أئمة العلم عن القدرية النفاة -نفاة القدر- قالوا إنهم مجوس هذه الأمة لأن المجوس قالوا بوجود خالقين ، والقدرية النفاة أيضاً يقولون بوجود خالقين ؛ الله عز وجل خالق الإنسان والإنسان خالق فعل نفسه ، لأن إذا لم تكن أفعال العباد مقدرة ومخلوقة لله تبارك وتعالى يكون بزعم هؤلاء خالقها الإنسان ، فادّعوا بذلك وجود خالق مع الله سبحانه وتعالى فكان بهم شبهة بالمجوس ، فلا يذوق العبد طعم الإيمان وحلاوته ولا يبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى إلا إذا آمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، الأمور كلها بقدر ، وهذا الكون والخلق خلق الله سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء لا يشاؤه الله ولا يقدره كوناً سبحانه وتعالى الملك ملكه والخلق خلقه جل وعلا .

قال : ((يا أبتاه)) والآن سيسأل الوليد سؤالاً من أجل الأسئلة في هذا الباب ، قال : ((يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وشُرُّه ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك)) أي أن الأمور كلها بتقدير الله عز وجل ، ما أصابك أي: من غنى من صحة من عافية من إيمان من طاعة من صلاة من صيام من معصية أي شيء أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك كل ما قدّر لك وكتب أن يقع منك لا يمكن أن يتخلف ، لأن الله سبحانه وتعالى لا معقب لحكمه ، ما أصابك من مصيبة من بلاء من مرض من سقم من نازلة لا يمكن أن تخطئك كتبها الله عليك ، ولهذا سيأتي معنا في حديث أبي هريرة ((لا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل)) لأن القدر إذا وقع لا مناص عنه ولا مفر منه ، ما أصابك لم يكن ليخطئك ، ولا تفتح على نفسك في هذا المقام باب الشيطان ((واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) أي ما أخطأك من الأمور التي تطلبها مثلاً أو تسعى في نيلها فلم تظفر بها ولم تحصّلها لم يكن ليصيبك ، أيضاً ما أخطأك من الحوادث والمصائب والنوازل والكوارث فسلمت لم يكن ليصيبك لماذا؟ لأن القدر خيرُه وشَرُه من الله تبارك وتعالى ويبد الله عز وجل ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: ٢] ، وفي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما قال : ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)).

وهذا الإيمان بالقدر يعطي العبد طمأنينة ويكسب قلبه سكونا وراحة ويبعد عنه قلق قلبه واضطرابه ، لأن هذه أمور مكتوبة ومقدّرة ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ، تأمل فائدة الإيمان بالقدر ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ قال علقمة رحمه الله تعالى في بيانه لهذه الآية : «هو المؤمن تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» ، يعلم أنها من عند الله أي مقدرة ومكتوبة لا مناص منها ولا مفر فيرضى ويسلم . ولهذا المؤمن بالقدر عندما يصاب بالمصيبة يسلم عندما يعلم أن هذه أمور مقدرة ومكتوبة ولا مفر منها ولا مناص ويسعى في طلب ثواب الصابرين قال عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لَأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) المؤمن بالله وبأقداره سبحانه هو الذي يظفر بثواب الصابرين في المصائب وثواب الشاكرين في الطاعات والنعيم والمنن ، فهو في المصيبة صابر وفي النعمة حامد شاكر ، وهذا لا يكون إلا للمؤمن ، المؤمن بالله والمؤمن بأقدار الله عز وجل والمؤمن بأن الفضل بيد الله عز وجل يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

قال : ((يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول ما خلق الله القلم ، قال: اكتب ، فيجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) أول ما خلق الله القلم أمره بالكتابة ، والعرش خلق قبل القلم ، قد مر معنا سابقا قول النبي صلى الله عليه وسلم ((وكان عرشه على الماء)) ، فعرش الرحمن خلقه قبل خلق القلم ، لكن قوله هنا ((أول ما خلق الله القلم)) يحتمل أن الأولية تتعلق بالكتابة أي أول ما خلقه أمره أن يكتب ، عند أول خلقه أمره بالكتابة . أو أن هذه الأولية تتعلق بهذا العالم السماوات والأرض والجبال وغير ذلك من مكونات هذا العالم، فأول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم قال له اكتب؛ أي أمره بالكتابة .

خلق الله عز وجل القلم وأوجده بعد أن لم يكن وأمره أن يكتب ، يكتب ماذا ؟ يكتب أي شيء؟ ولنلاحظ أن خلق القلم دل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم في أول هذه الترجمة كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، لأن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) ، فخلق القلم كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة خلقه الله سبحانه وتعالى ولما خلقه أمره أن يكتب ((قال اكتب)) ، جاء في بعض الأحاديث ((قال القلم وماذا أكتب؟ قال الله عز وجل: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)) .

((فجرى القلم كتابة بما هو كائن إلى يوم القيامة)) وجفت الصحف بما كتب فيها جفت الأقلام ورفعت الصحف، كتب القلم وجفت الكتابة بما هو كائن إلى يوم القيامة .

وانتبه هنا للحديث المتقدم ((رفعت الأقلام وجفت الصحف)) عندما يقال لك أمر كتب والحبر جف والصحف طويت ماذا تفهم من هذا ؟ أي شيء تفهم منه ؟ أن الأمر منتهي ؛ جفت الأقلام والصحف رفعت بما هو كائن إلى يوم القيامة ، والله الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه إن جلوسنا هذا الآن كُتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كتبه الله جل وعلا قال للقلم اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب وجرى القلم بما هو كائن ، من صغير أو كبير ، من دقيق أو جليل ، من أفعال من حركات ، من موت أو حياة ، من مرض أو سقم من قيام أو قعود إلى غير ذلك كُتب ؛ وهذا كله يدلنا على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وكماله وكمال قدرته وإحاطة علمه سبحانه وتعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الشك: ١٤] . خلق هذه المخلوقات وإيجاد هذه الكائنات وحده دليل على إحاطة علم الله بها وكمال قدرته عليها ، قد مر معنا الآية الكريمة قول الله سبحانه وتعالى ﴿لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ، فالخلق دليل على إحاطة العلم وكمال القدرة والتقدير .

قال : ((اكتب ، فيجري في تلك الساعة -أي التي كتب فيها القلم- بما هو كائن إلى يوم القيامة)) فكل ما كان وما يكون وكل أفعال الآدمين وحركاتهم وسكناتهم وقيامهم وذهابهم ورواحهم كل ذلك كُتِبَ ، كل ما هو كائن إلى يوم القيامة كتب في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣] .

قال: ((يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار)) وهذا أمرٌ ثالث بين فيه عبادة رضي الله عنه مكانة الإيمان بالقدر في دين الله ، وأن من يموت غير مؤمن بالقدر يدخل النار ، لأن من لا يؤمن بالقدر لا يؤمن بالله ، ومن لا يؤمن بالله ليس له مصير إلا النار ، ولا ينتفع بعمل ولا يستفيد من طاعة وإن صلى وصام وتصدق كل هذه لا تفيده ولا ينتفع بها كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُكَفِّرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٠] ، إذا كفر الإنسان بالإيمان وبأصول الإيمان وبأركان الإيمان يحبط عمله ويبطل حتى وإن كثرت طاعاته وتعددت عباداته وتنوعت ، فالكفر مانع من قبول الأعمال والإيمان أساس لقبوله ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ٩٠] ؛ فمن لا يكون مؤمناً لا يكون سعيه مشكوراً ؛ أي مقبولا مرضيا عند الله تبارك وتعالى . وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] .

فالعمل لا يتقبل إلا إذا أقيم على الإيمان وُئني عليه ، ولهذا قال رضي الله عنه وأرضاه: ((يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار)) ؛ إن مت ولست على ذلك أي لست على الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، إن مت على غير ذلك دخلت النار . وهذا يبين لنا اهتمام السلف رحمهم الله تعالى بأمر القدر وشأنه والوصية به والعناية به وأيضا يفيدنا فائدة عظيمة جدا ألا وهي: ضرورة تربية الأبناء وتنشئتهم على الإيمان بالقدر وأن الأبناء يربون على ذلك وينشؤون عليه ، حتى ينشأ الناشئ فينا قوي الصلة بالله تبارك وتعالى ، قوي الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعلم أن الأمور كلها بيده وأنها بتدبيره وتسخيريه وأن الحكم لله تبارك وتعالى ، وهذا أمرٌ لا يكلف الوالد شيئا لأنه أمرٌ فُطِرَ عليه أناس ، فُطِرُوا على الإيمان بالله فطروا على قبول هذه المعاني والرضا بها ، ((كل مولود يولد على الفطرة)) ، قال الله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ

النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ [الروم: ٣٠] ، في الحديث القدسي قال الله تعالى : ((خَلَقْتُ عِبَادِي خُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) .

ولهذا تربية الأبناء على هذه الأصول العظيمة ليس أمرًا شاقًا بل هو من السهولة بمكان ، لأنه يوافق فطرهم ويمشي مع الفطرة ، وفطرته تدعوه إلى ذلك وتقبل ذلك وترضى به ، بينما إدخال أباطيل أهل الكلام وأضاليل أهل الفلسفة ونحو ذلك من الخرافات والخزعבלات هذه أمور تُحشر على الناس وتزاحم الفطر وتؤدي إلى انحرافها وضياعتها وتبعدها عن الجادة السوية ، فترية الأبناء وتنشئتهم على الإيمان بالقدر من الأمور العظيمة المهمة التي ينبغي أن يُنشئ عليها الصغار ، والصغار نشؤوا وفُطروا على الإيمان بالله والرضا بما قَدَّرَ وبما حكم سبحانه وتعالى ، ويكفي الصغير تربية له أن يقال هذا تقدير الله هذا حكم الله ؛ فيأخذه رأسًا بالقبول ما لم يُتلى بمن يحرف فطرته والعياذ بالله .

وأذكر من القصص اللطيفة الطريفة أحد الآباء أخبرني عن ابنه الصغير الذي عمره كان إذ ذاك لا يبلغ خمس سنوات أو ست سنوات ، يقول توفيت جدتنا وصلينا عليها وأخذناها لندفنها ، والجددة عندهم في البيت يراها الطفل ويجلس معها وتحكي له القصص وتداعبه وتؤانسه ويحبها ، ثم يمشي هذا الصغير مع جنازة جدته ويصلي عليها ثم لما وصل إلى المقبرة وإذا بهم ينزلون جدته ومحبوته في التراب في الأرض ثم يهيلون التراب عليها ، فكان هذا الأمر بالنسبة له أمر مفرع ، يقول الوالد فالتفت إليّ ابني في ذلك الموقف وهم يدفنون التراب قال لي لماذا يا أبي؟ لماذا جدتي هكذا يدفنون عليها التراب؟ لماذا توضع في هذا المكان ويدفنون عليها التراب؟ يقول الأب لما سألتني ابني هذا السؤال تزاممت في ذهني أجوبة أريد جوابا سريعا جيدا أشفي به غليل ابني في سؤاله ، يقول فأخذت أبحث عن جواب مناسب يقنع ابني في هذه اللحظة ، يقول وأنا أشغل بالي في البحث عن الجواب التفت إلي ابني ثانية وقال لي : ولا الله قال هذا ؟ يعني ولا الله أمر بهذا ؟ قلت نعم الله أمر ، قال خلاص ، إذاً هذا أمر الله يعني فيه خير فيه بركة .

فالصغار هؤلاء تربيتهم على أمور الإيمان وحقائق الدين وأصوله أمور توافق فطرهم ويتلقونها بالقبول ، يكفي الصغير أن يعلم أنه أمر الله ، عندما يقال له هذا أمر الله رب العالمين الذي خلقنا وأوجدنا ، والله عز وجل لا يأمر إلا بخير، وله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى ، ويرى وينشأ على هذه المعاني . فنحن نستفيد من هذا الأثر العظيم أهمية تربية الأبناء على هذه الأصول العظيمة .

الأمر الآخر أن من يوصي أبناءه تكون وصيته يمثل هذا ؛ يذكر الكلام مضمومًا إليه دليله ، مثل ما صنع عبادة بن الصامت ، ذكر له الكلام وذكر له أهمية الإيمان بالقدر ومكانته وذكر له الدليل قال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم)) ، ولهذا يحتاج أيضا الأبناء عندما يربون على الفضائل والمعاني العظيمة أن تُذكر الأدلة ، بعض الآباء يذكر لابنه الفضائل ويحثه عليها تارة بالزجر مثل "إن لم تفعل ضربتك" أو مثل هذه المعاني ، أو يقول

"إن لم تفعل فأنت كذا وكذا من الألفاظ القاسية" ، بينما مقام التربية ومقام التعليم يقتضي مثل هذا البسط تُذكر المعاني والتعليقات والتذليلات وتوضّح حتى يأخذ الأمر مأخذا عظيما في قلب الموصى بخطاب لطيف وبكلمات بينة كما هو مشاهد وملاحظ في هذه الوصية العظيمة من عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه الوليد رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي خزيمة عن أبيه رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله أرأيت رُقي نسترقئها ودواءً ننداوي به وتُقاةً نتقيها هل تردُّ من قدر الله شيئا ؟ قال : ((هي من قدر الله)) رواه أحمد والترمذي وحسنه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي خزيمة عن أبيه رضي الله عنه قال : ((قلت يا رسول الله أرأيت رُقي نسترقئها ودواءً ننداوي به وتُقاةً نتقيها هل تردُّ من قدر الله شيئا؟)) هذا سؤال جميل جدًا في باب الإيمان بالقدر، يسأل هذا الصحابي الجليل النبي عليه الصلاة والسلام عن الأدوية التي يتداوى بها الناس ، من يجد مثلا شيء من الألم في بطنه فيأخذ عشبًا معروفًا أنه يفيد في هذا الوجد ، أو تقاةً يتقيها وهذا يتناول كل ما يفعله الإنسان ليتقي به ، مثل أن تتقي البرد بالألبسة الشتوية أو الشمس بالاستظلال ، أو رماح العدو ونبله بالترس ونحو ذلك ، هذه الأشياء التي تأخذها للاتقاء اتقاء البرد أو اتقاء الشمس أو اتقاء النبل أو نحو ذلك هل ترد من القدر؟ القدر المكتوب هل هي تمنعه ؟ هل الدواء يمنع القدر؟ هل الترس يمنع القدر؟ هل الرقية التي نسترقئها هل تمنع القدر؟ كأنه يقول: إذا كان الأمر مقدّر ومكتوب فما الحاجة إلى هذه الأمور؟ هي لا تمنع القدر ولا ترد القدر وما كُتب كائن لا محالة فما الحاجة إليها ؟ مثل ما جاء في الحديث المتقدم قال علي رضي الله عنه :«ألا نتكل على القدر وندع العمل؟» طالما أن الأمور كُتبت وقُدِّرت ألا نتكل على القدر وندع العمل؟ ، فهنا يسأل هل هذه الأشياء ترد من القدر شيء؟ هي لا ترد من القدر شيئا ، المكتوب كائن لكن أنظر إلى جواب النبي عليه الصلاة والسلام ما أعظمه .

قال : ((يا رسول الله أرأيت رُقي نسترقئها)) رُقي: جمع رقية مثل ظُلَم جمع ظُلمة ، ((ودواء ننداوي به)) أي الأدوية التي نستعملها ونفيد منها ، ((وتقاة نتقيها)) أي ما نتقي به الحر أو الشمس أو النبل أو نحو ذلك ((هل ترد من قدر الله شيئا)) ؟

قال : ((هي من قدر الله)) وهذا من أجمل ما يكون وأعظم ما يكون جوابا على هذا السؤال ، قال هي من قدر الله : أي أن الله عز وجل قدّر أن فلانا من الناس يمرض بالمرض الفلاني أنه يتناول العشب الفلاني أو الدواء الفلاني ويشفى ، قدّر أيضا أن فلان من الناس يمرض وأنه يقرأ على نفسه بفاتحة الكتاب ويُشفى ويبرأ ، هي من

قدر الله، الرقية من قدر الله ، والتقاة من قدر الله، والاستشفاء من قدر الله ، كل ذلك من قدر الله سبحانه وتعالى

فإذاً هذا يدل على أن فعل الأسباب من الإيمان بالقدر ، بل يفيد أن الإنسان لا يبلغ حقيقة الإيمان بالقدر إلا إذا فعل الأسباب غير معتمدٍ عليها بل يتوكل على الله جل وعلا ، لكن فعل الأسباب ذاته من الإيمان بالقدر ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((هي من قدر الله)). ولهذا لا تُعطل الأسباب بل تُفعل الأسباب ، والأسباب ذاتها من قدر الله تبارك وتعالى ، ومن مقتضيات وقام الإيمان بالقدر أن يباشر الإنسان الأسباب ، ولهذا يقول أهل العلم فيمن يعطل الأسباب مثل من يقول "إن قدر الله لي ولد وكتب لي ولد يكون ، وأما أنا لن أتزوج النساء إلى أن أموت" ، أو يقول "إن كتب الله سبحانه وتعالى لي أن أكون من العلماء الكبار المحققين سأكون ، لكن لن أطلب العلم ولن أجلس عند عالم ولن أقرأ كتابا وإن كان الله كاتب لي العلم وأن أكون عالما سأكون" !!

تمنيت أن تمسي فقيها مناظراً بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة تلقيتها فالعلم كيف يكون!!

يعني لابد أن يبذل الإنسان له سببه ، ويلاحظ أن بعض الناس قضية فعل السبب يُعملها فيما يحب ويهملها فيما لا تميل نفسه إليه ، إذا جاء باب الطعام والشراب والأكل وأنواع المأكولات والمشروبات تجده يبذل الأسباب ، وإذا جاءت الحقائق الشرعية والأمور التي فيها سعادة الآخرة تجده يقابلها في فتور ويقول إن كان الله كاتب لنا خير من هذه الأمور سيحصل ، أما فيما يتعلق بطعامه وشرابه والأمور التي تميل إليها نفسه فإنه يباشر فيها الأسباب .

قال : ((يا رسول الله أرأيت رقي نسترقئها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال هي من قدر الله)) وهذا فيه أيضا مشروعية التداءي ، كما صح في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً عِلْمُهُ مَنْ عِلْمُهُ، وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ)) فالتداءي مشروع ولا ينافي الإيمان بالقدر ، والرقي أيضا مشروعة ولا تنافي الإيمان بالقدر ، كون الإنسان يرقى نفسه إذا مرض لا ينافي الإيمان بالقدر ، لكن طلب الرقية من الآخرين تنافي تمام التوكل ، ولهذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في السبعين ألف قال : ((هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)) طلبهم من الغير الاسترقاء .

قال : ((أرأيت رقي نسترقئها)) إذا كان المراد بذلك رقية الإنسان لنفسه فالأمر واضح ، وإذا كان المراد بـ«نسترقئها» أي نطلبها من الآخرين فهذا أمر مباح لكنه خلاف الأولى ، والحديث يدل ان هذا الأمر المباح الذي هو خلاف الأولى هو من القدر ، كون الإنسان يطلب من غيره أن يرقيه أو أن يقرأ عليه هذا أمرٌ مباح ليس أمراً محرماً ولكنه خلاف الأولى ، ولهذا في الحديث حديث عمران بن حصين في مجلس سعيد بن جبير

حصين بن عمران لما لدغته العقرب قال ما صنعت؟ قال «ارتقيت» ، قال : «قد أحسن من انتهى إلى ما قد سمع» ثم ساق الحديث وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم ((لا يسترقون)) ، فقله «قد أحسن من انتهى إلى ما قد سمع» يدل على أن الاسترقاء مباح لكنه خلاف الأولى ، الأولى أن لا يطلب الإنسان من الآخرين أن يرقوه وأن يكتفي برقيته لنفسه والتجاءه إلى ربه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ؛ فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)) رواه مسلم .

ثم ختم المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه ، وختم الترجمة بهذا الحديث من جمال الختم ، لأن ما سبق فيه تقريرٌ وتدليل إلى أن الأمور كلها بقدر الله ، وأيضا ذكر التقديرات التقدير العمري والتقدير العام إلى آخر مما مر معنا في الأحاديث التي ساقها المصنف ؛ فناسب ختم الترجمة بهذا الحديث العظيم الذي فيه الأمر بمباشرة الأعمال وفعل الأسباب والحرص على النافع من الأمور ومجاهدة النفس على ذلك ، لا أن يتكل الإنسان على القدر ويعطل العمل ، فختم الترجمة بهذا الحديث تنبيهاً على أن من كمال وتام الإيمان بالقدر مباشرة الأسباب وفعلها .

قال : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف))؛ المؤمن القوي أي في إيمانه وطاعته لله تبارك وتعالى وقيامه بشعب الإيمان وخصال الدين ، لأن الإيمان كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان)) ، فقوة الإيمان من قوة تحقيق هذه الشعب وكمال تحقيقها . فكلما كان العبد أعظم تحقيقاً لها وتتميماً لها كان ذلك أقوى في إيمانه ، وكلما كان أقل كان ذلك أضعف في إيمانه.

وهذا من الشواهد والدلائل الواضحات على أن الإيمان يزيد وينقص ويقوى ويضعف ، وأن أهله ليسو فيه سواء ؛ منهم قوي الإيمان ومنهم ضعيف الإيمان ، قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٢٢] ليسو على درجة واحدة بل بينهم تفاوت . وهنا بيّن النبي عليه

الصلاة والسلام التفاوت في الإيمان بين أهل الإيمان؛ مؤمن قوي ومؤمن ضعيف ، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

وقوله ((أحب إلى الله)) فيه إثبات صفة المحبة لله تبارك وتعالى وأنه يحب جل وعلا ، وأن حبه تبارك وتعالى يزيد لمن زاد إيمانه وقوي دينه ، قال: ((أحب إلى الله من المؤمن الضعيف)) فهذا فيه تفاضل محبة الله عز وجل للناس بحسب تفاوتهم في الإيمان وخصاله وأعماله .

قال: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)) وهذه الجملة في الحديث قوله «وفي كل خير» إيرادها هنا من أنفع ما يكون ؛ حتى لا يظن بضعيف الإيمان أنه لا خير فيه ، بل المؤمن الضعيف فيه خير ما دام أن الإيمان عنده محافظاً على إيمانه حتى مع الضعف ففيه خير . قال ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)) أي في قوي الإيمان وفي ضعيف الإيمان في كل منهما خير ، لكن الخير الذي عند قوي الإيمان أكثر وأعظم وأوفر من الخير الذي عند ضعيف الإيمان .

قال: ((أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن)) ؛ أحرص على ما ينفعك وهذا فيه الدعوة إلى فعل الأسباب ومباشرتها وعدم تعطيلها اتكالا على القدر ، «أحرص على ما ينفعك» أي كن حريصا تمام الحرص على كل نافع لك ، «واستعن بالله» أي كن متوكلا عليه طالبا عونه ومدّه تبارك وتعالى لا أن تكون متكلا على الأسباب التي تباشرها ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الأسباب وفي الوقت نفسه أمر بالاستعانة بالله تبارك وتعالى وحسن الالتجاء إليه تبارك وتعالى .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه ((أحرص على ما ينفعك واستعن بالله)) يتضمن الوصية بأمر ثلاث لا بد منها في هذا الباب :

﴿الأمر الأول : الحرص ، والحرص أمر يكون في القلب ؛ رغبة وهمة وتطلع للأمر النافعة ، بأن يكون القلب له حرص له رغبة في الأمور النافعة المفيدة .

﴿والأمر الثاني الذي يتناوله هذا الحديث: سلوك مسالك الأمور النافعة ؛ أي السير في طلبها وتحصيلها .

﴿والأمر الثالث: الاستعانة بالله تبارك وتعالى ؛ أن تحرص على الخير ، وأن تسلك مسالكه ، وأن تطلب عون الله تبارك وتعالى على تحقيقه .

فمن حرص دون سلوكٍ لمسالك الخير وبذلٍ لأسبابه هذا عجز وتوانٍ وفتور ، ومن حرص وسلوك مسالك الخير ولم يلتجئ إليه تبارك وتعالى تكون عاقبته إلى الحرمان والخسران ، ولا يتحقق للإنسان الخير إلا بالحرص وبذل الأسباب والتوكل على الله تبارك وتعالى ؛ فهذه أصول عظام أرشد إليها هذا الحديث في هذا الباب العظيم .

وقوله ((أحرص على ما ينفعك)) يتناول كل نافع من الأمور الدينية والدنيوية ، ليس خاصا بالأمور الدينية بل يتناول كل نافع من الأمور الدينية والدنيوية ؛ ((أحرص على ما ينفعك)) أي في دينك ودنياك ؛ أما النافع في

الدين فحرصك عليه ببذل الأسباب في طلب الرزق ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [النكاح: ١٥٠] ، لا يليق بالمؤمن أن يبقى مكتوف الأيدي في بيته ينتظر أن يأتيه رزقه في مكانه ، بل يبذل السبب ويذهب إلى السوق ويعمل ويباشر الأعمال فيما يميل إليه من مجالات من زراعة من صناعة ، من حرت ، من بيع ، من شراء ، من عمل ، من حمل ، إلى غير ذلك يبذل السبب ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ ؛ أمر بالمشي الذي هو السعي في طلب الرزق ، قال ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ فأمر تبارك وتعالى ببذل الأسباب فيحرص الإنسان على ما ينفعه .

وهنا قوله ((على ما ينفعك)) فيما يتعلق بالأمور الدنيوية ؛ فيه تنبيه على البعد عن الحرام ، لأن المحرمات تضر الإنسان ولا تنفعه ولم يحرمها الله عز وجل وينهى عباده عنها إلا لما فيها من المضرة عليهم والوبال عليهم في دنياهم وأخراهم ، ولهذا قوله ((احرص على ما ينفعك)) فيه التنبيه إلى الحرص على الأمور النافعة الدنيوية الطيبة البعيدة عن الحرام والبعيدة أيضا عن الشبهات ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبها لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه)) إلى آخر الحديث .

ويتناول قوله ((على ما ينفعك)) الحرص على الأمور الدينية ؛ احرص على ما ينفعك في دينك ، والحرص على ما ينفع في الدين يتناول أمرين يجتمع فيهما الدين وهما : العلم النافع والعمل الصالح . ((احرص على ما ينفعك)) هذا فيه دعوة لك إلى أن تحرص على ما ينفعك في دينك وهذا يتناول العلم النافع والعمل الصالح ، فتحرص على ما ينفعك في دينك من العلوم النافعة ، ولهذا ينبغي أن يكون للإنسان حظاً ونصيب من العلم في كل أيامه ، أين الحرص على ما ينفع الإنسان في دينه ممن يمر عليه الأيام تلو الأيام بل الشهور تلو الشهور ولم يجلس ساعة يطلب فيها علماً ينفعه في دينه !! بل مضى حياته وأيامه بل بعض الناس مضى سنوات من عمره ولا جلس يطلب علماً أو يتفقه في دينه ! عنده وقت يجلس مع زملائه الساعات الطوال للضحك واللعب والسمر وليس عنده وقت يجلس ساعة واحدة يطلب فيها علماً .

قال ((احرص على ما ينفعك)) أي الأمور التي تنفعك في دينك من العلوم النافعة احرص عليها ؛ قال الله قال رسوله ، اجلس تعلم العلم تفقه في دينك فهذا أمر يُطلب منك داخلٌ تحت قوله عليه الصلاة والسلام ((احرص على ما ينفعك)) ؛ ولهذا ينبغي عملاً بهذا الحديث وتحقيقاً له أن يجعل المسلم لنفسه برنامجاً في العلم يومي ولو كان قليلاً ، لكن لا ينبغي أن يمر عليه اليوم ولا يحصل فيه علماً تغيب شمس اليوم دون أن يحصل فيه علماً ينفعه في دينه ، مع أنه عنده جهل في جوانب كثيرة من الدين ثم يغرب عليه شمس يوم من أيامه ولا يحصل فيه علماً هذا

من الحرمان ، بل كان بعض المتقدمين يبكي إذا غربت الشمس ويلوم نفسه كيف غربت وهو لم يغنم في يومه مغنم كبيرة، ومن الناس من تغيب شمسًا تلو أخرى ولا يحصل فيها ولا حرفًا من العلم ! هذا حرمان .

ولهذا ينبغي للإنسان أنه يجعل لنفسه برنامج مع العلم ينفعه الله سبحانه وتعالى به ، ومن أعظم ما يوصي به أهل العلم للمبتدئ «الأربعين النووية» للإمام النووي رحمه الله تعالى ؛ فهذا كتاب مبارك وعظيم النفع وكبير الفائدة ، ولو جعل كل واحد منا لنفسه برنامجا مع الأربعين يحفظ في اليوم حديثًا واحدًا حفظًا متقنًا لا يمضي عليه اثنين وأربعين يوم لأن عدد أحاديثه اثنين وأربعين حديثًا لا يمضي عليه اثنين وأربعين يومًا إلا وأنهاها ، لو جعل لنفسه برنامجا في كل ثلاثة أيام يحفظ حديثًا واحدًا لا تمر عليه سنة إلا والأربعين من محفوظاته ، فيعتني بها ويعتني أيضا بالكتب التي ألفها أهل العلم يتدرج فيها مثل: «الأصول الثلاثة» ، و«كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، «كتاب العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، «كتاب عمدة الأحكام» ، و«كتاب بلوغ المرام» ، ومثل هذه الكتب النافعة العظيمة المفيدة يجعل لنفسه فيها برنامجا يحصّل فيها علما . وقليلٌ يستمر تظهر ثمرته فيما بعد ، ترى الثمر بعد سنة سنتين ثلاث سنوات ، وكثير من الناس عندما لا يرى الثمرة مبكرة يترك المواصلة ، لكن تستمر على قليل تحصل خيرا. أنا أعرف مجموعة من الشباب كانوا يجتمعون يوم الاثنين يصومون ثم يجتمعون يفطرون سويًا ويسمّعون لبعضهم نصف صفحة من القرآن الكريم لكنهم ثابتين على ذلك ومضوا عليه يسمّعون لبعضهم نصف صفحة ، وسألتهم قبل وقت قالوا انتهينا من نصف القرآن الآن ويسمّعون نصف صفحة ومعهم أحد طلبة العلم يفسر لهم الآيات ويبين لهم معانيها ودلالاتها ويفقههم فيها ؛ فيحفظونها ويعرفون معانيها كل اثنين نصف صفحة عبر سنوات تأتي النتائج .

المهم أن الإنسان يكون له حرص على ما ينفعه ويكون له حظ من هذا الحرص ولو شيئا قليلا ، أما أن لا يكون حريصا على ما ينفعه من أمور دينه هذا على خطر عظيم ، بل ينبغي أن يكون له حظ على ما ينفعه في دينه ولو شيئا قليلا ، برنامج يومي ولو قليل تستمر عليه سترى الثمرة بإذن الله تبارك وتعالى الكبيرة ولو بعد حين ، أما إذا بقي الإنسان معطلاً عن الحرص حارماً نفسه الخير تمضي عليه الأيام وهو لا يزداد إلا جهلا ولا يزداد من الخير إلا بعدا والعياذ بالله .

أيضا يشمل الحرص على ما ينفع جانب العبادة ؛ لأن ((احرص على ما ينفعك)) أي في أمور دينك يتناول العلم النافع والعمل الصالح ، فأیضا يحرص الإنسان على جانب العبادة وأن يكون له حظ منها ولا سيما فرائض الدين وواجباته ، قد قال تعالى في الحديث القدسي : ((ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه)) ، فيكون أعظم حرص الإنسان على فرائض الدين ، حرصه على الصلاة والعناية بها ، الآن كثير من الناس عندهم تهاون عجيب في الصلاة ؛ تفريط في أوقاتها تفريط في واجباتها تفريط في أدائها مع جماعة المسلمين ، أين الحرص على ما ينفع الإنسان في دينه مع هذا التهاون في هذه الفريضة من فرائض الدين!! فيحرص الإنسان على

الواجبات ، أيضا يحرص على البعد عن المحرمات لأن الحرص على البعد عن المحرمات هو داخل في قوله ((احرص على ما ينفعك)) .

فشمل الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام ((احرص على ما ينفعك)) شمل قوله « ما ينفعك » أمورًا ثلاثة ما هي؟

الأمر الأول: الرزق ما ينفعك في دنياك الرزق الطيب ، وما ينفعك في أمور دينك قسمناها إلى قسمين علم نافع وعمل صالح ، أصبح قوله عليه الصلاة والسلام يشمل أمورًا ثلاثة : الرزق الطيب ، والعلم النافع ، والعمل الصالح لماذا فصلتها لكم هذا التفصيل ؟ لأنني أريد أن أربطكم بدعاء كان يواظب عليه - عليه الصلاة والسلام - كل يوم بعد صلاة الصبح يذكر فيها هذه الأمور الثلاثة التي هي حقيقة ما ينفع الإنسان ((اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا طيبا ، وعملا متقبلا)) وقد دعوت به في أول هذا الدرس .

إذًا قوله ((احرص على ما ينفعك)) لو قال قائل ما الذي ينفعني في ماذا تتلخص الأمور التي تنفعني؟ ماذا يجمعها التي ينبغي أن أحرص عليها ؟ في ماذا تتلخص؟ قل تتلخص في أمور ثلاثة : العلم النافع ، والرزق الطيب ، والعمل المتقبل ؛ هذا هو النافع وما سوى هذه الأمور الثلاثة دعه ، الذي ينفعك والذي يُطلب منك أن تحرص عليه تمام الحرص أمور ثلاثة : العلم النافع والرزق الطيب والعمل الصالح ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم بعد صلاة الصبح كما في حديث أم سلمة في السنن وغيرها كان يقول : ((اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا)) ، وهذه الأمور الثلاثة هي أهداف المسلم في يومه ، ولا أعلم للمسلم أهدافا في يومه إلا هذه الثلاث: العلم النافع ، والرزق الطيب ، والعمل المتقبل . إذًا قوله عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ((احرص على ما ينفعك)) لو قال قائل ما هو الذي ينفعني وينبغي عليّ أن أحرص عليه في أيامي وفي حياتي؟ يقال له أمور ثلاثة يجمعها قول النبي صلى الله عليه وسلم ((اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا)) .

قال : ((ولا تعجزن)) أي انبذن عنك العجز وابتعد عنه ، وجاهد نفسك على النهوض والهمة العالية وترك التواني والكسل والفتور ؛ فإن هذه لا تأتي لك بخير ، فاطّرح العجز والكسل والفتور وقم بالأمور النافعة بعزيمة وهمة لا تبقى متكاسلا ، إذا خطر ببالك أمرًا نافعا في دينك ، أمرًا نافعا في دنياك أمرًا نافعا ، في علمك وعبادتك لا تعجز ؛ وهذا فيه نبد للعجز . الآن مثلا تعقد مجلس علمي ويدرس فيه مر تحتاج إليه وتجد نفسك تجهله ، فإذا بدأ العجز أو الكسل يتسرب إليك ويقول " لا ، أجيل فيما بعد الآن أنت مشغول بكذا " ، مثل هذه الأمور اطّرحها ، كلما عنّ نافع لك وعرض أمر نافع لك في دينك ابتدر واذهب إليه بهمة وب نشاط وتخلّى عن الكسل والعجز ، لأنه لا يأتي لصاحبه إلا بالخسران والحرمان ، يمضي العاجز الكسلان محروما من الخير ، وكلما عرض له

خير أجَله وسَوِّف وأخر إلى أن تنقضي حياته وهو لم يحصل شيئاً ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((لا تعجزن))

وقوله هنا في هذا المقام بعد قوله ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) ؛ قوله ((لا تعجزن)) فيه تنبيه إلى أن هناك معاني ستدخل عليك عندما تحرص على النافع وهي أمور العجز والكسل والتواني ؛ فجاهد نفسك على ألا تحول بينك وبين الخير فتطرح العجز والكسل وتقبل على ما ينفعك .
قال: ((فإن أصابك شيء)) يعني إن أصابك ضرر أو بلاء ونزلت بك نازلة .

((فلا تقل لو أي فعلت كذا كان كذا وكذا)) لماذا ؟ لأن هذا الكلام يفتح عليك عمل الشيطان ، لأن هذا يفتح عليك باب من أبواب الشيطان عليك فيدخل الإنسان في معاني سيئة جدا ، ((فلا تقل لو أي فعلت كذا كان كذا وكذا)) يعني مثلا لو قدّر لإنسان ما أنه سلك طريقاً وأصابه حادث في الطريق مثلا لا يقل لو أي جلست في البيت اليوم وما خرجت كان أسلم لي ما حصل لي الحادث ، أو لو أي لفيت مع الشارع الفلاني أو لو أي ولو أي الخ لا تقل لو أي فعلت كذا لكان كذا وكذا ، أي لما حصل هذا الحادث . وأيضا عندما يفوتك مرغوب لا تقل لو أي عجلت أو لو أي أسرع أو لو أي لم أثمر بالمكان الفلاني ، مثلا كنت على سفر وصت المطار وطارت الطائرة وتأخرت ؛ لا تقل لو أي ما نمت اليوم بعد الفجر لو أي لو أي .. لا تقل .

((ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل)) لماذا ؟ لأنك لو دخلت في باب «لو» دخل عليك الشيطان وأمرض قلبك وتعبت نفسك وقلقت وضجرت ، بينما إذا قلت «قدر الله وما شاء فعل» سلوت واطمأن قلبك وقنعت أن هذا الأمر لم يكتب ، ولو كان كتب لحصل لي ؛ فتسلو نفسك ويطمئن قلبك.

قال ((ولكن قل قدر الله وما شاء فعل)) هذه تُضبط في كتب الحديث «قدّر الله وما شاء فعل» ، «قدّر الله وما شاء فعل» كلها يؤدي إلى معنى واحد ، «قدّر الله وما شاء فعل» فعل وفاعل ، «قدّر الله» مضاف ومضاف إليه، وما شاء فعل . فالأمور كلها بقدر الله . وهذا فيه فائدة الإيمان بالقدر ، وأيضا أن إيمانك بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك وانتبه لهذه المسألة فإنها مهمة جدا ، إيمانك بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك لا يكون الإيمان بالقدر أمور نظرية تؤخذ وقت الدرس ، الإيمان بالقدر ينبغي أن يصاحبك في حياتك وهو أمر تحتاج إليه في كل لحظة من لحظاتك فيكون معك دائما ، دائما تشعر أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن القدر قدر الله وما شاء فعل ، تؤمن بذلك ويكون هذا الإيمان مصاحبا لك ، وكلما كان هذا الإيمان مصاحبا لك في حياتك كنت على خير عظيم .

قال: ((ولكن قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان)) لو أي فعلت كذا لكان كذا وكذا الخ، «لو» تفتح عمل الشيطان ، ولو التي تفتح عمل الشيطان هي التي يكون فيها مثل التلوم على أمور القدر والتضجر مما

حصل وإظهار الندم على ما كان من الإنسان من سلوك طريق أو ترك طريق أو نحو ذلك من الأمور ؛ فهذه تفتح على الإنسان عمل الشيطان .

و«لو» لها استعمالات صحيحة؛ لما تكون في تمنى الخير ، أو في بيان العلم وإيضاحه ((لو استقدمت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة)) لها استعمالات صحيحة ، لكن استعمالها في مثل هذا الموضع الذي حذّر منه النبي عليه الصلاة والسلام هو من المنهي عنه ومما يفتح على الإنسان عمل الشيطان .

وبهذا يكون المصنف رحمه الله تعالى أنهى ما يتعلق بهذا الباب العظيم «باب الإيمان بالقدر» لينقلب بعد ذلك إلى الكلام على باب آخر من أبواب الإيمان وهو «باب الإيمان بالملائكة» لكن قبل أن أنهى ما يتعلق بالإيمان بالقدر أنه على أمر وهو سؤال قد يُطرح وهو ما حكم الخوض في مسائل القدر؟ وما حكم البحث في مسائل القدر؟ وقد صح في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا)) صح هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام صح عنه الأمر بالإمساك عند ذكر القدر «إذا ذكر القدر أمسكوا» : أي عن الخوض ، وجاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر فغضب عليه الصلاة والسلام كأنما فُقي في وجهه حب الرمان ؛ أي احمر وجهه عليه الصلاة والسلام من الغضب قال: ((أبهذا أمرتم؟! ألهذا دعيتم؟!)) ، فنهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك وحذرهم منه ويُنَّ أنه باب هلكة. فإذا يأتي سؤال : ما حكم الخوض في مسائل القدر؟ والجواب على ذلك: أن الخوض في مسائل القدر له منحيان :

المنحى الأول : وهو أن تبحث مسائل القدر في ضوء الآيات والأحاديث ؛ تقرأ الآيات تقرأ الأحاديث وتفهم معانيها في ضوء كلام أهل العلم وأئمة السلف فهذا لا بأس به ، وأهل العلم ألّفوا مصنفات في القدر وعقدوا في كتب السنة أبواباً في القدر أوردوا فيها الآيات والأحاديث المتعلقة بالإيمان بالقدر. فدراسة هذه الآيات ودراسة هذه الأحاديث والتأمل في معانيها ومضامينها ودلالاتها أمر لا ينهى عنه بل هو أمر مطلوب لأنه من العلم الشرعي الذي يندب المسلم إلى تعلمه ومعرفته .

المنحى الآخر: الخوض في القدر بالعقل المجرد وبالظنون الباطلة وبالأوهام الكاسدة ، أو بالسؤالات الاعتراضية على الله سبحانه وتعالى وعلى أقداره ، كأن يقول قائل والعياذ بالله: "لم فعل الله كذا؟ ولم لم يفعل كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم لم يقدر كذا؟ والله تعالى يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ولهذا قيل : «لا تقل لم أمر الله ولكن قل بم أمر الله» ، انظروا إلى الفرق بين السؤالين : لا تقل لم أمر الله ، ولكن قل بم أمر الله ، وقارن السؤالين بالآية ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ؛ قول القائل «لم أمر الله؟» هذا يتعلق بما يفعله الله ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ، لا تقل لم أمر الله؟ من أنت حتى تسأل رب العالمين عما يفعل؟! أنت مخلوق من مخلوقاته

«ولكن قل بم أمر الله» اسأل عما تسأل عنه أنت يوم القيامة ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أنت ستُسأل يوم القيامة عليك أن تسأل عما ستُسأل عنه يوم القيامة فتقول بم أمر الله؟ أي بماذا أمرنا ، فرق بين قول القائل «لم أمر الله؟» وقوله «بم أمر الله؟» ، فقولك «بم أمر الله» هذا سؤال مطلوب لأنه فقه في دينك فقه فيما سيسالك الله تبارك وتعالى يوم القيامة فهذا مطلوب منك ، أما أن يقول الإنسان «لم أمر الله» فهذا أمرٌ منهى عنه .

فإذا الخوض في القدر بالعقل المجرد أو بالظنون أو بالأوهام أو بالسؤالات الاعتراضية أو منازعة الله سبحانه وتعالى في أقداره أو نحو ذلك من المعاني هذا محرم وباطل وداخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا ذكر القدر فأمسكوا)) . إذاً قوله ((إذا ذكر القدر فأمسكوا)) مختص بهذا الجانب لا يدخل فيه الجانب الأول ، وإذا أردت توضيح ذلك اقرأ ما بعده ((وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا)) ؛ إذا ذكر أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وأعمالهم الخيرة نمسك أو نخوض في هذا الأمر؟ نخوض فيه ، والعلماء كتبوا كتب كثيرة في فضائل الصحابة ومناقب الصحابة ، هذا لم نؤمر بالإمساك عنه ، بل هو من العلم النافع المفيد الذي يسعى في نشره وبيانه .

إذاً ما معنى قوله ((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا)) ؟ يعني إذا ذكروا بالوقعة فيهم بالسب لهم والطعن بالشتم بالنيل منهم بالخوض فيما شجر بينهم أمسكوا عن ذلك ؛ أي لا تذكرهم إلا بالجميل وبالخير والثناء وذكر مناقبهم وفضائلهم ، أما ذكرهم بغير ذلك فلا يحل ولا يجوز .

هذا ونسأل الله تبارك وتعالى لنا أجمعين التوفيق والسداد والهداية والرشاد ، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات .

وصلّى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١٣ إلى الدرس ١٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٠/٢٤ هـ

الدرس الثالث عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، اللهم إنا نسألك علماً نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا .

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له في كتابه «أصول الإيمان» :

باب ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم

وقول الله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿لَنْ يُسَنَّكَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠-٢١] ، وقوله تعالى : ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَنًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] .

قال المصنف رحمه الله تعالى : ((باب ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم)) هذه ترجمة عقدها رحمه الله تعالى ليبين أصلاً عظيماً من أصول الإيمان وركناً من أركان الدين ألا وهو: الإيمان بالملائكة الكرام عليهم السلام ، وقد قال الله تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، وقال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] ، وقال جل وعلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] ، فجمع الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركات أصول الإيمان ، ومن جملة هذه الأصول الإيمان بالملائكة .

والملائكة خلقٌ لله عز وجل لم نرهم لكن جاء الوحي بذكرهم ، ومن أبرز صفات أهل الإيمان: الإيمان بالغيب أي بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله قال الله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿البقرة: ٢-٣﴾ ؛ أي الذين يؤمنون بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله لا يترددون في الإيمان بما تخبرهم به الرسل عليهم صلوات الله وسلامه من الأمور المغيبة التي لا يرونها ولا يشاهدونها ، لكنهم يؤمنون بها لإخبار الرسل بها ؛ فهذا من أبرز صفات أهل الإيمان .

والملائكة خلقٌ لله تبارك وتعالى خلقٌ عظيم وخلقٌ كبير وخلقٌ عددهم كثير ، ولهم أسماء ولهم أعمال ولهم وظائف ، والإيمان بهذا الخلق لله تبارك وتعالى وبهذا الجند من جنوده تبارك وتعالى حق وواجب وهو أصل من أصول الإيمان؛ ولهذا لما جاء جبريل وهو أحد الملائكة عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة أعرابي قال للنبي صلى الله عليه وسلم أخبرني عن الإيمان؟ قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ؛ فعَدَّ صلوات الله وسلامه عليه في أصول الإيمان الإيمان بالملائكة ، ولهذا لا إيمان لمن لا يؤمن بالملائكة ، الذي لا يؤمن بالملائكة لا يؤمن بالله ، وهذا مستفاد من العطف الذي مر معنا في الآيات ، قال الله عز وجل ﴿ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، فالذي لا يؤمن بملائكة الله الذين ذكر الله عز وجل خبرهم في القرآن وذكر النبي صلى الله عليه وسلم خبرهم في السنة هو في الحقيقة ليس مؤمناً بالله ولا مؤمناً بالكتب ، لأن الكتب المنزلة على الرسل عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كلها تقرر هذا الأصل وتدعو إلى الإيمان بالملائكة، لأن أمور العقائد عند الأنبياء واحدة لا خلاف بين الأنبياء فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى)) أي عقيدتنا واحدة . والملائكة هم الذين ينزلون بالوحي على من اصطفاهم الله تبارك وتعالى من البشر ليكونوا رسلا له إلى الناس ، فالإيمان بالملائكة أصل عظيم من أصول الإيمان وركن عظيم من أركان الدين ، ولا إيمان لمن لا يؤمن بملائكة الله الكرام .

والملائكة خلقٌ لله عز وجل أوجدتهم بقدرته ، خلقهم سبحانه وتعالى بعد أن لم يكونوا وأوجدتهم من العدم ، وخلقهم تبارك وتعالى من نور كما صح بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان خلق الملائكة قبل خلق آدم وخلق ذريته كما يدل على ذلك آيات في القرآن منها قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ، هذا قبل أن يخلق الله سبحانه وتعالى آدم وقبل أن يوجده كان الملائكة لهم وجود خلقهم الله عز وجل وأوجدتهم جل وعلا وألهمهم سبحانه وتعالى العبادة والطاعة ،

ولهذا لا يُعرف في الملائكة شيء اسمه معصية ، المعصية غير موجودة عندهم لأن الله عز وجل ألهمهم الطاعة لله عز وجل والامتثال لأمره كما قال الله سبحانه: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦٠] ، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠٠] فهم في عبادة دائمة وفي طاعة مستمرة وفي امتثال دؤوب لأمر الله تبارك وتعالى وليس فيهم من هو عاصٍ لله تبارك وتعالى وممتنع من طاعته جل وعلا.

وهذا الخلق من خلق الله تبارك وتعالى والجند من جنوده لا يعلم عِظَمهم وكِبَرهم وضخامة أجسامهم وعددهم إلا الذي خلقهم سبحانه وتعالى كما قال جل وعلا : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ، فلا يعلم هذا الخلق إلا الذي خلقه سبحانه وتعالى ، لكن جاء في القرآن وفي السنة شيء من التفاصيل المتعلقة بالملائكة ؛ كذكر أسماء بعضهم، وذكر أعدادٍ لهم ، وذكر أوصاف لهم ، وذكر وظائف للملائكة ، فالإيمان بكل هذه التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة عن الملائكة هو من الإيمان بالملائكة ، والإيمان بالملائكة من الإيمان بالله عز وجل كما سبق بيان ذلك.

ولهذا إذا قيل ما حقيقة الإيمان بالملائكة؟ أو بم يتلخص هذا الأمر الذي هو الإيمان بالملائكة؟ والجواب: أن الإيمان بالملائكة هو الإيمان بهذا الخلق وهذا الجند لله تبارك وتعالى إيماناً بأسمائهم ، وأعدادهم ، وأوصافهم ، ووظائفهم؛ إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فُصِّل . وهذه الجملة على اختصارها تجمع ما ينبغي أن يؤمن به فيما يتعلق بالملائكة، وكل ما يتعلق بالإيمان بالملائكة يرجع إلى هذه الأمور الأربعة : الأسماء ، والأعداد ، والأوصاف ، والوظائف ؛ نؤمن بهذه الأمور إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل ، لماذا إجمالاً فيما أجمل؟ لأن التفاصيل المتعلقة بالملائكة لم تذكر لنا بكاملها وبتمامها وإنما ذُكر لنا شيء من هذه التفاصيل وقليلٌ منها ، فإيماننا بالملائكة هو إيمان مجمل فيما أجمل من أسمائهم وأعدادهم وأوصافهم ووظائفهم ، وإيمان مفصل فيما فصل من أسماء الملائكة وأعداد الملائكة ووظائف الملائكة ، فما فُصل في الكتاب والسنة مما يتعلق بالملائكة نؤمن به على وجه التفصيل كما جاء ، وما أجمل من اخبارهم وأوصافهم أو أمورهم نؤمن به مجملاً .

❖ أسماء الملائكة : لم يأت ذكر في القرآن والسنة إلا لعدد قليل من أسمائهم ؛ فمن سمي لنا منهم آمنا باسمه كما ورد واعتقدنا وجود ملائكة بهذه الأسماء التي جاءت في القرآن وجاءت في السنة ، وما لم يسمَّ من الملائكة نؤمن أيضاً به ، نؤمن بمن سمي في القرآن ومن لم يسم ، وليس كل الملائكة هم من سموا في القرآن الكريم أو ذُكرت أسمائهم في القرآن الكريم . وأيضاً نؤمن بالأسماء التي تعم الملائكة عموماً ، مثل الملائكة ، وجند الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ، والكرام ، والسفرة ، ونحو ذلك من الأسماء التي تجمع الملائكة عموماً وتشملهم . وأيضاً نؤمن بالأسماء المفصلة التي جاءت في القرآن أو السنة لأفراد من الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وهؤلاء الثلاثة هم أفضل الملائكة ، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا قام يصلي من

الليل توسل إلى الله تبارك وتعالى بربوبيته لهؤلاء الثلاثة يخصصهم بالذكر لأنهم أشرف الملائكة ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)) فذكره عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الثلاثة من الملائكة على وجه الخصوص في هذا الوقت الفاضل والحال الفاضلة واستفتاحه لصلاة الليل صلوات الله وسلامه عليه يدل على شرف هؤلاء الثلاثة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وأيضا جاء في القرآن مالك ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ومالك هو المقدم في خزنة جهنم لأن الذين على جهنم من رؤساء الملائكة والزعماء فيهم تسعة عشر كما قال الله تبارك وتعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [الذئب: ٣٠] أي من الملائكة ، وهؤلاء هم الذين لهم التقدم والرئاسة في الملائكة وفي مقدمة هؤلاء مالك خازن جهنم حمانا الله وحماكم ووقانا ووقاكم وأجارنا أجمعين من نار جهنم ومن خزي يوم الدين . فهؤلاء الملائكة هم الذين على نار جهنم عليها ليسو هم كل من يقومون بالوظائف المتعلقة بجهنم وإنما هؤلاء تسعة عشر وفي مقدمتهم مالك خازن النار هؤلاء الذين لهم الرئاسة والزعامة فيما يتعلق بأمر جهنم ، وإلا أعداد الملائكة الذين يتعلقون بأمر النار لا يحصيهم إلا الله ، وكيفيك أن تعلم في هذا ما صح في صحيح مسلم فيمن يجرون النار إلى أرض المحشر يوم القيامة ، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((يؤتى بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام ومع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)) ، فالملائكة الذين وكل الله تبارك وتعالى إليهم جر نار جهنم إلى أرض المحشر يوم القيامة عددهم سبعين ألف في سبعين ألف ، وهذا عدد مهيل جدًا وكلوا بهذه المهمة ، والذين أيضا وكلوا بمهمات أخرى تتعلق بالنار لا يحصيهم إلا الله جاء وصفهم في القرآن ، قد قال الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فالله جل وعلا وكل بالنار ملائكة هذه صفتهم وهذا نعتهم كما أخبر رب العالمين ﴿مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي أنهم أهل غلظة أهل شدة لا يرحمون أهل النار ولا يعطفون عليهم ، بل مهمتهم إيقاع النكال وإيقاع العقوبة بأهل نار جهنم دون أن يكون هناك عطف أو هناك رحمة ، بل مهمتهم كما أمرهم الله عز وجل يتولون العقوبة ، ولو كان الذي وكل إليه هذه المهمة في النار ليس غليظا ولا شديدا قد يعطف لكن الله عز وجل جعلهم بهذه الصفة نكالا لأهل النار ، جعل خزنة النار من الملائكة هذه صفتهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ، وأيضا جعل سبحانه وتعالى النار نفسها فيها تغيظ على هؤلاء ﴿إِذَا

رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَكْفِيفًا وَزَفِيرًا ﴿١٢٠﴾ [الفرقان: ١٢٠] من شدة الغيظ والحنق الذي في النار نفسها على أهلها حمانا الله عز وجل أجمعين من دخولها وأجارنا من ذلك .

فنؤمن بأسماء الملائكة الذين جاء تفصيل أسمائهم في القرآن أو السنة ، ومن ذلكم أيضا ما جاء في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((إذا أدخل الميت في قبره أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر ويقال للآخر النكير ، فيجلسانه ويقولان من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟)) وهذا أمر يعاينه الإنسان أول ما يدخل في القبر ، أول ما يدخل في قبره ويدرج فيق قبره يأتيه في القبر ملكان بهذه الصفة يقال لأحدهما «المنكر» ويقال للآخر «النكير» ، قد قال أهل العلم سميا بهذين الاسمين لأنهما يأتيان على هيئة منكرا ، على هيئة غير معهودة للإنسان لم يعهد هذه الصفة ولم يعهد هذا المرأ والمنظر فيأتيان على صورة منكرا يقال لأحدهما «المنكر» ويقال للآخر «النكير» ، ويقعدان الإنسان في قبره ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ إلى آخر ما جاء في الحديث . فنؤمن بأسماء الملائكة التي جاءت مفصلة في القرآن ما عُد منها في القرآن نؤمن به وفي السنة ، وما لم يذكر منها فإننا نؤمن به مجملا هذا فيما يتعلق بالأسماء.

❖ أما أعداد الملائكة فإننا أيضا نؤمن بأعداد الملائكة إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فُصل ؛ إجمالا نقول فيما يتعلق بعدد الملائكة: إن عددهم لا يحصيهم إلا الذي خلقهم كما في الآية الكريمة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الدثر: ٣١] فلا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم تبارك وتعالى ، لكن هناك نصوص كثيرة في السنة تدل على كثرة الملائكة الكثيرة ، بل القرآن أيضا فيه الدلالة على هذا المعنى في مواضع ؛ كقوله تبارك وتعالى في سورة النجم ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٢٦) ﴿كم﴾ هنا التكنيرية إشارة إلى كثرتهم الكثيرة وعددهم الهائل الذي لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى .

ومما يدل على كثرة الملائكة الحديث الذي سيأتي ذكره عند المصنف في قصة المعراج بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: ((فرُفع إلي البيت المعمور فقلت لجبريل ما هذا؟ قال هذا البيت المعمور يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون)) يوميا يدخله من الملائكة سبعون ألف ومن دخله منهم لا يعود لدخوله مرة ثانية ؛ فهذا يدل على كثرة الملائكة ، وأيضا يدل على كثرة الملائكة قول النبي صلى الله عليه وسلم ((أطت السماء وحق لها أن تفتح ما فيها موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد لله)) وسيأتي الحديث عند المصنف رحمه الله تعالى . فإجمالا نقول عدد الملائكة كثير وهم كثرة كثرة وعدد كبير جدا ، ولا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم هذا من حيث الإجمال . ومن حيث التفصيل فيما يتعلق بعدد الملائكة نؤمن بالأعداد التفصيلية التي جاءت في القرآن أو في السنة تتعلق

بالملائكة كقوله تعالى في الآية المتقدمة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] هذا عدد يتعلق بالملائكة وهم المقدمون فيمن جعلهم الله سبحانه وتعالى على نار جهنم فهذا عددهم ، فنؤمن بهذا العدد على هذا الوجه التفصيلي الوارد في القرآن ، أيضا نؤمن بما دل عليه قول الله تبارك وتعالى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ؛ فهذا عدد يتعلق بالملائكة وهم حملة عرش الرحمن تبارك وتعالى ، فنؤمن بهذا العدد التفصيلي كما جاء ، وأيضا العدد التفصيلي الذي مر معنا قريبا فيمن يجرون نار جهنم إلى أرض المحشر ، أيضا العدد الذي يدل عليه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [١٨: ٣] ملك عن يمينه وملك عن يساره ، العدد التفصيلي الذي يدل عليه قوله ((أتاه ملكان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير)) قال ملكان فمثل هذه الأعداد التفصيلية التي جاءت في القرآن أو السنة نؤمن بها مفصلة كما جاءت.

❖ أوصاف الملائكة وهو الأمر الثالث؛ أيضا نؤمن بأوصاف الملائكة إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فُصل ؛ أما من حيث الإجمال فنحن نؤمن بأن الملائكة من خلق الله سبحانه وتعالى أوجدتهم تبارك وتعالى من العدم ، وأنه سبحانه وتعالى خلق الملائكة من نور كما في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((خُلِقَتْ الملائكة من نور وخُلِقَ الجان من مارج من نار ، وخُلِقَ ابن آدم مما وصف لكم)) أي من الطين ، فالملائكة خلقوا من نور فنؤمن بذلك نؤمن ألأنهم خلق من نور خلقهم الله سبحانه وتعالى ، وأعطاهم تبارك وتعالى من ضخامة الأجسام وكبر الهيئات والقوة والشدة شيئا عظيما يدل على كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنؤمن بذلك .

ونؤمن أيضا بأنه تبارك وتعالى جعلهم أولي أجنحة كما قال عز وجل ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَسْنِي وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ﴾ [فاطر: ١٠] وأنهم ليسو في عدد الأجنحة التي جعلها الله سبحانه وتعالى فيهم سواء بل متفاوتون في أعداد الأجنحة ، منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاث ومنهم من له أربع ومنهم من له أكثر من ذلك، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث ((أنه رأى جبريل وقد سد الأفق وله ستمائة جناح)) ، فهم من أوصافهم أنهم لهم أجنحة، وأيضا من أوصافهم أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم القدرة على التشكل ؛ جبريل مع ضخامة جسمه قد رآه النبي عليه الصلاة والسلام على صورته الحقيقية وقد سد الأفق ، فكان يأتي في بعض المرات إلى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة رجل أعرابي ، هذا الجسم الضخم الكبير العظيم الذي يسد على هيئته الحقيقية الأفق يصبح في صورة وجسم رجل ، وهذا من قدرة الله سبحانه وتعالى الجسم الضخم الكبير الذي يسد الأفق يصبح في صورة رجل ، فكان جبريل في بعض المرات يأتي في صورة أعرابي قال عمر رضي الله عنه : ((بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه

منا أحد حتى إذا جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم أسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه)) ثم بدأ يسأل في آخر الحديث قال: ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)) ، وفي سورة مريم قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)﴾ أي على صورة بشر سوي ، في قصة أضياف إبراهيم جاءوا على صورة أضياف من البشر حسان وملاح فجاءوا على هذه الصفة ، أيضا مجيء جبريل إلى النبي عليه الصلاة والسلام على صورة دحية الكلبي رضي الله عنه من الصحابة ، فأعطاهم الله جل وعلا هذه القدرة على التشكل بحيث أن الملك تكون صورته على صورة بشر على صورة إنسان ؛ فهذا فيما يتعلق بأوصاف الملائكة من حيث الإجمال نؤمن بهذه الأوصاف للملائكة .

وعلى وجه التفصيل ما جاء في القرآن أو السنة من أوصاف للملائكة فنحن أيضا نؤمن بها على الوجه التفصيلي الذي جاء في القرآن أو جاء في سنة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُوْلٍ كَرِيْمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِيْنٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠] هذا جبريل ، فوصفه الله تبارك وتعالى بأنه ذي قوة فنؤمن بهذه الصفة ، وأيضا قوله سبحانه وتعالى ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٦] وهذه صفة لجبريل أي جميل المنظر حسن الهيئة بهي الشكل ، فمثل هذه الصفات التفصيلية للملائكة نؤمن بها . وأيضا ما جاء في الحديث المتقدم الإشارة إليه أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى جبريل في صورته الحقيقية وقد سد عظم خلقه الأفق وله ستمائة جناح ، فنؤمن بذلك ، وهكذا ما جاء من نصوص في ذكر أوصاف الملائكة على وجه التفصيل كل ذلك نؤمن به كما ورد ، ومن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أذن لي أن أحدثكم عن أحد الملائكة وهو من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تحفق فيه الطير سبعمائة سنة)) أي أن المسافة التي بين عاتق الملك وشحمة الأذن يطير فيها الطير سبعمائة سنة ، يعني لو طار طائر من عاتق الملك متجه إلى شحمة أذنه يحتاج إلى سبعمائة سنة طيران حتى يصل إلى شحمة الأذن ، وهذا الحديث صحيح ثابت عن نبينا عليه الصلاة والسلام فنؤمن بذلك ، قال ((ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه يخفق فيه الطير سبعمائة سنة)) وهذه المسافة في حقنا نحن لا تكفي لأن يقف فيها الطير مجرد وقوف فضلا عن الطيران ، ومع ذلك ترى في بعض الناس بل في كثير منهم وهو بهذا الجسم الضعيف وبهذا الجسم الصغير مقارنة بتلك الأجسام من يمشي مختالا متكبرا ومتعاليا ومرتفعا ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] . لو ينظر الإنسان ويتأمل الإنسان في خلق جسم الملائكة يعطيه من الاستكانة لله والخضوع لله عز وجل والبعد عن الكبر والتعظيم والترفع على عباد الله ويدرك من هو؟ أنه مخلوق لله تبارك وتعالى، والله مخلوقات عظيمة جدا وكبيرة أوجدها الله سبحانه وتعالى وخلقها على هيئات ضخمة وكبيرة جدا على ما وُصف لنا في كتاب ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، فنؤمن بأوصاف الملائكة إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصّل .

❖ ثم الأمر الرابع: وظائف الملائكة ومهامهم التي وكل الله سبحانه وتعالى لهم القيام بها ؛ فهذا أيضا نؤمن به إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل ، أما من حيث الإجمال: فنحن نعتقد أن الملائكة جند لله تبارك وتعالى خلقهم عز وجل وأوجدهم سبحانه وتعالى وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، جند مطيع لله ممتثل لأوامره تبارك وتعالى ولا يعصون الله جل وعلا فيما يأمرهم به ، وهم رسل الله كما يفيد هذا اسمهم وهو «الملائكة» لأن الملائكة كما قال العلماء رحمهم الله تعالى مشتقة من الألوكه وهي الرسالة ، يقال ألكني فلان: أي أرسلني ، فسموا ملائكة لأنهم رسل ، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١٠] فهم رسل الله تبارك وتعالى وجند له عز وجل لا يعصون الله فيما أمرهم ، وأنهم قد وكل الله سبحانه وتعالى إليهم مهام متنوعة ووظائف متعددة ، فالإيمان بوظائف الملائكة هو من الإيمان بهم.

وأما تفصيلا فيما يتعلق بوظائف الملائكة فإننا نؤمن بالوظائف التفصيلية التي ذكرت في القرآن أو ذكرت في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، كقوله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] ، وغيرها من الآيات في القرآن الكريم وهي كثيرة جدا تذكر لنا أعمال ووظائف للملائكة .

وهكذا أيضا السنة فيها أحاديث كثيرة جدا تذكر لنا أعمال ووظائف للملائكة ؛ جبريل وكل الله سبحانه وتعالى إليه النزول بالوحي وقد يشاركه في ذلك بعض الملائكة في بعض المرات ، وإسرافيل وكل إليه الله عز وجل النفخ في الصور ، وميكائيل وكل الله سبحانه وتعالى إليه ما يتعلق بالأمطار ونزول الأمطار ، وهكذا من الملائكة من وكل الله عز وجل إليهم قبض الأرواح قال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي أقرب إلى الميت منكم وأنتم عنده جلوس ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥] أي لا تبصرون ملائكة الله عز وجل الذين أرسلهم سبحانه وتعالى لقبض روحه .

فهذه الوظائف التفصيلية للملائكة تؤمن بها، وأيضا ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((يتعاقبون فيكم -أي فيكم أيها الناس- ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر)) يجتمعون أي يكون التقاء هؤلاء الملائكة في صلاة الصبح وصلاة العصر أي في الأرض ، ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ثم يعرجون أي إلى الله جل وعلا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ قالوا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون)) ؛ وهذا أيها الإخوة الكرام فيه بيان الشرف العظيم والفضل الكبير الذي يفوز به من يحافظ على الصلوات ولا يضيعها ، يوميا ملائكة تتعاقب ويجتمعون في هاتين الصلاتين ، وإذا عرجوا إلى رب العالمين سألمهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ قالوا أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ، «أتيناهم» أي الملائكة الذين نزلوا الفجر أتوا الناس أي أهل الإيمان وأهل الصلاة وهم يصلون ، وعندما يعرجون العصر تركوهم وهم يصلون ، وهكذا من ينزل العصر أتى إليهم وهم يصلون وإذا عرج الفجر تركهم وهم يصلون ، ولهذا يقولون ((أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون)) ينزل جماعة من الملائكة ويجتمعون في الجماعة الذين نزلوا قبل وتعرج الجماعة التي كانت موجودة أولا وتبقى الأخرى قال ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار)) فمثل هذه الأعمال والوظائف التفصيلية للملائكة التي جاء ذكرها في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه تؤمن بها كما جاءت.

إذاً الإيمان بالملائكة هو الإيمان بهذا الخلق العظيم لله تبارك وتعالى إيمانياً بأسمائهم وأعدادهم وأوصافهم ووظائفهم إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل، كل ذلكم في ضوء ما جاء في كتاب ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا لما عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة بعنوان ((باب ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم)) ساق أولا آيات من القرآن تتعلق بالملائكة ثم بعد ذلك أحاديث من السنة ؛ وهذا فيه التنبيه إلى أن الإيمان بالملائكة الإيمان بهذا الأصل شأنه كشأن أمور الإيمان يكون على ضوء كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

بدأ أولا بقول الله تبارك وتعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ؛ وهذه الآية الكريمة كما أسلفت جمعت أصول الإيمان وبين الله تبارك وتعالى فيها أن حقيقة البر هو الإيمان بهذه الأصول العظام . قال : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ، وإن كان هذا من البر لكن حقيقة البر هو الإيمان بهذه الأصول العظام وإتباع هذا الإيمان بالأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات كما يبين ذلك تمام الآية ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ إلى آخرها ، فهذه حقيقة البر ، وأساس ذلك وأصله الإيمان بهذه الأصول ؛ وهذا فيه تنبيه إلى أنه لا يحقق البر من لا يؤمن بهذه الأصول أو لا يؤمن ببعضها أو يحدد بعضها ، الذي لا يؤمن بهذه الأصول أو يحدد بعض هذه

الأصول لا يوجد فيه حقيقة البر ، بل إن وُجد فيه شيء من أعمال البر لا تُقبل منه ولا تعد براً ما لم تكن قائمة على هذه الأصول العظام ، وهذا واضح في دلالة الآية الكريمة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فهذه الأعمال والطاعات لا بد أن تكون قائمة على هذه الأصول ، فإن لم تكن قائمة على هذه الأصول لا تكون برا ولا تكون عملاً صالحاً مقبولاً كما قال الله جل وعلا ﴿وَمَنْ يُكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٠] ، فالأعمال أيا كانت ومهما كانت إذا لم تكن قائمة على هذه الأصول العظام لا تُقبل من العامل .

وذكر جل وعلا في هذه الأصول العظيمة الإيمان بالملائكة ، ولم يُذكر الإيمان بالقدر في هذه الأصول مع أنه أصل من أصول الإيمان كما مر معنا في حديث جبريل لأنه داخل في الإيمان بالله ، والقدر كما قال الإمام أحمد رحمه الله قدرة الله ، فلم يُذكر لأنه داخل في الإيمان بالله . فإذا هذه الآية الكريمة جمعت أصول الإيمان ومن بين هذه الأصول الإيمان بالملائكة ، ولهذا أورد المصنف رحمه الله تعالى الآية الكريمة في هذا الموضع .

ثم أورد قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون (٣١) نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصل: ٣٠-٣٢] وهنا فيه بيان حال أهل الاستقامة والمحافظة على طاعة الله تبارك وتعالى وملازمة عبادته تبارك وتعالى إلى الممات ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ، وأن من كانوا على هذه الحال محافظين على طاعة الله مستقيمين على عبادة الله عز وجل إلى أن يتوفاهم الله فإن هؤلاء شأهم كما أخبر الله عز وجل في هذه الآية تنزل عليهم الملائكة أي عند قبض أرواحهم ؛ بأي شيء؟ هؤلاء الملائكة لهم مهمة معينة ومحددة وهي حمل البشارة والطمأنينة والتنبية على عدم الخوف وعدم الحزن فهذه مهمة هؤلاء ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ تبشر هذا الذي تقبض روحه بهذه البشارة العظيمة ، ولهذا يشاهد ويعاين في بعض المتوفين من يظهر على وجهه البشر ويظهر على وجهه السرور والراحة والسعادة يظهر على بشرتهم ، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ ، أي أن هؤلاء الملائكة يقولون لهذا المتوفى : لا تحزن ولا تخاف ؛ والخوف يتعلق بما هو قادم عليه ، والحزن يتعلق بما هو تاركه ، الحزن يتعلق بالأشياء الماضية، والخوف يتعلق بالأشياء القادمة، فهم يطمئنونه بأن لا يخاف ولا يحزن لا يحزن على ما هو تارك ، فإن ما يتركه في حفظ الله عز وجل ، ولا أيضا يخاف مما هو قادم إليه

فهو قادم إلى رحمة الله سبحانه وتعالى وفضله ومنه فيقولون له اطمئن لا تخف ولا تحزن. مثلها قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأحقاف ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿فَلَا تَخَافُ وَلَا تَحْزَنُ وَيُبَشِّرُونَ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

وقيل أيضا إن هذا التنزل يكون في عرصات يوم القيامة إذا قام الناس من قبورهم وبعثوا من قبورهم أصابهم الفرع تأتي الملائكة وتبشر أهل الاستقامة ، وقد قال ابن كثير رحمه الله لا يمنع أن يكون التنزل متكررا عند الموت وعند البعث وفي عرصات يوم القيامة ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . إذا هذا أيضا من الإيمان بالملائكة أن نؤمن بأن الله عز وجل وكل إلى نفر من الملائكة يقومون بهذا العمل وهو التنزل على الموتى من أهل الاستقامة بالبشارة وألا تخافوا ولا تحزنوا كما بين الله سبحانه وتعالى ذلك في الآية الكريمة .

ولعلنا أيها الإخوة نستفيد من هذا ومن غيره مما مر ومما سيأتي: أثر الإيمان بالملائكة على العبد في سلوكه وتعبده ، لأنك إذا قرأت هذه الآيات وآمنت بهذا التنزل من الملائكة في هذه اللحظات امتلأ قلبك شوقاً وطمعا أن تكون من هؤلاء الذين تنزل عليهم الملائكة في هذا الوقت العصيب وهذا الوقت الحرج مطمئنة مبشرة قائلة له لا تخاف ولا تحزن ؛ فيحرك هذا الإيمان في قلب الإنسان حب الاستقامة والمحافظة على طاعة الله ، لأنه يعلم من هذه النصوص أنه إذا استقام على طاعة الله وحافظ على عبادة الله ولزم أمر الله تبارك وتعالى كان بإذن الله من هؤلاء الذين تنزل عليهم الملائكة مبشرة له مطمئنة له ، فيكون له أثر على العبد في عبادته وفي سلوكه .

الحديث الذي مر معنا قريبا ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)) والله من الأعظم الأحاديث التي تجعل الإنسان تشتد محافظته على الصلوات ، كيف يليق بإنسان عاقل يعلم أن الملائكة تنزل في هذين الوقتين الفاضلين وأنها في كل يوم تعرج إلى الله ويسألها الله كيف تركتم عبادي فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ، كيف يرضى إنسان لنفسه أنه في مثل هذا الوقت لا يكون في عداد المصلين وإنما في عداد النائمين والمفرطين والمضيعين . فإذا الإيمان بالملائكة له أثر عظيم جدا في العبادة . الخوف من النار ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَظٌ

شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦] لما يتأمل الإنسان في هذا المعنى يتأمل في الآيات الخرى التي تذكر وصاف وأعمال ووظائف للملائكة كل هذه الأمور تجعل الإنسان يكون لها الأثر العظيم في حياة الإنسان وفي عمله .

أنظر إلى أثر الإيمان بالملائكة في قول النبي عليه الصلاة والسلام ((كيف أنعم وقد التقم ملك الصور الصور وأصغى بسمعه ينتظر أن يؤمر)) يعني ينتظر أن يأمره الله سبحانه وتعالى بالنفخ في الصور . فمثل هذه المعاني

والأمور التي تتعلق بالملائكة الإيمان بها استشعارها استحضار الإيمان بها مما يحرك في قلب الإنسان صلاح العمل والاستقامة على الطاعة والبعد عن المعاصي والآثام . الآن من أقدمت نفسه على معصية وارتكاب ذنب من الذنوب ثم ذكر قول الله سبحانه وتعالى ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [١٨:٤] أي كاتب من الملائكة عن يمينه وكاتب من الملائكة عن يساره ، إن كان القول سديدا وصالحا كتب في حسناته ، وإن كان إثما وسيئة كتب في سيئاته ، فإذا استحضر الإنسان أن عليه رقيب وعتيد يكتبان ما يكون منه وما يقوله وما يفعله هذا الاستحضر للملائكة والإيمان بالملائكة الذي يكون حاضر في قلب الإنسان له آثاره العظيمة على العبد في حياته في سلوكه في عبادته لله تبارك وتعالى .

ثم أورد رحمه الله قول الله عز وجل: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢] وهذا فيه بيان حال الملائكة وأنهم أهل خضوع وذل وعبودية لله عز وجل وطوعية لأمره وعدم استنكاف أو استكبار أو امتناع أو إباء عن طاعة الله جل وعلا ، بل هم أهل مداومة وملازمة لعبادة الله ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ولا يستنكفون من عبادة الله والاستكبار عن طاعته جل علا . وقد جاءت هذه الآية قبل آية حذر الله تبارك وتعالى فيها من الغلو ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١] ؛ فحذر فيها تبارك وتعالى من الغلو في الدين ، ومن الغلو في الدين غلو النصارى في عيسى حيث زعموا أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك وعبدوه مع الله ، وأيضا وجد من عبد الملائكة مع الله ، ففي هذا السياق بين الرب تبارك وتعالى بطلان ذلك بقوله ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وهذا يستفاد منه أن العبد لا يُعبد ﴿ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمَلَأُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ، العبد لا يُعبد ليس له حظ من العبادة ، ولهذا بين الله عز وجل بطلان عبادة الملائكة وبطلان عبادة عيسى بقوله ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ؛ فمن كان هذا شأنه مع الله عبد الله لا يستنكف عن عبادة الله يعبد الله يطيع الله كيف يجعل شريكا مع الله في العبادة لو كان عند هؤلاء عقول؟! فالعبادة حق لله تبارك وتعالى ، أما الملائكة والأنبياء والأولياء كل هؤلاء لا يستحقون من العبادة شيء بل هم عبيد لله ، أما العبادة فهي لله وحده أي لا يستنكفون عن عبادة الله تبارك وتعالى ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

والملائكة شأنهم مع الله هو الذل والخضوع والانكسار قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبا: ٢٣] ، جاء في السنة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إذا

تكلم الله بالوحي خرت الملائكة صعقة خضعانا لقوله حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم)) الملائكة مع ضخامة أجسامهم وكبرها وقوتهم على ما سبق وصف بعضه فيما تقدم في الأدلة إذا تكلم الله عز وجل بالوحي صعقت خرت صعقة خضعانا لقوله تبارك وتعالى ، فكيف يُجعل هؤلاء شركاء مع الله تبارك وتعالى في العبادة ، فالملائكة عباد لله سبحانه وتعالى بل قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٢٩] الذي يدّعي من الملائكة أنه إله مع الله ولا يدعون ذلك بل هم عبيد لله مطيعون له يعاقبهم الله سبحانه وتعالى بإدخالهم النار ويصليهم نار جهنم . فالملائكة عبيد لله تبارك وتعالى .

وهذا فيه تنبيه إلى أن التوحيد والعبادة والإخلاص حق لله عز وجل لا شريك لأحد فيه مهما بلغ جسمه من الكبر، ومهما بلغ من القوة والقدرة ، ومهما أيضا بلغ من الفضل والمكانة والمنزلة ؛ العبادة حق لله تبارك وتعالى وليس لله شريك فيها ، لا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يلتجأ إلا إلى الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يطلب المدد إلا من الله تبارك وتعالى وهذا هو معنى قولنا لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله .

ثم أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي له تبارك وتعالى خلقا وملكا تصريفا وتدبرا من في السماوات والأرض ، ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ أي من الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي أنهم في عبادة دائمة لله تبارك وتعالى دون استكبار ودون استحسار أي ملل وسآمة من عبادة الله تبارك وتعالى ، بل هم في عبادة دائمة وطوعية مستمرة ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أي لا يصيبهم الفتور بل هم في عبادة مستمرة لله تبارك وتعالى وتسبيح لله عز وجل في الليل والنهار .

ثم أورد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر: ١] وهذا فيه من صفة الملائكة أنهم أولوا أجنحة ؛ أي جعل الله سبحانه وتعالى لهم أجنحة ، وهم متفاوتون في أعدادها؛ فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته الحقيقية وله ستمائة جناح ، فهذا فيه من صفة الملائكة أنهم أولوا أجنحة ، وأيضا أنهم رسل لله تبارك وتعالى يقومون بتنفيذ أوامره وما يرسله إليه وما يعثهم للقيام به دون معصية أو امتناع أو إباء .

ثم ختم الآيات بقوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٧-٨﴾ فذكر هنا تبارك وتعالى حملة العرش من الملائكة ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ ، وأيضا ذكر تبارك وتعالى من حول العرش من الملائكة فالعرش له حملة ، وحول العرش أيضا حملة ، وقد جُمعوا في الذكر في هذه الآية الحملة ومن حول عرش الرحمن من الملائكة ، وأفرد الحملة بالذكر في قوله تبارك وتعالى ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] ، وأفرد من حول العرش بالذكر في قوله تبارك وتعالى ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] .

وهنا جمع بين الحملة ومن حول العرش قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلُهُ﴾ العرش: عرش الرحمن ونحن نؤمن به ، نؤمن بعرش الرحمن العظيم المجيد الكريم كما وصفه الله تبارك وتعالى بذلك ، ونؤمن بأن له قوائم كما جاء في الصحيح ((وإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)) ، فنحن نؤمن بالعرش وأنه أعظم المخلوقات وأكبرها وسقفها وأثقلها قال عليه الصلاة والسلام ((سبحان الله وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه)) ذكر أثقل الأوزان وهو وزن العرش ، فالعرش أثقل شيء وأكبر شيء وأعظم شيء وله حملة من الملائكة ، وأيضا حوله ملائكة حافون من حول العرش نؤمن بذلك ، ونؤمن بما أخبر الله سبحانه وتعالى بقه من حال هؤلاء أنهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي أنهم في تسبيح دائم وتحميد مستمر لله تبارك وتعالى لا يفترون من ذلك دائما يسبحونه ويحمدون الله عز وجل مداومين على طاعته جل وعلا ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي هم من أهل الإيمان بالله عز وجل .

قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وانظر هنا إلى الرابطة العظيمة الوثيقة بين أهل الإيمان والملائكة ، وحب الملائكة لأهل الإيمان وأهل الطاعة العبادة لله تبارك وتعالى، قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يبين لك أن رابطة الإيمان هي أقوى الروابط ، يدل لذلك أن الملائكة جنس مختلف عن جنس البشر ، الملائكة خلقوا من نور والبشر خلقوا من طين فالملائكة جنسهم آخر ، لكن رابطة الإيمان لما وجدت ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أصبح عندهم هذا الحب لأهل الإيمان والدعاء الدائم المستمر لهم والاستغفار لهم ، اسمع الدعاء الذي يدعو به هؤلاء الملائكة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يدعون بهذه الدعوات العظيمة المباركة لأهل الإيمان لماذا ؟ لأن في رابطة بينهم وهي رابطة الإيمان أقوى الروابط ، ولهذا الإيمان يجمع بين المختلف في الجنس ، ويفرق أيضا بين

المتفق في الجسم والهيئة ، تجدد الأجسام واحدة والهيئة واحدة وأبناء أب واحد ولكن الإيمان يفرق ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فالإيمان يفرق بينهم ويجمع بين حتى من لم يكونوا من جنس واحد ، فكيف بمن هم من جنس واحد!!

فهذا مما يبين أن رابطة الإيمان ورابطة «لا إله إلا الله» هي أقوى الروابط وقد قال الله تبارك وتعالى ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ، ومهما كانت الرابطة بين الناس في غير الله فمآلها إلى الانقطاع قال تعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ، كل صداقة ومحبة في غير الله تتحول إلى عداوة ، ما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل ، فالذي لله هو الذي يدوم وهو الذي يبقى وهو الذي يتصل . فهؤلاء الملائكة ذكر الله سبحانه وتعالى من شأنهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا ويدعون لأهل الإيمان بهذه الدعوات العظيمة المباركة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات .

هذه بعض الآيات التي جاءت في القرآن ، وما ذكر من الآيات التي جاءت في القرآن متعلقة بالملائكة وشأن الإيمان بالملائكة تدل على ما لم يُذكر ، والواجب على المسلم أن يؤمن بكل ما ورد في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بالملائكة الكرام ، والسنة مليئة بالأحاديث التي تتعلق بأعمال الملائكة ووظائف الملائكة وأوصاف الملائكة ، وسيأتي طرف من هذه الأحاديث عند المصنف رحمه الله تعالى .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، اللهم إنا نسألك علماً نافعا ورزقا طيباً وعملاً متقبلاً .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له في كتابه «أصول الإيمان» :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((خُلِقَتِ الملائكة من نور وُخِلِقَتِ الجن وُخِلِقَ آدم مما وُصف لكم)) رواه مسلم . وثبت في بعض أحاديث المعراج ((أنه صلى الله عليه وسلم رُفِعَ له البيت المعمور الذي هو في السماء السابعة وقيل في السادسة بمنزلة الكعبة في الأرض ، وهو بجبال الكعبة ، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم)) .

حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((خُلِقَتِ الملائكة من نور وُخِلِقَتِ الجن وُخِلِقَ آدم مما وُصف لكم)) ؛ هذا الحديث ساقه وأورده رحمه الله تعالى في ((باب ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم)) لأن فيه شيئا يتعلق بخلق الملائكة والشيء الذي خُلِقَ منه الملائكة وأنهم خُلِقُوا من نور ، وعرفنا فيما سبق أن خلق الملائكة كان متقدماً على خلق آدم كما يدل على ذلك آيات في كتاب الله تبارك وتعالى سبق الإشارة إلى بعضها ، فالملائكة خُلِقُوا قبل خلق آدم ووجدوا قبله ، وكان أصل خلقهم أو الشيء الذي خُلِقُوا منه هو النور كما قال عليه الصلاة والسلام ((خلقت الملائكة من نور)) ، وآدم عليه السلام خُلِقَ من طين ، والشياطين خُلِقُوا من النار ؛ ولهذا الأجناس الذي خُلِقَ منها هذه الأصناف الثلاثة مختلفة ؛ الملائكة خُلِقُوا من النور ، وآدم خُلِقَ من الطين ، والشياطين خُلِقُوا من النار . وكنا أيضاً رأينا أثر الإيمان في الجمع بين المفترق جنساً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧٠] ، وأن الملائكة في قلوبهم محبة ومودة لأهل الإيمان ودعوات لأهل الإيمان ، وذلك لجامع الإيمان بين الملائكة والمؤمنين مع اختلاف الجنس ، الملائكة خُلِقُوا من النور، وآدم خُلِقَ من طين ، ولكن رابطة الإيمان تجمع بين المفترق جنساً .

الشاهد من هذا الحديث حديث عائشة رضي الله عنها لهذه الترجمة: أن فيه ذكراً للملائكة وأنهم خُلِقُوا من نور . ثم الحديث الذي بعد أورده المصنف رحمه الله لأن فيه بياناً لكثرة الملائكة وأن عددهم لا يحصى إلا الذي خلقهم ، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما عُرج به إلى السماء وُفِعَ إليه البيت المعمور أخبر عليه الصلاة والسلام أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون ، فإذا كان من يدخل البيت المعمور من الملائكة يومياً سبعون ألف ومن دخل لا يعود ، أي أن من يدخلون البيت المعمور هم غير من دخله في المرات السابقة والمرات الماضية ؛ فهذا فيه دلالة واضحة على كثرة عدد الملائكة وأن عددهم لا يحصى إلا الله جل وعلا ، وثمة نصوص عديدة تدل على كثرة الملائكة سبق الإشارة إلى شيء منها وسيأتي بعضها عند المصنف رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملكٌ ساجدٌ أو ملكٌ قائمٌ فذلك قول الملائكة : ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥-١٦٦] رواه محمد بن نصر وابن أبي حاتم وابن جرير وأبو الشيخ ، وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملكٌ قائمٌ أو ملكٌ ساجدٌ أو ملكٌ راکع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أننا لم نشرك بك شيئاً)).

ثم ساق رحمه الله تعالى هذين الحديثين حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وفيهما أيضاً بيان كثرة الملائكة وكثرة عددهم ، وأيضاً فيه ملازمة الملائكة لعبادة الله وأنهم يعبدون الله عز وجل ويسبحونه ويسجدون له ويخضعون له ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] لا يملكون ولا يسأمون من العبادة وهم في عبادة دائمة ومستمرة لله تبارك وتعالى. وفيه كما قدمت الدلالة على كثرة عدد الملائكة؛ لأن السماوات على اتساعها وتباعد أطرافها ما فيها موضع شبرٍ إلا وفيه ملكٌ ساجدٌ لله تبارك وتعالى ، فهذا يدل على أن عدد الملائكة في السماوات عدد كثير لا يحصيه إلا الله كما يدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] و«كم» هنا تكثيرية فيها بيان وإشارة إلى كثرة عدد الملائكة في السماوات ، وهنا يخبر عليه الصلاة والسلام أن ما في السموات موضع شبرٍ إلا وفيه ملكٌ ساجدٌ لله تبارك وتعالى .

حديث عائشة قال فيه عليه الصلاة والسلام : ((ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملكٌ ساجدٌ أو ملكٌ قائمٌ ؛ فذلك قول الملائكة : ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾)) الصافون: أي القائمون خضوعاً لله تبارك وتعالى صفوفاً قائمة متدلة بين يدي الله تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المداومون على تسبيح الله تبارك وتعالى وحمده وذكره جل وعلا .

وحديث جابر هو بمعناه ويشهد لحديث عائشة رضي الله عنها ؛ ((ما في السماوات السبع موضع قدمٍ ولا شبرٍ ولا كفٍ إلا وفيه ملكٌ قائمٌ أو ملكٌ ساجدٌ أو ملكٌ راکع)) وهذا بمعنى حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ولفظه مقارب للفظ حديثها .

قال: ((فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أننا لم نشرك بك شيئاً))

قال رحمه الله تعالى :

وعن جابر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)) الحديث رواه أبو داود والبيهقي في الأسماء والصفات والضياء في المختارة .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث جابر رضي الله عنه وفيه عظم أجسام الملائكة وكبر أجسامهم وضخامتها ، وأن أجسامهم ضخمة جدًا وكبيرة ولا يعلم كبر أجسام الملائكة وضخامتها إلا الذي خلق الملائكة وأوجدها سبحانه وتعالى . فيقول عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش)) ومر معنا في القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧] ، وقول الله جل وعلا : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] أي ثمانية من ملائكة الله عز وجل .

وفي هذا الحديث يخبر عليه الصلاة والسلام أن الله عز وجل أذن له أن يخبر عن صفة أحد الملائكة الذين يحملون العرش ، ولم يذكر لنا شيئاً من تفاصيل صفته عليه الصلاة والسلام وإنما أشار إلى أمرٍ واحد وهو المسافة التي بين شحمة الأذن والعاتق فقط ، وهذه الإشارة في هذا الحديث إلى المسافة بين شحمة أذن الملك وعاتقه تعطي دلالة واضحة وأمارة بينة إلى كبر جسم هذا الملك وضخامته ، لأنك إذا عرفت أن المسافة بين شحمة الأذن والعاتق مسيرة سبعمائة سنة ، وفي بعض روايات الحديث جاء بلفظ ((تحقق فيه الطير سبعمائة سنة)) ، فإذا كانت المسافة بين شحمة الأذن والعاتق بهذا الطول وبهذا الامتداد فكيف بالمسافات الأخرى بين بقية أجزاء بدنه!! فهذا يعطي مؤشراً واضحاً إلى كبر أجسام الملائكة وضخامتها ، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ما بين عقب الملك وأسفل قدمه مسيرة خمسمائة سنة ؛ فهذا يدل على كبر أجسام هؤلاء الملائكة .

قال ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)) ؛ وفي الحديث إثبات عرش الرحمن وأن له حملة من الملائكة ، وهذا المعنى دل عليه القرآن كما سبق الإشارة إلى الآيات الدالة على ذلك من كتاب الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

فمن سادتهم جبرائيل عليه السلام وقد وصفه الله تعالى بالأمانة وحُسن الخلق والقوة فقال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُورَةَ فَاسْتَوَى ﴿[النجم: ٥-٦] ، ومن شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط عليه السلام وكنَّ سبعاً بمن فيهنَّ من الأمم وكانوا قريباً من أربعمئة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات على طرف جناحه حتى بلغ بهنَّ عنان السماء ، حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديوكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ؛ فهذا هو (شديد القوى) ، وقوله : (ذو مرة) أي : ذو خلق حسن وبهاء وسناء وقوة شديدة ؛ قال معناه ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال غيره : (ذو مرة) أي : ذو قوة ، وقال تعالى في صفته : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢١] أي : له قوة وبأس شديد وله مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند ذي العرش ، (مطاع ثم) أي : مطاع في الملأ الأعلى ، (أمين) ذي أمانة عظيمة ولهذا كان هو السفير بين الله وبين رسله ، وقد كان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات متعددة ، وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين وله ستمائة جناح ؛ روى ذلك البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه . وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته وله ستمائة جناح كلٌّ منها سدَّ الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدرّ والياقوت ما الله به عليم» إسناده قوي . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في حُلَّة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض» رواه مسلم . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((رأيت جبريل منهبطاً قد ملأ ما بين الخافقين عليه ثياب سندس معلق بها اللؤلؤ والياقوت)) رواه أبو الشيخ ، ولابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «جبرائيل: عبد الله ، وميكائيل: عبيد الله ، وكل اسم فيه إيل فهو عبد الله»، وله عن العلي بن الحسين مثله وزاد «وإسرافيل عبد الرحمن» . وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ألا أخبركم بأفضل الملائكة؟ جبرائيل)). وعن أبي عمران الجوني أنه بلغه أن جبرائيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك ؟ قال : ((ومالي لا أبكي فوالله ما جفت لي عين منذ أن خلق الله النار مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها)) رواه الإمام أحمد في الزهد . وللبخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرائيل : ((ألا تزورنا)) فنزلت : ﴿وَمَا تَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم: ٦٤]

أورد المصنف رحمه الله هنا جملاً تتعلق بجبريل عليه السلام الذي هو أشرف الملائكة وأفضلهم ومقدمهم، وله كما أشار المصنف المكانة العالية والمنزلة الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى ، وهو السفير بين الله وبين رسله ، فهو الذي ينزل بوحى الله عز وجل على الرسل ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] فهو السفير وهو الواسطة في إبلاغ شرع الله تبارك وتعالى إلى الرسل الكرام ، فذكر هنا رحمه الله تعالى جملاً تتعلق بخير الملائكة وأفضل الملائكة جبريل عليه السلام .

قال : ((فمن سادتهم)) ومعنى من سادتهم: أي من مقدم الملائكة وخيارهم وأفضلهم جبريل ، والسيد: هو المقدم على غيره ، السيادة تعني الأولوية والتقدم والرفعة، وجبريل عليه السلام هو أشرف ملائكة الله تبارك وتعالى وأفضلهم .

قال: ((فمن سادتهم جبرائيل عليه السلام)) يقال «جبرائيل» ويقال «جبريل» وكلُّ منهما لفظ صحيح ، ومعناه كما سيأتي كلمة تعني عبد الله . وكل اسم فيه إيل فهو عبدٌ أو معبد يقال إسرافيل ميكائيل جبرائيل ، فكل ما كان مضافاً إلى إيل فهو عبدٌ ؛ عبد الله ، عبيد الله ، عبد الرحمن وهكذا .

قال: ((فمن سادتهم جبرائيل عليه السلام وقد وصفه الله تعالى بالأمانة وحُسن الخلق والقوة)) هذه ثلاث صفات :

❖ «الأمانة» : أي أنه أمين ، والأمانة ضد الخيانة ، فهو أمين أي يقوم بالمهام التي توكل إليه ويؤمر بها على أتم ما يكون دون إخلالٍ أو إقلالٍ أو تفريط بل يقوم بها بوفاء ، فهو أمين ، وقد وصفه الله تبارك وتعالى بالأمانة في آيات من القرآن الكريم ، منها قول الله تعالى: ﴿ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ ﴾ [التكوير: ٢١] وستأتي عند المصنف ، وقول الله عز وجل ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ، فالأمانة من صفاته عليه السلام ، فهو أمين والأمانة صفته .

❖ ثم ذكر الصفة الأخرى قال: «وحُسن الخلق»؛ أي أن هيئته ومنظره ومראה وجسمه في جمال وحسن وبهاء عظيم، وهذا يدل عليه قول الله عز وجل ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ [النجم: ٦] أي ذو جمال وبهاء وحسن كما يأتي تفسير هذا بذلك عند ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ذو خلق حسن وبهاء وسناء وقوة» ، فمن معاني ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ البهاء والجمال والحسن أي حسن الهيئة وجمال الخلق وحسن المرأى والمنظر ، فكانت صفته عليه السلام كذلك .

❖ «والقوة» أي أن الله عز وجل أعطاه قوة ، وسيشير المصنف رحمه الله تعالى إلى مثال يدل على قوة هذا الملك العظيمة وأنه شديد القوى ، أعطاه الله عز وجل قوة شديدة ، وهذا يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ [النجم: ٥] أي جبريل عليه السلام ، فجبريل أعطاه الله سبحانه وتعالى قوة عظيمة .

إذاً هذه ثلاث صفات لهذا الملك وهي الأمانة وحسن الخلق والقوة .

قال : ((فقال تعالى)) أي في وصفه بذلك : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (٥) ذُومِرَّةَ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿[النجم: ٥-٧]﴾ ؛ ﴿عَلَّمَهُ﴾ أي علم النبي عليه الصلاة والسلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ أي جبريل عليه السلام وهذه صفته ، ذكره الله تبارك وتعالى بصفته وأنه شديد القوى أي أعطاه الله سبحانه وتعالى قوة عظيمة وشدة عظيمة خصه تبارك وتعالى بها . قال : ﴿ذُومِرَّةَ﴾ قيل في معناها أي ذو جمال وحسن وبهاء وهو الأقرب ، وقيل في معناها أي ذو قوة وشدة لكن الأقرب أن المعنى في قوله ﴿ذُومِرَّةَ﴾ أي ذو جمال وبهاء وحسن .

قال : ((ومن شدة قوته)) أي جبريل عليه السلام ((أنه رفع مدائن قوم لوط عليه السلام وكن سبعا)) أي سبع مدن كبيرة فيها سكان وفيها المباني وفيها الماشية وفيها الزروع جميع هذه المباني السبع الكبيرة ((رفعها عليه السلام بطرف جناحه)) أي أقلها من الأرض ونهضها إلى السماء رفعها عاليًا بطرف جناحه ، وهذا من الدلائل على عظم قوة هذا الملك عليه السلام .

قال : ((رفع مدائن قوم لوط عليه السلام وكن سبعا بمن فيهن من الأمم وكانوا قريباً من أربعمئة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدائن من الأراضي والعمارات على طرف جناحه)) أي رفع هذه المدائن بمن فيها على طرف جناحه ، هذا شاهد ومثال لقوة هذا الملك عليه السلام .

قال : ((حتى بلغ بمن عنان السماء)) أي وصل بمن إلى عنان السماء أي المكان العالي الرفيع ، وعنان السماء : هو ما يقارب السحاب أو يعلو على السحاب ، وهذا اللفظ جاء في حديث النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي يقول الله تعالى : ((يا ابن آدم لو بلغت ذنوب السماء)) ، قيل في المعنى : أي العالي الرفيع من السماء ، والسماء هو العلو؛ أي رفعها عاليًا إلى عنان السماء أي إلى العالي الرفيع ، أو إلى ما يقارب السماء المبنية التي هي السماء الدنيا .

قال : ((حتى بلغ بمن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم)) وهذا فيه إشارة إلى أنه رفعهم رفعًا إلى مسافة قريبة من السماء حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديكهم .

((ثم قلبها)) أي كفأ هذه الأراضي بمن فيها ((فجعل عاليها سافلها)) وهكذا كانت نهاية قوم لوط الذين كذبوه وعصوه وأتوا الفواحش والخسائس ونصحهم ونهاهم وأنذرهم وحذرهم .

قال : ((فجعل عاليها سافلها فهذا هو ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾)) يعني هذا مثال على شدة قوة جبريل عليه السلام .

قال : ((وقوله {ذو مرة} معناه أي : ذو خلق حسن)) أي بهاء في الخلق وجمال في الخلق وحسن في المرأى والمنظر . قال : ((ذو خلق حسن وبهاء وسناء وقوة وشدة)) فهذه المعاني يدل عليها قوله ﴿ذُومِرَّةَ﴾ ؛ أي ذو

جمال وحسن وبهاء ، وأيضا من المعنى وقوة وشدة . ((قال معناه ابن عباس)) أي جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما .

((وقال غيره : { ذو مرة } أي : ذو قوة)) معنى (ذو مرة) أي : ذو قوة ، والأقرب أن معنى ذو مرة أي ذو جمال وذو بهاء وذو حسن ، وأما الشدة والقوة فقد دل عليها قوله سبحانه وتعالى في السياق نفسه ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ فهذا يعطي معنى القوة ، وقوله تعالى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ يعطي معنى الحسن والجمال والبهاء والسناء كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما .

((وقال تعالى في صفته)) أي في صفة جبريل ﴿إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] وإضافة القول الذي هو القرآن إلى جبريل إضافة إبلاغ وأداء ، وإلا القول هو كلام الله عز وجل سمعه جبريل من الله تبارك وتعالى كما قال جل وعلا في آية أخرى ﴿وَإِنَّهٗ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] ، فالإضافة هنا إضافة إبلاغ وأداء ، نظيرها إضافته أي القول إلى نبينا عليه الصلاة والسلام في قوله تبارك وتعالى ﴿إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴿ [الحاقة: ٤٠-٤١] فهذا أضيف القول إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم إضافة إبلاغ وأداء .

قال: ﴿إِنَّهٗ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ ﴿ هذه صفة لجبريل وصفه الله تبارك وتعالى بالقوة قال ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿ ؛ وصفه بالقوة ، ووصفه بأنه مكين عند ذي العرش ؛ أي له مكانة عالية ومنزلة رفيعة ورتبة سنية ، هذا معنى قوله جل وعلا ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ .

إذا وُصف هنا بالقوة قال ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ووصف أيضا بأنه ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي عند الله تبارك وتعالى .

﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أي في الملأ الأعلى ، ما قاله لهم وما أمرهم به أطاعوه ، فهو مطاع يُمتثل أمره ولا يتردد أحد في الاستجابة لما يأمر به ، ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أي مطاع في الملأ الأعلى . ﴿أَمِينٌ﴾ أي ومن صفاته الأمانة .

فهذه عدة صفات اجتمعت لجبريل عليه السلام في هذه الآية :

❖ الصفة الأولى: أنه رسول لله تبارك وتعالى يقوم بإبلاغ أوامره للملائكة وأيضا للرسول من البشر ، فهو واسطة بين الله عز وجل وبين خلقه في إبلاغ أمره .

❖ قال ﴿كَرِيمٌ﴾ ؛ أيضا من صفاته عليه السلام: الكرم ، والكرم هذه الكلمة معناها واسع وهي من الكلمات التي تدل على المعاني الواسعة ، فالكرم يدل على حُسن الخلق وطيب المعاملة والبذل والسخاء والإنفاق والجود وغير ذلك من المعاني التي يتناولها الكرم ، وأيضا من معاني الكرم الحُسن ، فالكرم له معاني كثيرة جدا والله تبارك وتعالى وصف جبريل عليه السلام بأنه كريم . إذا الصفة الثانية الكرم .

❖ الصفة الثالثة: القوة في قوله تعالى ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي صاحب جسم قوي وشديد ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ كما في الآية المتقدمة .

❖ والصفة الرابعة لجبريل في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ﴾ أي أن له مكانة عليّة ورتبة سنية ومنزلة رفيعة عند ذي العرش ؛ أي عند الله تبارك وتعالى هذه الصفة الرابعة .

❖ الخامسة في قوله تعالى: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ ؛ وأن جبريل عليه السلام مطاع في الملأ الأعلى ويحييون ما يأمرهم ويمتنعون ما ينهون .

❖ والصفة السادسة: الأمانة قال ﴿أَمِينٌ﴾ .

فهذه صفات ست جمعها الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام في هذه الآية الكريمة .
يقول المصنف رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية وبيان معناها ((أي : له قوة وبأس شديد)) هذا معنى قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ ؛ معنى قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي له قوة وبأس شديد .

((وله مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند ذي العرش)) وهذا معنى قوله ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ﴾ أي له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند ذي العرش ؛ أي عند الله تبارك وتعالى .

وما يضاف إلى الله عز وجل بـ«ذو» ؛ يقال ذو العرش أو نحوها من الإضافات ، إما أن تكون إضافة خلق أو إضافة وصف ، فإذا أضيف المخلوق إلى الله عز وجل مثل العرش هنا قال ﴿ذِي الْعَرْشِ﴾ فهذه إضافة خلق .

أما في مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨] إضافة القوة إلى الله عز وجل إضافة وصف ، وكذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] إضافة الجلال وإكرام إلى الله عز وجل إضافة وصف .

والضابط في هذا الباب: إذا أضيفت الأعيان القائمة بنفسها إلى الله فإضافتها إليه إضافة خلق ، وإذا أضيف إليه المعاني والصفات التي لا تقوم إلا بموصوف فإضافتها إليه تبارك وتعالى إضافة صفة . وقوله هنا ﴿ذِي

الْعَرْشِ﴾ إضافة العرش إلى الله عز وجل إضافة خلق ، وهي إضافة تقتضي التشريف والتكريم .

قال: ﴿مُطَاعَ ثَمَّ﴾ معنى هذه الكلمة ((أي : مطاع في الملاء الأعلى)) أي في الملائكة الكرام ، ومن أسماء الملائكة الملاء الأعلى ، ونحن عرفنا فيما سبق أن هناك أسماء تجمع الملائكة وتشملهم مثل: الملائكة ، وجند الله ، والملاء الأعلى ، والسفرة ، والكرام البررة ، ونحو ذلك من الأسماء والأوصاف التي تجمع الملائكة وتشملهم .

قال ﴿أَمِينٌ﴾ وهذه الصفة السادسة في الآية المتقدمة لجبريل عليه السلام قال {أمين} أي ذي أمانة عظيمة أي صاحب أمانة عظيمة . قال : ((ولهذا كان هو السفير بين الله وبين رسله عليهم السلام)) أي في إبلاغ شرعه ووحيه وكلامه تبارك وتعالى إلى الرسل الكرام .

قال : ((وقد كان يأتي -أي بالوحي- إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات متعددة)) وكنا أيضا عرفنا فيما يتعلق بصفة الملائكة أن الله أعطاهم قدرة على التشكل ، فكان يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات متعددة ؛ جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام على صورة أعرابي شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه من الصحابة أحد ، فجاء على هذه الصورة ، وجاء على صورة دحية الكلبي رضي الله عنه وكان من الصحابة الذين أوتوا جمالا وحُسنا في الهيئة والخلق ، فجاء على صورته ، فكان يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام على صفات متعددة .

((وقد رآه على صفته التي خلقه الله عليها مرتين وله ستمائة جناح وقد سد عظم خلقه الأفق)) من كبر جسمه قال ((وله ستمائة جناح ؛ روى ذلك البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه)) .

قال : ((وروى الإمام أحمد عن عبد الله أي ابن مسعود رضي الله عنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته)) أي التي خلقه الله تبارك وتعالى عليها ((وله ستمائة جناح كل جناح منها سد الأفق)) وهذا أيضا يدل على عظم خلق هذا الملك .

قال : ((يسقط من جناحه من التهاويل والدرّ والياقوت ما الله به عليم)) «يسقط من جناحه» أي من جناح جبريل «من التهاويل» أي الأمور العجيبة «والدر والياقوت ما الله به عليم» ؛ فهذه صفة لجبريل أو بيان لعدد أجنحته وصفة لأجنحة جبريل عليه السلام ، وأن كل جناح منها سد الأفق ، وأنه يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم .

قال : ((وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في حُلَّة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض)) وهذا فيه أيضًا رؤية النبي عليه الصلاة والسلام عندما رأى جبريل أنه رآه على هذه الهيئة وعليه حلة خضراء ، والحلة: هو ما يُلبس ؛ فعليه حلة لونها أخضر وقد ملأ ما بين السماء والأرض أي سد الأفق وغطى ما بين السماء والأرض ، رآه النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن كانوا أحياء من الناس في ذلك الوقت لم يروا شيئا ، وهذا من دلائل قدرة الله تبارك وتعالى وأنه عز وجل على كل شيء قدير .

قال : ((وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت جبريل منهبطاً -أي نازلاً- قد ملأ ما بين الخافقين ، عليه ثياب سندس معلقٌ بها اللؤلؤ والياقوت)) وهذا بمعنى حديث عبد الله بن مسعود المتقدم ، قد ملأ ما بين الخافقين أي سد الأفق كما في الرواية الأخرى ، عليه ثياب سندس وفي الحديث الذي قبله أنه رآه عليه حلة خضراء ، معلق بها اللؤلؤ والياقوت .

قال : ((ولابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جبرائيل عبد الله)) أي معنى هذا الاسم وهي كلمة عبرانية معناها عبد الله . قال : ((جبرائيل عبد الله ، وميكائيل عبيد الله ، وكل اسم فيه إيل فهو عبدُ الله)) أي معبّد لله تبارك وتعالى .

قال : ((وله -أي ابن جرير- عن العلي بن الحسين مثله ، وزاد : وإسرافيل : عبد الرحمن)) أي معنى إسرافيل : عبد الرحمن .

قال : ((وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بأفضل الملائكة ؟ جبريل)) وهذا فيه فضل هذا الملك وأنه مقدم الملائكة وسيدهم ، وهذا المعنى يدل عليه شواهد كثيرة ودلائل عديدة في القرآن وفي سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ومن الشواهد عليه في القرآن : الآية المتقدمة ؛ قول الله عز وجل : ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٌ﴾ أي له مكانة ومنزلة ، ولهذا قال المصنف : ((ولهذا كان السفير بين الله تبارك وتعالى وبين رسله)) أي في إبلاغ شرعه ووحيه .

قال : ((وعن أبي عمران الجوني أنه بلغه)) وعمران تابعي وبلاغات التابعين مرسله ((أن جبرائيل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي)) أي جبريل كان يبكي جاء باكياً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ((فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك؟)) أي ما الشيء الذي يبكيك ؟ ((قال : وما لي لا أبكي فوالله ما جفت لي عين منذ أن خلق الله النار مخافة أن أعصيه فيقذفني فيها)) أي في النار .

قال : ((وللبخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبرائيل : ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟)) أي ألا تكثر من زيارتنا أكثر من الزيارة التي تأتينا؟ ((فنزلت ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤])) وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل ((ألا تزورنا)) فيه دلالة على حبه عليه الصلاة والسلام لجبريل وحبه لزياراته ومحبيته إليه وفرحه عليه الصلاة والسلام بذلك ، ولهذا طلب من جبريل أن يكثر من الزيارة ؛ ((ألا تزورنا أكثر مما تزورنا)) يطلب منه أن يكثر من الزيارة فنزل قول الله تعالى : ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ ؛ وهذا فيه أن جبريل وغيره من الملائكة لا يقومون بشيء إلا عن أمر الله تبارك وتعالى . فنزل قوله ﴿وَمَا تَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الآية .

قال رحمه الله تعالى :

ومن ساداتهم ميكائيل عليه السلام وهو موكل بالقطر والنبات . وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبرائيل : ((ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ قال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار)). .

ثم قال رحمه الله تعالى : ((ومن ساداتهم)) أي من سادات الملائكة ميكائيل عليه السلام ، قال : ((وهو موكل بالقطر والنبات)) أي وكل الله عز وجل إليه أمر القطر والنبات ونزول الأمطار وأمر السحاب ؛ وكل الله عز وجل ذلك إلى ميكائيل .

وأورد فيما يتعلق بميكائيل هذا الحديث الذي رواه أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبرائيل : ((ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ قال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار)) يعني منذ خلقت النار ورآها قال ما ضحك قط أي منذ ذلك الوقت ، وهذا بمعنى ما جاء في بلاغ أبي عمران الجوني فيما يتعلق بجبريل عليه السلام .

قال رحمه الله تعالى :

ومن ساداتهم إسرئيل عليه السلام ؛ وهو أحد حملة العرش ، وهو الذي ينفخ في الصور . روى الترمذي وحسنه والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر فينفخ)) قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟ قال : ((قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا)). . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إن ملكاً من حملة العرش يقال له إسرئيل زاوية من زوايا العرش على كاهله ، قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى ، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا)) رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية ، وروى أبو الشيخ عن الأوزاعي قال : ((ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرئيل ، فإذا أخذ في التسبيح قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم)). .

ثم ذكر ما يتعلق بإسرئيل عليه السلام وهو من سادات الملائكة ، وهؤلاء الملائكة جبريل وميكائيل وإسرئيل هم سادات الملائكة ومقدموهم ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام إذا قام يصلي من الليل توسل إلى الله عز وجل بروبيته لهؤلاء الملائكة ، يخصصهم بالذكر لشرفهم ولأنهم سادات الملائكة ومقدموهم ، كان يقول عليه الصلاة

والسلام: ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)). قال رحمه الله: ((ومن ساداتهم إسرافيل عليه السلام وهو أحد حملة العرش)) وهذا بناء على حديث ابن عباس الآتي ذكره عند المصنف .

قال : ((وهو الذي ينفخ في الصور)) وهذا قول جماهير أهل العلم أن الذي ينفخ في الصور من الملائكة هو إسرافيل ، قد جاء في كثير من الأحاديث ذكر النافخ في الصور دون أن يُذكر اسمه كما سيأتي في الحديث ((كيف انعم وقد التقم ملك الصور وأصغى بسمعه)) ، قال «ملك الصور» وفي بعض الروايات «صاحب الصور» ، وجماهير أهل العلم على أن الموكول إليه النفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام ، ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه من سر توسل النبي عليه الصلاة والسلام لله عز وجل بربوبيته لهؤلاء الملائكة الثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل: لأن هؤلاء الثلاثة موكول إليهم ما يتعلق بالحياة ؛ «جبريل» موكول إليه الوحي الذي به تحيا القلوب ، و«ميكائيل» موكول إليه القطر الذي به يحيي الناس والنبات والدواب، و«إسرافيل» موكول إليه النفخ في الصور الذي فيه حياة الأبدان. فهؤلاء الثلاثة موكول إليهم ما يتعلق بالحياة .

قال: ((روى الترمذي وحسنه والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن)) والقرن هو الصور الذي ينفخ فيه قال الله تعالى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، فالصور فسره النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث عندما سئل عنه قال : ((قرن يُنفخ فيه)) ، وهنا قال ((صاحب القرن)) أي الذي وكل إليه النفخ في القرن ، والصور هو قرن ينفخ فيه .

قال: ((وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى بسمعه)) وهذه الصفة حنى الجبهة والإصغاء بالسمع إشارة إلى شدة التركيز والانتباه والانتظار للإذن أو للأمر بالنفخ في الصور . وفيه أن الملائكة سواء إسرافيل أو غيره لا يقومون بشيء من الأعمال إلا عن أمر الله تبارك وتعالى وإذنه ، ولهذا قال : ((ينتظر متى يؤمر فينفخ)) أي ينفخ في الصور .

((قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟)) لأن هذا الأمر يخيف الإنسان ويدخل في قلبه خوفاً .

((قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا)) وهذه الكلمة دلت النصوص في القرآن وفي السنة أن المسلم يقولها عندما يخاف من شيء أو عندما يتسلط عليه عدو أو نحو ذلك ، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وقالها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهِمُ النَّاسُ

إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

قال : ((وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن ملكاً من حملة العرش يقال له إسرافيل زاويةً من زوايا العرش على كاهله ، قد مرقت -أي دخلت وساخت- قدماه في الأرض السابعة السفلى ، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا)). قال ((رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية)) أي في حلية الأولياء ، والحديث في سنده كلام .

قال : ((وروى أبو الشيخ)) أي في كتابه العظمة وهو مطبوع ((عن الأوزاعي رحمه الله تعالى قال : ليس أحدٌ من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل ، فإذا أخذ في التسبيح قطع على أهل سبع سماوات صلاتهم وتسبيحهم)) وهذا من قول الأوزاعي رحمه الله تعالى ، ومثل هذا يحتاج إلى الوقوف على دليل وشاهد عليه من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، كما قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله «كلٌ يحتج لقوله لا به إلا الله ورسوله».

قال رحمه الله تعالى :

ومن ساداتهم ملك الموت عليه السلام ، ولم يجئ مصرحاً باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة ، وقد جاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل فالله أعلم . قاله الحافظ ابن كثير .

قال : ((ومن ساداتهم)) أي الملائكة ((ملك الموت)) وجاء ذكر هذا الملك بصفته لم يذكر اسمه لا في القرآن ولا في السنة وإنما ذكرت صفته؛ قال الله تعالى ﴿قُلْ يَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ، فهذا ملك من سادات الملائكة وكل الله عز وجل إليه قبض الأرواح وتوفي الناس .

قال : ((ومن ساداتهم ملك الموت عليه السلام ، ولم يجيء مصرحاً باسمه لا في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة)) أي ليس هناك دليل لا في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر اسم هذا الملك ، وأما تسميته بعزرائيل وهو مشهور على ألسنة كثير من الناس فهذا الاسم لم يأت لا في القرآن ولا في السنة الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام وإنما جاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل ، ولهذا قال : ((فالله أعلم باسمه)) لا يسمى بهذا الاسم ولا يجزم أن اسمه عزرائيل ما دام أنه لم يثبت على ذلك دليل .

قال رحمه الله تعالى :

وقال : إنهم بالنسبة إلى ما هيأهم له من أقسام فمنهم حملة العرش ، ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم مع حملة العرش أشرف الملائكة ، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : ﴿لَنُيَسِّنِّكَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] .

قال رحمه الله تعالى : ((إنهم -أي الملائكة عموماً- بالنسبة إلى ما هيأهم له أقسام)) وهنا شرع رحمه الله تعالى في ذكر وظائف الملائكة وأعمال الملائكة ومهام الملائكة ، وأنهم أقسام أي باعتبار ما وكل الله تبارك وتعالى إليهم من مهام وأعمال ووظائف .

قال : ((فمنهم حملة العرش)) أي من وكل الله سبحانه وتعالى إليهم هذا الأمر ، وهذا جاء في القرآن وفي السنة الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧] وقوله ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] .

قال : ((ومنهم الكروبيون)) وهذا الوصف لم يأت فيما أعلم في شيء من الأحاديث الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام وإنما جاء في بعض الآثار ، والكروبيون قيل في المعنى أقوال منها : أي المقربون إلى الله عز وجل ، ووُصفهم بالمقربين مر معنا ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] . قال : ((ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش)) وهنا فسر الكروبيون من الملائكة أي المقربون من الملائكة ممن هم حول عرش الرحمن ، قال عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] ، وقال ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧] .

قال : ((الذين هم حول العرش وهم مع حملة العرش أشرف الملائكة وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢])) .

قال رحمه الله تعالى :

ومنهم سكان السماوات السبع يعمرونها عبادة دائمة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً كما قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الانبيا: ٢٠] ومنهم الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور . قلت : الظاهر أن الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور سكان السماوات . ومنهم موكلون بالجنان وإعداد الكرامات لأهلها وهيئة الضيافة لساكنيها ، من ملابس ومآكل ومشارب ومصاغ ومساكن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال: ((ومنهم سكان السماوات السبع يعبرونها عبادةً دائمة ليلاً ونهاراً صباحاً ومساءً كما قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾)) أي لا يملون ولا يكلون ولا يسأمون بل هم في عبادة دائمة لله تبارك وتعالى وتسبيح مستمر بالليل والنهار دون سآمة أو ملل .

قال : ((ومنهم الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور . قلت : الظاهر أن الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور سكان السماوات)) أي من هم من عمار السماوات من الملائكة فهم الذين يتعاقبون إلى البيت المعمور؛ أي الذين يدخلونه أفواجا أفواجا ، كل فوج منهم عددهم سبعون ألف ، ومن دخله لا يدخله مرة ثانية .

قال: ((ومنهم موكلون بالجنان وإعداد الكرامات لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها؛ من ملابس وماكل ومشارب ومصاغ ومساكن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) فمن الملائكة من وكل إليه ما يتعلق بالجنة ، وقد جاء في بعض الروايات ولم يثبت في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن «رضوان» خازن الجنة كما أن «مالك» خازن النار كما سيأتي ، لكنه لم يأت في ذلك حديث صحيح يرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله تعالى :

ومنهم الموكلون بالنار أعادنا الله منها وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك وهو مقدم على الخزنة وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] ، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُؤْنَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وقال تعالى : ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴿ إلى قوله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المائدة: ٣٠-٣١] .

قال ((ومنهم الموكلون بالنار أعادنا الله منها وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر)) أي مقدم زبانية النار من الملائكة تسعة عشر كما قال الله عز وجل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المائدة: ٣٠] أي على النار من الملائكة تسعة عشر . قال : ((وخازنها مالك)) أي خازن النار والمقدم على هؤلاء جميعاً مالك ، وجاء اسمه في القرآن في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وخصوه بالنداء دون غيره من الملائكة: لأنه مقدم الملائكة .

قال: ((وخازنها مالك وهو مقدّم على الخزنة ؛ وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ
 جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ
 مَا كُنْتُمْ ﴾ [الزخرف: ٧٧])) أي باقون في النار مخلدون فيها أبد الآباد ((وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا
 يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النجم: ١٠])) .

قال رحمه الله تعالى :

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ
 اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] ، قال ابن عباس : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء أمر الله خلّوا عنه ، وقال
 مجاهد : ما من عبدٍ إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه
 يريد به إلا قال له وراءك ، إلا شيء يأذن الله تعالى فيصيبه . ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى
 : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
 عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٧-١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا
 تَفْعَلُونَ ﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢] .

ثم قال رحمه الله تعالى : ((ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم)) أي الذين وكل الله عز وجل إليهم حفظ بني آدم ؛
 أي من أن يصيبهم شيء إلا شيء أذن الله تبارك وتعالى به أن يصيبهم . قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ ﴾ أي من
 الملائكة ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ؛ ومعنى قوله ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ : أي بأمر الله
 تبارك وتعالى .

((قال ابن عباس في معنى الآية : أي ملائكة يحفظونه - أي يحفظون الإنسان - من بين يديه ومن خلفه ، فإذا
 جاء أمر الله خلّوا عنه)) أي إذا جاء أمر الله عز وجل بأن يصيبه الشيء خلّوا عنه فأصابه الشيء الذي أذن الله
 تبارك وتعالى أن يصيبه .

قال: ((وقال مجاهد : ما من عبدٍ إلا وملكٌ موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام)) أي يحفظه
 من الجن ومن الإنس ومن الهوام .

((فما منها شيء يأتيه يريد به إلا قال له وراءك)) أي إلا رده الملك وأرجعه .

((إلا شيء يأذن الله تعالى فيه)) أي يأذن تبارك وتعالى به أن يصيب الإنسان ، قال: ((فيصيبه)) أي يصيبه ما أذن الله تبارك وتعالى أن يصيبه ، إما من أذى الجن أو أذى الإنس أو الهوام أو السباع أو غير ذلك .

قال : ((ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد كما قال تعالى : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾)) أي ملكان كاتبان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتب السيئات . وقال تعالى : ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وهؤلاء الحفظة من الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد ويطلعون على أعمالهم وهم على مقربة منهم .

قال رحمه الله تعالى :

روى البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط أو غيره)) ، وقال الحافظ ابن كثير : ومعنى إكرامهم : أن يستحي منهم فلا يُملي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها فإن الله خلقهم كراماً في خلقهم وأخلاقهم ، ثم قال ما معناه : «إن من كرمهم أنهم لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا جُنُب ولا تمثال ولا يصحبون رفقة معهم كلب أو جرس» .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما والحديث أيضا في سنده شيء من الكلام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن الله ينهاكم عن التعري)) والمراد بالنهي عن التعري أي فيما لا يحتاج إليه الإنسان وما لا يضطر إليه الإنسان ، ولا يتعري إلا بحدود الضرورة ، وإذا كان التعري بكشف العورة لقضاء الحاجة فإن أيضا هذا الأمر لا يُفعل إلا في حدود الحاجة ، وإذا كان يقضي حاجته في العراء يبعد عن الناس ولا يرفع ثوبه إلا إذا دنى من الأرض ويتوارى عن الأنظار بشجرة أو نحو ذلك .

قال: ((إن الله ينهاكم عن التعري فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط والجنابة والغسل ، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذم حائط - أي طرف حائط - أو غيره)) ، والوصية بالستر وعدم التعري وأن يكون ذلك في حدود الحاجة هذا دلت عليه شواهد عديدة في هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنته القويمة صلوات الله وسلامه عليه ، والاستحياء من الملائكة أيضا جاءت به السنة قال عليه الصلاة والسلام: ((ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)) .

((قال الحافظ ابن كثير : ومعنى إكرامهم -أي الملائكة- أن يستحي منهم ؛ فلا يُعْلِي عليهم الأعمال القبيحة التي يكتبونها)) هذا من إكرام الملائكة ، من إكرام الإنسان للملائكة أن يستحي منهم وأن لا يعلّي عليهم أعمالا يكتبونها سيئة ، وهذا فيه أن العبد عندما يباشر الأعمال السيئة والأعمال القبيحة هذا يتنافى مع الحياء من الملائكة ، لأنه لو كان يستشعر أن الملائكة معه ويرونه ويكتبون ما يفعل لاستحيا من الملائكة وامتنع من أن يعلّي عليهم أي يجعلهم يكتبون كلاما او أعمالا سيئة يقوم بها ؛ وهذا فيه الثمرة العظيمة الكبيرة التي ينالها ويفوز بها من يستحضر هذا الأصل العظيم الذي هو الإيمان بالملائكة ، فإذا استحضر الإنسان هذا الأصل العظيم ألا وهو الإيمان بالملائكة فإنه بإذن الله عز وجل يحجزه عن السيئات ويحرك فيه الإقبال على الطاعات والعبادات .

قال : ((فإن الله خلقهم -أي الملائكة- كراماً في خلقهم وأخلاقهم)) وهذا فيه شاهد لما سبق وهو أن الكرم معناه واسع ، فوصف الملائكة بأنهم كرام هذا يدل على كثرة الصفات الحسنة الجميلة الطيبة فيهم ؛ الصفات الخلقية والصفات الخلقية .

((ثم قال ما معناه -أي قال ابن كثير رحمه الله- إن من كرم الملائكة أنهم لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا جُنب ولا تمثال ، ولا يصحبون رفقة معهم كلب أو جرس)) وهذا جاء في معناه بعض الأحاديث تُرفع إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه .

ولا يزال الكلام موصولاً عند المصنف رحمه الله تبارك وتعالى فيما يتعلق بوظائف الملائكة ، ولعلنا نكتفي بهذا ، والله تعالى أعلم . صلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الخامس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً .

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له في كتابه «أصول الإيمان» :

باب ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم

وروى مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)) ، وفي رواية : أن أبا هريرة قال : اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الاسراء: ٧٨] .

هذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه أورده المصنف رحمه الله في «باب ذكر الملائكة عليهم السلام والإيمان بهم» ؛ لأن في هذا الحديث ذكراً لوظيفة من وظائف الملائكة وعملاً من أعمال الملائكة ألا وهو التعاقب على الناس بالليل والنهار؛ ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)) والتعاقب: هو أن يأتي فوج أو جماعة ثم يعقبه فوج آخر ، فيصعد فوج ويعرج فوج، ((يتعاقبون فيكم)) أي يأتي جماعات عقب جماعات من ملائكة الله عز وجل ويشهدون أعمال العباد ، وهؤلاء الملائكة غير الحفظة الذين يكتبون أعمال العباد على الصحيح من أقوال أهل العلم في معنى هذا الحديث .

قال: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)) ؛ فهؤلاء ملائكة وكل الله عز وجل إليهم التعاقب على العباد ، ويجتمعون في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ فمن نزل من الملائكة في صلاة الفجر صعد في صلاة العصر ، ويحصل لهؤلاء الملائكة المتعاقبين الاجتماع في هاتين الصلاتين، أي يجتمع النازل من الملائكة مع من أراد الصعود والعروج من الملائكة ، فيحصل اجتماع لهؤلاء الملائكة في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر، أي أنهم يشهدون الصلاة ويحضرونها ويرون المصلين في صلاتهم، كما تلا أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه في معنى هذا الحديث قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الاسراء: ٧٨] أي تشهده الملائكة ، وهذا الحديث مما يوضح ويبين معنى الآية ، مشهودا : أي تشهده الملائكة وتحضره الملائكة .

قال: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر)) أي أن هؤلاء الملائكة المتعاقبين يجتمعون في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر بحيث أن من أراد منهم العروج يجتمع مع النازل من الملائكة في هاتين الصلاتين العظيمتين؛ صلاة الفجر وصلاة العصر ، وهما أفضل الصلوات كما يدل على ذلك أحاديث عديدة ثابتة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم)) هذا فيه من الفائدة أن من نزل من الملائكة مثلاً في صلاة العصر فإنه يبات أي يبقى في الأرض إلى أن يأتي وقت صلاة الفجر ، ويكون عروجهم في وقت صلاة الفجر بحيث يجتمعون

وقت هذه الصلاة مع الملائكة الذين نزلوا وقت صلاة الفجر ، فيصعد أو يعرج من الملائكة من نزلوا في صلاة العصر ويبقى الملائكة الذين نزلوا في صلاة الفجر .

قال: ((**فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم -أي الله جل وعلا- وهو أعلم**)) أي أعلم بالملائكة وأعلم بالناس وأعلم بكل شيء تبارك وتعالى ، فإنه عز وجل أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

فيسأل تبارك وتعالى الملائكة يقول لهم جل وعلا : ((**كيف تركتم عبادي؟**)) وهذا فيه إثبات صفة الكلام لله عز وجل على الوجه اللائق بجلاله وكماله وعظمته ، وأنه تبارك وتعالى يتكلم بما شاء متى شاء سبحانه وتعالى على الوجه اللائق بجلاله سبحانه .

قال: ((**فيقول كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**)) أي أن الله سبحانه وتعالى يسألهم عن الحالة التي تركوا عليها عباده ؛ فيجيبون أنهم تركوهم على حالة صلاة الله جل وعلا، وأتوهم أيضا على حال صلاة الله؛ لأنهم أتوهم في صلاة العصر وعرجوا منهم في صلاة الفجر ، فأتوهم وهم يصلون وعرجوا أيضا وهم يصلون ؛ وهذا فيه من الدلالة فضل هاتين الصلاتين العظيمتين صلاة الفجر وصلاة العصر ، وأن هاتين الصلاتين يحضرها هؤلاء الملائكة المتعاقبون ، أو بعبارة أدق يجتمع في حضورها هؤلاء الملائكة المتعاقبون ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في هاتين الصلاتين صلاة الفجر وصلاة العصر .

وهذا مما يُعظم رغبة الإنسان في المحافظة على هاتين الصلاتين والعناية بهما ، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل هاتين الصلاتين على وجه الخصوص أحاديث كثيرة عنه صلوات الله وسلامه عليه وأنها من أعظم أسباب الخير في الدنيا والآخرة ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضاؤون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا)) ؛ صلاة قبل طلوع الشمس: أي صلاة الفجر . وصلاة قبل غروبها: أي صلاة العصر . والأحاديث في بيان شأن هاتين الصلاتين كثيرة جدًا ، ومن ضيَّع هاتين الصلاتين مع ما فيهما من الأجور العظيمة فهو لما سواهما من الصلوات أضيع ، ومن ضيَّع الصلاة المكتوبة فهو لما سواها من دين الله تبارك وتعالى أضيع ، ومن ضيَّع الصلاة لا حظَّ له في الإسلام ، لأنه لا حظ في الإسلام لمن ضيَّع الصلاة .

قال رحمه الله تعالى :

وروى الإمام أحمد ومسلم حديث : ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله في من عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو في مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم)) ؛ فذكر عليه الصلاة والسلام الاجتماع في بيت من بيوت الله ، وبيوت الله عز وجل هي المساجد التي أذن الله تبارك وتعالى برفعها لإقامة ذكره جل وعلا فيها ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] .

وانتبه هنا لقول رب العالمين تبارك وتعالى ﴿ رِجَالٌ ﴾ ؛ انتبه لهذا حتى نعرف من خلال هذه الآية الكريمة حقيقة الرجولة التي غلط في حقيقتها كثيرٌ من الناس ، بل أصبح معنى الرجولة عند بعضهم هي التعدي والظلم والكبر والتعالي على الناس!! إلى غير ذلك من المعاني التي جاء تحريمها في الشرع ، بينما حقيقة الرجولة الذل لله تبارك وتعالى ولزوم طاعته والقيام بعبادته ، قال جل وعلا: ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ ؛ فهذه حقيقة الرجولة وحقيقة المراحل ؛ أن يكون الرجل مطيعاً لربه جل وعلا ممتثالاً لأمره قائماً بطاعته محافظاً على ما أمره الله تبارك وتعالى به من صلاة وعبادة وذل وخضوع لله جل وعلا .

قال: ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم)) أي اجتمعوا على القرآن ومدارسة القرآن ، اجتمعوا على القرآن ليس لتلاوة حروفه فقط! بل لتلاوة القرآن وفهم المعاني ، ولهذا قال ((ويتذاكرونه بينهم)) والتذاكر المراد به فهم المعاني وتدبر القرآن الكريم ، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ، وقال جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] ، وقال جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] فاجتمعوا لتلاوة القرآن أي تلاوة آيات القرآن وكلام الله عز وجل ، وتذاكر القرآن بينهم بفهم معانيه ومعرفة دلالاته والتدبر في آياته .

قال: ((يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة)) ؛ نزلت عليهم: أي من الله جل وعلا ، والسكينة: طمأنينة القلب وسكون النفس وراحة الإنسان ، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ؛ فيحصل لهم في مجالس الذكر ومجالس تلاوة القرآن وتدارس القرآن وفهم معانيه سكينة ، أي يحصل لهم من هذه المجالس ما تسكن به قلوبهم وتطمئن نفوسهم ويحصل به راحتهم .

قال ((وغشيتهم الرحمة)) أي عمتهم وغطتهم وشملتهم رحمة الله تبارك وتعالى ، فتكون رحمة الله تبارك وتعالى شاملة لهم ، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم كما جاء ذلكم عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((وحفتهم الملائكة)) وهذا الأمر الثالث الذي يفوزون به ويظفرون به ، «وحفتهم الملائكة» : أي أن الملائكة تحف المجتمعين في بيوت الله تبارك وتعالى تحفهم أي تحيط بهم ، وكما يأتي في الحديث اللاحق تغطيتهم بأجنحتها رضًا بما يصنعون ، تحفهم الملائكة ؛ وهذا فيه أن الملائكة يحبون مجالس العلم ومجالس الذكر التي يُتَعَلَّم فيها القرآن ويتفقه الناس فيها في أحكام شرع الله تبارك وتعالى ، فالملائكة تحب هذه المجالس بل تطلب هذه المجالس ، وإذا وجدوها حفوا أهلها والمجتمعين فيها ، قد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إن لله ملائكةً فضلاً يلتمسون مجالس الذكر)) أي يطلبونها ويبحثون عنها .

قال : ((وذكرهم الله في من عنده)) وهذه فضيلة رابعة يفوز بها المجتمعون لمدارسة القرآن ومذاكرة القرآن في بيوت الله جل وعلا ، قال ((وذكرهم الله فيمن عنده)) : أي أن الله عز وجل يذكرهم عنده أي في المأى الأعلى الكرام الأطهار البررة ، يذكرهم أي بالثناء عليهم ، يثني عليهم رب العالمين جل وعلا في المأى الأعلى ؛ وهذه فضيلة عظيمة للاجتماع في بيوت الله تبارك وتعالى لتلاوة كلامه ومدارسة معاني القرآن الكريم ومعرفة دلالته .

ونظير هذا الذي هو ذكر الله جل وعلا للمجتمعين في بيوت الله عز وجل لتلاوة القرآن ومذاكرته ما جاء في صحيح مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ يقول معاوية: كنا مجتمعين في المسجد حلقة نتذاكر فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ((ما أجلسكم؟)) أي لأي شيء جلستم في المسجد؟ ولأي شيء تحلقتم واجتمعتم؟ قال: «قلنا جلسنا نذكر الإسلام وما منَّ الله علينا به»، فهم جلسوا في المسجد يتذاكرون الإسلام ويتفقهون في أحكامه ويذكرون منَّة الله تبارك وتعالى عليهم بهذا الدين وهديته تبارك وتعالى لهم لدخوله ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((الله ما أجلسكم إلا ذلك؟)) يستحلفهم بالله ((الله ما أجلسكم إلا ذلك؟)) يعني ما جلستم إلا لهذا الغرض؟ ليس لكم غرض آخر؟ هذا هو هدفكم وهذا هو مقصدكم؟ قال: «قلنا والله ما أجلسنا إلا ذلك» ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أما والله إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتاني جبريل أنفا فأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته)) رواه مسلم في صحيحه . قال ((أما والله إني لم أستحلفكم تهمة لكم)) أي لم أطلب منكم الحلف لأني أتهمكم ، وإنما طلبت منكم الحلف لأن الأمر عظيم للغاية ؛ أتاني جبريل قبل قليل وأخبرني أن الله سبحانه وتعالى يباهي بكم ملائكته .

وهنا ينبغي أن تلاحظ أمرًا ؛ ألا وهو أن الله سبحانه وتعالى غني عن العباد ، وغني عن اجتماعهم في المساجد ، وغني عن صلاتهم ، وغني عن حرصهم على العلم وطلبهم له ، وغني عن خضوعهم وسجودهم وركوعهم وعن جميع عباداتهم وطاعاتهم ، وقد قال جل وعلا في الحديث القدسي: ((يا عبادي إنكم لن تبلغوا نقعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضرروني)) ، فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين ، لا تنفعه

طاعة الطائعين ولو اجتمع عليها جميع الناس من أولهم إلى آخرهم، ولا يضره معصية العاصين ولو اجتمع على المعصية جميع الناس من أولهم إلى آخرهم ، قال جل وعلا في الحديث القدسي: ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا)) ، فهو جل وعلا لا تنفعه طاعة الطائعين ، وطاعتهم لا تزيد ملك الله تبارك وتعالى شيئا ، ولا تضره سبحانه وتعالى معصية العاصين ، ومعصيتهم لا تُنقص من ملكه تبارك وتعالى شيئا ، بل طاعة الطائعين تفيده ومعصية العاصي تضره ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] ، فالذي يطيع هو الذي ينتفع من الطاعة ، والذي يعصي هو الذي يتضرر من المعصية .

والله سبحانه وتعالى مع كمال غناه يحب من عباده الطاعات والاجتماع على الخير وملازمة العبادات، يحب أهل الذكر ومجالس الذكر والاجتماع على طاعته جل وعلا في بيوته وتلاوة كلامه جل وعلا وتذاكر معانيه والتفقه في الدين ، يحب التوابين ويحب المتطهرين ، يحب الطائعين ، يفرح تبارك وتعالى مع كمال غناه بتوبة التائبين ، بل قال عليه الصلاة والسلام: ((لله أشد فرحًا بتوبة عبده إذا تاب من أحدم أضل راحلته بفلاة وعليها طعامه وشرابه حتى إذا أيس منها أوى إلى ظل شجرة ونام تحت ظل شجرة ينتظر الموت بينا هو كذلك إذا بخطام راحلته فأخذ بخطام راحلته وقال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح)) ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام : لله أشد فرحًا بتوبة عبده إذا تاب من فرح هذا الرجل براحلته ، مع أنه سبحانه وتعالى غني عن توبة التائبين وعن طاعة المطيعين وصلاة المصلين وتعلم المتعلمين ، غني عن ذلك تبارك وتعالى كله ولكن هذا يبين لنا كمال فضله وعظيم مننه سبحانه وتعالى على عباده أهل الطاعة وأهل الاجتماع على الخير وأهل الحرص على الفقه في دين الله تبارك وتعالى ، وأنهم يفوزون بهذه الخيرات العظيمة والأفضال الكريمة التي يمن عليهم بها رب العالمين تبارك وتعالى .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: ((ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه))؛ من بطأ به عمله: أي كان عمله قاصرًا ضعيفًا أو مفطرًا ومضيعًا ، بطأ به عمله عن بلوغ عالي الدرجات، أي قصر به عمله لضعف العمل أو قلته أو نقصه وتفريط صاحبه ، من بطأ به عمله أي عن بلوغ الكمالات والوصول إلى رفيع الرتب لم يسرع به نسبه؛ أي من كان عمله ضعيفًا ناقصًا بطأ به عن بلوغ الرتب العالية لا يسرع به نسبه فيجعله يبلغها ، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٢]؛ ثقلت: أي بالأعمال ، فالذي يبطئ به عمله لأنه فرط في العمل وقصر في العمل لا يرفعه نسبه . ولهذا يتمايز الناس ويتفاضلون عند الله تبارك وتعالى بالتقوى كما قال جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿[الحجرات: ١٣]﴾، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: ((ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى، أبوكم آدم وكلكم من تراب))؛ لا فضل لعربي على أعجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى: أي إلا بتقوى الله تبارك وتعالى أي ملازمة تقواه ، وتقوى الله عز وجل: عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله، وترك لمعصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله. فالذي يبطئ به نسبه عن بلوغ الدرجات العالية والمنازل الرفيعة ليس نسبه الذي يسرع به.

وهذا فيه أهمية العمل ومكانة العمل والمحافظة على عبادة الله تبارك وتعالى ، والأنبياء وغيرهم لا يغنون عن أحد شيئا، لا عن قرابتهم ولا عن غيرهم ، النبي صلى الله عليه وسلم ماذا قال لفاطمة رضي الله عنها؟ قال: ((يا فاطمة بنت محمد)) لم يكتف بقوله يا فاطمة بل نصَّ على بنوّتها له قال: ((يا فاطمة بنت محمد سليلي من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا)) ، وفي القرآن الكريم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَاتَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَتَاهُمَا﴾ والخيانة هنا خيانة الكفر وليست خيانة الفاحشة والزنا لأنه ما زنت امرأة نبي قط، ﴿فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠] .

جاء في الحديث الصحيح في صحيح البخاري وغيره عن نبينا عليه الصلاة والسلام قال: ((يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، فيقول إبراهيم لأبيه: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول آزر: الآن لا أعصيك ، فيقول إبراهيم عليه السلام يا رب ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون؟ وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تبارك وتعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقول الله سبحانه وتعالى لإبراهيم: انظر إلى أسفل منك فيلتفت وينظر وإذا بذبح -أي يتحول والد إبراهيم على صورة ذبيح وهو ذكر الضباع- ويؤخذ بقوائمه ويُطرح في النار ويلقى في نار جهنم)) والحديث في صحيح البخاري ، قال ((لا أغني عنك من الله شيئا)) فالأنبياء لا يغنون لا عن قرابتهم ولا غيرهم من الله شيئا ، لأن ((من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)) لم تسرع به قرابته سواء كان أباً أو كانت زوجاً أو كان ابناً ومر معنا الشواهد في ذلك كله ، الأنبياء لا يغنون من الله شيئا ((من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)) ، جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال أسالك مرافقتك في الجنة قال : ((أعني على نفسك بكثرة السجود)) ؛ لا بد من العمل لا يتكل الإنسان لا على نسب ولا على غيره ، لا بد من العمل قال ((أعني على نفسك بكثرة السجود)) أي حافظ على العبادة والصلاة والطاعة لله تبارك وتعالى ، أما من بطأت به أعماله وفرط في الأعمال متكلاً على نسب أو حسب أو غير ذلك لم تسرع به ولم تقدّمه عند الله سبحانه وتعالى . قال جل وعلا ﴿فَإِذَا

فَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠١-١٠٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة يقول الله جل وعلا ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] ؛ لو تطلب الأم من ابنها وهي أعلى ما تكون عنده لو تطلب منه يوم القيامة حسنة واحدة قال لها "نفسي نفسي" ، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ؛ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ أي : أي نفس كانت ومهما كانت ﴿لِنَفْسٍ﴾ أي : أي نفس مهما بلغ قدرها ومكانتها ومنزلتها عند الإنسان ﴿شَيْئًا﴾ أي أي شيء كان ولو شيئاً قليلاً ، كلها نكرات في سياق النفي : ﴿نَفْسٌ﴾ ، ﴿لِنَفْسٍ﴾ ، ﴿شَيْئًا﴾ ثلاث نكرات في سياق النفي فتفيد العموم ، نفسٌ أيا كانت ، لأي نفس أيا كانت ، في أي شيء أيا كان ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ رب العالمين جل وعلا ؛ ولهذا الأعمال إذا بطأت بالإنسان وأخرته ليس الذي يسرع به نسبه وليس الذي يقدره أي شيء آخر ، إنما الذي يقدم الإنسان وتعلو به درجاته أعماله كما قال الله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَيُفَوِّضُ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] .

قال رحمه الله تعالى :

وفي المسند والسنن حديث : ((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)) ، والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جداً .

ثم ختم رحمه الله تعالى بقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)) وهذا جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد في المسند ورواه أهل السنن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه في فضل طلب العلم وبيان مكانة طلب العلم ، وفيه جمل عديدة اقتصر المصنف رحمه الله تعالى على جملة واحدة منها لتعلقها بالترجمة ألا وهي: ذكر الملائكة والإيمان بهم ، والحديث فيه جمل عديدة في فضل طلب العلم ومكانة العلماء .

يقول عليه الصلاة والسلام : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر

الكواكب ، وإن العلماء ليستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان في الماء ، وإن العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) ؛ وهذا الحديث العظيم في فضل العلم رحل رجل من المدينة إلى الشام في زمن الصحابة من أجله ، رحل إلى أبي الدرداء ، والرحلة في ذلك الوقت من المدينة إلى الشام تحتاج من الوقت إلى ما يقارب الشهر ، فرحل إلى أبي الدرداء ولما وصل إليه قال لأبي الدرداء «جئت لحديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» ، قال: أما جئت لحاجة؟ قال لا ، قال أما جئت لتجارة؟ قال لا قال ما جئت إلا لهذا الحديث؟ قال نعم ؛ فرحل من أجل حديث واحد من المدينة وهذا فيه فضل الرحلة في طلب العلم ، ثم حدّثه أبو الدرداء رضي الله عنه بهذا الحديث العظيم بجُمْلِه الخمس في فضل العلم وفضل العلماء .

والشاهد من هذا الحديث هو ما أورده المصنف رحمه الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)) وقوله عليه الصلاة والسلام ((تضع أجنحتها لطالب العلم)) على ظاهره ، ونؤمن به على ظاهره كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ، وهذا الوضع للأجنة هو من الملائكة رضا بما يصنعه طالب العلم ؛ أي رضا بصنيعه في سلوكه طريق العلم وسيره في دروب العلم ، تضع أجنحتها رضا بما يصنع ؛ وهذا فيه فضل طلب العلم والسير في دروبه والجد والاجتهاد فيه .

ففيه فضائل عظيمة منها: أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم ، وإن كنا لا نرى الملائكة تضع أجنحتها لطلبة العلم إلا أننا من ذلك على يقين ، لأن الذي أخبرنا بذلك هو الصادق المصدوق وعدم رؤيتنا للملائكة ليس دليلاً على انتفاء الأمر ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ، فالملائكة يحفون مجالس العلم ويحضرونها ويضعون أجنحتهم لطالب العلم ، وإن كنا لا نرى شيئاً من ذلك لكننا من ذلك على يقين لأن الذي أخبرنا بذلك صادقٌ مصدوقٌ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى عليه صلوات الله وسلامه ، وعدم الأبصار ليس دليلاً على انتفاء الأمر ، قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَحَسْبُ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أي بملائكتنا ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥] يعني لا تبصرون الملائكة ، يجلس أولياء المختضر وقربته حوله وتُنزَع روحه من أمامهم وهم يرونه يموت أمامهم وتُنزَع روحه ولا يرون الملائكة الذين جاءوا لقبض روحه ؛ فهل عدم رؤيتهم للملائكة دليل على عدم وجود ملك الموت الذي يأتي لقبض الروح؟ قال ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ فعدم الإبصار وعدم الرؤية ليس دليلاً على انتفاء الأمر ، فإذا جاء الخبر في كتاب الله أو في سنة نبيه عليه الصلاة والسلام آمناً وصدّقنا ، لأنه كلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .

ومثل هذه الأحاديث يستفيد منها طالب العلم أنها تزيد في رغبته في الطلب ، وتقلل من وحشته ومن تثبُّطه في طلب العلم ، لأنه يأنس ويفرح ويحس بهذا الفضل العظيم الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام فيأنس بذلك ، وأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، لماذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام لنا ذلك؟ لماذا قال لنا ((وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع))؟ هل ذكر لنا ذلك مجرد معلومة نعرفها؟ هل لأجل ذلك ذكر لنا هذا الحديث عليه الصلاة والسلام؟ أم ذكره لنا لنزيد رغبة في طلب العلم؟! هذا مما يزيد في الرغبة، مما يزيد في الرغبة والحرص في طلب العلم أن يعرف أمورا عديدة منها : أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، فهذه المعرفة إضافة إلى أمور كثيرة جاءت في السنة كلها تبعث الإنسان وتحرك في قلبه الحرص والرغبة في طلب العلم وتحصيل العلم ، فهذا من الأمور العظيمة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم .

ويجب على كل إنسان أن يحذر غاية الحذر من رد ذلك أو عدم التصديق به ، وليحذر أيضا أشد الحذر من السخرية بذلك والتهكم به ، لأن بعض الناس ممن لا دين عندهم ولا تعظيم عندهم لكلام الرسول الكريم الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ربما سخروا من هذه الأشياء، بحجة أنهم لا يرون ولا يشاهدون شيئا من ذلك فربما سخروا من ذلك وربما تهكموا بذلك . وقد ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في كتاب له عظيم أفرد في شرح حديث أبي الدرداء وهو مطبوع ، وهو من أنفس الكتب في بيان فضل العلم وفضل طلب العلم ، شرح فيه ابن رجب رحمه الله حديث أبي الدرداء المتقدم ، وعند شرحه لهذه الجملة من الحديث أورد قصة لأحد الملاحدة؛ قال: إن أحد الملاحدة مر ببعض طلبة العلم ويستهزئ بهذا الحديث ، سمع بهذا الحديث فأخذ يستهزئ ويتهكم ويقول أروني الملائكة ، ثم إنه من شدة السخرية والتهكم صنع لنفسه حذاء وضع فيه مسامير ، وجاء بهذا الحذاء الذي فيه المسامير وأخذ يمشي بجوار طلبة العلم ويقول لهم "أنا أطاأ أجنحة الملائكة بهذا الحذاء" ، قال فتسمرت قدماه؛ ليست قدماه في مكانه ، شلَّ الله تبارك وتعالى قدميه ، وهذه عقوبة معجلة للساخرين والمتهكمين بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما عند الله من العقاب أشد وأبقى .

ومثل هذا ما ذكره النووي رحمه الله في قصة ساخر آخر ومستهزئ آخر لما سمع حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: ((إذا قام أحدكم من فراشه فليغسل يده ثلاثا ، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده)) الكلام واضح قد يكون الإنسان وهو نائم يضع يده يلمس عورته يلمس فرجه وهو نائم ، فلا يدري أين باتت يده ، يعني لا يطمئن أنها بقيت على نظافتها وسلامتها من أن تمس شيئا من فرجه أو نحو ذلك ، قال ((لا يدري أحدكم أين باتت يده)) فأحد الساخرين المتهكمين سمع هذا الحديث فقال ساخرا متهكما : "أنا أدري أين باتت!! باتت معه في فراشه" يقول ذلك ساخرا ومتهكما ، فنام ليلة وقام وإذا يده في دبره ، يعني دخلت يده في دبره ، وهذه من العقوبات المعجلة . وإذا سلّم الإنسان من العقوبة المعجلة ولم يتب إلى الله تبارك وتعالى لم يسلم يوم القيامة من العقاب المؤجل وعقاب الله أشد وأبقى يوم القيامة .

ولهذا يجب على الإنسان أن يكون للسنة في قلبه حرمة وتعظيم ، يعظم كلام الله ويعظم كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ويحترمه ويعرف مكانته ويتلقاه بالقبول ، ويعظم كلام الله عز وجل ، ويعرف للسنة عظمتها وقدرها ومكانتها ، ويتلقى أحاديث النبي صلوات الله وسلامه عليه بالقبول .

ثم لما أنهى المصنف رحمه الله تعالى الأحاديث الواردة في ذكر الملائكة وذكر أعمال الملائكة وأوصاف الملائكة إلى غير ذلك مما يتعلق بالملائكة قال في ختام هذا الباب : ((والأحاديث في ذكرهم عليهم السلام كثيرة جداً)) منبهاً بذلك أنه لم يستوعب في هذا المختصر ما يتعلق بالملائكة ووظائف الملائكة وإنما أشار إلى قليل من ذلك ، والقليل الذي أشار إليه المصنف رحمه الله تبارك وتعالى ينبه على الكثير ويدل عليه ، وينبغي على المسلم أن تعظم عنايته بهذا الأصل العظيم من أصول الإيمان والركن المتين من أركان الدين ألا وهو الإيمان بالملائكة ؛ ولهذا الإيمان آثار عظيمة ومباركة على العبد في الدنيا والآخرة سبق الإشارة إلى شيء منها أثناء عرض الأدلة التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى عن الملائكة والإيمان بهم .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له في كتابه «أصول الإيمان» :

باب الوصية بكتاب الله عز وجل

وقول الله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣] .

قال رحمه الله ((باب الوصية بكتاب الله عز وجل)) ؛ هذه الترجمة أوردتها رحمه الله تعالى في كتابه أصول الإيمان لأن من أصول الإيمان العظيمة الإيمان بكتب الله عز وجل المنزلة ، كما قال الله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وقال جل وعلا ﴿كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، فالإيمان بالكتب أصل من أصول الإيمان ، وقال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] ، وقال جل وعلا : ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥] أي آمنت بكل كتاب أنزله الله على أي رسول .

فالإيمان بالكتب أصل من أصول الإيمان ، ومن الإيمان بالكتب الإيمان بخاتم الكتب المنزلة ألا وهو القرآن الكريم الناسخ لجميع الكتب التي قبله والمهيمن عليها والمصدق لما بين يديه ؛ وهو الكتاب الذي أنزله الله تبارك وتعالى على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وكتابه خاتم الكتب، فلا يُبعث بعده عليه الصلاة والسلام رسول ولا يُنزل بعد كتابه عليه الصلاة والسلام كتاب .

والإيمان بالقرآن الذي هو كلام الله عز وجل هو إيمانٌ بهذا الكتاب العظيم وأنه وحى من الله تبارك وتعالى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال عز وجل : ﴿وَإِنَّهُ لَنَزْلٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] ، وأن نؤمن أنه كلام الله تبارك وتعالى وأنه سبحانه وتعالى هو الذي تكلم به ، قال عز وجل : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي يسمع القرآن الذي هو كلام الله تبارك وتعالى ، وأن نؤمن بأن هذا الكتاب فيه الهداية والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ، وأن من آمن بهذا القرآن وعمل به هُدي إلى صراط مستقيم ، ومن تنكَّب عنه وحاد عنه باء بالخسران في الدنيا والآخرة .

والمؤلف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة للوصية بكتاب الله عز وجل حتى يقبل المسلمون على كتاب الله على القرآن الذي فيه عزهم وفلاحهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة ، لأن أمة الإسلام كلما ارتبطت بالقرآن الكريم كان ذلك عزًا لها وفلاحًا ورفعًا في الدنيا والآخرة ، وكلما أعرضت عن القرآن وعن العناية به قراءةً وتدبرًا وعملاً وتطبيقًا باءت بالخسران في الدنيا والآخرة .

قال رحمه الله تعالى: ((باب الوصية بكتاب الله عز وجل)) ؛ والوصية بكتاب الله تتناول أموراً عديدة سنقف عليها من خلال النصوص التي ساقها رحمه الله تعالى ، وقد بدأ رحمه الله بقول الله عز وجل : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] .

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اتبعوا وحي الله جل وعلا الذي أنزله إليكم هدايةً لكم وصلاًحاً وفلاحاً ورفعاً، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي حَكِّمُوا كلام الله عز وجل بينكم واعملوا بكلامه عز وجل وطبقوا أحكامه سبحانه وامثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، كونوا متبعين لكلام الله عز وجل ممثلين له متمسكين به.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ؛ وهذا فيه أن الوحي منزل من الله تبارك وتعالى وأنه كلام الله عز وجل ، قال ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ و«من» هنا تفيد الابتداء وأن الكلام بدأ من الله عز وجل وهو منزل منه ، كما قال السلف رحمهم الله عن كلام الله : «من الله بدأ وإليه يعود» ، فيدل على أنه من الله بدأ قوله ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢] ، فهو من الله عز وجل تكلم به ونزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام للأمة على التمام والكمال .

قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ؛ وقوله ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه تنبيه إلى ربوبية الله تبارك وتعالى الخاصة التي تدل على التربية على الإيمان والفضيلة والخير والإيمان الصحيح والعبادة القويمة وحسن الإقبال على الله تبارك وتعالى؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: كان أكثر دعاء الأنبياء بهذا الاسم «ربنا» مستحضرين منة الله عز وجل عليهم بربيته الخاصة لهم على الإيمان والكمال .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ؛ لا تتبعوا: أي لا تقتفوا من دونه أي دون الكتاب الذي أنزل إليكم من ربكم أولياء، أي أشخاصاً أو أناساً تتولونهم وتتبعونهم وتأخذون عنهم وتتلقون منهم معرضين عن كتاب ربكم ؛ وهذا فيه تحذير للناس من أئمة الضلال ودعاة الباطل الذين يصدون الناس عن كلام الله عز وجل وعن وحيه سبحانه وتعالى ويوقعونهم في البدع والضلالات والمنكرات والأباطيل ، وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمتة من هؤلاء قال : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ، فكان يخاف على أمتة عليه الصلاة والسلام منهم ، والله جل وعلا يحذر هنا من ذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي من دون كتاب الله تبارك وتعالى أولياء: أي تتولونهم وتأخذون عنهم وتقتفون آثارهم وتمثلون أوامرهم معرضين عن كلام الله عز وجل . ولقد وُجد من أئمة الباطل ودعاة الضلال من يصرف الناس عن القرآن ويصرفهم عن وحي الله تبارك وتعالى ويدعوهم إلى

الإيمان بعقلياته السقيمة وأفكاره الوضيعة وآرائه البالية ، يدعوهم إلى ذلك ويصدّهم عن كلام الله تبارك وتعالى؛ فوجب على كل مسلم أن يحذر من أولياء الشيطان ومن دعاة الباطل وأن يُقبل على كلام الله تبارك وتعالى .

وقول الله عز وجل في تمام هذه الآية ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ تنبيهٌ إلى أن من أعمل تذكره وتبصّر في الأمور وتدبر عِلْم أن الهداية والفلاح والسعادة في اتباع كتاب الله لا في اتباع أولياء الباطل وأئمة الضلال ، ولهذا قال: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي لو أن تذكركم كان كثيراً تتبصرون في الأمور وتتدبرون في حقائقها لأدرتكم أن العز وفلاح في كتاب الله تبارك وتعالى ، قال عز وجل: ﴿ إِن هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ، فالهداية للتي هي أقوم والرشاد والفلاح إنما هو في كتاب الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : ((أما بعد ألا أيها الناس: فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ؛ فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به)) ، فحثّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال : ((وأهل بيتي)) وفي لفظ : ((كتاب الله هو حبل الله المتين ؛ من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة)) رواه مسلم .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه في ذكر خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي خطبها قرب غدير يقال له «حُم» بين المدينة ومكة ، وهي خطبة فيها وصية عظيمة من الرسول صلى الله عليه وسلم لأئمة ، وبدأ عليه الصلاة والسلام خطبته بالثناء على الله تبارك وتعالى بما هو أهله جل وعلا. قال: ((وأثنى عليه)).

ثم قال : ((أما بعد)) وهذه يأتي بها صلوات الله وسلامه عليه في خطبه بعد حمده لله وثنائه عليه يقول «أما بعد» ثم يشرع في المقصود ، والمراد بهذه الكلمة أي مهما يكن من شيء بعد فالأمر كذا وكذا يبين المقصود بعدها ، ولا يُبدأ ببيان المقصود إلا بعد الثناء على الله تبارك وتعالى ، يثنى على الله أولاً بما هو أهله حمداً وثناءً وتعظيماً لله تبارك وتعالى ثم يشرع في المقصود ، وبين يدي الشروع في المقصود يؤتى بهذه الكلمة «أما بعد» تنبيهاً للسامع إلى أن المتكلم شرع في المقصود من الخطاب والمقصود من الكلام .

قال : ((أما بعد ألا أيها الناس))؛ و«ألا» أداة استفتاح يُبدئ بها وكثيراً ما تأتي في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام للتنبيه وشد الأذهان .

((ألا أيها الناس فإنما أنا بشر)) وهذا من الامتثال لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وما هو عليه الصلاة والسلام يخبر ويفصح عن ذلك ((أيها الناس فإنما أنا بشر)) أي يعتريني ما يعترى البشر ويصيبني ما يصيب البشر ، ومن ذلك الموت الذي كتبه الله سبحانه وتعالى على الناس ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، فالموت كتبه الله سبحانه وتعالى على البشر ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨] ؛ فهو يخبر عليه الصلاة والسلام عن ذلك قال ((إنما أنا بشر)).

وهذا يستفاد منه فائدة عظيمة تتعلق بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ألا وهي: البعد عن الغلو فيه الذي يقع فيه كثير من الناس من باب إظهار المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم وإظهار التعظيم له ؛ فيغلو بعضهم في النبي صلى الله عليه وسلم فيعطيه من الخصائص والصفات ما لا يليق إلا بالله عز وجل ، فإذا تأمل المسلم في قوله عليه الصلاة والسلام ((إنما أنا بشر)) فالبشر لا يعطى من خصائص رب البشر وخالق الخلق سبحانه وتعالى ، فصفات الله جل وعلا ، لا يعطى أي أحد من البشر شيء من خصائص الله وصفاته سبحانه وتعالى ، وإذا أعطي أحد من البشر شيء من ذلك فهذا غلو باطل مهلك لصاحبه كما قال عليه الصلاة والسلام ((إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)) ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلي الله إياها)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح عيسى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) ، وسمع رجلا يقول ما شاء الله وشئت فغضب عليه الصلاة والسلام وقال: ((أجعلني لله ندا، قل ما شاء الله وحده)). والأحاديث عنه صلوات الله وسلامه عليه في هذا المعنى كثيرة؛ فهو بشر وهو عليه الصلاة والسلام عبد لله والعبد لا يُعبد ولا يعطى شيئا من خصائص الرب تبارك وتعالى .

فإذاً قوله عليه الصلاة والسلام ((أيها الناس إنما أنا بشر)) هذا فيه طرد للغلو وإبعاد عنه وتحذير منه ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى أن يغلو أحد فيه ، ورب العالمين لا يرضى ذلك سبحانه وتعالى ، ولا يشفع للإنسان حبه للنبي صلى الله عليه وسلم أن يغلو فيه وأن يعطيه من الخصائص ما لا يليق إلا بالله ، وإن ظن أنه يؤجر على ذلك فليعلم أنه يؤزر ولا يؤجر ، لأن الأجر والثواب إنما يكون على الطاعات لا على الغلو في دين الله تبارك وتعالى ، الغلو لا يؤجر عليه الإنسان وإنما يأثم بغلوه وتجاوزة لحد الشريعة ، والمحبة وحدها بدون ضبطها بضوابط الشريعة وقيود الكتاب والسنة لا تكفي ، لا بد من أن تكون هذه المحبة منضبطة بضوابط كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((يوشك أن يأتيني رسول ربي)) والمراد بالرسول هنا ملك الموت ، لأن ملك الموت رسول ، والملائكة عموماً رسل ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١٠] ، وكلٌ منهم مرسل بمهمة ووظيفة وعمل ، وملك الموت أيضاً رسول لله تبارك

وتعالى لقبض من أذن الله سبحانه وتعالى له بقبض روحه ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] فهو وُكِّلَ بهذه الوظيفة وبهذا العمل قبض الأرواح ، كل من دنت منيته وجاء أجله جاء إليه هذا الرسول الذي هو ملك الموت لقبض روحه ، قال ((يوشك)) ومعنى يوشك : أي يقترب قارب أن يأتيني ملك الموت ((يوشك أن يأتيني ملك ربي فأجيب)) .

قال: ((وأنا تارك فيكم ثقلين)) إذا مت وجاءني رسول ربي فأنا تارك فيكم ثقلين ؛ وهذه وصية النبي عليه الصلاة والسلام لأُمته ، وقوله عليه الصلاة والسلام «ثقلين» تنبيه على عظم ما أوصى به صلوات الله وسلامه عليه . قال ((إني تارك فيكم ثقلين)) وهذا يذكرنا بالكلمة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، خطب خطبة أو بيّن بيانا للناس قال فيه : «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر ويعتريه ما يعتري البشر ويصيبه ما يصيب البشر ، وقد بلغ رسالة الله تبارك وتعالى وافيةً كاملة ، وترك فينا كتاب الله عز وجل قال ((إني تارك فيكم ثقلين ؛ أولهما كتاب الله))

قال: ((فيه الهدى والنور)) وهذا هو الشاهد من سياق هذا الحديث للترجمة . قال ((فيه الهدى)) كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] ((وفيه النور)) كما قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] .

قال: ((فيه الهدى والنور)) ؛ الهدى: أي إلى الصراط المستقيم وإلى جنات النعيم ، وإلى رضا الرب الكريم ، وإلى الفوز بالدرجات العلا ، وإلى القيام بالعبادة والطاعة لله عز وجل على الوجه الذي يرضيه ، وإلى أسباب الثبات على الحق والهدى . والنور: أي الذي يضيء لكم الطريق وتبصرون به الجادة ، وتذهب عنكم ظلمات الجهل وظلمات الباطل وظلمات الغي وظلمات الضلال ، كلها تتبدد وتذهب عنكم بنور القرآن الكريم .

قال: ((فخذوا بكتاب الله)) يوصي عليه الصلاة والسلام بعد أن بيّن مكانة القرآن العلية ومنزلته العظيمة أمر بالأخذ به ((فخذوا بكتاب الله وتمسكوا به)) خذوا بكتاب الله : أي عولوا عليه اعتمدوا عليه وارجعوا إليه وكونوا متمسكين به ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ١٧٠] أي يتمسكون به ، فكونوا متمسكين بكتاب الله عز وجل معتمدين به ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] .

قال: ((فحث على كتاب الله ورغب فيه)) أي في وصيته تلك حث عليه الصلاة والسلام على كتاب الله ورغب فيه . والحث على كتاب الله عز وجل والترغيب فيه يشمل الحث على سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ،

فمن الوصية بالكتاب الوصية بالسنة ، ومن لا يتمسك بسنة النبي عليه الصلاة والسلام ليس متمسكاً بالكتاب لأن من تمسك بالكتاب حق التمسك ، ففي الكتاب يقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ، وفي الكتاب يقول: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الرد إلى الله: الرد إلى الكتاب ، والرد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام: الرد إلى سنته، وفي الكتاب يقول: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] السنة ؛ فلا يكون مستمسكاً بالكتاب من لا يتمسك بسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

إذاً قوله عليه الصلاة والسلام هنا ((خذوا بكتاب الله وتمسكوا به)) وترغيبه في الكتاب وحثه عليه ؛ هذا يشمل التمسك بالسنة ، لأن في كتاب الله تبارك وتعالى الوصية بسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا يأتي في بعض الأحاديث الجمع منه صلى الله عليه وسلم في الوصية بين الكتاب والسنة ، كقوله عليه الصلاة والسلام ((تركتم فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا؛ كتاب الله وسنتي)) ، وقوله عليه الصلاة والسلام كما في حديث جابر إذا خطب الناس يوم الجمعة: ((أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : ((إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة)) .

فإذاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم هنا في هذا الحديث ((وخذوا بكتاب الله وتمسكوا به)) هذا يشمل السنة ولا بد ، لأن في القرآن آيات كثيرة جدا فيها الوصية بسنة النبي صلى الله عليه وسلم واتباع هديه والأخذ عنه والتعويل على ما جاء به صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : ((وأهل بيتي)) أي أوصيكم بأهل بيتي ، وهذه وصية من النبي عليه الصلاة والسلام بأهل بيته ، وهذا يتناول فيما يتعلق بأهل البيت أن يُعرف قدرهم وتُعرف مكانتهم ومنزلتهم ، ويُعرف أيضا ما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به من الشرف والنسب الرفيع والقراية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ومحبتهم وتوليهم والترضي عنهم والدعاء لهم ، إلى غير ذلك من الحقوق العظيمة التي تُحفظ لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

وهنا ينبغي على كل مسلم أن يكون في هذا الباب وفي كل باب من أبواب الدين بعيداً عن مسلكين: مسلك الغلو ومسلك الجفاء ، وخير الأمور أوسطها لا تفریطها ولا إفراطها ، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ، قال بيت النبي عليه الصلاة والسلام يُعرف لهم قدرهم ، تُعرف لهم مكانتهم ، يتولون ويحبُّون ، ولا يعادون ويغضون ، ويتراضون عنهم ويترحم عليهم إلى غير ذلك من المعاني الصحيحة المطلوبة من المسلم لكن لا يغلى فيهم . ليس من حفظ وصية النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت أن نغلو في أهل البيت أو أن نرفع درجتهم أو أن نعطيهم

من الخصائص ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ؛ كأن يدعى فيهم أنهم يعلمون الغيب ، أو أنهم يعلمون ما كان وما يكون ، وأنهم يعلمون الآجال والأرزاق ، وغير ذلك مما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى ، أو أن يتوجه لهم والعياذ بالله بالدعاء والعبادة والالتجاء والخضوع والذل هذه كلها لله تبارك وتعالى ، ولهذا جاء عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله ورضي الله عن الصحابة أجمعين جاء عنه أنه قال : «أحبونا حب الإسلام» ، انتبهوا إلى جمال الكلام قال : «أحبونا حب الإسلام فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما أحب أن تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلني الله إياها» ، ففي قوله «أحبونا حب الإسلام» تنبيه إلى أن الحب الذي ينبغي أن يكون لآل البيت مضبوطا بحب الإسلام ، أما الغلو وإعطاءهم من الخصائص ما لا يليق إلا بالله تبارك وتعالى ليس هذا حب الإسلام ، بل هذا حب أنكره النبي عليه الصلاة والسلام وحذر منه ونهى عنه .

إذاً قوله ((أوصيكم بأهل بيتي)) هذا فيه دعوة إلى الوسطية والاعتدال ، من غلا في أهل البيت هل حفظ فيهم وصية النبي عليه الصلاة والسلام؟ لا والله ، ومن جفا في آل البيت هل حفظ فيهم وصية النبي عليه الصلاة والسلام؟ حاشا وكلا ، لا يحفظ وصية النبي عليه الصلاة والسلام في آل بيته إلا من يكون فيهم متوسطا ، لا غاليا ولا جافيا ، لا مفرطا ولا مفرطا بل يكون معتدلا ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ، ليس من حفظ وصية النبي صلى الله عليه وسلم في آل بيته أن يغلى فيهم ، ولا أيضا من حفظ وصية النبي عليه الصلاة والسلام في آل بيته أن يعاملوا بالجفاء ، فحفظ وصيته عليه الصلاة والسلام فيهم بالوسطية والاعتدال في هذا الباب بين الغلو والجفاء والإفراط والتفريط .

((ثم قال أهل بيتي)) أي وأوصيكم بأهل بيتي ، ولهذا جرت طريقة أهل السنة والجماعة في كتبهم ومؤلفاتهم ولا سيما كتب العقائد التنبيه على هذا الأمر وعلى وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بيته ، وأن الواجب على المسلم أن يحبهم وأن يتولاهم ، وأن لا يذكرهم إلا بالجميل والثناء الطيب ، وأن لا يقع في أحد منهم وأن لا ينتقص أحدا ، وأيضا ألا يغلو فيهم ، فكتب أهل السنة عامرة بذلك ومليئة بذلك بالثناء على أهل البيت ، وأيضا في كتب أهل السنة التحذير من الغلو في أهل البيت والتحذير من أن يعطوا من الخصائص ما لا يليق إلا بالله ، هذا يأتي كثير في كتب أهل السنة ؛ يحذرون من الغلو في أهل البيت من الغلو في النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الغلو نهي الله عنه في كتابه ونهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام في سنته ، فتبعا للكتاب وتبعا للسنة يحذر أهل السنة من الغلو في آل البيت ومن الغلو في النبي عليه الصلاة والسلام لأن الغلو ليس من دين الله تبارك وتعالى وليس من شرعه جل وعلا .

ومن كان واقعا في الغلو متلطحًا به يسمى تحذير أهل السنة من الغلو في آل البيت يسميه انتقاصا لآل البيت ، ويسميه طعنا في آل البيت ، إلى غير ذلك من الأسماء التي تطلق هنا وهناك وكلها لا قيمة لها ، والمسلم الواجب عليه أن يحفظ وصية النبي عليه الصلاة والسلام في أهل بيته بالحببة لهم والمودة والثناء عدم الانتقاص أو الاحتقار

أو الازدراء أو غير ذلك من المعاني ، وأن يتولاهم وأن يثني عليهم وأن يدعو لهم إلى غير ذلك من المعاني الصحيحة التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

ونحن والله الحمد تعلمنا كتب هذا المؤلف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وكتب غيره من أهل العلم معرفة حق آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، بل إننا وجدنا في سيرة هذا المؤلف رحمه الله وفي كتاباته الشيء العظيم في بيان حق آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، بل إن هذا الرجل - أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى - من شدة حبه لآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام سمى أولاده كلهم بأسماء آل البيت إلا واحدا منهم فقط عبد العزيز ، وإلا أولاده كلهم سماهم بأسماء آل البيت ؛ سمى الحسن ، والحسين ، وعلي ، وفاطمة ، وإبراهيم هؤلاء كلهم من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ، وسماهم بذلك لشدة محبته لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكثيرا ما يأتي في كتبه الثناء عليهم والوصية بهم ، ومع ذلك أعداؤه وأعداء السنة في كل وقت وحين يقولون لا يحبون آل البيت ، ما هو حب آل البيت؟ هل حب آل البيت الغلو فيهم؟ هل حب آل البيت أن يعبدوا مع الله؟ هل حب آل البيت أن يغلى فيهم؟ هل حب آل البيت أن يعطوا من خصائص الله تبارك وتعالى؟ لا والله ليس هذا هو الحب ، الحب معروف الذي قال عنه علي بن الحسين قال «أحبونا حب الإسلام» لا تحبونا حب الغلو وحب تجاوز حد الشريعة ، النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد؛ فقولوا عبد الله ورسوله)). . ولهذا نحمد الله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه أن هدانا لمحبة آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن عافانا سبحانه وتعالى وهو المعافي وحده أن عافانا من الغلو ونجانا منه ، ونسأله تبارك وتعالى أن يمن علينا يوم القيامة بأن يجمعنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وآل بيته في جنات النعيم إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال رحمه الله تعالى : ((وفي لفظ : كتاب الله هو حب الله المتين)) ؛ كتاب الله: أي القرآن ، هو حب الله: أي الذي من تمسك به فقد هُدي إلى صراط مستقيم قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] والحبل هو ما يتمسك به ويتعلق به ويتجود به الإنسان ، وإذا كان متينا فهذا أبلغ ولهذا قال: ((كتاب الله هو حب الله المتين)) أي الذي يوصل من تمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة .

قال: ((كتاب الله هو حب الله المتين من اتبعه كان على الهدى ،ومن تركه كان على الضلالة)) ؛ من اتبعه أي اتبع القرآن كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة ، وهنا أيضا فيه تنبيه يتعلق بالوصية بكتاب الله؛ أن تشمل عناية المسلم بكتاب الله عز وجل تشمل القراءة والحفظ ، والفهم والتدبر ، والعمل والاتباع ، لا أن ينشغل فقط بحروف القرآن وإقامتها عن فهم القرآن وتدبره وعن العمل به والقيام به ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام هنا ((من اتبعه)) ، واتباع القرآن لا يكون إلا بعد القراءة للقرآن والفهم للقرآن ، يقرأ القرآن ويفهم القرآن ثم يتبع القرآن ، فالقراءة وحدها لا تكفي ، والتدبر وحده لا يكفي ، بل لا بد من الاتباع ولهذا نص عليه صلوات الله

وسلامه عليه هنا ، والله جل وعلا يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] ، قال أهل العلم: تلاوة القرآن حق تلاوته تكون: بالقراءة والحفظ، والفهم والتدبر، والعمل . والاتباع نفسه تلاوة للقرآن ، لأن من تلاوة القرآن أن تتبع القرآن ، ومن معنى التلاوة في اللغة: الاتباع كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّاهَا﴾ [الشمس: ٢] أي تبعها ، فمن تلاوة القرآن اتباع القرآن ، ليست تلاوة القرآن بإقامة حروفه وتجويد مخارجة فقط ، بل بذلك وبالتدبر لكلام الله عز وجل وفهمه ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤] ، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] وبالعمل أيضا بالقرآن واتباع القرآن وأن يكون القرآن إماما للإنسان وقائدا .

قال رحمه الله تعالى :

وله في حديث جابر الطويل : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبة عرفة : ((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به ؛ كتاب الله . وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟)) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : ((اللهم اشهد)) ثلاث مرات .

ثم أورد رحمه الله حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في ذكر خطبة النبي صلى الله عليه وسلم التي خطبها يوم عرفة الذي هو أعظم الأيام وسيد الأيام وأفضل الأيام كما يقول عليه الصلاة والسلام ((خير الدعاء دعاء يوم عرفة)) ، فيوم عرفة خير الأيام ، في ذلك اليوم العظيم يوم عرفة خطب النبي عليه الصلاة والسلام الناس على صعيد عرفة خطبة عظيمة بليغة كان منها قوله عليه الصلاة والسلام : ((وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به ؛ كتاب الله)) ؛ هذا فيه الوصية بالاعتصام بكتاب ال، له مثل قول الله في القرآن ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، والاعتصام بالقرآن: هو التمسك به ، التمسك بكتاب الله عز وجل كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ١٧٠] أي يتمسكون به ويعتصمون به ويعولون عليه ويجعلونه حاكمًا وإمامًا .

قال: ((تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به)) وهذا فيه أن من يتمسك بالقرآن لن يضل ، قال تعالى : ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿[طه: ١٢٣] فالذي يتبع القرآن نفى الله عز وجل عنه الضلال ونفى عنه الشقاء ، ونفى الضلال يقتضي ثبوت الهداية ، ونفى

الشقاء يقتضي ثبوت السعادة ، فالذي يتمسك بالقرآن يهتدي ويسعد في الدنيا والآخرة ، والذي يترك القرآن فإنه يقع في الضلالة وبيوء بالخسران في الدنيا والآخرة .

قال: ((وأنتم تسألون عني)) أي يسألكم الله ، والسؤال ذكره الله في القرآن ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ((تسألون عني فما أنتم قائلون؟)) وهذا فيه التنبيه على الجانب الآخر وهو جانب السنة وبلاغ النبي عليه الصلاة والسلام لدين الله عز وجل .

((قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت)) ولاحظوا هذه الكلمات الثلاث؛ قال أنتم تسألون عني أي يسألكم الله عز وجل وهو أعلم بكم وبما بالخلق أجمعين ، تُسألون عني فما أنتم قائلون أي إذا سئلتكم ؟ ((قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت)) ؛بلغت أي الرسالة ، وأديت أي الأمانة ، ونصحت أي الأمة؛ فهو عليه الصلاة والسلام بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيرا إلا دل أمته عليه ولا شرا إلا حذرهما منه ، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك .

((قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد، ثلاث مرات)) قال بأصبعه السبابة أشار بالسبابة يرفعها إلى السماء عندما يقول ((اللهم)) يرفع اصبعه اللهم فاشهد وينكتها إليهم ؛ أي يخفض اصبعه ويشير بها إليهم ، لما قالوا بلغت وأديت ونصحت قال ((اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد)) فعل ذلك صلوات الله وسلامه عليه ثلاث مرات . وكان عليه الصلاة والسلام يشير بأصبعه إلى العلو عندما قال ((اللهم فاشهد)) وهذا من الإيمان بعلو الله سبحانه وتعالى ، وهذه الإشارة إلى العلو اللهم فاشهد أشار بها إلى العلو وأمامه ألوف الناس على صعيد عرفة يرونه عليه الصلاة والسلام وهو يشير هذه الإشارة ثم ينكتها إليهم ، لماذا يشير هكذا ((اللهم فاشهد)) ؟ هذا من الإيمان بعلو الله تبارك وتعالى على خلقه قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ، قال تعالى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩] ، قال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، قال ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأُرِيَبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢] النزول من أعلى ، قال ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات والدلائل الكثيرة على علوه تبارك وتعالى على خلقه علوا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى ، فكان يشير بأصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول عليه الصلاة والسلام ((اللهم فاشهد اللهم فاشهد)) أي اشهد على كلامهم وأني بلغت وأديت ونصحت .

قال رحمه الله تعالى :

وعن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((ألا إنها ستكون فتنة)) قلت : ما المخرج يا رسول الله ؟ قال : ((كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴿ [الجن: ١-٢] ، من قال به صدق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم)) رواه الترمذي وقال : غريب .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في الوصية بكتاب الله عز وجل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا إنها ستكون فتنة قلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله)) إلى آخر الحديث ، وهذا الحديث لم يثبت مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويروى أيضاً موقوفاً على علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو من حيث المعاني والألفاظ التي اشتمل عليها معاني عظيمة وكلمات قوية في تعظيم كتاب الله وبيان قدر القرآن ومكانة القرآن وذكر أمور عظيمة تتعلق بالقرآن ، لكنه لم يصح حديثاً مرفوعاً إلى نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام .

قوله ((ألا إنها ستكون فتنة)) يُعني عن هذا ما جاء في الحديث الذي أشرت إليه حديث العرباض قال : ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)) ، وقال في الحديث الآخر ((وستفتقر هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)) فأشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى وجود الفتن وأنها ستقع الفتن ، جاء عنه هذا المعنى في أحاديث عديدة ، وأيضاً جاء عنه عليه الصلاة والسلام في بيان المخرج عند وقوع الفتن في حديث العرباض قال : ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)) فذكر المخرج دون أن يُسأل عنه ، دون أن يقال ما المخرج؟ وهذا من كمال نصحه عليه الصلاة والسلام ، قال ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي)) هذا هو المخرج ((فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)) ، وأيضاً في الحديث الآخر قال ((وستفتقر هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قالوا من هم؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) هذا هو المخرج ، المخرج أن يكون الإنسان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام .

قال: ((كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم)) وهذه كلها موجودة في القرآن ، القرآن مشتمل على أخبار من سبق ، قص الله تبارك وتعالى فيه على نبيه أخبار الأمم السابقة وقصص الأولين وأخبار النبيين ، جاءت تفاصيل كثيرة من ذلك في كتاب الله عز وجل ، وأيضا ((فيه خبر ما بعدكم)) أيضا في القرآن الكريم إخبارات عن أمور آتية وتفاصيل قادمة كثيرة جدًا ومن ذلكم: الساعة وأشراتها وقيامها وأهوالها وغير ذلك ، فجاء فيه أخبار ، قال ((وحكم ما بينكم)) أيضا هذا موجود في القرآن حكم ما بين الناس ، وفيه الفصل في القضايا والأحكام .

قال : ((هو الفصل ليس بالهزل)) أي كلام عز وجل جد لا هزل فيه .
((من تركه من جبار قصمه الله)) وهذا فيه خطورة ترك القرآن والإعراض عن القرآن ، وأن من أعرض عن القرآن قصمه الله تبارك وتعالى وإن كان جبارا من الجبابرة .

قال: ((ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله)) ومن ابتغى الهدى أي طلب لنفسه الهداية من غير القرآن أضله الله تبارك وتعالى ، هذا نظير قوله في الحديث المتقدم ((هو حبل الله المتين من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة)) .

قال: ((وهو حبل الله المتين)) وهذا أيضا مر معنا في الحديث المتقدم .
((وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تريغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء)) وكل هذه أوصاف صحيحة لكلام الله تبارك وتعالى .

((ولا يخلق عن كثرة الرد)) أي عندما يكرر الإنسان القرآن يجد أنه في كل مرة يتذوق حلاوة القرآن ، لا يمل من القرآن بكثرة التلاوة ، ولا يخلق القرآن لا يصبح القرآن عنده شيء قديم أو شيء خلق بسبب التكرار وكثرة القراءة، بل في كل مرة يقرأ يقف على معاني وحكم وأشياء من حلاوة القرآن ولذة القرآن، فهو لا يخلق بكثرة التكرار أو كثرة الرد.

((ولا تنقضي عجائبه)) في القرآن أمور وعجائب عظيمة تدل على عظمة المتكلم به سبحانه وتعالى .
((هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴿[الجن: ١-٢]﴾))
قال الذي لم تنته الجن إذ سمعته: أي مجرد أن سمعت القرآن أدركا عظمة القرآن ومباشرة آمنوا بالقرآن .

قال: ((من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم)) وهذا كله من التمسك بالقرآن ، حقيقة التمسك بالقرآن: أن يعمل به الإنسان ، وأن يجعله حاكما ، وأن يكون إليه داعيا ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً : ((ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ؛ فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئاً)) ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤] ((رواه البزار وابن أبي حاتم والطبراني .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي الدرداء مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام)) لأن الحلال: ما أحله الله ، والحرام: ما حرّمه الله ، كما جاء في حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن)) ، الحلال هو ما أحله الله ، والحرام ما حرّمه الله تبارك وتعالى .

قال : ((ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية)) أي ما سكت عنه تبارك وتعالى فلم يذكر فيه حلالاً ولا حراماً فهو عافية ، والأصل في الأشياء والمطاعم والملابس ونحوها الأصل فيها الإباحة والأصل فيها الحل ﴿ أُحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة: ٤] ، فما سكت عنه سبحانه وتعالى من الأمور التي يحتاج إليها الناس في طعامهم في شراهم في غذائهم في لباسهم في مساكنهم إلى غير ذلك الأصل فيه الحل ، وهو عافية من الله تبارك وتعالى كما جاء في هذا الحديث ((فاقبلوا من الله عافيته)) .

قال: ((فإن الله لم يكن لينسى شيئاً)) يعني لم يترك بيانه نسياناً ، وإنما ترك بيانه عافيةً كما أخبر بذلك عليه الصلاة والسلام .

((ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤])) ؛ قال عز وجل ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه: ٥٢] فهو منزّه تبارك وتعالى عن ذلك .

فهذا الحديث من جملة الأحاديث التي فيها الوصية بكتاب الله عز وجل أن نُحِلَّ حلاله وأن نُحرّم حرامه ، فمن الوصية بالقرآن أن نحل حلال القرآن وأن نُحرّم حرام القرآن وأن نكون متمسكين بالقرآن الكريم .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١٧ إلى الدرس ٢٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٠/٣٠ هـ

الدرس السابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له في كتاب «أصول الإيمان» :

باب الوصية بكتاب الله عز وجل

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعند رأس الصراط داع يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجوا ، وفوق ذلك داع يدعو كلما همَّ عبدٌ أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تُلجهُ)) ، ثم فسره فأخبر أن الصراط المستقيم هو الإسلام ، وأن الأبواب المفتحة محارم الله ، وأن الستور المرخاة حدود الله ، وأن الداعي على رأس الصراط هو القرآن ، وأن الداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن)) رواه رزين ، ورواه أحمد والترمذي عن النواس بن سمعان بنحوه .

هذا الحديث حديث ابن مسعود وأيضاً كما أشار المصنف رحمه الله تعالى رواه الإمام أحمد الترمذي من حديث النواس بن سمعان حديثٌ عظيم ضرب فيه النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه عز وجل مثلاً عظيماً بين الإسلام ، والأمثال لها شأن عظيم ووقع كبير على القلوب ولها فائدة عظيمة في فهم المعاني وإيصال حقائقها وضبطها ؛ فإن الأمثال من شأنها أنها تجعل الأشياء المعنوية بمثابة الأشياء الملموسة المشاهدة المعاينة .

والقرآن الكريم ضرب الله تبارك وتعالى فيه أمثالا كثيرة تبلغ أربعين مثلاً لبيان التوحيد والإيمان ، وكذلك سنة النبي عليه الصلاة والسلام جاء فيها في أحاديث كثيرة ضرب الأمثال ، فالأمثال لها شأن عظيم ومكانة عالية في بيان الدين ، وينبغي على المسلم أن يرعى هذه الأمثال انتباهه ، والله عز وجل يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، كان بعض السلف إذا مر على مثل من أمثال القرآن ولم يفهم بكى وقال "لست من العالمين" لأن الله عز وجل يقول ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ . ولهذا ينبغي أن يستفيد المسلم من هذه الأمثال

العظيمة المضروبة في القرآن وفي سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . وهذا المثل الذي بين يدينا مثلٌ عظيم مبارك ضربه الله تبارك وتعالى لبيان حقيقة الإسلام وتوضيحه وبيانه بياناً وافياً واضحاً بَيِّنًا .

يقول عليه الصلاة والسلام : ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً)) هذا هو مثل الإسلام ، الإسلام مثله مثل الصراط المستقيم قال الله تعالى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، وفي دعاء المسلم المتكرر في كل ركعة من كل صلاة في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴿ ، ويقول جل وعلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] فالإسلام صراط مستقيم .

وهنا قوله ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً)) يُعْنَى بالصراط المستقيم الإسلام كما سيأتي في الحديث ، فالإسلام صراط مستقيم ، وسمي الإسلام صراطاً مستقيماً: لأن الإسلام وهو وحده الذي يوصل إلى رضا الله تبارك وتعالى وجنات النعيم والنجاة من النار وعذاب الله تبارك وتعالى وعقابه يُيسر وسهولة ، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إن هذا الدين يسر)) ، ويمتاز هذا الصراط المستقيم بميزات عظيمة أهمها: سعته وسهولته واستقامته ؛ فهذه صفات ثلاث للصراط المستقيم :

١. فهو واسع يستوعب كل داخل وكل راغب في الدخول فيه وسلوكه ، مهما كثر العدد فإنه يسع لذلك ولا يقال يوماً من الأيام امتلأ الصراط لا مجال لأحد أن يدخل أو يسير ، فكل من رغب أن يدخل في هذا الصراط ويسير على صراط الله المستقيم لينال رضاه في أي وقت وفي أي زمان وفي أي بلد الصراط يسعه ، فهو صراط واسع .

٢. والأمر الثاني : هو صراط سهل ليس فيه حزونة وصعوبة وعسر وارتفاع وانخفاض والتواء وانحراف ، بل هو سهل مستقيم وسهل وليس فيه عسر ولا صعوبة ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)) ، وقال عليه الصلاة والسلام ((يسرّوا ولا تعسروا)) .

٣. والأمر الثالث: الاستقامة ؛ فهو صراط مستقيم ، والصراط المستقيم هو الذي يوصل إلى المقصود بأقرب طريق ، وليس هناك ما يوصل إلى المقصود بأقرب طريق إلا الطريق المستقيم ، أما الطرق الملتوية المعوجة المنحرفة ؛ فهي إما أنها لا توصل إلى المقصود ، أو توصل إليه بانحرافٍ وبُعدٍ والتواء ، أما الطريق المستقيم فهو الذي يوصل إلى المقصود بأقرب وأيسر طريق .

والإسلام صراطٌ مستقيم يمشي عليه المسلم في هذه الحياة ويمضي ثابتاً عليه بتثبيت الله تبارك وتعالى ، ولهذا كانت حكمة الله عز وجل أن ينصب يوم القيامة صراطاً مستقيماً على متن جهنم ثم يُطلب من الخلائق يوم القيامة أن يعبروا من فوق الصراط المنصوب على متن جهنم ، ويكون مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم بحسب حظهم من السير على الصراط المستقيم في الحياة الدنيا ، كلما كان الإنسان أشد محافظة وثباتاً على صراط الله المستقيم في هذه الحياة الدنيا كان ذلك أنفع له في المرور على الصراط المستقيم المنصوب على متن جهنم، وهذا هو معنى قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧١-٧٢] فسّر النبي صلى الله عليه وسلم الورد بالعبور على الصراط المنصوب على متن جهنم .

ولك أن تتنبه لهذا الأمر وهو أمرٌ سنمر عليه جميعاً ؛ نار جهنم من تحت الإنسان ويمشي على هذه النار من فوق صراط جاء وصفه في بعض الروايات بأنه أحدٌ من السيف وأدق من الشعر ، ولا يستطيع أن يمر عليه إلا من يسّر الله تبارك وتعالى له المرور وكتب له ذلك ، ولهذا قال : ﴿ثُمَّ نُنْجِي﴾ أي الله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ نُنْجِي﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ؛ فكلما كان حظ الإنسان ونصيبه من الصراط المستقيم في هذه الحياة الدنيا عظيماً كان مروره على الصراط أيضاً مروراً سريعاً ، ولهذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أن الناس يتفاوتون في المرور على الصراط ؛ منهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل وكركاب الإبل ، ومنهم من يمر جرياً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر زحفاً ، يزحف زحفاً حتى يعبر ، ومنهم من والعياذ بالله من يكرّس في نار جهنم . وعلى جنبتي الصراط كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، ليس فقط صراط يمر عليه بل هناك كلاليب أيضاً تخطف الناس بأعمالهم كما جاء الحديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا من الخير للإنسان ما دام على قيد الحياة وفي ميدان العمل أن ينتبه لنفسه وأن يجاهدها على المحافظة على هذا الصراط المستقيم والثبات عليه والاستقامة عليه إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى وهو عنه راضٍ .

قال : ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة)) ؛ الصراط المستقيم عرفنا معناه وهو الطريق القويم الذي ليس فيه انحراف ولا اعوجاج ولا التواء ولا انخفاض ولا ارتفاع وإنما طريقٌ مستقيم ، فهذا مثل الإسلام . قال ((وعلى جنبتي الصراط سوران)) جداران بحيث إذا دخل الإنسان في هذا الصراط يجد على يمينه جدار وعلى يساره جدار ، طريق مستقيم وعلى يمينك جدار وعلى يسارك جدار وتمشي في الطريق المستقيم بين الجدارين ، ((وفي السورين)) أي في هذين الجدارين ((أبواب مفتحة)) بحيث أنت تمشي على الصراط المستقيم يمر عليك على يدك اليمين وعلى يدك الشمال أبواب كثيرة مفتحة ، ((وعلى الأبواب المفتحة ستور)) يعني ستائر مرخاة على الأبواب ، قطع من القماش مرخاة على

الأبواب، فالأبواب ليست مغلقة وليس لها مفاتيح بحيث يحتاج الإنسان إذا أراد أن يدخل معها أن يبحث عن المفتاح أو يقف يفتح أو يعالج الباب حتى يفتح ، ليس هناك أبواب وإنما ستور مرخاة ، والداخل لا يكلفه الدخول جهداً ولا وقتاً ، رأيتم الباب الذي ليس عليه إلا ستارة هل يحتاج منك جهداً للدخول مثل الباب الذي تُخرج المفتاح وتفتح الباب وتحرك اليد وتدفع الباب ثم تدخل؟ الباب الذي ليس عليه إلا ستارة إذا أراد الإنسان أن يدخل يدخل كما هو؛ يدفع الستارة بكتفه ويدخل كما هو بدون أي مجاهدة أو عنت أو مشقة .

فإذاً الصراط المستقيم على جنبتيه سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب المفتحة ستور مرخاة ؛ هذا مثل عندما تنتبه له يوضح لك الإسلام وأن الإسلام هذا مثله ؛ مثل الإسلام مثل الصراط المستقيم ، فإذا أراد الإنسان لنفسه أن يكون من أهل هذا الصراط لا يقف ، يمشي على الصراط .

والسوران أو الجداران هما حدود الله كما فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في الحديث ((السوران حدود الله)) ، وهذا معناه أنك إذا مشيت على الصراط الذي هو الإسلام فعليك ألا تتعدى حدود الله ، كما قال الله في القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] أي لا تتجاوز حدود الله بحيث تمشي على الصراط أي على الإسلام نفسه ، لا تمارس أموراً ليست من الإسلام وتظن أنك بها ماضياً على الصراط ، مثل من يمارس البدع والأهواء والضلالات ويريد أن يتقرب بها إلى الله عز وجل هذا خروج عن حدود الإسلام عن حد الشريعة عن ضابط الشريعة ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فالسوران حدود الله ؛ فهذا يعني أن المسلم يجب عليه أن يعمل بالإسلام الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ودعا إليه ، لا أن يخترع أموراً أو تُخترع له أمور بل يمضي على الإسلام نفسه ولا يتعدى حدود الله تبارك وتعالى .

والأبواب المفتحة التي عليها ستور مرخاة فسرها النبي عليه الصلاة والسلام بأنها محارم الله ؛ أي الأمور التي حرمها الله سبحانه وتعالى؛ وهي الحدود المحرمة ، حدود الله التي حرم على الناس أن يلجوها أو يدخلوها كما جاء في آية أخرى قال تعالى : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧] ، لأن «الحدود» هذه الكلمة تطلق في القرآن ويراد بها الإسلام؛ الأمر الذي شرعه الله عز وجل ، وهذا يقال حدٌ أمر الله عز وجل أو نهى عز وجل أن نعديه أو نتجاوزه ، وتطلق الحدود ويراد بها الحدود التي حرم الله المحرمات ، وهذه حدودٌ تُهيننا أن نقرّبها ، لهذا في آية قال ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ وفي آية أخرى قال ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ ، والحدود هنا ليست الحدود التي هناك ، قال: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ، وهنا قال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ ؛ الذي قال الله فيها ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أي المحرمات وما نهى الله سبحانه وتعالى عنه .

قال: ((وعلى الأبواب ستور مرخاة)) أي على الأبواب التي تدخل الإنسان على الحرام ستائر مرخاة بحيث أن الداخل مع هذه الأبواب لا يحتاج إلى وقت ، ولهذا ترى الإنسان خرج من بيته إلى المسجد أو إلى طاعة أو إلى بر أو إلى إحسان أو نحو ذلك ثم تعرض له هذه الأبواب في طريقه وتدعوه نفسه إلى الدخول من أحدها ، وربما دخل ويكون دخوله هذا وقوع في الحرام ووقوع فيما نهى الله عنه ، وهذه الأبواب المفتحة التي عليها ستائر دل حديث ابن مسعود القادم الآتي عند المصنف الذي قال فيه: ((إن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطا مستقيما وجعل على جنبتيه خطوط وقال هذا صراط الله ، وهذه سبل ، وعلى كل سبيل منها شيطان)) هذه الرواية تدل على أن هذه الأبواب إضافة إلى كونها مفتحة هناك على كل باب شيطان يدعو ، ولهذا جاء عن ابن مسعود صح عنه رضي الله عنه أنه قال : «إن هذا الصراط محتضر» أي تحضره الشياطين وينادون هكذا يقول ابن مسعود «وينادون يقولون: يا عبد الله هلم إلى الصراط، هنا الصراط» هذا لفظه رضي الله عنه «ينادون : هلم إلى الصراط، هنا الصراط»، الشيطان لما يدعو الإنسان إلى الدخول مع هذه الأبواب يناديه للدخول معها مشعرا له أن دخوله مع هذه الأبواب ليس خروجا عن الصراط ، لا يقول له ادخل من هنا هذا طريق النار نار جهنم هذا طريق سخط الله، يدخله فيها ويثعره أنه لا زال على الصراط وأنه لم يخرج عن الصراط ، يقول له "يا عبد الله هذا الصراط هلم إلى الصراط" يناديه بمثل هذا النداء .

وليست الأبواب المفتحة بابا واحدا أو اثنين أو ثلاثة ، بل هي أبواب كثيرة بمعنى أن الإنسان على طول سيره على الصراط لا تزال تعرض له هذه الأبواب عن يمينه وشماله ؛ وهذا فيه تنبيه على أن الإنسان ينبغي أن يكون على حذر من هذه الأبواب إلى أن يتوفاه الله ، وهو في مجاهدة لنفسه أن لا يدخل مع شيء من هذه الأبواب التي تفضي به إلى الحرام وتجعله يقتحم الباطل ، بل يتقي الله سبحانه وتعالى ويحذر من هذه الأبواب . والنفس فيها فضول وفيها رغبة في التطلع والنظر إلى ما مُنعت منه وحرّم عليها ، فالنفس فيها فضول ؛ باب وفيه ستارة تقول له النفس : "افتح الستارة قليلا ، لا تدخل افتح الستارة قليلا انظر ماذا في الداخل" ، وإذا طاول نفسه فتح الستارة قليلا قالت له نفسه : "النظر هذا من الباب لا يكفي! ادخل خطوة واحدة أو خطوتين حتى تنظر الأمر" ، وهكذا الشيطان من جهة والنفس الأمارة بالسوء من جهة أخرى ، ثم يقع من يقع في الدخول فيما حرم الله سبحانه وتعالى . وكما قلت النفس فيها فضول وميل لما مُنعت منه ، حتى قيل لو أن الناس قيل لهم لا تفتؤا البعر ، البعر تعرفونه الذي يخرج من بهيمة الأنعام ، لو قيل لهم لا تفتؤا البعر ممنوع فت البعر ؛ لقال الناس في داخله دُر ، لم تُمنع من فتّه إلا بداخله در !! ثم يذهبون ويفتؤون البعر . فالنفس فيها شيء من الميل والتطلع لما تُمنع منه، مثل هذه الأبواب في النفس دواعي لا تزال تتكرر على الإنسان ، وكلما قويت الفتنة وداعي الفتنة كان هذا أشد على الإنسان في الابتلاء في هذه الأبواب التي على يمينه وعلى يساره .

وهذا يؤكد أن العبد ينبغي عليه أن يجاهد نفسه على الثبات على هذا الصراط ، وأن يكون نظره نظرة بعيدة وعميقة ، ينظر نهاية الصراط ولا ينظر للفتن التي تعصف حوله ، بل تتعلق همته ونظره بنهاية الصراط ، سئل ابن مسعود رضي الله عنه الصراط ما هو؟ قال: «هو طريق تركنا النبي صلى الله عليه وسلم في أوله ونهايته في الجنة» هذا هو الصراط ؛ طريق تركنا النبي عليه الصلاة والسلام في أدناه ونهايته في الجنة .

قال: ((وعلى جنبتي الصراط جواد)) أي طرق تخرج الإنسان من هذا الصراط ، فالإنسان يكون نظره نظر بعيد عميق ؛ الجنة ، رضا الله ، النجاة من النار ، كلما دعاه داع للدخول مع هذه الأبواب ذكّر نفسه بالجنة والحرمات منها ، والنار والخوف من دخولها ، وسخط الله عليه وغضبه منه ، فتمنعه مثل هذه النظرة والتطلع الرفيع العالي من الدخول من هذه الأبواب الملوثة الأبواب المضرة الأبواب السيئة التي يُحرم الإنسان بدخولها سعادة الدنيا والآخرة ولذة الدنيا والآخرة .

قال : ((وعند رأس الصراط داع يقول : استقيموا على الصراط ولا تعوجوا)) فسر النبي عليه الصلاة والسلام هذا الداعي بأنه القرآن ؛ وهذا هو الشاهد لسوق المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث في هذه الترجمة ، لأن فيه وصية بالقرآن ووصايا القرآن العناية بها والاهتمام والاستجابة لداعي القرآن ، وأنت كلما أعطيت نفسك عناية واهتمامًا بكتاب الله عز وجل كان ذلك من أعظم الأمور المعينة لك على الثبات على صراط الله المستقيم ، ولا يتحقق للإنسان ثباتٌ على صراط الله المستقيم إلا بالعناية بالقرآن الكريم ، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فمن اعتصم بحبل الله بكتاب الله تمسك به وعمل به هدي إلى صراط مستقيم. ثم ذكر عليه الصلاة والسلام قال: ((وفوق ذلك داع يدعو)) أي فوق الصراط في بعض الروايات ((من جوف الصراط)).

((داع يدعو كلما همَّ عبدٌ أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب)) أي الأبواب التي على جنبتي الصراط ((قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجّه)) ؛ ذكر عليه الصلاة والسلام داع يدعو من فوق الصراط أو من جوف الصراط كلما همَّ العبد أن يفتح شيئاً من هذه الأبواب ليدخل قال له هذا الداعي: يا عبد الله لا تفتح الباب فإنك إن تفتحه تلجّه ، إذا فتحت الباب تدخل ؛ وهذا فيه تنبيه أشرت إليه قريبا وهو: أن الإنسان عندما يمر بهذه الأبواب يحتاج إلى مجاهدة لنفسه ، لأن نفسه تأخذه في الدخول إلى هذه السبل للدخول مع هذه الأبواب تأخذه أخذاً تدريجياً ، تقول له نفسه ويقول له الشيطان "افتح الباب فقط نظرة سريعة وأنت ماشي لا تقف ، انظر نظرة سريعة وامضي" ، إذا فتح الستارة ونظر دخل ((لا تفتح الباب فإنك إن تفتحه تلجّه)) لأنه إذا فتح الباب ونظر إلى الحرام ودخل إلى قلبه من خلال النظر أو من خلال السماع أمور الحرام أصيب بمرض القلب؛ إما

مرض الشبهة أو مرض الشهوة ، والشبهة والشهوة منافذها على الإنسان السمع والبصر ، ولهذا قال ((لا تفتح الباب)) امض على سيرك على صراط الله المستقيم .

ما هو هذا الداعي الذي من فوق الصراط أو من جوف الصراط؟ الذي ينادي في كل مرة يفكر فيها الإنسان أن يفتح الباب يناديه ويقول ((لا تفتح الباب فإنك إن تفتحه تلجه)) ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((ذلك واعظ الله في قلب كل مسلم)) وهذه نعمة من الله سبحانه وتعالى جعلها في قلوب أهل الإيمان ، جعل في قلبه واعظا ، جعل في قلبه زاجراً ناهياً ، كلما أراد أن يفتح شيئاً من هذه الأبواب وعظه ، وهذه الموعظة يحس بها المسلم المستقيم على صراط الله المستقيم المحافظ على طاعة الله وعلى الصلاة وعلى عبادة الله ؛ إذا دعت نفسه للدخول مع شيء من هذه الأبواب أو دخل فيها دخل في أولها أنكر قلب نفسه ، وأحس في قلبه نفرة من هذا وكراهية ، وربما شعر في قلبه ألماً واضطراباً وعدم ارتياح ، وأحس بوخز في قلبه وأحس بضيق ؛ هذا واعظ له ، الطريق الذي دخلت معه ليس طريقك . والقلب حُلُق لعبادة الله سبحانه وتعالى والذل له ، فإذا أُدخل في الأهواء اضطرب وتشوش ، فإذا دخل جاءه هذا الواعظ في قلبه ((واعظ الله في قلب كل مسلم)) ولكن كما يقال " كثرة الإمساس تقلل الإحساس " ، فإذا دخل الإنسان وجاءه هذا الواعظ ومضى لم يبال؛ تعمق وبدأ الواعظ يخف وتعمق تبدل وأصبح يتوغل في الحرام ولا يشعر . وهذه خطورة الدخول في المحرمات والتوغل فيها والمضي فيها خطورة شديدة على الإنسان ، ومثل هذا الإحساس المبارك الشعور الطيب الذي جعله الله في قلب المسلم يتبدل شيئاً فشيئاً حتى ربما ذهب عن الإنسان ولم يبق له أي أثر أو وجود وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] أي غطى عليها ، وفسر الران بأنه: إذا أذنب الذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء ، وإذا أذنب الذنب الآخر نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يغطي القلب فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ويتبدل تماماً ، نسأل الله عز وجل لنا جميعا العافية والسلامة .

لما ذكر عليه الصلاة والسلام المثل فسره ولهذا قال: ((ثُمَّ فَسَّرَهُ ؛ فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمَفْتُوحَةَ مُحَارَمُ اللَّهِ)) أي الأمور التي حرمها الله سبحانه وتعالى على عباده . هذا المثل يعينك في هذا الباب على ضبط نفسك ؛ إذا مضيت في طريق الاستقامة وطريق الثبات على الحق ثم دعتك يوماً نفسك لفعل أمر محرم تذكر الصراط ، قل الآن إذا دخلت في هذا المحرم معناه أنني فتحت الستارة ودخلت فيما حرم الله عز وجل ، أبقى على صراط الله المستقيم خيراً لي ، لأفوز برضا الله لأفوز بثوابه سبحانه وتعالى ؛ ولهذا الشهوات تحف الإنسان من جوانبه ، ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)) ، فهذه شهوات تأتي على يمين الإنسان وعن يساره إذا دخل فيها أدخلته النار ، لأن النار محفوفة بالشهوات ؛ فيتقي الإنسان ربه عز وجل ويجاهد نفسه .

قال: ((ثُمَّ فَسَّرَهُ فَأَخْبَرَ أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَأَنَّ الْأَبْوَابَ الْمَفْتُوحَةَ مُحَارِمُ اللَّهِ ، وَأَنَّ السُّتُورَ الْمُرَخَّاةَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ هُوَ الْقُرْآنُ ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ مِنْ فَوْقِهِ هُوَ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ)) ؛ فهذا مثل عظيم مبارك نسأل الله العظيم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفعنا به . ولهذا الحديث شرحٌ من أجمل وأبدع ما يكون للحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى سماه «شرح حديث مثل الإسلام» ، وهو مطبوع في حجم هذا الكتاب الذي معكم يُقرأ في جلسة لكنه غزير الفائدة كبير النفع في شرح هذا الحديث وهذا المثل العظيم المبارك .

وأورد رحمه الله -أعني ابن رجب- فيما أورد في شرحه لهذا الحديث قصة أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام والحديث في صحيح مسلم وهو عبد الله بن سلام أنه رأى في المنام رؤية عجيبة وعرضها على النبي عليه الصلاة والسلام وفسرها له ، يقول : «بينما أنا نائم إذ أتاني آت وأخذ بيدي فانطلق بي ، فمررنا على جواد على شمالنا فأردت أن آخذ فيها -أي أسير في تلك الجواد- فقال لي: لا تذهب من هنا هذه طريق أهل الشمال ، وأخذ بي وإذا بطريق منهجة على يميننا ودخل بي معها ، يقول دخلنا مع هذه الطريق -هذا في المنام يراه- دخلنا مع هذه الطريق وإذا بجبل فأردت أن أرقى هذا الجبل ، فكلما صعدت شيئاً من هذا الجبل سقطت على أستي -على قفائي- وكلما صعدت سقطت ما استطعت أن أصعد ، يقول فأخذ بيدي وإذا بعمود ممتد طرفه في السماء وأسفله في الأرض ، وعند أعلاه عروة -العروة هي ما يتمسك به- فقال لي اصعد ، قلت كيف اصعد يعني هذا عالي ما أستطيع ! قال فأخذ بيدي وصعد بي حتى وصلنا إلى أعلى العمود وتمسكت بالعروة التي في أعلى في السماء يقول فتمسكت بالعروة ، فضرب هذا الذي معه بالعمود فسقط العمود وبقي متمسك بالعروة ، يقول واستيقظت من النوم فذهبت إلى النبي عليه الصلاة والسلام فذكرت له الرؤيا» ، قال: ((الطرق التي رأيتها على شمالك هذه طرق أهل الشمال ، والطريق التي سرت عليها على يمينك هذه طريق أهل الإيمان ، والجبل الذي كنت تصعد وكلما صعدت لم تتمكن هذه منازل الشهداء ولن تنالها ، والعمود الذي رأيت عمود الإسلام ، والعروة التي رأيتها العروة الوثقى ، وتمسكك بهذه العروة ثباتٌ لك على هذا الدين إلى أن يتوفاك الله)) ؛ وهذا في معنى المثل أو في جوانب منه في معنى المثل ، وأن الصراط المستقيم يحتاج الإنسان أن يمضي عليه ثابتاً ناظراً إلى أعلى ويجاهد نفسه على التمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بجبل الله تبارك وتعالى المتين ، وأن يجاهد نفسه ألا ينحرف لا ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ ولأجل هذا شرع لنا أن نلجأ إلى الله عز وجل لجوءاً فُرض علينا سبع عشرة مرة في اليوم أن يهدينا الصراط المستقيم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿الفاتحة: ٦-٧﴾ ، وأهل الصراط المستقيم: هم الذين عرفوا الحق وعملوا به ، أما من عرف الحق ولم يعمل به

فهو مغضوب عليه ، ومن عمل بغير معرفةٍ بالحق فهو ضال ؛ فلا يكون من أهل الصراط المستقيم إلا بمعرفة الحق والعمل به ، إذا كان الإنسان على هذا النهج وعلى هذا المسلك كان من أهل صراط الله المستقيم .
والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً .
قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له في كتابه «أصول الإيمان» :

باب الوصية بكتاب الله عز وجل

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] ، قالت : قال : ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)) متفق عليه .

المصنف رحمه الله تعالى عقد ترجمةً مرت معنا بعنوان «باب الوصية بكتاب الله عز وجل» ، وجمع رحمه الله تعالى جملة من الدلائل من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فيها الوصية بكتاب الله عز وجل عنايةً به ومحافظَةً عليه وتلاوةً له وتدبراً لآياته وعملاً بها وإيماناً بمتشابهه وعملاً بمحكمه وقياماً بأوامره ونواهيه كما أمر الله تبارك وتعالى عباده بذلك وكما أمر بذلك رسوله عليه الصلاة والسلام ، ومن جملة ما أورده رحمه الله من الدلائل في هذا الباب حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلا قول الله عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] ؛ وهذه الآية العظيمة المباركة التي تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها

بيانٌ لحال أهل الإيمان مع كتاب الله عز وجل وحال أهل الزيغ والعياذ بالله مع كتاب الله عز وجل ، وأن حال أهل الإيمان مع كتاب الله هو الإيمان والتسليم واعتقاد أن المحكم والمتشابه كل ذلك من عند الله؛ فيؤمنون به ويردون ما تشابه منه إلى المحكم ، وأن حال أهل الزيغ والعياذ بالله اتباع المتشابه من كتاب الله عز وجل ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

وقد بدأ الله جل وعلا هذه الآية الكريمة ببيان أن آيات القرآن الكريم على نوعين: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ فذكر جل وعلا أن آيات القرآن على قسمين:

١. قسم محكم وصفه تبارك وتعالى بأنه أم الكتاب ، وأم الشيء: أصله وأساسه وما عليه المعول منه .
٢. والقسم الثاني: آيات متشابهات ، والمراد بالتشابه: أي في المعنى بحيث يكون معناها ليس ظاهرًا لكل الناس ليس واضحًا لكل الناس ، بل لا يكون واضحًا إلا للعلماء الراسخين والأئمة المحققين .

قال: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ ووصف تبارك وتعالى المحكم بأنه أم الكتاب ، وأم الشيء عرفنا أنه أصله الذي عليه يعول وإليه يرجع ، ولهذا وصفهم بأنهم يعيدون ما تشابه عليهم من آيات الله عز وجل إلى المحكم ، يعيدون ما خفي عليهم من الآيات وما اشتبه عليهم من معانيها إلى ما أحكم من آيات الله أي ما كان واضحًا بينا ظاهرًا ؛ هذا شأن أهل الإيمان .

والمراد بالإحكام والتشابه هنا: الإحكام من حيث ظهور المعنى وبيانه ، والتشابه خفاء المعنى وعدم ظهوره ، وليس في القرآن آية تخفى على كل أحد حتى على الراسخين ، لكن في القرآن آيات متشابهات تخفى معانيها على كثير من الناس ولا يعلمها إلا الراسخون كما قال ابن عباس رضي الله عنه لما تلا هذه الآية ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ قال «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» أي يعلمون تأويل المتشابه ، ويقول مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى : «قرأت القرآن كله على ابن عباس رضي الله عنهما أقفاه عند كل آية أسأله عن معناها» ، فالراسخون في العلم يعلمون معاني الآيات المتشابهات وهي في حقهم تكون واضحات لا تشابه فيها، لأن هذا التشابه تشابه نسبي ليس في حق الناس عمومًا وإنما في حق كثير من الناس ، أما الراسخون في العلم فإنهم يعلمون معاني المتشابه ويردّون ما تشابه من آي القرآن إلى المحكم . قال: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي قلوبهم والعياذ بالله زائغة مريضة دخلتها الأهواء والضلالات والأباطيل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ لماذا ؟ ﴿ ابْتِغَاءَ الْقِنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ هذا غرضهم من اتباع المتشابه؛ ﴿ ابْتِغَاءَ الْقِنَةِ ﴾

أي الفتنة بين الناس في دينهم وإيمانهم وعقيدتهم وذلك بصرفهم عن الاعتقاد الصحيح والإيمان الراسخ المستمد من كتاب الله عز وجل وشغلهم بالأهواء والضلالات ، ﴿وَأَتْبَعَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تأويل القرآن بحمله على غير معناه وصرفه إلى غير مدلوله وغير مقصود الرب تبارك وتعالى منه .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ بالوقف ، وأيضاً ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي والراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه ، والمراد بتأويله: أي بتفسيره ، لأن التأويل يطلق ويراد به التفسير ، ويطلق ويراد به معرفة مآل الشيء وحقيقته .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فيجوز الوصل ، لأن الراسخين في العلم يعلمون تفسير ومعاني الآيات المتشابهات فيجوز الوصل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه برده إلى المحكم البين .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ويراد به مآل الشيء وحقيقته؛ وعلى هذا المعنى يلزم الوقف ، لأن هذا أمر لا يعلمه إلا الله ، يلزم الوقف ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ . ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ .

وقراءة الوصل والوقف بملاحظة معنى الآية ومدلولها يرجع أيضاً إلى فهم معنى المتشابه :

❖ لأن التشابه قد يراد به التشابه من جهة الحقيقة والكيفية ؛ حقائق ما أخبر الله عز وجل به من المغيبات وعن نفسه تبارك وتعالى وأسمائه وصفاته وكيفيات ذلك ، فالتشابه هنا ليس تشابهاً نسبياً وإنما هو تشابهٌ مطلق .

❖ وقد يراد بالتشابه التشابه من حيث المعنى؛ وهو هنا يكون تشابهاً نسبياً ؛ أي في حق كثير من الناس ، أما الراسخون في العلم فإنهم يعلمون تأويله .

وإذا فهم من التشابه تشابه المعنى جاز الوصل؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله أي تفسيره ، فالتشابه يراد به من حيث الحقيقة ويراد به من حيث المعنى ، فإذا كان المراد به من حيث الحقيقة والكيفية فحينئذ لا بد من الوقف ، لأن تأويل المتشابه بمعنى حقيقته وكيفيته لا يعلمه إلا الله ، وقد يراد به أي بالتشابه أي التشابه من حيث المعنى ، فإذا كان هذا المراد فيجوز الوصل لأن الراسخين في العلم يعلمون معاني المتشابه ، وقد مر معنا قول ابن عباس رضي الله عنهما «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» أي يعلمون تفسيره .

قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي المحكم والمتشابه من آي القرآن الكريم كل ذلك من عند الله . وإذا آمن المسلم بأن كل ذلك من عند الله تبارك وتعالى فإنه لا يضرب كلام الله عز وجل بعضه ببعض ، لأن كلام الله عز وجل ليس فيه اختلاف ولا تناقض ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ

مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿ [النساء: ٨٢] . فإذا تشابه على العبد شيء من معاني الآيات ولم يتضح له معناه فليردّه إلى المحكم البين ، وإذا أيضا شُبّه عليه في بعض معاني الآيات وأفهم منها معاني غير صحيحة من قبل أهل الأهواء والضلال فليردّ ما تشابه عليه أو شُبّه عليه من الآيات إلى المحكم منها .

وحتى يتضح المقصود أضرب على ذلك مثالا في أعظم الأمور وأجلها على الإطلاق ألا وهو توحيد الله عز وجل الذي خلق الخلق لأجله وأوجدهم سبحانه وتعالى لتحقيقه ؛ بأن يفرد عز وجل بالعبادة بجميع أنواعها ، بالصلاة الصيام والحج والذبح والنذر والتوكل والاستغاثة والرجاء والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة، فكل ذلكم حق لله ؛ هذا أمر محكم بين ودلائله في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لا تُحصر إلا بكلفة ، كثيرة جدا ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، وقال تعالى : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١] ، الآيات في هذا كثيرة جدًا. ومن العبادة الدعاء ، بل قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((الدعاء هو العبادة)) وتلا قول الله عز وجل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فسمى تبارك وتعالى الدعاء عبادة ، وجاء في القرآن آيات كثيرة تدل على أن الدعاء عبادة وأنه حق لله ؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، والأحاديث أيضا في هذا المعنى كثيرة جدًا ، يقول عليه الصلاة والسلام ((من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار)) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : ((إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) هذا أمر محكم بين؛ أن العبادة حق لله والدعاء من العبادة فلا يجوز أن يصرف الدعاء إلا لله ، لا يُدعى إلا الله ، كما أنه لا يركع ويسجد ويصلي إلا لله فكذلك الدعاء لا يدعى إلا الله الدعاء عبادة حق لله عز وجل ﴿أَمَّنْ

يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ [النمل: ٦٢] ، فالدعاء عبادة ، والعبادة حق لله عز وجل ، وصرفها لغيره تبارك وتعالى شرك بالله عز وجل ، هذا مر محكم بَيِّن واضح مثل وضوح الشمس في رابعة النهار ، واضح لا خفاء فيه ، بَيِّن لا التباس ولا اشتباه فيه محكم في كتاب الله وآياته كثيرة جدا تراها في القرآن الكريم وتراها في أحاديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

فإذا جاءك شخص بآية أو بحديث وأراد من خلال هذه الآية أو الحديث أن ينقلك عن هذا الأصل العظيم البَيِّن المحكم ، لو جاءك رجل من أهل الزيف وأراد أن ينقلك عن هذا الأصل بشيء اشتبه معناه عليك مثل أن يأتيك ويقرأ عليك قول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وبقراً عليك ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وقال لك: الوسيلة أن تجعل واسطة بينك وبين الله من الأولياء ومن الأنبياء ومن الصالحين تدعوهم وتطلب منهم حتى يقربوك من الله لأن لهم مكانة وجاه عند الله سبحانه وتعالى، حتى يقربوك من الله عز وجل وحتى يكونوا شفعاء ووسطاء لك عند الله ، فأراد أن ينقلك بهذا الأمر عن المحكم البَيِّن من آيات كتاب الله عز وجل فكيف تكون صانعاً في مثل هذه الحال؟ تترك الآيات الواضحات البينات التي يدعوك فيها رب العالمين ويدعوك رسوله عليه الصلاة والسلام إلى التوجه إليه وحده بالدعاء والسؤال والطلب!! يقول عليه الصلاة والسلام لابن عباس ((إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله)) ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ [البقرة: ١٨٦] .

لاحظ هنا ملاحظة نبه عليها أهل العلم في معنى الآية جميلة جدا وهي أن سورة البقرة فيها آيات عديدة يقول الله عز وجل فيها {يسألونك} ثم يأتي الجواب {قل} كذا ؛ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠] آيات كثيرة يسألونك ويأتي الجواب بـ«قل» . هنا قال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ لم يأت «قل»، قال ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ، ما في واسطة الذي يريد أن يدعو الله باب الله عز وجل مفتوح في كل وقت ، في أي ساعة من ليل أو نهار في أي بلد كنت في الدنيا في أي موضع كنت ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ، هل يحتاج من يدعو الله عز وجل أن يذهب إلى ضريح يقف عنده حتى يقبل الله دعاءه عند الضريح!! أو يذهب إلى قبة أو إلى مكان أو نحو ذلك أو أن باب الله عز وجل مفتوح لك في أي مكان كنت!! ﴿وَإِذَا

سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يُرْشَدُونَ ﴿١﴾ أينما تكون مد يدك إلى الله وسله وألح عليه ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة)) ، فأينما كنت
توجهه إلى الله عز وجل توجه إليه بالسؤال بالدعاء بالطلب .

فإذا أراد أحد أن ينقلك عن هذا الأصل المحكم البين الواضح بشيء من المتشابه ، كأن يتلو عليك الآيات
المتقدمات ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وأفهمك أن الوسيلة هي الوساطة ،
وهذا من المفاهيم المغلوطة ، الوساطة التي يدعوك أن تتجه إليها لتكون وسيلة لك عند الله ؛ فما أنت صانع؟
المنهج السديد أمامك في هذه الآية ؛ تتبع المحكم الذي هو أم الكتاب ، وما تشابه من آيات الكتاب عليك أعده
إلى المحكم وقل: الدعاء حق لله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يسأل إلا الله ، ولا تمد اليدين يا رب يا رب ولا يلتجأ
إلا إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن أنتقل عن هذا الأمر المحكم ، وهذا الذي ذكرت لي في هذه الآية إن
كنت تفهم معناه فبينه ، وإذا كنت لا تفهم معناه قل لا أعرف معناه واسأل عنه أهل العلم ، أما أنا لا يمكن أن
أنتقل عن هذا المحكم البين الذي هو أبين الأمور وأوضحها .

وهنا يا إخوان يأتي أمر مؤلما حقيقة ألا وهو: أن عوام الناس يلبس عليهم ولا تُذكر لهم هذه الآيات المحكمات في
هذا الباب ويذكر لهم دعاة الباطل أشياء متشابهة وأحاديث موضوعة وقصص مختلفة فيبعدونهم عن الإخلاص لله
تبارك وتعالى إلى التعلق بالموتى والمقبورين والبكاء عند القبور والالتجاء إلى أهلها ، حتى إن بعضهم ليبكي ويخشع
عند القبر ما لا يبكي ويخشع عندما يصلي بين يدي الله ، يقف عند القبر خاشعا باكيا ذليلا متذللا وإذا وقف
يصلي أمام الله سبحانه وتعالى لا يخشع ولا يذل ولا يبكي ولا يدمع!! وهذا من المفاهيم المغلوطة التي نشرت بين
العوام والجهال .

بل من عجيب أمرهم -أعني دعاة الباطل- أنهم غرسوا في نفوس كثير من العوام عدم الإصغاء للآيات المحكمات
وأوهومهم أن الآيات المحكمات متشابهة وأنها لا تُفهم ولا ينبغي لأحد أن يفهمها . وأذكر هنا أيضا قصة جميلة
قرأتها في كتب أحد أهل العلم: أن رجلا زار شخصا فلاحظ عليه أنه يمارس أمورًا شركية من دعاء وتوسل واستغاثة
والتجاء إلى غير الله فأحب أن ينصحه فقرأ عليه آيات في هذا الباب فيها أن الدعاء حق لله وفيها التحذير من
الشرك والاستغاثة بغير الله تبارك وتعالى فقال الرجل: "قف لا تقرأ علي هذه الآيات هذه الآيات متشابهة وأنا
وأنت لا نفهم هذه الآيات" ، وهي آيات واضحة فيها النهي عن عبادة غير الله ، فسكت هذا الرجل وتوقف
عن الكلام وانتظر ثم دخلت صغيرة لصاحب البيت لمن كان ينصحه عمرها ست سنوات أو سبع سنوات ، فلما
دخلت التفت إلى صاحبه وقال لماذا لا تتزوج هذه؟ يقصد لماذا لا تتزوج بنتك الصغيرة هذه؟ فغضب قال:
سبحان الله كيف تقول هذا الكلام!! قال: ماذا فيه لماذا لا تتزوجها؟ قال هذا حرام قال : ومن أين عرفت أنه

حرام؟ قال الله عز وجل يقول ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] قال: هذا لا نفهمه نحن ، كيف الآيات التي فيها تحريم الشرك والدعوة إلى التوحيد تقول لا نفهمها، وهنا تأتي وتستدل بآية!! أراد أن ينبهه إلى أن مثل هذه الأمور مغالطات في أشياء بينة وواضحة .

وأقول لكم أيها الإخوة: إن تحذير الله عز وجل في القرآن من الشرك ودعوته للتوحيد هذا أوضح الأمور ، وكيف لا يكون أوضح الأمور وأبينها وهو أعظم أمرٍ خُلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] هذه هي الغاية التي خُلقنا لأجلها وأوجدنا لتحقيقها .

فهذا أيها الإخوة منهج مبارك يستفاد من هذه الآية الكريمة ينبغي أن يكون عليه المسلم ؛ أمور الدين وأصوله ينبغي أن تُضبط وأن تُعرف بأدلتها وأن تُفهم ، وإذا عارضك معارض أو لبس عليك ملبس أو شبه عليه مشبه رُدَّ المتشابه إلى المحكم ودعك من كلام أهل الزيغ والضلال ، ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام لما تلا هذه الآية الكريمة قال : ((فإذا رأيتم الذين يتَّبِعُونَ ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَى اللهُ فاحذروهم)) إذا رأيتم أناسا يتبعون المتشابه منه أي من القرآن ويتركون المحكم فأولئك الذين سَمَى اللهُ ، سماهم بماذا ؟ سماهم بالزيغ قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] ((أولئك الذين سَمَى اللهُ)) أي سماهم بالزيغ ووصفهم بالزيغ ، والزيغ هو الانحراف والجنوح ، ((أولئك الذين سَمَى اللهُ فاحذروهم)) يعني احذر أن تسمع إليهم وأن تصغي إليهم وأن تسمع كلامهم ، لأنهم بكلامهم يشبهون عليك ويلبسون عليك ويحرفونك عن الجادة السوية .
والمؤلف رحمه الله تعالى له كلام عظيم جدا في شرح هذه الآية وبيان معناها وتوضيح دلالتها في كتابه «كشف الشبهات».

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً بيده ثم قال : ((هذا سبيل الله)) ، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال : ((هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)) وقرأ: ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعام: ١٥٣] رواه أحمد والدارمي والنسائي .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : **خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : ((هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ)) ، ثُمَّ خَطَّ خَطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَالَ : ((هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُوا إِلَيْهِ)) ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ نَصَحِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأُمَّتِهِ وَحَسَنِ بَيَانِهِ وَجَمَالِ تَعْلِيمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ خَطَّ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا مُسْتَقِيمًا لَيْسَ فِيهِ التَّوَاءُ أَوْ انْحِرَافٌ ، وَخَطَّ عَلَى جَنْبَيْ هَذَا الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ خَطُوطٌ تَخْرُجُ عَنْ هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ : ((هَذَا صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ)) الَّذِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ أَنْ يَسْلُكَهُ وَأَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهِ ، قَالَ : ((وَهَذِهِ سَبُلٌ)) يَعْنِي طَرِيقٌ ((وَعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)) وَمر معنا بالأَمْسِ قول عبد الله بن مسعود : «إِنْ هَذَا الصِّرَاطُ مُحْتَضِرٌ مُحْتَضِرُهُ الشَّيَاطِينُ يَنَادُونَ يَا عَبْدَ اللَّهِ هُنَا الصِّرَاطُ هَلُمَّ إِلَى الصِّرَاطِ» يَعْنِي السَّبِيلَ الَّتِي عَنْ يَمِينِ الصِّرَاطِ وَعَنْ شِمَالِهِ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ مُحْتَضِرُ الشَّيَاطِينِ وَتَنَادِي الْإِنْسَانَ تَرِيدُ أَنْ تَخْرُجَهُ مِنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿لَا قُعْدَنَ لَهُمْ صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَأَيَّتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] .**

ولاحظ ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي أكثر الناس في قديم الزمان وحديثه يكونون صرعى للشيطان والعباد بالله ، يخرجهم عن الصراط المستقيم ، وفي الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَاعِدُ ابْنِ آدَمَ بِأُطْرُقِهِ)) يَعْنِي فِي كُلِّ طَرِيقٍ يَسْلُكَهُ ابْنُ آدَمَ فَالشَّيْطَانُ قَاعِدٌ لَهُ فِي طَرِيقِهِ ، وَلَهُ حِيلٌ وَمَكْرٌ وَخَدَعٌ وَلَهُ مَصَائِدُ وَفُخُوحٌ وَطَرَائِقُ عَدِيدَةٌ لِإِغْوَاءِ النَّاسِ وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ مِنَ الْعُرُوقِ ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : «عَدُوُّ يَرَاكَ وَلَا تَرَاهُ شَدِيدُ الْمُؤَنَةِ» . فَإِذَا تَنَبَّهَ الْعَبْدُ لِهَذَا وَعَرَفَ أَنَّ الشَّيْطَانَ جَالِسٌ لَهُ فِي الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ يَجَاهِدُ نَفْسَهُ حَتَّى قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ أُمَّةِ التَّابِعِينَ أَخَذًا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ قَالَ كَلِمَةً عَجِيبَةً : «مَا خَرَجْتَ رَفَقَةً لِلْحَجِّ إِلَّا أَرْسَلَ الشَّيْطَانُ مَعَهُمْ مِثْلَ عِدْدِهِمْ» كُلُّ فَوْجٍ لِلْحَجِّ يَرْسُلُ مَعَهُمُ الشَّيْطَانُ فَوْجٌ مِثْلَ عِدْدِهِمْ ، مَا مَهْمَتُهُمْ هَؤُلَاءِ؟ وَالشَّيْطَانُ يَأْتِي يَوْمَ عَرَفَةَ ((وَمَا رَأَى الشَّيْطَانَ أَحْقَرَ وَلَا أَذْلَ مِنْهُ فِي يَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ)) لَمَّا يَرَى مِنْ غَفَرَانِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ الذُّنُوبَ لِعِبَادِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ ، فَالشَّيْطَانُ جَالِسٌ لَابْنِ آدَمَ بِأُطْرُقِهِ؛ طَرِيقَ الصَّلَاةِ طَرِيقَ الصِّيَامِ طَرِيقَ الْحَجِّ طَرِيقَ الْعُمْرَةِ ، أَيُّ طَرِيقٍ يَمْشِي فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ الشَّيْطَانُ قَاعِدٌ لَهُ فِيهِ وَلَا يَرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَتِمَّهُ وَأَنْ يَكْمُلَهُ ، حَتَّى فِي الْحَجِّ يَقْعُدُ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ بِهَذَا الطَّرِيقِ وَهُوَ يَرِيدُ أَحَدَ أَمْرَيْنِ : إِمَّا يَرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ أُمُورَ زَائِدَةٍ عَنْ الْحَدِّ هِيَ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ ، أَوْ يَرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَقْلِلَ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ ، وَلَا يَبَالِي بِأَيِّ الْأَمْرَيْنِ ظَفَرَ إِمَّا غُلُوًّا أَوْ جَفَاءً ، لَا يَرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَفْعَلُوا الْحَجَّ وَالطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ ، يَرِيدُهُمْ إِمَّا أَنْ يَزِيدُوا عَلَى الْمَأْمُورِ أَوْ يُنْقِصُوا مِنَ الْمَأْمُورِ ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَجَاهِدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذَا وَجَدَ الْإِنْسَانَ كَمَا جَاءَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ قَالَ : «الشَّيْطَانُ يَشَامُ الْقُلُوبَ ، فَإِذَا وَجَدَ

الإنسان متمسك دعاه إلى الغلو ، وإذا وجده مفطر متهاون دعاه إلى التقصير» ، فالشيطان قاعد لابن آدم بكل طريق يسلكه بغية إخراجهم عن صراط الله المستقيم ؛ وهذا يتطلب من العبد مجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] واستعانة بالله ﴿وَقُلْ رَبِّ اعُوْذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) وَأَعُوْذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوْنَ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨] تتعوذ بالله عز وجل من هزات الشيطان وتتعوذ بالله من حضوره في مكانك ومجالسك ، وتسأل الله عز وجل أن يبعده عنه وأن يعيذك منه وأن يسلّمك من شره وكيده .

قال: ((وعلى كل سبيل منها شيطان)) ما هي مهمته؟ قال ((يدعو إليه)) وهنا لو تلاحظ أن السبل التي على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه هل هي نوع واحد أو مسلك واحد أو هي طرائق ومسالك؟ الشيطان قاعد لابن آدم بأطرقه ليخرجه عن الصراط المستقيم؛ إما إلى فواحش محرمات آثام ، ترك للفرائض والواجبات أو وقوع في البدع والضلالات والشركيات ، منوعة السبل التي يريد الشيطان أن يخرج الإنسان إليها ، وأحب شيء إلى الشيطان أن يقع فيه الإنسان هو الشرك بالله عز وجل ، ثم الآثام العظام مثل القتل والزنا ونحو ذلك ، وجاء في بعض الأحاديث الصحيحة أن إبليس أعادنا الله منه ينصب عرشاً له على الماء وإذا أصبح بث جنوده وقال لهم من أضل منكم اليوم مسلماً ألبسه التاج؟ يضع عنده تاج جميل ويقول من أضل منكم مسلماً ألبسه التاج وأدنيه ، فينتشرون فيأتي أحدهم ويقول لإبليس: لم أزل به حتى علق والديه ، قال يوشك أن يبرهما ، أريد أمر أكبر من هذا، فيأتيه الآخر ويقول: لم أزل به حتى طلق زوجته ، كم من الناس طلقوا زوجاتهم وذلك طاعة للشيطان في غضب ، كم من الناس استغل الشيطان غضبه ونفث فيه طلق طلق ، حتى إن بعضهم ينفث فيه أن لا يطلق طلاقة واحدة بعضهم بنفث الشيطان يطلق في المجلس الواحد آلاف الطلقات! وتجده مغضب ومنتفخ والشيطان من الداخل يدفعه ويبدأ يعدد ألفاظ الطلاق "أنت طالق طالق طالق" بصوت عالي كل هذا من الشيطان ينفخ فيه من الداخل ، وبعضهم يقول أنت طالق ألف مرة مليون مرة الشيطان ينفخه من الداخل ، كل هذا من الشيطان كثير من الناس يعمل بهم الشيطان عمله في مثل هذا الباب وخاصة وقت الغضب ، أيضاً يستغل وقت الغضب ليقتل ليضرب ليسب ليشتم ، فيأتيه أحدهم ويقول: لم أزل به حتى طلق زوجته قال يوشك أن يراجعها ، يعني يريد أمر أكبر من ذلك ، قال فيأتي آخر ويقول: لم أزل به حتى قتل مسلماً فيقول أنت أنت ، فيأتيه آخر ويقول: لم أزل به حتى أشرك بالله فيقول أنت أنت ويلبسه التاج . فالشيطان قاعد لابن آدم بأطرقه ويبت جنوده لصد الناس وصرفهم عن دين الله وإيقاعهم في هذه السبل . قال : ((وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)) .

ثم تلا عليه الصلاة والسلام : ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٣] . نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعلنا من المتقين ، وأن

يثبتنا على صراطه المستقيم ، اللهم اهدنا إليك صراطا مستقيما ، ونسأله تبارك وتعالى أن يعيذنا من همزات الشياطين ، وأن يعيذنا سبحانه وتعالى من حضور الشياطين ، وأن يوفقنا لكل خير يحبه ويرضاه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ((إن أحقق الحُمق وأضلّ الضلالة قومٌ رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمةٍ غير أمتهم)) ، ثم أنزل الله : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] . رواه الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((كان ناسٌ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يكتبون من التوراة)) يعني يكتبون بعض ما في التوراة المحرفة التي بأيدي اليهود . ((فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم)) فأنكر ذلك قال : ((إن أحقق الحُمق وأضلّ الضلالة قومٌ رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمةٍ غير أمتهم)) ، ثم أنزل الله : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] : ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أن القرآن فيه كفاية لهم وغنية ، ولهذا جاء عن بعض السلف أنه قال : «من لم يسعه ما في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ومن لم يسعه ما وسع الصحابة من العمل بالكتاب والعمل بالسنة فلا وسع الله عليه» ، لأن القرآن فيه كفاية القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام فيهما الكفاية وفيهما الغنية .

فالمصنف رحمه الله ساق هذا الحديث لأنه فيه شاهد للترجمة من حيث الوصية بكتاب الله والتمسك به والإعراض عن غيره ، ولهذا أنكر عليه الصلاة والسلام على من كتبوا التوراة وقال في إنكاره : ((إن أحقق الحُمق وأضلّ الضلالة من رغبوا عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمةٍ غير أمتهم)) ؛ هذا لو كانت أيضا التوراة سالمة من التحريف، كيف وهي أيضا مشتملة على تحريفات كبيرة وتغيير وتبديل لكلام الله!! ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] .

والحديث في سنده ضعف ، الحديث ضعيف لكن المعنى يشهد له في صحته الذي هو التحذير من الاشتغال بقراءة الكتب المنزلة على من قبلنا المحرفة يشهد له نصوص كثيرة منها النص الآتي .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبد الله بن ثابت بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال : دخل عمر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: «هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك» فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً شديداً لم أر مثله قط . فقال عبد الله بن الحارث لعمر رضي الله عنهما : أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: «رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً» ، فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ((لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم)) رواه عبد الرزاق وابن سعد والحاكم في الكنى .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن عبد الله بن ثابت بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال : ((دخل عمر أي ابن الخطاب رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة)) أي فيه أشياء من التوراة ، كتاب كُتب فيه أشياء من التوراة .

فقال : ((هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك؛ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً شديداً لم أر مثله قط)) يقول ذلك عبد الله بن ثابت رضي الله عنه .

فقال عبد الله بن الحارث لعمر رضي الله عنهما : ((أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟)) ينبه عمر إلى التغير الذي حصل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال له ما قال .

فقال عمر رضي الله عنه : ((رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً)) وما أجمل هذه الكلمة في هذا الموضع، بل قال عليه الصلاة والسلام: ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً)) .

((فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم)) وجاء في بعض الروايات : ((لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) ، عيسى عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان لا يحكم بالإنجيل وإنما يحكم بالقرآن الكريم .

قال: ((أنا حظكم من النبيين)) حظ هذه الأمة من النبيين هو محمد عليه الصلاة والسلام ؛ خير النبيين وأفضلهم وإمامهم صلوات الله وسلامه عليه ، وهذه نعمة الله على أمة الإسلام أن جعل حظهم من النبيين خير النبيين صلى الله عليه وسلم وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

قال: ((أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم)) وهذا فيه تنبيه منه عليه الصلاة والسلام جميل؛ إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام حظنا من النبيين ونحن حظه من الأمم لماذا يشغل بعض الناس أنفسهم بكتب أنزلت

على من قبلنا؟ التوراة المحرفة والإنجيل المحرف وغير ذلك ! الواجب ان يشغلوا أنفسهم بما فيه الكفاية والغنية ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] ، فالكتاب الكريم والسنة النبوية فيهما الكفاية والغنية .
 وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس التاسع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له :

باب حقوق النبي صلى الله عليه وسلم

وقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] الآية ، وقول الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦] وقول الله تعالى : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] الآية .

قال رحمه الله تعالى : ((باب حقوق النبي صلى الله عليه وسلم)) ؛ حقوق النبي صلى الله عليه وسلم هي من الإيمان به عليه الصلاة والسلام وأنه رسول من رب العالمين بلّغ البلاغ المبين ، أدى الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرهما منه صلوات الله وسلامه عليه . والإيمان به من الإيمان بالنبين الذي هو أصل من أصول الإيمان ، والإيمان بالنبين من الإيمان بالله تبارك وتعالى ﴿كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] . وهو عليه الصلاة والسلام حقوقه على أمته وواجب الأمة نحوه كثيرة ، وذلك أن حقوقه عليه

الصلاة والسلام الواجبة على أمته نحوه صلى الله عليه وسلم تتلخص في نقاط عديدة :

ﷺ فمن حقوقه عليه الصلاة والسلام : محبته صلى الله عليه وسلم محبة مقدمة على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين كما سيأتي بيان ذلك عند المصنف رحمه الله تعالى .

ﷺ ومن حقوقه على أمته عليه الصلاة والسلام: الإيمان به وأنه رسول من رب العالمين ؛ بلغ البلاغ المبين وأدى الرسالة ونصح الأمة .

ﷺ ومن حقوقه عليه الصلاة والسلام : طاعته واتباع أمره والتحاكم إلى ما جاء به عليه الصلاة والسلام .

ﷺ ومن حقوقه على أمته : تعزيزه وتوقيره ونصرته والذب عن سنته صلى الله عليه وسلم .

ﷺ ومن حقوقه على أمته: أن يجعلوه أسوة لهم وقدوة لهم يأتسون به ويقتدون بهديه ، كما قال جل وعلا: ﴿ لَقَدْ

كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] فهو الأسوة

والقدوة صلوات الله وسلامه عليه. وهو أولى بكل مرء من نفسه كما قال جل وعلا ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] فهو أولى بنفسك منك ، بمعنى أنه أحرص على نفسك منك وأنصح

لنفسك منك وأحق بالطاعة من طاعة نفسك صلوات الله وسلامه عليه .

فحقوق النبي عليه الصلاة والسلام على أمته عظيمة جدًا ، وهنا في باب الحقوق ينبغي أن نعلم -معاشر المؤمنين- أن الحقوق ثلاثة :

١. حق لله جل وعلا لا يشرك فيه معه غيره لا نبي مرسل ولا ملك من الملائكة ولا غيرهما، حق لله جل وعلا وهو

توحيده سبحانه وإخلاص الدين له القيام بالعبودية التي خلق الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها .

٢. والحق الثاني: حقوق للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة به عليه الصلاة والسلام؛ نصرته وتعزيزه وتوقيره صلى الله عليه وسلم .

٣. وهناك حقوق مشتركة؛ الإيمان والمحبة والطاعة .

وقد جمع الله عز وجل بين هذه الأنواع الثلاثة من الحقوق في قوله سبحانه ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ هذا الحق

المشترك، ﴿ وَتُعْزِرُوهُ وَتُقِرُّوهُ ﴾ هذا حق الرسول عليه الصلاة والسلام، ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩] هذا حق

خاص لله تبارك وتعالى . فذكر جل وعلا في هذه الآية الحق المشترك ، وذكر حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر حق الله جل وعلا .

ولا يُخلط بين هذه الحقوق ؛ لا يجعل شيء مما هو خاص بالله تبارك وتعالى للرسول عليه الصلاة والسلام ، هل يصح من أحدٍ أن يجعل التسييح للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ لا والله ، وكذلك الدعاء لا يُجعل له ، الدعاء لله

لا يدعى إلا الله ، الذبح لا يجعل له الذبح لله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] ، والعبادات كلها لا تجعل إلا الله تبارك وتعالى لا يُجعل معه شريك لا من الأنبياء ولا من الملائكة ولا من غيرهم، فحق الله الله ، ولهذا إذا أعطي غير الله شيء من حقوق الله فهذا من الغلو في الدين الذي حذر منه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وجاء عنه في الحديث الصحيح أنه قال: ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلي الله إياها)).

وبعض الناس من باب الحقوق ومن باب المحبة ومن باب الوفاء يظن أن إعطاء النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً من حقوق الله سبحانه وتعالى هذا من محبته صلى الله عليه وسلم ، وهذا من المفاهيم الخاطئة التي بُلي بها بعض الناس، فلا يخلط بين الحقوق ، وما كان من الحقوق لله لا يجعل مع الله تبارك وتعالى معه شريك ، وما كان للرسول عليه الصلاة والسلام من هذه الحقوق فإنها يؤتى بها وافية قياماً بحقه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الحقوق المشتركة . وعندما يقال حق مشترك ليس معنى ذلك أن ما لله من هذا الحق مثل ما للرسول، لا ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الإيمان والطاعة والمحبة هذا حق مشترك ، لكن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام من محبة الله ، وطاعته من طاعة الله ، والإيمان به عليه الصلاة والسلام من الإيمان بالله ؛ فالإيمان بالله هو الأصل والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ومحبته تبع لمحبة الله جل وعلا وهي من تحقيق الإيمان بالله جل وعلا . ولهذا نقول: الذي لا يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام لا يؤمن بالله ، والذي لا يحب الرسول عليه الصلاة والسلام لا يحب الله ، والذي لا يطيع الرسول عليه الصلاة والسلام ليس مطيعاً لله ، لأن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام من محبة الله ، وطاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله ، والإيمان به عليه الصلاة والسلام من الإيمان بالله ؛ فمن لا يؤمن به ليس مؤمناً بالله، ومن لا يحبه عليه الصلاة والسلام ليس محباً لله ، ومن لا يطيعه عليه الصلاة والسلام ليس مطيعاً لله تبارك وتعالى . ولهذا جمع الله في القرآن بين الإيمان به والإيمان برسوله ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، وجمع بين محبته ومحبة رسوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] فجمع سبحانه وتعالى بين محبته ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجمع بين طاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام في آيات كثيرة ربما تزيد على الثلاثين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] ، فجمع بين طاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، والإيمان به والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام ، ومحبته ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فمن لم يكن مطيعاً للرسول عليه الصلاة والسلام ولا محباً له ولا مؤمناً به هو في الحقيقة ليس مطيعاً لله ولا محباً لله ولا مؤمناً بالله تبارك وتعالى ، لأنها متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض .

ولهذا أيضا جمع الله سبحانه وتعالى بين الشهادة له عز وجل بالوحدانية مع الشهادة لنبه صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، قد قال بعض العلماء رحمهم الله إن هذا هو معنى قوله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ، فلا يُذكر الله سبحانه وتعالى بالوحدانية إلا ويُذكر الرسول عليه الصلاة والسلام بالرسالة «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله» صلى الله عليه وسلم ، فلا يُذكر جل وعلا بالوحدانية والتوحيد إلا ويُذكر الرسول عليه الصلاة والسلام بالرسالة والطاعة والاتباع له صلوات الله وسلامه عليه .

حق النبي عليه الصلاة والسلام حقٌ عظيم ، وهو أعظم من حق الأم وأعظم من حق الأب وأعظم من حق أي إنسان ، لأن الذي حصل لأهل الإيمان ووصل إليهم من طريقه صلى الله عليه وسلم هو نجاة من النار وفوز برضا الله تبارك وتعالى ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١] ، فالله عز وجل من على الأمة ببعثته عليه الصلاة والسلام وأنقذ به سبحانه وتعالى من أنقذ من النار ، وجعله إمامًا وهاديًا وقائدًا ليل رضا الله عز وجل والفوز بجنته ، فحقه عليه الصلاة والسلام أعظم من حق الأم وأعظم من حق الأب وأعظم من حق أي إنسان آخر ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ، وسيأتي في الحديث ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، بل حتى يكون أحب إلى الإنسان من نفسه كما في حديث عمر وسيأتي معنا بإذن الله عز وجل . فحقه عليه الصلاة والسلام عظيمة ، ويجب على كل مسلم أن يعرف لهذا الرسول عليه الصلاة والسلام قدره ومكانته ، وأن يحفظ له عليه الصلاة والسلام حقه ، وأن يقوم بالواجب تجاهه عليه الصلاة والسلام، وأن يؤدي هذه الحقوق وافية .

قال رحمه الله تعالى: ((بابٌ حقوق النبي صلى الله عليه وسلم)) وهذا فيه التنبيه إلى أن حقوقه عليه الصلاة والسلام كثيرة ، ولما عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة ساق بعض الآيات وبعض الأحاديث التي جمعت أهم وأبرز الحقوق؛ ففي الآيات الأمر بالطاعة طاعته عليه الصلاة والسلام ، وفي الحديث الأول الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث الثاني والثالث محبته صلوات الله وسلامه عليه ، والحديث الرابع تعظيم سنته وتحكيم ما جاء به صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا كله من جملة حقوقه أو من أهم حقوقه صلى الله عليه وسلم على أمته .

بدأ أولاً بالآيات فأورد قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ؛ في هذه الآية الكريمة الأمر بطاعته عليه الصلاة والسلام ، وهذا حق من حقوقه على أمته أن يطاع فلا يعصى ، تطاع أوامره ويتبع ما جاء به ، ولأجل هذا بعثه الله ، بعثه الله بالحق والهدى ليطاع ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] ، فهو عليه الصلاة والسلام بعثه الله ليطاع ، وإلا ما

فائدة بعثة الرسل إذا قابلهم الناس بالعصيان وعدم الطاعة!! كيف يستفيدون مما جاء به الرسل إذا كانوا لا يطيعونهم ولا يمتثلون أوامرهم؟ فأعظم الحقوق التي له على أمته عليه الصلاة والسلام أن يطيعوه وأن ينقادوا لأوامره وأن يحكموه عليه الصلاة والسلام فيما شجر بينهم وأن يردوا نزاعهم إليه وإلى ما جاء به صلى الله عليه وسلم . قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وفي جمع طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام مع طاعة الله دليل على أن طاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله تبارك وتعالى .

وفي الآية الثانية أورد قول الله عز وجل ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦] والشاهد من الآية: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ صلى الله عليه وسلم ، وفي الآية أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم أسباب نيل رحمة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ، من أعظم أسباب نيل رحمة الله تبارك وتعالى والفوز برضاه سبحانه طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام في كل ما يأمر به .

وفي الآية الثالثة أورد قول الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وهذه الآية أخذ منها أهل العلم أن كل ما جاءت به السنة الصحيحة الثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام فإن الإيمان به والأخذ به من الإيمان بالقرآن والأخذ بالقرآن ؛ فمن لا يأخذ بالسنة ولا يتمسك بها ليس آخذاً بالقرآن ، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ، ولهذا جاء في صحيح البخاري أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((لعن الله الواثمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله)) فقالت امرأة وكيف تقول ذلك؟ قال: «ومالي لا ألعن من لعن الله عز وجل؟» فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين دفتي المصحف فما وجدت هذا ! تقول المرأة: أنا قرأت القرآن كله من أوله إلى آخره ما رأيت فيه لعن الله الواصلة والمستوصلة والنامصة فكيف تقول ذلك؟ أنا قرأت القرآن كله ما رأيت الله لعن هؤلاء ! قال: «إن كنت قرأته وجدته» لو قرأت القرآن وجدت فيه هذا الأمر ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ((لعن الله النامصة والمتنمصة والواثمة والمستوشمة والمتفلجات بالحسن المغيرات لخلق الله)) . فدل هذا على أن الأخذ بالسنة هو من الأخذ بالقرآن . وكان الإمام الشافعي رحمه الله في بعض مجالسه في مكة قال: «لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم عليه بكتاب الله عز وجل» فقال رجل: ما حكم قتل المحرم للزنبور؟ حيوان صغير، قال ليس عليه شيء ، فقال الرجل: وأين هذا في كتاب الله؟ قال: قال الله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ، فالسنة الصحيحة الثابتة عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الإيمان بها والأخذ بها من الإيمان بالقرآن ومن الأخذ بالقرآن .

إِذَا من حقوقه عليه الصلاة والسلام على أمته أن يؤخذ بسنته ويُتمسك بسنته ويُتبع هديه صلى الله عليه وسلم فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ؛ الأوامر تتبع والنواهي تجتنب ، وهذا هو تحقيق الإيمان به وتحقيق الشهادة له بالرسالة ، ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى في بعض كتبه: «شهادة أن محمداً رسول الله معناها: طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، والانتفاء عما نهي عنه وزجر ، وألا يعبد الله إلا بما شرع» هذا معنى الشهادة . وأنت إذا تأملت تجد أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام لا يخرج عن أمور ثلاثة: أوامر ونواهي وأخبار ، هذا خلاصة ما جاء به عليه الصلاة والسلام أوامر ونواهي وأخبار ، فإذا شُهد له عليه الصلاة والسلام بالرسالة فإن هذه الشهادة تقتضي أن تطاع أوامره ، وأن تصدق أخباره ما يخبر به ، وأن تجتنب نواهيهِ؛ يبتعد عن كل ما نهي عنه صلوات الله وسلامه عليه.

قال رحمه الله تعالى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل)) رواه مسلم .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث في بيان حق من حقوقه عليه الصلاة والسلام؛ ألا وهو الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، قال : ((ويؤمنوا بي)) ، وذكر عليه الصلاة والسلام الإيمان به مضموماً إلى الشهادة لله تبارك وتعالى بالوحدانية ((حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي)) ، فالإيمان به صلى الله عليه وسلم حق من حقوقه على أمته ، الإيمان بأنه رسول من رب العالمين وأنه بلغّ البلاغ المبين وأنه نصّح الأمة وأدى الرسالة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، وأنه ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرهما منه وأنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر الأمة إلا بالخير ولم ينهها إلا عن الشر ، ولهذا يذكر أن أعرابي سئل قيل له: بم عرفت صدق الرسول عليه الصلاة والسلام؟ قال: «وجدته ما أمر بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به ، ولا نهي عن شيء فقال العقل ليته لم ينه عنه» ، لم يأمر إلا بخير عليه الصلاة والسلام، ولم ينه إلا عن شر ؛ فكان ناصحاً أميناً ومبلغاً وفيّاً صلى الله عليه وسلم ، وهو منة الله جل وعلا العظيمة التي امتن بها على أمة الإسلام .

فالإيمان به عليه الصلاة والسلام هذا من جملة حقوقه على أمته وهو حقٌّ فرض على الأمة ، ولا يكون الرجل مسلماً مؤمناً إلا بالإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر الإيمان به صلى الله عليه وسلم من جملة الأمور التي يعصم به دم المرء قال: ((حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا فعلوا ذلك)) أي فعلوا التوحيد الشهادة لله بالوحدانية ، والإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ؛ إذا فعلوا ذلك ((عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل)) .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) ، ولهما عنه مرفوعاً : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذين الحديثين عن أنس بن مالك رضي الله عنه في بيان هذا الحق العظيم من حقوق النبي عليه الصلاة والسلام ألا وهو محبته صلى الله عليه وسلم ، فمحبته حقٌّ له على أمته وهي من محبة الله جل وعلا ؛ ولهذا الحديث الأول حديث أنس جُمع فيه بين محبة الله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال : ((ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان)) ؛ «ثلاث» : أي ثلاث خصال «من كن فيه» أي من اجتمعن فيه «وجد بهن» أي بهذه الخصال «حلاوة الإيمان» ؛ وهذا فيه أن الإيمان له حلاوة ومذاق وطعم ولذة لا يبلغها العبد ولا يصل إليها إلا إذا حقق هذه الخصال العظيمة المذكورة في هذه الحديث .

❖ الخصلة الأولى قال : ((أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما)) بمعنى أن تكون محبة الله ومحبة الرسول عليه

الصلاة والسلام مقدمة على محبة ما سواهما من النفس والنفيس والوالد والولد والتجارة والمسكن والعشيرة وغير ذلك ، فلا يقدّم شيئاً من هذه الأمور على محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام ، قد مر معنا قول الله

تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] كم هذه؟ ثمانية ؛ هذه يسميها العلماء «المحاب

الثمانية» أي التي جُبل كل إنسان على محبتها ، من منا لا يحب ولده أو والده أو تجارته أو بيته أو عشيرته!!

هذه أمور جُبل الناس على محبتها ؛ محبة الوالد والولد والتجارة والعشيرة هذه أمور جُبل الإنسان على محبتها ،

ولا شيء في ذلك ، لا شيء في أن يحب الإنسان ولده أو والده أو تجارته أو ماله هذا أمر ليس فيه شيء لا

حرمة فيه ولا ذنب فيه ، لكن الخطورة ما هي؟ إذا كانت هذه الثمانية أو بعضها محبتها مقدمة عند الإنسان

على محبة الله ومحبة رسوله هنا تأتي المشكلة ، ولهذا قال ﴿أَحَبَّ﴾ و«أحب» أفعل تفضيل ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ

مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي انتظروا حتى يأتيكم عذاب الله

وسخطه . فإذا الخصلة الأولى أن يكون الله ورسوله أحب إليه أي إلى العبد مما سواهما .

❖ والخصلة الثانية: ((أن يحب المرء لا يحبه إلا لله)) وهذا أوثق عرى الإيمان كما جاء في الحديث الآخر ، قال ((أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)) ، وأيضا في الحديث الآخر قال : ((من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان)) ، هنا قال: ((أن يحب المرء لا يحبه إلا لله)) أي أن يكون في حبه وبغضه تبعا لحب الله عز وجل وبغضه ؛ يحب المرء لا يحبه إلا لله ويبغضه لا يبغضه إلا لله تبارك وتعالى .

❖ والخصلة الثالثة: أن يكره الكفر كراهية شديدة وأن يكره الرجوع إليه بعد أن أنقذه الله سبحانه وتعالى منه كما يكره أن يقذف في النار ، وكل إنسان يكره أن يقذف في النار ولا يحب ذلك لنفسه ولا يرضى لنفسه ذلك ، وهنا قال : ((أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) .

فهذه خصال ثلاثة عظيمة جمعها النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ، وأخير أن حلاوة الإيمان وطعمه لا تنال إلا بتحقيق هذه الخصال .

وفي الحديث الثاني حديث أنس قال : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ؛ وهذا فيه وجوب تقديم محبته عليه الصلاة والسلام على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، بل وأيضا على محبة النفس كما جاء في صحيح البخاري من حديث عمر رضي الله عنهما قال: «قلت يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي» فقال عليه الصلاة والسلام : ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)) فقال عمر : «والله لأنت الآن أحب إلي حتى من نفسي» قال: ((الآن يا عمر)) أي الآن يتحقق الإيمان ويتم . فيجب أن تقدّم محبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبة الوالد والولد وعلى محبة النفس ، وأن تكون محبتك له عليه الصلاة والسلام أعظم من محبتك لنفسك .

وهنا أيها الإخوة أنبه على أمر عظيم للغاية ألا وهو: ما هي حقيقة محبة النبي عليه الصلاة والسلام؟ وما هي أيضا حقيقة محبة الله؟ من السهل على كل إنسان أن يقول بلسانه إني أحب الله وأن يقول إني أحب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، من السهل على كل إنسان أن يقول إن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام في قلبي أعظم من محبتي لنفسي ؛ هذه كلمة سهلة على اللسان يمكن لكل أحد أن يقولها وأن يخرجها من لسانه ، فهل العبرة بهذا؟ هل العبرة بمجرد القول؟ أو أنه هناك علامات لا بد أن توجد ودلالات لا بد أن تظهر يستبين من خلالها أن المحبة صادقة؟ اليهود النصارى يقولون "نحن أبناء الله وأحباؤه" كلمة سهلة جدا أن يقولها الإنسان لكن هل العبرة بمجرد الدعاوى؟ الدعاوى إذا لم يقم عليها بينة أهلها أدعياء ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] ، «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه الأعمال» .

ولهذا يجب أن يعلم أن محبة النبي عليه الصلاة والسلام لها علامات إذا ظهرت ووجدت في العبد دلت على صدق محبته للنبي عليه الصلاة والسلام، وإذا انتفت هذا دليل على أن محبته للنبي عليه الصلاة والسلام مجرد دعوى

يَدْعِيهَا، هناك علامات عظيمة إذا وجدت في العبد فهي دليل على صدق محبته للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

﴿العلامة الأولى: اتباعه صلى الله عليه وسلم وامتثال أمره ولزوم سنته صلى الله عليه وسلم ؛ وهذه علامة ذكرها الله في القرآن قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فذكر جل وعلا علامة محبته اتباع رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولهذا يسمى بعض العلماء هذه الآية «آية المحنة» أو «آية الامتحان» ، ما معنى ذلك؟ أي من ادعى محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام فليمتحن نفسه على ضوء هذه الآية هل هو متبع أو غير متبع؟ فإن كان متبعًا فهذا علامة صدق المحبة ، وإن كان غير متبع فهذا علامة عدم صدق المحبة ؛ لأن صدق المحبة يقود الإنسان إلى الاتباع .

تعصي الإله وأنت تزعم حبه!! هذا لعمرى في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع

فالذي صادق في محبته لله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام يطيع الله ويطيع رسوله عليه الصلاة والسلام ويتبع الرسول ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦] ، يطيع الرسول عليه الصلاة والسلام ويمتثل أمره ، ولهذا أورد ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية عن أحد السلف أنه قال: «ليس الشأن أن تحب، لكن الشأن أن تُحَبَّ» ؛ ليس الشأن أن تحب أي أن تدعي أنك تحب الله وتحب رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولكن الشأن أن تُحَبَّ أي أن يحبك الله سبحانه وتعالى ، والله جل وعلا لا يحبك بمجرد الدعوى ، لابد أن تقيم على دعواك بينة وأن يظهر لدعواك برهان فتتال بذلك محبة الله ، ولهذا أيضا قال ابن كثير رحمه الله : «هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله دون اتباع منه للشرع الحمدي والنهج النبوي بأن دعواه كاذبة» ، وأورد عن الحسن رحمه الله أنه قال: «زعم قوم أنهم يحبون الله حبا شديدا فأنزل الله قوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] » فهذه العلامة الأولى .

﴿العلامة الثانية: الاكثار من ذكره عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا متحقق للإنسان بذكر سنته وأحاديثه وهديه والاكثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، وأيضا محبة لقياه والاجتماع به في جنات النعيم يوم القيامة ، فهذه من العلامات ولهذا جاء في الحديث الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام قال: ((من أشد أمتي حبا لي قوما يأتون من بعدي يتمنى أحدهم لو رأي بماله وأهله)) رواه مسلم في صحيحه ، فمحبة رآياه ولقياه والاجتماع به في جنات النعيم هذا من محبته ؛ أما لقياه في الدنيا ومشاهدته في الدنيا هذا أمر انتهى لا مجال إلى

حصوله إلا في المنام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي)) ، أما في اليقظة غير حاصل .

مع أن بعض أهل الخرافة وأهل الدجل يدعون أنه يحضر عليه الصلاة والسلام مجالسهم ويجمعون به ، وإذا كان فعلا يحضر مجالسهم شخص يرونه بأعينهم ويشاهدونه فإن الذي حضر مجالسهم شيطان. النبي صلى الله عليه وسلم توفاه الله جل وعلا ولا أحد من الناس بعد موته صلى الله عليه وسلم يراه ويجمع به يقظة ، أما الرؤية المنامية فممكنة ، أما يقظة لا ، وأحيانا بعض الناس يأتيه شيء من الخلط ووساوس الشيطان ويدّعي أنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام حقيقة ، وهذه تأتي لبعض الناس . قبل أيام قابلني شخص وقال لي أنني رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام قلت له في المنام؟ قال لا حقيقة ، قال ولك رسالة منه أبلغها لك؟ قلت لا لا تبلغها ، لا حاجة لي بها ؛ هذا شيطان الذي لقيناه ، لا حاجة لي بهذه الرسالة ورسالة الرسول عليه الصلاة والسلام موجودة ما ضاعت ، أليست موجودة محفوظة رسالته وإلا ضاعت حتى يحتاج إلى مثل هؤلاء يأتون بها ويبلغونها؟! رسالته محفوظة سنته محفوظة دينه محفوظ ، حفظ الله دينه ، دينه محفوظ إلى أن تقوم الساعة حفظه الله تعالى ، فهل يحتاج إلى أمثال هؤلاء يبلغون دينه أو يوصلون رسالات منه عليه الصلاة والسلام لأمتة!! هذا من الدجل ومن الضلال الذي ينطلي على السفهاء وعلى العوام وعلى الجهال وينخدعون بذلك . ومن هنا تدخل البدع والضلالات ؛ يأتي أهل الدجل إلى عوام الناس ويقول "أنا رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام يقظة وقال لي افعل كذا وأمر الناس بكذا" وتنتشر البدع ، ثم أيضا أتباعه يقولون له "رضي الله عنك" لأنه صار صحابيا رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، الصحبة انتهت بموته . أحد رواة الحديث من التابعين كان حيا في زمن النبي عليه الصلاة والسلام وجاء إلى المدينة من أجل أن يلتقي بالنبي عليه الصلاة والسلام ويتشرف برؤيته وسماع حديثه فلما وصل إلى أبيار علي توفي النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، قالوا في ترجمته «كاد أن يكون صحابيا» لأنه بقي على وصوله إلى النبي صلى الله عليه وسلم شيء قليل جدا ، فالصحبة انتهت بموته عليه الصلاة والسلام ، وما يأتي على ألسنة أهل الدجل والجهال هذه كلها خرافات وترهات وأضاليل يلبسون بها على عوام الناس وعلى جهالهم ، والعامي ربما أنه انخدع بمثل هذه الأمور واغتر بهذه الأمور ، إما بالرؤية اليقظة التي يدّعونها أو أيضا بعضهم الرؤية المنامية ، الرؤية المنامية مر معنا الحديث قال عليه الصلاة والسلام ((من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي)) كان الصحابة رضي الله عنهم إذا قال لهم رجل إني رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام يقولون له: "صف لنا من رأيت؟" فإذا ذكر لهم الصفة التي يعرفونها من صفة النبي عليه الصلاة والسلام قالوا: "رأياك صحيحة ، ولو كنت معنا عند النبي صلى الله عليه وسلم لما زدت على هذا الوصف" ، أما أن يذكر إنسان صفة أخرى ليست صفة النبي عليه الصلاة والسلام ويقول أنني رأيته هل هذه رؤيا صحيحة؟ مثل رجل جاء مرة يسأل يقول "رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في المنام ولحيته مخلوقة ولابس كرفته وبنطلون" ، هل هذا رأى النبي عليه

الصلاة والسلام؟ حاشا وكلا والله ، هذا رأى شيطان ، الشيطان يأتي في المنام في صورة غير صورة الرسول عليه الصلاة والسلام ويقول أنا رسول الله ، لكن ما يستطيع الشيطان أن يأتي للإنسان بصورة الرسول عليه الصلاة والسلام الحقيقية ، لا يستطيع أن يتمثل بصورة انبي صلى الله عليه وسلم الحقيقة ، نعم يأتي بصور أخرى ويدّعي أنه الرسول عليه الصلاة والسلام ، بل يأتي لبعض الناس في المنام ويدّعي أنه رب العالمين وأنه يحل لهم ويحرم إلى آخره، وهذه هي مهمة الشيطان إغواء الناس وصدهم عن سبيل الله تبارك وتعالى .

الشاهد من محبته عليه الصلاة والسلام : تمني رأيته ولقياه والاجتماع به في جنات النعيم ، والاكتثار من ذكره عليه الصلاة والسلام وذكر سنته ، والاكتثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم . ونسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجمعنا به في جنات النعيم .

﴿الأمْر الثالث من علامات محبته عليه الصلاة والسلام: العناية بالقرآن؛ كتاب النبي عليه الصلاة والسلام، كتاب الهداية والفلاح ، ولهذا جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا يسأل أحد نفسه عن شيء بعد القرآن ، فإذا كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله» فيعني المسلم بالقرآن بهذا الكتاب العظيم الذي بُعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعتني به قراءةً وتدبراً وعنايةً به وعملاً به ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] .

﴿الأمْر الرابع من علامات محبة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه: نصرته صلى الله عليه وسلم وتعزيه وتوقيره ، قد مر معنا الآية قال تعالى : ﴿تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] تعزيه نصرته ، وتوقيره احترامه ومعرفة قدره عليه الصلاة والسلام ؛ فهذه من جملة حقوقه ، من جملة حقوقه على أمته الانتصار له ولسنته عليه الصلاة والسلام كلٌ بما آتاه الله ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)). فالشاهد أن من جملة حقوق النبي عليه الصلاة والسلام على الأمة أن يُنصر وأن تنصر سنته عليه الصلاة والسلام وأن يذب عنه ويدافع عن سنته صلى الله عليه وسلم ، هذا من جملة علامة محبته صلوات الله وسلامه عليه .

﴿أيضاً من علامات محبته صلى الله عليه وسلم: البعد عن البدع التي حذر منها ونهى الأمة عنها في أحاديث كثيرة جداً قال: ((من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو رد)) ، وقال ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) وقال: ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة

ضلالة)) فمن محبته عليه الصلاة والسلام البعد عن البدع ومحدثات الأمور التي نهى عنها صلوات الله وسلامه عليه . فهذا من جملة علامات محبته عليه الصلاة والسلام .

العلامة السادسة من علامات محبته عليه الصلاة والسلام: عدم الغلو فيه صلى الله عليه وسلم ، وقد نهى عن الغلو عموماً وعن الغلو فيه على وجه الخصوص ، وجاء عنه في هذا المعنى أحاديث كثيرة جداً ، قال عليه الصلاة والسلام: ((إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((ما أحب أن تنزلوني فوق منزلتي التي أنزلي الله إياها)) ، سمع امرأة أنصارية تُنشد وتقول "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" فغضب وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] ، سمع رجلاً يقول "ما شاء الله وشئت" فغضب وقال: ((أجعلني لله ندا بل ما شاء الله وحده)) ، وروي عنه عليه الصلاة والسلام أن أسيراً أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ذلك الأسير : "إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد" ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((عرف الحق لأهله)) التوبة لله ، الأحاديث عنه في هذا المعنى كثيرة عنه صلوات الله وسلامه عليه . فمن محبته عدم الغلو فيه صلى الله عليه وسلم ، لا يجوز لنا أن نرفعه فوق منزلته بزعم أننا نريد أن نظهر محبته ، ليس هذا من علامات المحبة ، لا يجوز أن يغلو فيه الإنسان ، هل يجوز لأحد بحجة أنه يحب النبي عليه الصلاة والسلام أن يعطيه شيء من خصائص الله ؟ هل هذا من المحبة أن يعطى من خصائص الرب هو لا يرضى بذلك وفي حياته أنكر ذلك عليه الصلاة والسلام ، لا يجوز أن نعطيه أشياء من خصائص الله بحجة أو بزعم أننا نحبه ، نعم نحبه لكن لا نعطيه من خصائص الله ، خصائص الله لله ، فليس من محبته عليه الصلاة والسلام أن يغلى فيه وأن يعطى شيء من خصائص الرب تبارك وتعالى وهذا أمر لا يرضاه هو عليه الصلاة والسلام وأنكره أشد الإنكار وغضب منه أشد الغضب في حياته صلوات الله وسلامه عليه ، قال ((أجعلني لله ندا قل ما شاء الله وحده)) ، ولهذا بعض الناس يدخل عليهم الداخل من باب المحبة فيغلو في النبي عليه الصلاة والسلام غلوا ويأتي بأمور في حقه لا تليق إلا بالله ؛ أحدهم يقول في أبيات له يمدح فيها الرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

يا أكرم الخلق مالي من ألود به سواك عند حلول الحادث العمم
وأن من جودك الدنيا وضررتها وإن من علومك علم اللوح والقلم

أصبح هذا يا إخوان؟ لو نزعنا من البيت أوله وقلنا نناجي الله :

يا خالق الخلق مالي من ألود به سواك عند حلول الحادث العمم

وَأَنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَإِنْ مِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ

هذا كلام جميل وتوحيد «يا خالق الخلق» نناجي الله ونؤمن على ذلك :

يا خالق الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وَأَنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَإِنْ مِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ

هذه أمور عظيمة توحيد لله جل وعلا ، أيليق أن نجعل هذه الأمور للرسول عليه الصلاة والسلام؟ نعم نحبه ، والله نجه لكن لا نعطيه خصائص الله ، هو لا يرضى ذلك هو لا يقبل ذلك هو نهي عن ذلك ، نجه والله ، والله نجه عليه الصلاة والسلام لكن خصائص الله الله وهو عليه الصلاة والسلام لا يرضى ذلك ولا يقبله ، والله الذي لا إله إلا هو نجه عليه الصلاة والسلام لكن خصائص الله لا نعطيها له ، خصائص الله الله ما نرضى ذلك ولا نرضى ما لا يرضاه عليه الصلاة والسلام ؛ هذا أمر يجب أن يتبينه المسلم ، ما يجوز لنا أن نعطيه شيء من خصائص ربنا .

لا يجوز أن نقول مخاطبين الرسول عليه الصلاة والسلام "يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك" أين الله كيف يقول قائل ما لي من ألوذ به سواك ، أين الله سبحانه وتعالى؟ الملاذ هو الله والمعاذ هو الله والملجأ هو الله ، الله يقول ﴿فَقِرُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذريات: ٥٠] ويقول عليه الصلاة والسلام في كل مرة إذا أوى إلى فراشه ((لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)) كيف يقول قائل "مالي من ألوذ به سواك" ويقصد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكيف يقول "وإن من جودك الدنيا وضرتها؟" الدنيا والآخرة من جوده!! من جود من الدنيا والآخرة؟ من جود الجواد سبحانه وتعالى ، الرسول عليه الصلاة والسلام هو من جود الله ومنة الله على عباده ، فكيف يقال في حقه عليه الصلاة والسلام إن من جودك الدنيا وضرتها!!

وكيف يقال في حقه "إن من علومك أي بعض علومك علم اللوح والقلم" !! مع أنه لما سمع الأنصارية تقول "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" غضب وقال ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، إذا كان قال للمرأة التي قالت "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" إذا كان قال لها لا يعلم ما في غد إلا الله وغضب من قولها فكيف لو سمع هذا القائل يقول "وإن من علومك علم اللوح والقلم" .

فالشاهد أنه يجب علينا أن نتقي الله عز وجل وأن نعتدل وأن لا نغالي في ديننا وأن نتوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] .

العلامة السابعة: محبة من أحب ومحبة ما أحب ، وبغض من أبغض وبغض ما أبغض ؛ محبة من أحبهم النبي عليه الصلاة والسلام أي من الأشخاص ، ومحبة ما أحب أي ما أحبه عليه الصلاة والسلام من الخصال والخلال والأعمال ، وبغض من أبغض أي من الأشخاص ، وبغض ما أبغض أي من الخصال والأعمال . فمن محبة النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)) ، وجاء عنه عليه

الصلاة والسلام : ((من أحب عليا فقد أحبني ، ومن أحب الحسن والحسين فقد أحبني ، من أحب أسامة بن زيد فقد أحبني)) ، ((حب الأنصار من الإيمان)) ، فمحبته من أحب وبغض من أبغض ومحبة ما أحب وبغض ما أبغض هذا أيضا من علامات محبة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذه علامات عظيمة لصدق المحبة للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ونحن أيها الأخوة بشر وفينا ضعف وفينا قصور وفينا خلل ولهذا نلجأ إلى الله عز وجل الذي خلقنا وأوجدنا ومنَّ علينا بالصحة والعافية ومنَّ علينا بالعقل نسأله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من أحبباء الرسول حقا وصدقًا ، ومن أتباعه عليه الصلاة والسلام ، وأن يجمعنا به في جنات النعيم ، وأن يعيذنا تبارك وتعالى من البدع والأهواء ، وأن يعيذنا من الغلو في الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وأن يهيئنا على سنته وأن يمتتنا على سنته ، وأن يجمعنا به في جنات النعيم إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم اجمعنا مع نبيك الكريم في جنات النعيم ، اللهم اجمعنا مع نبيك الكريم في جنات النعيم ، اللهم اجمعنا به في جنات النعيم ، اللهم وفقنا لاتباعه والافتداء به ومحبه عليه الصلاة والسلام ، وأعذنا يا ربنا من البدع ، وأعذنا يا ربنا من الغلو ، واجعلنا من أهل السنة والجماعة والاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن المقدم بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدث بحديث فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه ، ألا وإن ما حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرّم الله)) رواه الترمذي وابن ماجه .

ثم ختم هذه الترجمة بهذا الحديث العظيم في الدلالة على أن من محبته عليه الصلاة والسلام اتباع سنته والأخذ بما جاء به عليه الصلاة والسلام ، وأن اتباع السنة هو من اتباع القرآن .

وساق رحمه الله هذا الحديث حديث المقدم بن معدي كرب الكندي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((يوشك الرجل متكئا على أريكته)) ؛ وهذا علم من علامات النبوة ، يخبر عليه الصلاة والسلام عن شيء سيوجد فيما بعد ، وقد وجد ، هذا الذي حذر منه عليه الصلاة والسلام ونهى عنه في هذا الحديث وجد قال: ((يوشك الرجل متكئا على أريكته)) وجاء في بعض الروايات ((يوشك رجل شعبانا متكئا على أريكته)) وقوله «شعبانا» أي همه الطعام وملاً البطن ، وليس له اشتغال بالعلم والذهاب إلى العلماء وطلب العلم

وتحصيله والتفقه في الدين هذا ليس من اهتماماته ولا من الأمور التي يعتني بها ، ثم مع هذا كله يتكئ على أريكته؛ وهذا أيضا دليل على أنه من أهل الترف والترفة واجتمعت فيه هذه الأمور ثم ماذا يقول؟ يقول ((يحدث بحديث من حديثي)) أي يُذكر له حديث من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فماذا يقول ؟ ((فيقول بيننا وبينكم كتابُ الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه)) يقول أنا لا آخذ إلا بالقرآن ، السنة لا يأخذ بها ، هل الذي يأخذ بالسنة آخذ بالقرآن؟ لا والله ، السنة هي المفسرة للقرآن وهي المبينة له وهي الشارحة له ولا يمكن لأحد أن يعمل بالقرآن ما لم يعمل بسنة النبي عليه الصلاة والسلام .

وقوله ((بيننا وبينكم كتاب الله)) كلمة حق أريد بها باطل أراد بها صاحبها أن يعطل الدين كله ، الذي يقول «بيننا وبينكم كتاب الله» ولا يريد السنة أراد بهذه الكلمة أن يعطل الدين كله ، نحن كيف عرفنا أن الصلوات الظهر أربع والعصر أربع والمغرب ثلاث والعشاء أربع والفجر ركعتين من أين عرفنا ذلك؟ إلا من السنة ، الأنسبة في الزكاة ، تفاصيل أعمال الحج الأمور الكثيرة المتعلقة بالعبادات التي فصّلت في السنة لم تُعرف إلا من السنة ، والله جل وعلا قال في القرآن ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ، فهنا عليه الصلاة والسلام يخبر أنه سيوجد في الأمة أناس يدّعون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن ، وهذا الذي يدّعي أنه لا يأخذ إلا بالقرآن هو في الحقيقة لم يأخذ بالقرآن ولم يأخذ بالسنة ، لأنه لو أخذ بالقرآن حَقًّا لأخذ بسنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((ألا وإن ما حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرّم الله)) ولهذا مر معنا فقه عبد الله بن مسعود قال : «لعن الله النامصة والمتنمصة والواشمة والمستوشمة والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله» هل هذه موجودة بألفاظه في القرآن ، قالت المرأة : "لقد قرأت ما بين دفتي المصحف ما رأيت هذا قال : «لو كنت قرأته وجدته» يشير إلى قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ، وهنا يقول نبينا عليه الصلاة والسلام ((ألا وإن ما حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما حرّم الله)) لماذا؟ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، هو مبلغ عن الله لا يأتي بشيء من قبل نفسه عليه الصلاة والسلام بل هو مبلغ عن الله ؛ ولهذا الذين يدّعون أنهم لا يأخذون إلا بالقرآن هم في الواقع لا يأخذون حتى بالقرآن الكريم ، ووجد طائفة في زماننا هذا يسمون أنفسهم «القرآنيين» أي لا تأخذ إلا بالقرآن ، وهؤلاء ليسو من أهل القرآن ولا من أهل السنة ولا من أهل الدين الذي شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده .

ولهذا أيها الإخوة يحمد المسلم ربه تبارك وتعالى على العافية ، ويسأله تبارك وتعالى الثبات على الحق والهدى ، ويدعوه جل وعلا أن يهديه إليه صراطا مستقيما ، ويتوسل إليه تبارك وتعالى أن يجنبه الفتن والبدع والأهواء ويلجأ إليه دائما وأبدا راجيا منه سبحانه وتعالى أن يوفقه للاستقامة على دين الله إلى أن يتوفاه ربه تبارك وتعالى وهو

راضٍ عنه غير ضال ولا مضل ولا مغير ولا مبدل ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس العشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً ، واجعل ما نتعلمه حجةً لنا لا علينا يا ذا الجلال والإكرام .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى :

باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك

وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك

وقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية ، وقوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] الآية .

قال رحمه الله تعالى ((باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك))؛ قوله رحمه الله «تحريضه» التحريض: هو الحث على الشيء والترغيب

فيه وبيان محاسن فعله ومساوئ تركه ، قد قال الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] فالتحريض: هو الحث والترغيب .

وقوله رحمه الله تعالى: ((باب تحريضه على لزوم السنة)) أي حث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على لزوم سنته والتمسك بها والتقييد بما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه ، وتحذيره عليه الصلاة والسلام أمته من مخالفة السنة ومجانبتها والوقوع في الغلو في الدين والتفرق والاختلاف ، وقد جاء في هذا الباب آيات كثيرة وأحاديث عديدة في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقد اقتصر المصنف رحمه الله تعالى على الإشارة إلى بعض هذه الأدلة .

قال: ((باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة)) والسنة المراد بها: الطريقة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي شاملة لكل ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، فالسنة تشمل كل ما صح وثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام من الأقوال والأعمال وكل أيضا أمر أقره النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء عنه في الحديث الصحيح وسيأتي سياقه عند المصنف ((وعليكم بسنتي)) أي الزموها وتمسكوا بها .

قال: ((والترغيب في ذلك)) الترغيب: ذكر الشيء والحث عليه بذكر فضائله ومحاسنه وما يدعو الإنسان إلى المواظبة عليه والحرص على فعله ، والنبي عليه الصلاة والسلام جمع بين الترغيب والترهيب ، رغب ورهب صلوات الله وسلامه عليه ، ذكر المرغبات وذكر أيضا صلوات الله وسلامه عليه المرهبات ، حتى في باب اتباع السنة جاء عنه عليه الصلاة والسلام الترغيب في ذلك وجاء أيضا الترهب من ذلك ، قال ((ومن رغب عن سنتي فليس مني)) هذا ترهيب ، وجاء عنه أيضا في أحاديث عديدة يأتي بعضها عند المصنف رحمه الله تعالى الترغيب في لزوم سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال: ((وترك البدع)) والبدع: هي المحدثات في دين الله ، قال عليه الصلاة والسلام ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)) ، وفي رواية ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) ، فالبدعة: ما ليس بسنة ، كل أمر اخترع وانشئ في الدين وقصد به التقرب إلى الله عز وجل وطلب ثوابه مما لم يأت في سنة النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((والتفرق)) أي وترك التفرق والاختلاف ، والمراد بالتفرق أي التفرق في الدين والتحزب والشيع والانقسام والافتراق ، فحذر عليه الصلاة والسلام من ذلك أشد التحذير ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] أي فرقا وأحزابا وطوائف متفرقين في دين الله تبارك وتعالى ، فحذر من ذلك كله صلوات الله وسلامه عليه وسيأتي في النصوص التحذير من ذلك .

بدأ رحمه الله بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ؛ الأسوة: هو القدوة ، وقال «حسنة» لأن الأسوة يكون أسوة حسنة ويكون أسوة سيئة ؛ فمن كان إماما في الخير فهو أسوة حسنة ، ومن كان إماما في الشر فهو والعياذ بالله أسوة سيئة ، ولهذا قال الله

تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، فقلوه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يدل على أن من الناس من هو أسوة حسنة وهم الرسل وأتباع الرسل والسائرین على سننهم والمقتفون لأثرهم ، ومن الناس من هو أسوة سيئة وإمام في الشر ودعاة إلى نار جهنم والعياذ بالله .

والأسوة هو من يؤتسى به ، والالتساء هو الاقتداء ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ؛ أسوة حسنة في ماذا؟ في أعمال الخير كلها بدون استثناء ، في جميع أبواب الخير ، في أي خصلة من خصال البر ، في أي باب من أبواب الطاعات ، فهو عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة لأنه صلى الله عليه وسلم كَمَّلَ الدين وأتمه وأتى به على الوفاء والتمام والكمال فكان عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالله وأتقى الناس لله وأعظم الناس عبادة لله ، وما من خصلة من خصال الخير وباب من أبواب البر إلا وبلغ فيه عليه الصلاة والسلام الرتبة العلية والمنزلة العالية الرفيعة صلوات الله وسلامه عليه، فهو أسوة في الخير أي إمام وقدوة في أبواب الخير كلها صلوات الله وسلامه عليه.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وهذا ولاشك فيه أعظم الحث على التمسك بما جاء عنه ولزوم هديه والتقليد بسنته عليه الصلاة والسلام ، لأن الله عز وجل وصفه بأنه أسوة حسنة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ؛ لكن هذا الالتساء به عليه الصلاة والسلام يتحقق لمن؟ من الذي يفوز بهذا الالتساء ويحظى بهذا الاقتداء؟

قال: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فأهل الإيمان بالله ، الطامعين في ثوابه ، الخائفين من عقابه ، الراغبين في أجره سبحانه وتعالى وثوابه ، الذاكرين له جل وعلا كثيرا هم الذين يوفقون للالتساء بالنبي الكريم وتعظيم سنته وتعظيم هديه عليه الصلاة والسلام والتقليد بما جاء به ، أما من ضعف فيهم هذا الإيمان ونقص فيهم حظهم من تذكر الآخرة والوقوف بين يدي الله عز وجل والجزاء والحساب فإن نفوسهم تتفلت بالميل إلى الأهواء واتباع البدع والمحدثات والانكباب على الخرافات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، أما الإيمان الصادق والاعتقاد الراسخ وحسن الإيمان بالله عز وجل وعظيم موعوده فإن هذا أعظم داعٍ للإنسان للتمسك بهدي النبي عليه الصلاة والسلام والتقليد بسنته والبعد عن الأهواء والبدع والمحدثات .

ثم أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وهذا فيه ذم التفرق والاختلاف في دين الله عز وجل باتباع الأهواء وركوب البدع واقترافها .

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ ويكون التفرق في الدين: بالتخلي عنه وعدم التمسك به وبالوقوع في البدع والمحدثات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولهذا كما أن السنة تجمع فإن البدعة تفرق ، ولهذا يقال «أهل السنة

والجماعة ، وأهل البدعة والفرقة» لأن السنة تجمع ، والبدعة تفرق الناس وتشتت شملهم وتوجد بينهم العداوات والبغضاء ، أما السنة فهي التي تجمع الناس ؛ تجمعهم على الحق والهدى وعلى طلب رضا الله سبحانه وتعالى والخوف من عقابه .

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي متفرقين متحيزين منقسمين إلى طوائف .

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ لأن التفرق الذي يكون في الأهواء والبدع أمر حادث في الدين خارج عن سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهو وُجد بعد زمانه عليه الصلاة والسلام قال ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)) ذم ذلك عليه الصلاة والسلام وحذر منه في أحاديث كثيرة .

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي أنه عليه الصلاة والسلام براء من هؤلاء ليسو منه وليس منهم عليه الصلاة والسلام .

ثم ختم الآيات بقول الله تبارك وتعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ؛ «أن أقيموا الدين» إقامة الدين إنما تكون بلزوم الدين ؛ تمسكًا ومحافظة ورعاية له .

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي احذروا التفرق في دين الله عز وجل باتباع الأهواء وركوب البدع ، فأمر بلزوم الدين والتمسك به وحذر من التفرق ونهى عنه ، وهذه وصية الله عز وجل لأتباعه ورسله .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية أولي العزم من المرسلين وهم خمسة : محمد عليه الصلاة والسلام ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى . جمع تبارك وتعالى في هذه الآية أولي العزم من الرسل كما جمعهم تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الأحزاب: ٧] فجمعهم تبارك وتعالى ، وهم أشرف الرسل وأفضلهم ومقدموهم ؛ فوصية الله عز وجل للرسل ولأولي العزم منهم هي إقامة الدين وعدم التفرق فيه . إقامة الدين: أي الذي بعث الله سبحانه وتعالى به رسله وأنزل به تبارك وتعالى كتبه ، وعدم التفرق فيه: باتباع الأهواء وما تمليه العقول المجردة وما يقع فيه الناس في اتباعهم للمصادر المختلفة التي يتلقون منها يأخذون عنها .

أهل الإيمان أمروا بأن يأخذوا من الكتاب والسنة لتجتمع كلمتهم على الدين الحق ، ومن تخلى عن الكتاب والسنة وقع في التفرق ، ولهذا لو تأمل الإنسان في واقع الناس من حيث عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم وآراءهم تجد أن السبب في هذا التفرق الذي هم عليه راجع إلى المصادر التي يستقون منها متخلين عن الكتاب والسنة ؛ فمن

الناس من يأخذ دينه وعقيدته من الرؤى والنامات ، ومنهم من يأخذ دينه وعقيدته من عقله وفكره المجرد ، والعقول متفاوتة ، ولهذا من بنوا عقائدهم على العقول صاروا إلى عقائد كثيرة ومذاهب متعددة ، ومنهم من يبنون عقائدهم على تجارب والأذواق ، ومنهم من يبنون عقائدهم وأديانهم على القصص والحكايات والأخبار ، وهكذا تجد الناس يبنون عقائدهم على أمور ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، فوجد بسبب ذلك تفرق واختلاف وعقائد باطلة . ولا يمكن أن يستقيم للإنسان أمرٌ وأن يصح له عقيدة ويتم له دين إلا باتباع وحي الله تبارك وتعالى ولزومه ، وكيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام !! ولهذا أيضا قال أهل العلم : «من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام» .

قال رحمه الله تعالى :

وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه مَوْعِظَةٌ مَوْدَعٌ فما تعهده إلينا ؟ فقال : ((أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم فسيروا خلفه كثيراً ؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة)) رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه . وفي رواية له: ((لقد تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، ومن يعش منكم فسيروا خلفه كثيراً)) ثم ذكره بمعناه .

أورد هنا رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث العرياض بن سارية رضي الله عنه قال : ((وَعَظَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب)) ؛ الموعظة هو الكلام الرقيق المؤثر المشتمل على الترغيب أو التهيب ؛ هذا يقال له وعظ ، والناس يحتاجون إلى المواعظ ، وكان عليه الصلاة والسلام يتخول أصحابه بالموعظة؛ أي يأتي بالموعظة بين الوقت والآخر ، يتخولهم بذلك ويتعاهد بهم به ، فالناس يحتاجون إلى الموعظة لأن الموعظة الصادقة المشتملة على الكلام اللين الرقيق من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام من شأنه أن يرقق القلوب ويلين النفوس ويرغبها في الخير ويرهبها من الشر ، والناس يحتاجون إلى ذلك لأن الصوارف عن دين الله عز وجل والصواد كثيرة جداً والأمور التي تأخذ بالإنسان إلى سبيل الغفلة متنوعة ؛ فيحتاج الناس إلى المواعظ التي ترقق قلوبهم .

وفي باب الوعظ ينبغي أن يكون طرحه على الناس باعتدال كما جاء في السنة ، وأن يكون وعظ الناس تخولا، ثم تُشغل المجالس بنشر العلم وبيان السنن والتفقيه في دين الله عز وجل وبيان الأحكام ، لا أن يكون الكلام كله

وعظ وأن تكون الخطب كلها وعظ وأن تكون الدروس كلها وعظ ، لأن القلوب إذا وُعطت تهيأت للخير ، وإذا استمر معهم الوعظ أين الخير يُدَلّون عليه ويرشدون إلى فعله ويبين لهم! ولهذا السنة أن يكون الوعظ تخولا ، يُتخول الناس بالموعظة بين وقت وآخر حتى تقبل قلوبهم وتنصرف عنهم الغفلة . وأيضا في جانب آخر لا يترك الوعظ ؛ كما أنه لا يناسب أن تكون المجالس كلها وعظ أيضا لا يترك الوعظ ، بل الناس يحتاجون إليه بين فينة وأخرى ووقت وآخر، وهذا أيضا يحتاج إلى تأمل الناصح والمعلم إلى أحوال الناس ، ففي بعض الأوقات تمس الحاجة وتشتد إلى الوعظ والتركيز عليه ، وفي أوقات أخرى يحتاج الناس ولا سيما إذا أقبلت نفوسهم واطمأنوا يحتاجون إلى العلم وإلى بيان السنن، والنفس لها إقبال وإدبار؛ فإذا أقبلت النفس ولانت بالموعظة الحسنة يبين للناس السنن وتوضح لهم الأحكام وهدى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حتى يحافظ الناس على ذلك ويتمسكوا به .

قال: ((وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة)) وصفها رضي الله عنه بهذا الوصف «موعظة بليغة».

((وجلّت منها العيون وذرفت منها العيون))؛ وجلّت القلوب: أي خافت وخشعت ، وذرفت منها العيون: أي دمعت العيون والعين تدمع عندما يلين القلب ويخشع ، وفي الدعاء المأثور عن نبينا صلى الله عليه وسلم اللهم ((إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع)). فالصحابة رضي الله عنهم على إثر هذه الموعظة ذرفت عيونهم دمعت ، ووجلّت قلوبهم أي خافت القلوب ؛ وهذه فائدة الموعظة ، فائدة الموعظة أن تلين القلوب وتخشع وتدمع العيون ويرق الناس بحيث يقبلون على السنن ويقبلون على المواظبة على دين الله تبارك وتعالى .

قال رضي الله عنه : ((فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودّع فما تعهد إلينا؟)) وهذا من شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير ورغبتهم فيه ؛ لما وعظهم عليه الصلاة والسلام هذا الوعظ البليغ وقال لهم عليه الصلاة والسلام في أنفسهم هذا القول البليغ الذي ألان القلوب وذرفت منه العيون قالوا «كأنها موعظة مودّع» موعظة شخص يريد أن يودعنا وأن نفارقه «فما تعهد إلينا؟» أي ما هي الوصية التي تعهد إلينا بها؟ ووصية المودع لها شأن ووقع كبير على القلوب لأنها تأتي على جوامع الخير .

قال : ((أوصيكم بتقوى الله)) أوصاهم عليه الصلاة والسلام بهذه الوصية العظيمة الجامعة للخير كله ، وهي وصية الله تبارك وتعالى للأولين والآخرين من خلقه كما يدل لذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ، فهي وصية الله جل وعلا للأولين والآخرين من خلقه ، وهي وصية النبي عليه الصلاة والسلام لأمته . قال ((أوصيكم بتقوى الله)) أي: أوصيكم أن تلتزموا بتقوى الله عز وجل وأن تحافظوا عليها .

وتقوى الله عز وجل: هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من عقاب الله وسخطه وقايةً تقيه ؛ وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر وترك النواهي ، ولهذا فإن من أحسن ما قيل في تعريف التقوى وبيان حدها ؛ أن تقوى الله عز وجل: عملٌ بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وتركٌ لمعصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله؛ فهذه حقيقة التقوى ، التقوى عمل بالأوامر وترك للنواهي وأن تكون في ذلك كله على نور ؛ أي على علم ، على علمٍ بالمأمور لتفعله وعلى علمٍ بالمنهي لتجتنبه ، وأن تكون أيضًا جامعًا بين الرجاء والخوف ، ترجو رحمة الله عز وجل وتخاف عقابه سبحانه وتعالى ، فهذه حقيقة التقوى التي أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بلزومها .

قال: ((أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة)) أي أوصيكم بالسمع والطاعة ، والمراد بقوله ((أوصيكم بالسمع والطاعة)) أي لمن تأمر عليكم ، يدل لذلك قوله بعده ((وإن كان عبد حبشي)) ؛ السمع والطاعة أي لمن تأمر عليكم ، وهذا نصح عظيم وأمرٌ مهم للغاية يغفل عنه كثير من الناس ، بل وكثير من الناس لا يدركون أهميته ، وفي بعض الناس نوع من الجاهلية في هذا الباب ويرى أنه أعلى مقامًا من أن يسمع ويطيع وأن مكانه أرفع من ذلك فيدخله شيء من الجاهلية .

قال: ((والسمع والطاعة)) أي أوصيكم بالسمع والطاعة أي لمن كان أميرًا عليكم برًّا كان أو فاجرًا لماذا ؟ لأن أمور الإسلام وأمور الدين لا تنتظم ولا تستقيم إلا بالجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ، ولهذا إذا ترك الناس السمع والطاعة للأمير وللوالى تفرقت الجماعة ، وإذا تفرقت الجماعة ضاع الدين ، ولهذا جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة في الأمر بالسمع والطاعة ، بل إنه عليه الصلاة والسلام ضم السمع والطاعة للأمير وللولاة إلى أمره بالصلاة والصيام وغير ذلك من الطاعات الكبار ، كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع أنه قال : ((اعبدوا ربكم وصلوا فرضكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة مالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم)) ، فضم عليه الصلاة والسلام طاعة الأمير إلى الصلاة والصيام وغير ذلك من الطاعات ، لأن أمور الناس وأمنهم وعبادتهم وطاعتهم كل ذلك لا ينتظم ولا يستقيم إلا بالجماعة ، والجماعة لا بد فيها من أمير ، والأمير لا بد له من سمع وطاعة ، فإذا لم يُسمع ولم يطع للأمير انتقضت الجماعة وتفرقت الكلمة ، وإذا تفرقت كلمة الناس وذهبت جماعتهم ضاع دينهم ؛ ولهذا جاءت أحاديث كثيرة ونصوص كثيرة في الكتاب وفي السنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] .

والسمع والطاعة التي أمرنا بها هي في المعروف ، أما إذا أمر الوالي بالمعصية أمر بالإثم أمر بالأمر الحرام لا يطاع ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)). وقوله هنا ((بالسمع والطاعة)) السمع أي لكلامه والطاعة أي لأمره ((بالسمع والطاعة)) أي أن تسمع لما يقول وتهتم بكلامه ، والطاعة أي لأمره وما يأمر به من الأمور التي فيها مصالح الناس ومنافعهم وانضباط أمرهم .

قال: ((عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي)) أي ولو فُرض وقدر أن الذي استتب له الأمر وصارت له الولاية عبد حبشي فاسمع وأطع ؛ وهذا فيه التحذير من أمرٍ كان عليه أهل الجاهلية ألا وهو الاستنكاف والاستكبار عن السمع والطاعة للأمير ؛ بأن يقول بعض الناس "أنا أسمع وأطيع!! أنا أعلى من أن أكون كذلك" يستنكف ويستكبر ، فالنبي عليه الصلاة والسلام حذر من هذا الاستنكاف والاستكبار على أي حال من الأحوال ، قال ((وإن تأمر عليكم عبد حبشي)) لماذا ؟ لأن مراعاة جماعة المسلمين وانتظام أمرهم والتزام شملهم وصلاح كلمتهم وبُعدهم عن الفتن وأن تراق بينهم الدماء وأن ينشب بينهم القتال هذا أعظم وأهم ، فيجب أن تراعى المصالح العامة ومقاصد الدين الكلية التي ينتظم بها شمل المسلمين ، لكن إذا دخل في الإنسان نوع جاهلية في هذا الباب لم يرضخ لهذه النصوص ولم يسمع لها ولم ينقد ، بل أصبح بعض الناس إذا قرئت عليه الأحاديث التي فيها الأمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر يشمئز منها وتنفر نفسه منها ، إذا قُرأت عليه الآيات والأحاديث التي فيها الصلاة والصيام يسمعها ! أليس الذي أمر بالصلاة وأمر بالصيام وأمر بالحج هو الذي أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر! فلماذا تقبل النفس هنا وتشمئز هناك ؟ والذي جاء عنه هذا الأمر هو نبينا عليه الصلاة والسلام ! بل في الحديث الواحد يأتي هذا وهذا ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((اعبدوا ربكم وصلوا فرضكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة مالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم)) الذي أمر بالصلاة وأمر بالزكاة وأمر بالصيام وأمر بهذه الطاعات هو الذي أمر بطاعة ولي الأمر، لما يعلمه عليه الصلاة والسلام من الثناء شمل المسلمين وصلاح كلمتهم وبُعدهم عن التفرق والاختلاف والشتات والضياع وإراقة الدماء وغير ذلك من المفاسد والأضرار التي لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى .

ثم من تأمل التاريخ ونظر في أحوال من خالفوا هدي النبي عليه الصلاة والسلام وافتاتوا على الولاة ونزعوا اليد من الطاعة وخرجوا على السلطان ورفعوا السيف ماذا قدّموا لأنفسهم وماذا قدموا لأمة الإسلام ؟ وقد لخص أحد أهل العلم ثمار صنائع هؤلاء بقوله : «ما أقاموا ديناً ولا أبقوا ديناً» بمثل هذه الأعمال ما أقاموا ديناً ولا أبقوا ديناً ، لأن الدماء تراق والفتن تكثر والكلمة تتفرق والعدو يتسلط ولا يحققون بذلك مصالح ولا أرباح ، فالخير كل الخير فيما دعا إليه نبينا عليه الصلاة والسلام وأرشد أمته إليه ، قال: ((وبالسمع والطاعة)) أي أن تسمعوا للولاة وأن تطيعوا لهم ((وإن كان عبدا حبشياً)) .

قال: ((فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)) أي من يُكتب له طول عمر منكم سيرى اختلاف ، وهذا من آيات نبوته عليه الصلاة والسلام أخبر عن أمورٍ أطلعه الله عليها تقع في المستقبل ووقعت طبقاً لما أخبر . قال: ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)) أي اختلافاً في الدين وتفرقاً فيه ووقوعاً في البدع والأهواء .

وهنا أيها الإخوة الناصح لنفسه عندما يسمع قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)) سيقع في نفسه ولا بد سؤال ألا وهو: إذا كان سيأتي خلاف كثير ما المخرج؟ ما الحل ؟ ماذا نصنع؟

فأرشد عليه الصلاة والسلام إلى المخرج دون أن يُسأل وذا من نصحه عليه الصلاة والسلام ؛ قال: ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي)) هذا هو المخرج ((فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) فلخص عليه الصلاة والسلام المخرج والنجاة من التفرق والاختلاف في أمرين : الأمر الأول: لزوم السنة قال ((فعليكم بسنتي)) أي الزموها وتمسكوا بها ((وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)) أي الزموا سنة الخلفاء الراشدين؛ وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين .

((وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)) ولاحظ هنا نعتهم عليه الصلاة والسلام بهذين الأمرين: بالراشدين والمهديين ، و«الرشاد» ضد الغواية ، و«الهداية» ضد الضلال ؛ وهذا يفيد صلاحهم في العلم والعمل ؛ صلاحهم في العمل هو الرشاد ، وصلاحهم في العلم هو الهداية ، فالمهتدي ضد الضال ومن كان عنده علم نافع يهتدي به ، والراشد ضد الغاوي والغاوي هو المنحرف. فأفاد وصف النبي صلى الله عليه وسلم للخلفاء الراشدين بالرشاد والهداية صلاحهم في العلم والعمل ، وقد قال الله عز وجل في وصف نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] ، نفى الضلال فيه إثبات الهداية ، ونفى الغواية فيه إثبات الرشاد ؛ أي صلاح العلم والعمل . فنبينا عليه الصلاة والسلام وصف خلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلي بأنهم راشدين ومهديين ، أي صالحين في علمهم وعملهم ، وهذا فيه تنبيه إلى أن المؤهل للاقتداء والائتساء من كان شأنه كذلك ؛ وهو الصالح في علمه وعمله ، أما من كان عنده علم لا يعمل به فهو مغضوب عليه ، ومن كان عنده عمل ليس مبنيا على علم صحيح فهو ضال ، ولا يكون راشدا مهتديا إلا بالعلم النافع والعمل الصالح .

قال: ((وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)) وأعيد ثانية حثه عليه الصلاة والسلام على التمسك بسنة الخلفاء مع وصفه لهم بالرشاد والهداية فيه تنبيه إلى مقام من كان كذلك راشدا مهديا ؛ أي صالحا في علمه وعمله وأنه بذلك يكون أهلا للاقتداء والائتساء.

قال: ((وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها)) أي الزموها واعتصموا بها وحافظوا عليها ((وعضوا عليها بالنواجذ)) النواجذ هي أضراس الإنسان ، وعادة الإنسان إذا كان ثمة أمر يهتم له ويغتنب به ويفرح به قد يعبر بذلك بالعض له على نواجذه محافظة منه عليه واهتماما به . قال ((وعضوا عليها بالنواجذ)) أي كونوا محافظين عليها متمسكين بها محافظة من يهتم بالأمر إلى درجة أن من غبطته عليه وفرحه به يعض عليه بالنواجذ.

قال: ((إياكم ومحدثات الأمور)) أي احذروها وابتعدوا عنها وجانبوها ، احذروا محدثات الأمور حتى وإن مال إليها قلبك ورغبت فيها نفسك ، حتى وإن استحليتها ، حتى وإن حثك عليها بعض أشياخك ((إياكم ومحدثات

(الأمور)) احذر أي أمر مُحدث والزَم ما كان ثابتاً عنه عليه الصلاة والسلام فإن فيه الخير والبركة ، حتى وإن مالت نفسك ورغبت نفسك في أمر استخلته النفس وارتاحت له واطمأنت له وسمعت حثاً عليه من بعض لأشياخ إذا كان من الأمور المحدثه احذر منه ودعه واتركه ، وعليك بسنته عليه الصلاة والسلام . قال: ((وإياكم ومحدثات الأمور)).

أضرب مثالا فقط للتوضيح ؛ الصحابة ثبت عنهم في الحديث الصحيح أنهم سألوا النبي عليه الصلاة والسلام سؤالاً واضحاً بيناً قالوا فيه: «يا رسول الله عرفنا كيف نسلم فكيف نصلي عليك؟» فعلمهم قال: ((قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)) ونحن نعتقد في أنفسنا اعتقاداً كاملاً أنه عليه الصلاة والسلام ناصح أمين ، وأنه ما ترك خيراً إلا دلنا عليه ولا شراً إلا حذرنا منه ، هذا كلام ناصح ما الواجب علينا نحو هذا الأمر؟ الجواب واضح؛ الواجب علينا أن نتمسك بما علمنا وأرشدنا إليه ودلنا عليه صلوات الله وسلامه عليه ، لكن انظر في حال الناس في هذا الباب وكم اخترع لهم من الصلوات المحدثه!! حتى كُتب مجلدات في صلواتٍ محدثة يجلس مخترعها وينشئ كلاماً "اللهم صل على محمد ما ناحت الحمائم ولُقت العمائم وشدت الكذا" والعوام مساكين يمسك الكتاب ويقرأ ويظن أنه على خير ، "اللهم صل على محمد الفاتح لما أُغلق والخاتم لما سبق" والعوام يقرأون . قال ((عليكم بسنتي)) ، وقال ((وإياكم ومحدثات الأمور)) أي شيء يحدث لكم احذروه ما لكم وله ، ألسنا نعتقد في أنفسنا أنه عليه الصلاة والسلام ناصح لنا ؟ ألسنا نعتقد أنه معلم أمين؟ ألسنا نعتقد قول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، والصحابة يأتونه ويقولون : «يا رسول الله عرفنا كيف نسلم فكيف نصلي عليك؟» قال: ((قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)) ، بعض العوام يقول "هذه ما تشفي غليلي ولا تكفيني أنا أحتاج أن أقول: كما شدت العمائم وكما ناحت الحمائم.. أريد الكلام الطويل هذا" هذا من البلاء الذي أصيب به كثير من الناس هجروا السنن وأكبوا على المحدثات .

فالواجب علينا يا إخوان أن نتقي الله عز وجل كما أرشدنا قال ((أوصيكم بتقوى الله)) أن نتقي الله وأن نراقب الله عز وجل ، وأن نعبد الله بما شرع لنا ، نحن لا نحتاج إلى مجلد يكتب لنا ويصف فيه كلمات وتجمع فيه حروف "اللهم صل على محمد عدد كذا ... " وأشياء من هذا القبيل ، لسنا بحاجة ، كُفينا ، وسعتنا السنة ، من لم تسعه سنة النبي صلى الله عليه وسلم لا وسع الله عليه ، تكفيننا السنة والله تكفيننا ، يكفيننا ما جاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام .

ولهذا نحن نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى أن يرزقنا جميعا حسن الاقتداء به وحسن الاتباع له وحسن العمل بما وجهنا إليه وأرشدنا إليه صلى الله عليه وسلم وأن يعيد قلوبنا من الأهواء وأن يجنبنا البدع ، الأهواء مهما كان تأخذ القلوب خاصة وإذا كان الإنسان مضى على نوع من هذه الأهواء سنين طويلة يصعب عليه أن يتخلص منه إلا إذا رحمه أرحم الراحمين وأعانه رب العالمين ويسّر له ؛ ولهذا نحن رجأؤنا في الله وأملنا فيه سبحانه وتعالى أن يوفقنا أجمعين للسنة وأن يهدينا إليها ، وأن يوفقنا لاتباعها ، وأن يجنبنا الأهواء كلها ما ظهر منها وما بطن .

قال: ((وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة)) وهنا انتبه «فإن كل محدثة بدعة» أي أيُّ عملٍ أو قول ليس هو من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولا من هديه فهو محدث ، وكل محدثة بدعة .

قال: ((وكل بدعة ضلالة)) فلماذا يوقع الإنسان نفسه في مثل هذه الأمور التي حذر منها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؟! . فإذا المخرج بأمرين:

● الأمر الأول: لزوم السنة .

● والأمر الثاني: مجانبة البدعة .

ولا يمكن للإنسان أن يخرج من هذه الفتن إلا بهذين الأمرين : لزوم السنة ومجانبة البدعة ، والتوفيق بيد الله وحده، نسأله جل وعلا أن يوفقنا جميعا لكل خير .

قال ((وفي رواية له : لقد تركتم على البيضاء)) انظر جمال هذا الكلام ، ((لقد تركتم على البيضاء)) أي على الطريقة البينة الواضحة الناصعة التي لا اشتباه فيها ولا التباس ؛ وهذا دليل على كمال نصحه عليه الصلاة والسلام لأمته ((تركتم على البيضاء)) أي تركتم على طريق واضح ومحجة بيضاء وسبيل بيّنة نيرة مضيئة .

((تركتم على البيضاء)) والإنسان إذا ترك على بيضاء هل يتوه؟ هل يضيع؟ إذا ترك على طريق بيضاء واضحة نيرة مضيئة لا يتوه إلا إذا ترك الطريق الواضحة ودخل في الطرق المعوجة وسلك السبل المعوجة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام تركنا على البيضاء؛ أي تركنا على الملة البيضاء والمحجة البينة والسبيل الواضحة .

قال: ((ليلها كنهارها)) أي واضحة بينة لا التباس فيها ولا غموض .

قال: ((تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)) أي لا يزيغ عن هذه الطريق البيضاء بعدي إلا من كُتب له الهلاك ، وفي الدعاء في القرآن الكريم ﴿ رَبَّنَا لَا تُغِثْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨٠] ، وكان أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)) قالت أم سلمة : «كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت له يا رسول الله أوإن القلوب لتتقلب؟!» قال: ((ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاعه)) قال هنا : ((ولا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)) .

ولهذا يا إخوان والله العظيم يجب علينا جميعاً أن نقبل على الله تبارك وتعالى بصدق نسأله أن لا يزيغ قلوبنا ﴿رَبَّنَا لَا تُغِثْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ . والأمر الثاني: أن نحصر على السنة الطريقة الواضحة الهادي البين الذي تركنا عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام . عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سئل: ما هو الصراط المستقيم؟ قال: «هو طريق تركنا النبي صلى الله عليه وسلم في أدناه وطره الآخر في الجنة» ليس هناك سبيل للجنة إلا بالطريقة البيضاء التي ترك النبي عليه الصلاة والسلام أمته عليه ، كل طريق إلى الجنة مسدود إلا الطريقة البيضاء الواضحة التي ترك النبي صلى الله عليه وسلم الأمة عليها ، ليست هذه المحدثات هي التي توصل إلى الجنة ، حتى وإن استحسنها الإنسان ، حتى وإن مالت إليها نفسها ليست هذه المحدثات هي التي توصل الإنسان إلى رضا الله والجنة ، الذي يوصل الإنسان إلى رضا الله والجنة هو التمسك بما كان عليه النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله تعالى :

ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث؛ حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أما بعد)) ، في الحديث في صحيح مسلم قال جابر رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب الناس كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ثم يقول: أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة» ؛ هذا الكلام كان نبينا عليه الصلاة والسلام يردده في خطبه ، كلما خطب الناس يأتي بهذا الكلام ((أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة)) ، ولو سألتك الآن : ما هي فائدة هذا التكرار؟ يُكرر على الناس في الجمع وفي الخطب «أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة» ؛ هذا التكرار من الحكمة فيه: أن الناس يحتاجون إليه حاجة ماسة ، لأن البدع لا تزال تأتيهم من كل جانب والأهواء تأتيهم من كل صوب فيحتاجون دائماً أن يُذكروا بهذا الأمر ((أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها)) ؛ فإذا رسخ هذا الأمر في قلبك وتمكن من نفسك لم تقبل من الناس كل ما يقولونه ولم تقبل من كل داع ما يدعو إليه حتى تتأكد منه أن هذا من القرآن ومن السنة . أما إذا كان من الأهواء ومن المحدثات لا تقبله بل نفسك تنفر منه ، وهذا من الحكمة في تكرار النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر في خطبه ؛ حتى يستقر في النفوس هذه الحقيقة العظيمة «أصدق الحديث كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم»

الصلاة والسلام » ، إذا رسخ في قلبك أن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ثم أرادك شخص على عملٍ من الأعمال لا دليل عليه من الكتاب والسنة بل بينيه على تجربة أو بينيه على عقل مجرد أو بينيه على قصص وحكايات هل تقبله؟ لا والله ، لأنك استقر في نفسك أن أصدق الحديث كلام الله وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، المحدثات شر على الناس ، ولو لم يأت فيها شر إلا أنها تصرف الناس عن السنن كفى بذلك شراً .

قال : ((وشرُّ الأمور محدثاتها وكلُّ بدعة ضلالة)) وقوله عليه الصلاة والسلام هنا «وكل بدعة ضلالة» عام شامل لكل أمر محدث في دين الله ، فليس في الأمور المحدثثة في الدين شيء حسن ، بل قال مالك رحمه الله تعالى : «من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن ديناً زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً» .

ولتوضيح هذا المثال لو جاءك رجل وحثك على شيء من هذه الأمور المحدثثة ورغبك فيه ؛ اسأله قل له : هل هذا الأمر الذي تدعوني إليه موجود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو لا ؟ فإن قال نعم هو موجود في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ماذا تقول له ؟ تقول له أعطني الدليل ، هات دليل من القرآن هات دليل من السنن، كتب السنة موجودة ومحفوظة أعطني الدليل أنه كان موجوداً في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ، وإن قال لك : لا ليس موجوداً في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ولكنه أمر جميل وأمر عظيم وجربناه وشيخنا جربوه وهو أمر عظيم جداً وأعطاك من هذا الكلام ماذا تقول له ؟ قل له كما قال مالك «ما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً ولن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة» ، أوجد شيء من الدين الصحيح لم يكن موجوداً في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ؟ من قال نعم فمعنى ذلك أن جوانب من الدين تركها النبي عليه الصلاة والسلام لم يبينها حتى جاء أقوام فيما بعد أحدثوها وأوجدوها ، وهذا يدلنا على خطورة هذا الأمر .

قال رحمه الله تعالى :

وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي)) قيل : ومن أبي ؟ قال : ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث قال : وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي)) جميع أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي منهم أن يدخل ، هذا

الكلام عندما يسمعه الإنسان لأول وهلة يستغرب! من الذي يأبى؟ من الذي يُعرض عليه دخول الجنة ويقول لا أنا لا أريد دخول الجنة بل أرغب في دخول النار؟ يوجد أحد بهذه الصفة؟ قال ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)).

وقبل الدخول في هذا الحديث اريد أن أنبه على فائدة فيه تتعلق بالحديث الذي قبله : قوله في الحديث الذي قبله ((كل بدعة ضلالة)) هذا عام ليس هناك ما يخص شيئاً من أطرافه ، والنبي صلى الله عليه وسلم في العمومات التي لها خصوصيات أو لها ما يخصها يبين ؛ وهذا من نصحه ، ولهذا هنا قال: ((كل أمتي يدخلون الجنة)) أتى بهذا العموم ولما كان لهذا العموم استثناءات قال : ((إلا من أبى)) ، هناك قال : ((كل بدعة ضلالة)) ولم يقل إلا بدعة مثلاً مفيدة في كذا أو بدعة استحسناها كذا، قال ((كل بدعة ضلالة)) بدون استثناء ؛ فيبقى على عمومته جميع البدع وكل أمر محدث في الدين فهو ضلالة وكل ضلالة في النار .

قال : ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)) أي إلا من أبى الدخول .

قال الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم : ((ومن يأبى يا رسول الله؟)) من يأبى على نفسه الدخول ؟

قال: ((من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)) أي أبى على نفسه الدخول؛ وهذا فيه التحريض على لزوم سنة النبي عليه الصلاة والسلام وطاعته والمحافظة على هديه وسنته واتباع ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه . والله أعلم ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٢١ إلى الدرس ٢٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١١/١٣ هـ

الدرس الحادي والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً . قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له :

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أُخبروا بما كأنهم تقالُّوها فقالوا : أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : أنا أصوم النهار ولا أفطر ، وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)).

قال المؤلف رحمه الله تعالى في «باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرُّق والاختلاف والتحذير من ذلك» : ولهما : أي وللبخاري ومسلم ، ثم ساق رحمه الله تعالى حديث أنس رضي الله عنه في قصة نفر الذين جاءوا إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام للسؤال عن عبادته وحاله ؛ وهذا فيه أن جزءاً كبيراً من عبادة الإنسان وتقربه إلى الله تبارك وتعالى تكون في البيت ، قد جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام : ((صلاة الرجل في بيته أفضل إلا المكتوبة)) ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((مثل البيت الذي يُذكر فيه الله والبيت الذي لا يذكر فيه الله مثل الحي والميت)) ؛ فجزء كبير من عبادة الإنسان تكون في بيته ، فجاء هؤلاء نفر إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام للسؤال عن عبادته ومعرفة حاله عليه الصلاة والسلام من حيث العبادة وأنواعه القربات التي تكون منه صلى الله عليه وسلم .

يقول أنس رضي الله عنه : ((جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم)) ؛ هنا نلمس فائدة عظيمة من تعدد أزواج النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن هذا التعدد منه عليه الصلاة والسلام في الأزواج كان سبباً عظيماً ومباركاً في نشر علمٍ عظيم وميراث مبارك عنه عليه الصلاة والسلام حُفظ في بيته من أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وهذا من الحِكم التي ذكرها أهل العلم في سبب تعدد

أزواجه صلوات الله وسلامه عليه ، هذا له حكم من جملة هذه الحِكَم: أن أزواجه عليه الصلاة والسلام من خلأهن يُعرف هديه عليه الصلاة والسلام في بيته في التعامل مع أزواجه وحاله في البيت صلوات الله وسلامه عليه ، فكل ذلك لا يُعرف إلا من طريق أزواجه عليه الصلاة والسلام ، وأيضا ما يتعلق بما يكون بين الرجل وزوجه كل ذلك لا يمكن أن يُعرف إلا من خلال أزواجه صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا حُفظ ميراثُ مبارك وخير عظيم وفقه كبير عن طريق أزواج النبي صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم)) أي كيف كانت عبادته .

((فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها)) أي رأوا أنها قليلة .

((فقالوا : أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)) وكأنهم يفهمون أن كون النبي عليه الصلاة والسلام غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر داعٍ للتقليل من العبادة وعدم الإكثار منها ، وقد جاء في كلامه عليه الصلاة والسلام الآتي ما يرُدُّ هذا الفهم حيث قال : ((إني أتقاكم الله وأخشاكم لله)) ، فهو عليه الصلاة والسلام مع أنه غفر الله تبارك وتعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان أعبد الناس لله وأكثرهم طاعة له ولزومًا لعبادته وتقربا إليه تبارك وتعالى وحفظًا لأوامره جل وعلا ، فكان أخشى الناس لله وأتقى الناس لله وأعظم الناس عبادة لله تبارك وتعالى ، فحقق مقام العبودية وكَمَّل مقام الطاعة صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((فكأنهم تقالوها وقالوا أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)) كان هذا الفهم دافعا لهم إلى الدخول في أعمالٍ وتشديدات على النفس لم تأت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، دخلوا في تشديدات على أنفسهم لم يأت بها سنةٌ عنه عليه الصلاة والسلام بل تجاوزوا بها هديه وتعدوا ما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه .

((فقال أحدهم: أمّا أنا فأصلي الليل أبداً)) أي أحيي الليل كله بالصلاة؛ يصلي ولا ينام يحيي الليل كله بالصلاة

((وقال الآخر : أنا أصوم النهار ولا أفطر)) أي يكون شأني في عبادة الصيام أنني لا أفطر «أصوم النهار ولا أفطر» ولم يقل «أبداً» كما قال الأول وكما قال أيضا الآخر ((وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً)) ، وبالنسبة للزواج قال أحدهم لا أتزوج أبدا ، وبالنسبة لقيام الليل قال «أصلي الليل أبدا» ، وبالنسبة للصيام قال «أنا أصوم النهار ولا أفطر» ولم يقل أبدا؛ لأن في أيام السنة ما لا يحل صيامه ؛ يوم العيد عيد الفطر وعيد الأضحى لا يحل صيامه ، ولهذا لم يقل «أبدا» بينما في الليل قال أحدهم «أصلي الليل أبدا» ، وبالنسبة للزواج قال أحدهم «لا أتزوج أبدا» ، وبالنسبة لهذا في أمر الصيام قال «أنا أصوم النهار ولا أفطر» .

وهذا الذي قالوه هو تشديد منهم على أنفسهم لم تأت به سنة والنبي عليه الصلاة والسلام جاء عنه في الحديث الصحيح أنه قال : ((إن هذا الدين يُسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا)) ، ولنتنبه لهذه الوصية العظيمة «سددوا»: أي اجتهدوا بأن تصيبوا السداد ، والسداد هو موافقة السنة ، موافقة ما كان عليه الصلاة والسلام وإصابة هديه ، سددوا فإن لم تبلغوا هذه الرتبة رتبة السداد التي هي إصابة السنة فقاربوا ؛ جاهدوا أنفسكم على مقاربة السنة ، أما أن يقول القائل "أعمال النبي صلى الله عليه وسلم قليلة ونريد عملا لأنفسنا أكثر من عمله" فهذا تجاوز لهديه عليه الصلاة والسلام ، قال «سددوا» أي اجتهدوا في إصابة ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه ، فإن لم يتمكن الإنسان من السداد فعليه بالمقاربة ؛ يجاهد نفسه على أن يكون قريبا من هدي النبي عليه الصلاة والسلام ويطرق شيئا فشيئا في الكمال والرفعة والاتباع لهديه عليه الصلاة والسلام . قال : «وأبشروا» وهذه بشارة لأهل السداد ولأهل المقاربة كلهم لهم حظهم من هذه البشارة ، إلا أن أهل السداد حظهم منها أعلى ومكانتهم فيها أرفع . قال : ((سددوا وقاربوا وأبشروا)) أما أن يشاد الدين العبد فهذا ينال بسبب ذلك الخسران ، وكم من إنسان شدد على نفسه في الدين وتجاوز هدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام حتى ثقلت عليه العبادات فتخلى عنها وتحول إلى حال سيئة بالتفريط في العبادة والإضاعة لها . وهنا يقع الغلط من بعض الناس في هذا الباب يشدد على نفسه ، قال : ((ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)) .

الشاهد أن هؤلاء نفر الثلاثة وقعوا في الخطأ من جهة أنهم تقالوا عبادة النبي عليه الصلاة والسلام وقالوا: إنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإذاً لا بد لنا بالنسبة لنا أن تكون عبادتنا أكثر ، فألزم كل واحد منهم بإلزام فيه تشديد على النفس .

قال : ((فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا)) وهذه أيضا فيها فائدة عظيمة ؛ النقل عن الأشخاص أحيانا لا يكون صحيحًا ، وأحيانا يكون فيه شيء من الزيادة والتقول ، وأحيانا يكون فيه شيء من الغلط ، وأحيانا يكون وشاية ونحو ذلك ؛ فبدأ النبي عليه الصلاة والسلام بسؤالهم ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟)) ؛ فهذا فيه فائدة فيما يتعلق بمناصحة الآخرين لا بد من التحقق والتأكد من وجود الأمر فيه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟)) .

فلما عرف عليه الصلاة والسلام أنه قولهم وأن هذا الكلام صدر منهم قال : ((أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لله)) أي أنا أكثركم لله خشية وأعظمكم له تبارك وتعالى تقوى ، وقدم عليه الصلاة والسلام بهذه المقدمة تمهيدًا بين يدي بيان خطئهم . ولنلاحظ أن الخطأ الذي عندهم بُني على ظن منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشأن غفران الذنوب أن تكون العبادة أقل ، وكثير الذنوب يحتاج إلى أن تكون عبادته أكثر ؛ فقدم بهذه المقدمة ((إني لأتقاكم لله وأخشاكم لله)) ؛ أنا أعظمكم تقوى لله وأعظمكم خشية لله تبارك وتعالى ، وهذه التقوى والخشية له جل وعلا لا تجعل الإنسان يفرط بل تزيد من إقباله ، كما قال في حديث آخر

عليه الصلاة والسلام ((أفلا أكون عبداً شكوراً)) ، تقول عائشة رضي الله عنها «كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!!» قال: ((أفلا أكون عبداً شكوراً)). فقال عليه الصلاة والسلام ((أما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم لله ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء)) خلاف التشديد الذي كان من هؤلاء على أنفسهم .

قال عليه الصلاة والسلام ((لكني أصوم وأفطر)) يعني أصوم أياماً وأفطر أياماً ، وأحدهم كان طلب صيام الدهر بالتشديد على نفسه ، لكن من فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته تنال ثواب صيام الدهر دون أن تشدد على نفسك ، السنة كلها خير وبركة ، تنال ثواب صيام الدهر دون أن تشدد على نفسك ، قال عليه الصلاة والسلام ((من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر كله)) ، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: ((صيام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر)) ، فالذي يصوم شهر رمضان ويصوم ثلاثة أيام من كل شهر فكأنما صام الدهر كله فينال ثواب صيام الدهر دون أن يشدد على نفسه ، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى على عبده المؤمن . أيضاً فيما يتعلق بقيام الليل من يحافظ على هديه عليه الصلاة والسلام ويحافظ على الفرائض الواجبات في بيوت الله يكتب له أجر القيام ، قال عليه الصلاة والسلام : ((من صلى العشاء مع جماعة فكأنما أحيا نصف الليل ، ومن صلى الفجر مع جماعة فكأنما أحيا الليل كله)) فالذي يصلي الفجر مع الجماعة ويصلي العشاء مع الجماعة وينام ويصلي يأخذ حظاً من قيام الليل كُتب له قيام ليلة ، وفي رمضان قال عليه الصلاة والسلام : ((من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة)) فالسنة خير وبركة عندما يحافظ الإنسان على السنة وعلى هدي النبي عليه الصلاة والسلام فإنه يكتب له الصيام يكتب له القيام وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده المؤمنين .

قال: ((وأتزوج النساء)) والزواج له حكم ويترتب عليه مصالح وفوائد عظيمة جداً ؛ الزواج يكسر الشهوة ، والزواج أيضاً يتحقق به السكن للإنسان والطمأنينة وراحة البال ، الزواج يكون به النسل ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)) رغب عليه الصلاة والسلام في ذلك ، ثم إذا اجتهد الإنسان مع أولاده تربية لهم وتأديباً وتنشئة لهم التنشئة الصالحة يموت ويبقى أيضاً من عمله الصالح ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث وذكر منها عليه الصلاة والسلام ولد صالح يدعو له)) فلماذا يحرم الإنسان نفسه من هذا الخير ويقول أنا لا أتزوج!! يتزوج ويجتهد في حصول النسل ويدعو الله عز وجل أن يصلح له الولد والذرية ويجتهد في تربية الولد ، وإذا مات أيضاً بقي هذا الولد عقب خير يدعو له ويتصدقون عنه ويستغفرون له ويصل إليه ثواب ذلك وهو في قبره مرتقن .

فإذاً هذه الأمور وقع فيها هؤلاء من باب الإحسان وإرادة الخير ، وكم من إنسان يقع في الخطأ من حيث أراد الخير ، ولهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه بلغه أن جماعة مجتمعين في المسجد وعليهم رجل قائم يقول

"سبحوا مئة" فيقولون سبحان الله سبحان الله مئة مرة بصوت واحد ، ثم يقول "هللوا مئة" فيهللون يقولون لا إله إلا الله بصوت واحد مئة مرة ، "كبروا مئة" فيكبرون ، فدخل عليهم رضي الله عنه وقال : «أما والله إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فُتتم أصحاب محمد علما» ، اختاروا واحدا من اثنتين: إما أنكم جئتم ببدعة فتحتم باب ضلالة ، أو فُتتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في العلم ، ماذا يختارون لأنفسهم ؟ هل يقولون على أنفسهم أنهم عندهم من العلم ما هو أفضل من علم الصحابة؟ فقالوا : "والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير" ، كثير من الناس يقع في بدع وأعمال مخالفة للسنة وأمور لا أصل لها وهو في قرارة نفسه ما أراد إلا الخير ، ما أراد الشر ، أحب الخير ورغب فيه فيقع في المخالفة ، ووقعه في المخالفة يكون عندما لا يضبط نفسه بضابط السنة ، فقالوا : "والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير" ، فقال رضي الله عنه وأرضاه «وهل كل من أراد الخير أدركه!!» أي أنه لا يدرك الخير إلا من يتحراه ويجتهد في طلبه في ضوء سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام القائل صلى الله عليه وسلم ((تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي)) ، فالذي يجاهد نفسه على لزوم السنة والتقيد بها والاكتفاء بما جاء عنه عليه الصلاة والسلام هو الذي يصيب الحق ويصيب الخير ، أما ان يفتح لنفسه باب الاجتهاد ويقول "هذا الذكر قليل الذي جاء في السنة ما يكفيني ، وهذه الصلاة التي في الليل قليلة ما تسعنا ، وهذا الصيام كذا" ويبدأ يفتح على نفسه أبواب من التشديدات والأعمال التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، ولا يشدد الإنسان على نفسه فيشدد الله تبارك وتعالى عليه ((يسروا ولا تعسروا، بثِّروا ولا تنفروا)) بهذا كان يوصي صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ختم بأصل عظيم وقاعدة جلية في الباب يجب على كل مسلم أن يحفظها وأن يعيها قال : ((فمن رَغِبَ عن سنتي فليس مني)) ؛ من رغب عن السنة أي اختار لنفسه غيرها رغبةً عنها إما لِعِدِّها قليلة أو غير كافية أو ليست وافية أو نحو ذلك ، ورغب في غيرها رغبةً عن السنة ؛ يقول ((فليس مني)) وهذا من نصوص الوعيد الدالة على عظم هذا الأمر وخطورته وأنه ذنب وإثم عظيم استحق صاحبه أن يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((ليس مني))؛ أي من كان راغباً عن السنة فليس مني ، وهذا من أحاديث الوعيد والتهديد الدالة على أن هذا الأمر ذنب عظيم من رغب عن سنتي فليس مني .

ويجب أن نفهم يا أخوان أنه قد تكون الرغبة عن السنة بفعل عبادات لكنها ليست مشروعة أو زائدة عن الحد المشروع ، فيضني الإنسان نفسه ويُتعبها ويرهقها بعباداتٍ لكنه فيها ليس على سنة النبي صلى الله عليه وسلم فيؤزر ولا يؤجر ويأثم ولا يثاب ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)) أي مردود على صاحبه .

وهنا سؤال عندما قال عليه الصلاة والسلام ((فهو رد)) هل المعنى أي مردود عليه ويكون الأمر لا له ولا عليه ؟ يعني لا ينال ثوابا ولا ينال عقابا؟ هل هذا هو المراد؟ لا والله ، باب البدعة باب إثم وهي أخطر من المعصية وباب

شر على الإنسان ، ولهذا هنا قال عليه الصلاة والسلام ((من رغب عن سنتي فليس مني)). ولهذا يجاهد الإنسان نفسه على العناية بالسنة وحفظها وضبطها والعمل بها والدعوة إليها ، ولما خطب عليه الصلاة والسلام الناس ووعظهم في مسجد الخيف في أيام التشريق بمنى قال كلمة عظيمة لعموم المسلمين الذين أمامه قال: ((نَضَّرَ الله امرءً سمع مقالتي فحفظها فوعاها فأداها كما سمعها)) رغب في حفظ السنة وفهمها وضبطها وإبلاغها للأمة بعد أن يعتني العبد في نفسه تطبيقاً لها ومحافظة عليها .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)) رواه مسلم .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم قال عليه الصلاة والسلام : ((بدأ الإسلام غريباً)) أي بدأ في أفراد وآحاد من الناس ، والواحد منهم بتمسكه بدينه ومحافظة عليه يحس أنه في غربه ، من حوله ليسو منه وليس منهم فهو غريب ، مثل الرجل الذي يدخل مصرًا غير مصره وبلدًا غير بلده ويمشي في الطرقات ويلتفت هنا وهناك ينظر إلى هذا وذاك لا يعرفهم ولا يعرفونه ، بخلاف ما إذا كان في وسط أهله وعشيرته وجماعته وقرابته يمشي في الطريق وأغلب من يراه يعرفهم ويعرفونه ، فإذا ذهب إلى بلد آخر يحس بالغربة لا يعرف ولا يُعرف . والإسلام بدأ غريباً الناس لا يعرفونه بل جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجبهم)) لأن الجاهلية والعياذ بالله طبقت الأرض كلها ، قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام طبقت الأرض كلها وخيمت عليها بجميع أطرافها لا يذهب الإنسان أي مكان في الأرض وفي أرجاء المعمورة إلا وقد عشعشت فيه الجاهلية وخيم فيه الضلال في الأرض كلها ((إلا بقايا من أهل الكتاب)) إلا قلة ونزر قليل وعدد يسير جدا بقايا من أهل الكتاب ، أما الأرض فقد خيمت عليها الجاهلية بكل أطرافها قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ، وبدأ الإسلام ينشأ ويشع نوره ويظهر ضياؤه في جاهلية جهلاء وضلال مخيم ، فكان من يُسلم ويعتق هذا الدين ويدخل فيه يعيش حياة غربة ، فيمشي بين الناس غريباً ليسو منهم وليسو منه ، ليس على طريقتهم وليسو على طريقتهم ، فبدأ الإسلام غريباً .

قال: ((وسيعود غريباً كما بدأ)) سبحانه الله!! الذي يتأمل في نشأة الإسلام وبدايته كيف بدأ غريباً لا يعرفه إلا القلة من الناس قال: ((وسيعود غريباً كما بدأ)) بمعنى أن الضلال يعود إلى كثير من الناس ، الانحراف ، أباطيل الجاهلية خصالهم أعمالهم ، أما لإسلام الصافي النقي السالم من أوضار الجاهلية وضلال أهل الأهواء وأباطيل أهل الباطل فإنه سيعود غريباً ، الذي سيعود غريباً كما بدأ الإسلام الصافي النقي ، أما الإسلام المدعى أو الإسلام

المشوب بالأضاليل والأباطيل والأهواء واتباع الخرافات والتزئد في دين الله تبارك وتعالى يوجد ، لكن الإسلام الصافي النقي الذي هو هديه عليه الصلاة والسلام وسنته صلى الله عليه وسلم يعود غريبا .
قال: ((**فطوبى للغرباء**)) وهذا فيه حثٌ عظيم وترغيب وتحريض منه عليه الصلاة والسلام على حفظ السنة والمحافظة عليها والافتداء بهديه عليه الصلاة والسلام ، ولا سيما إذا أعرض الناس عن السنة ورغبوا عنها وانشغلوا بالأهواء والأضاليل والأباطيل .

قال ((**فطوبى للغرباء**)) ؛ قيل «طوبى»: الثواب العظيم والوعد الجزيل والأجر الكثير ، وقيل «طوبى» هي الجنة ، وقيل «طوبى» وهذا ثبت فيه حديث عنه عليه الصلاة والسلام شجرة في الجنة يمشي الراكب في ظلها مئة عام .
أسأل الله عز وجل أن يكرمنا وإياكم بهذا الأجر العظيم والفضل العميم . فقليل في معناها هذه الأقوال ، والله جل وعلا يقول: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَ » [الرعد: ٢٩] .

فالشاهد النبي عليه الصلاة والسلام وعد من حافظ على الإسلام واجتهد في التمسك به والمحافظة عليه وعده بهذا الوعد العظيم ؛ قال: ((**طوبى للغرباء**)) ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام في رواية ثابتة لهذا الحديث من هم ؟ قال ((الذين يُصلحون ما أفسد الناس)) وفي لفظ ((الذين يَصْلُحُونَ إذا فسد الناس)) فإذا حصل في الناس فساد ، والفساد يدخل على الناس من جهة التخلي عن السنة والرغبة عنها والوقوع في البدع والأضاليل ، فمن كان في مثل هذه الحال حريصا على السنة محافظا عليها متمسكا بها داعيا إليها ناصرا عنها فطوبى له كما أخبر عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)) رواه البغوي في شرح السنة وصححه النووي .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**)) ؛ وهذا فيه أن الإيمان لا يتحقق للعبد ولا يتم إلا إذا ألزم نفسه بالتزام السنة والتقيد بما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فلا يرغب عن السنة بل يرغب فيها ويحرص عليها ويجاهد نفسه على التمسك بها ، ولا يكون في قلبه والعياذ بالله كراهية لها أو استيحاشا منها أو بغضا لشيء من هديه عليه الصلاة والسلام ، بل يكون هواه أي ما تهواه نفسه وتميل إليه وترغب في تحصيله تبعا لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومتى يبلغ الإنسان هذه الرتبة العلية والدرجة المنيفة ؟

والجواب أيها الإخوة على ذلك : أن هذه الرتبة لا تُبلغ إلا إذا حصل من الإنسان قناعة تامة بأن هدي النبي صلى الله عليه وسلم خير الهدى ، وأنه عليه الصلاة والسلام أولى بالإنسان من نفسه ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] ، وأنه أحرص على نفسك منك ، فإذا اقتنع الإنسان بهذا الأمر قناعة تامة واطمأن قلبه بذلك وراضت نفسه على ذلك فإن هوى القلب وميوله سيكون بإذن الله تبارك وتعالى تبعاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بد في ذلك كله من عون الله وهدايته وتوفيقه وشرحه صدر عبده سبحانه وتعالى لذلك ، فالهداية والتوفيق بيده سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان فيهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل افترقت على ثنتين وسبعين ملة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة)) قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ((ما أنا عليه وأصحابي)) رواه الترمذي .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل)) ؛ قوله «ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل» يفسره قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر ((لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ، في رواية ((شبرا شبرا ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)) ؛ وهذا منه عليه الصلاة والسلام إخباراً أراد به التحذير والنصح للأمة ؛ أن يحذروا من ذلك وأن يحذروا من اتباع سنن اليهود والنصارى وأعداء الدين ، فأخبر أن هذا سيوجد في الأمة وأن كل أمر يفعله اليهود والنصارى وأعداء الدين سيوجد في المنتسبين للإسلام من يفعله ومن يتشبه بهم فيه .

قال : ((ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل)) في الحديث الآخر قال : ((حذو القذة بالقذة)) ؛ إذا جئت بريش السهم وقارنت بينها تجدها متساوية متماثلة ، أي أنهم يفعلون مثلهم تماماً في كل صغير وكبير وكل دقيق وجليل ، بل تصاب القلوب في بعض الأزمنة والعياذ بالله بسبب الفتنة وكون القلوب أشربت بالهوى يصاب الناس في بعض الأوقات أنهم يتبعون بكل دقة كل جديد عند اليهود والنصارى ، يتبعونه بكل دقة وبكل لهف ويسألون عنه ويراقبونه ، ثم إذا وجدته فرح به غاية الفرح وأنه من أوائل من جاء باتباع اليهود واتباع النصارى ومن أوائل من حاز المشابهة لهم والمطابقة لأفعالهم وأقوالهم . وهذه مصيبة عظيمة في حال كثير من

الناس؛ يتشبه بأعداء الدين في كل شيء ، وهذا لا يكون إلا بسبب مرض القلب ورقة الدين ، وإلا كيف يرضى المسلم لنفسه بالدنيّة؟ كيف يتّبع أعداء دين الله عز وجل؟ كيف يتبع الخاسرين الأخسرين أعمالا كيف يرضى لنفسه بذلك؟ وتجد أن بعض الشباب أيضا في مجتمع النساء ومحيط النساء مراقبة لأعمالهم وحركاتهم ؛ المشي اللباس قصة الشعر إلى آخره يتابعونهم فيه متابعة دقيقة جدا وأولاً بأول يقتدون بهم !! هذه من المصائب .

قال: ((حذو النعل بالنعل)) أي أنهم يتابعونهم متابعة دقيقة خطوة بخطوة ، مثل لو أن رجلا يمشي بنعله في طريق وآخر يمشي خلفه يضع نعله خلف نعل الرجل يحاكيه في مشيته ويطأ موطئه ويتبعه ((حذو النعل بالنعل)).

حتى قال عليه الصلاة والسلام: ((حتى إن كان فيهم من أتى أمّه علانية لكان في أمّتي من يصنع ذلك)) لو كان فيهم من أتى أمه علانية يعني من اقتترف الفاحشة والجريمة مع أمه علانية أمام الناس لكان في أمّتي من يفعل ذلك، هذا كله قاله عليه الصلاة والسلام تحذيرا للأمة ونهيًا لهم عن اتباع اليهود والنصارى .

وسبحان الله !! عندما يُشرب القلب هوى اتباع هؤلاء يمرض وتتغير عنده المفاهيم ، أنا أذكر مثالا في هذا الباب يوضح لنا كيف أن الهوى هو الذي يغيّر مفهوم صاحبه؛ كان في زمان فانت بعض الشباب غير المتدين إذا رأوا الشاب الذي يلبس ثوبًا إلى أنصاف ساقيه أو أقل من أنصاف ساقيه فوق الكعب سخروا منه واستهزأوا به ورأوا أن هذه هيئة منكرة وهيئة تجلب السخرية والضحك ، فيسخرون منه ويهزئون وإذا مر بهم يتغامزون ، فهذه حالهم معه ، وبعد وقتٍ أصبحت الموضة عند الغرب أن يلبس البنطال إلى الركبة أو أعلى من الركبة قليلا ، ويقصقص أيضا بشكل مشوّه ؛ فخرج هؤلاء الذين كانوا يضحكون ولبسوا البنطال إلى الركبة وقطعوها من الأسفل ومشوا في الشوارع معجبين بأنفسهم ويرون أن هذه هو الرقي وهذا هو الحضارة وهذا الجمال وهذا هو الحسن !! أنت قبل قليل كنت تسخر من صاحب السنة في اتباعه للسنة لأنه جعل إزاره فوق الكعب وترى أن الأنسب أن يكون إلى الأرض ولا يُرفع ، ثم لما فعل الكفار هذا ذهب تقلدهم وتحاكيمهم وتغيّرت المفاهيم عندك لا شيء إلا اتباعا لهم!! فهذا والعياذ بالله يبين كيف أن الشاب يقع عندما يشرب قلبه بالهوى بأمور وعظائم وشنائع بسبب محاكاته لهؤلاء وحبه لتقليد هؤلاء .

وهؤلاء يمشون في فراغ . أعداء الدين يمشون في فراغ ؛ أذكر رأيت رجلا في إحدى الدول كان حلق نصف رأسه الأيمن بالموس والنصف الثاني الأيسر تركه طويلا كاملا وصبغه بالأخضر، أنا لما رأيته قلت "سبحان الله كيف استطاع هذا الرجل أن يمشي بين الناس؟! كيف استطاعت قدماه أن تخطو مشيا بين الناس بهذا المنظر الشنيع!!" ثم نظرت إليه ثانية وإذا به معجب بنفسه يمشي بإعجاب وفخر ويرى أنه من أحسن ما يكون ، ولا تعجب لو رآه أحد الشباب حذو النعل بالنعل ، لو رآه أحدهم قال "هذه سابقة ، من يصل هذا الأمر ! هذا هو الآن قمة الحضارة وقمة الرقي" . فعقول والعياذ بالله محسوفة . فهنا ينتبه المسلم قال ((حذو النعل بالنعل)) وهناك قال

((حذو القذة بالقذة)) في كل أمر حتى لو وجد فيهم من أتى أمه علانية لوجد في أمتي من يصنع ذلك نعوذ بالله العظيم .

قال ((وإن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين ملة ، وستفترق أممي على ثلاث وسبعين ملة)) هنا أيضا قال ذلك صلوات الله وسلامه عليه ناصحا للأمة ، وهذا الحديث صحيح ثابت عنه ولا ينبغي أن نلتفت للمشغيين ممن لا دراية لهم بأحاديثه عليه الصلاة والسلام ولا معرفة لهم بها ولا خبرة ممن يشغبون ويهجون من هذه الأحاديث ، مثل أحدهم يقول "هذا الحديث يحتاج إلى أن يعاد النظر فيه متنا وسندا" وهو ليس من أهل هذا الشأن ، أو يطعن في صحته وهو ليس من أهل الدراية بهذا الشأن ، وبعضهم والعياذ بالله يقلبه بناء على رواية منكورة بإجماع أهل العلم "كلهم في الجنة إلا واحدة" والعياذ بالله يقلبه ؛ فمثل هؤلاء لا يلتفت إلى كلامهم ولا يعبا به ويُعرض عنه . والنبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ناصحا للأمة فلماذا يأتي هؤلاء ويغيرون من هذه النصيحة؟ أين الغيرة على الأمة والنصح لها؟! النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لنا ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)) قال ذلك ناصحا لنا ، فلم يأتي أقوام ويحاولون التقليل من هذا الحديث والطعن فيه والتقليل من شأنه ويزعمون أن هذا الحديث يفرّق ويشق الصف ونحو ذلك من المعاني . النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ناصحا للأمة ، إذا قبلت أول الحديث لماذا ترد آخره؟ أليس قال في أول الحديث ((لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا حذو النعل بالنعل)) أتقرّ بذلك أو لا تقرّ؟ أتقر أنه سيوجد في الأمة من يكون هذا شأنه؟ سيقول نعم ، فما دمت تقرر بهذا فلم تعجب من قوله في تمام الحديث ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة)) !!.

ولهذا يجب أن يتقي الله عز وجل من يقلل من أمثال هذه الأحاديث المشتملة على نصيحة بالغة عظيمة من النبي عليه الصلاة والسلام لأئمة ، في الحديث الآخر قال : ((إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا)) ، ماذا يقول القائل في هذا الحديث؟ وماذا يقول في قوله ((لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا)) ؟. فالشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال ذلك ناصحا ، ومن يقول أن هذا غير صحيح وأن الأمة لا تفترق مقالته هذه هي في الحقيقة فتح لباب البدع والضلال على مصراعيه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك تحذيرا للأمة من البدع والضلال.

قال: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار)) وهذا وعيد قال ((كلها في النار إلا واحدة)) شأنه شأن نصوص الوعيد الأخرى ؛ فهذا أمرٌ توعّد به النبي صلى الله عليه وسلم أهل الافتراق ، قال ((كلها في النار إلا واحدة)) .

((قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) هذا نجاته محققة ، مثل ما قال عليه الصلاة والسلام ((من صمت نجا)) أي نجاته محققة ، ومن تكلم؟ هلك أو بحسب كلامه؟ فهنا قوله عليه الصلاة والسلام ((كلها في النار إلا واحدة قالوا من هم؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي))

فمن لم يكن على مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ووقع في بعض البدع لا يعني الحديث أن من كان كذلك أنه في النار قطعاً ، قد يتوب توبة نصوحة ، قد يكون هناك مصائب مكفرة ، قد يكون هناك حسنات ماحية إلى آخره ، ومن غلط في فهم الحديث يأتي ويقول: أنتم تريدون أن تجعلوا كذا وأنتم ؛ كل هذا مبني على سوء فهم للحديث وعلى غلط في فهم السنة . هذا الحديث خرج مخرج النصيحة للناس وتحذيرهم من الباطل وتحذيرهم من البدع ، خرج مخرج جمع الكلمة على السنة وعلى الحق وعلى الهدى وعلى اتباع ما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، والتحذير من الأهواء التي تفرق الناس وتفرق صفهم وتوقع بينهم التدابر والتعادي ، فمن لم يفهم مراد النبي عليه الصلاة والسلام ولم يفهم مقصده ينجر إما إلى رد الحديث من الأصل ، أو الخوض في تأويلات باطلة وتحريفات كاسدة ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

والخلاصة أن الواجب علينا أن نعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك ناصحاً لنا ؛ فلنجاهد أنفسنا من سبل التفرق والاختلاف ومن طرائق أهل البدع والأهواء وأن نلزم أنفسنا بسنة نبينا عليه الصلاة والسلام وهديه القويم . قوله في تمام الحديث ((من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي)) ؛ وهذا فيه أن الدين الصحيح هو ما كان في زمن النبي عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال مالك بن أنس رحمه الله عليه «ما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم ديناً» ، الدين الصحيح هو الدين الذي كان موجوداً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، أيقول عاقل إن أموراً من الدين وجوانب منه حُرِمَ منها الصحابة وأُخِرَت لأقوام جاء بعدهم !! هذا لا يقوله عاقل ، الدين هو الدين الذي كان موجوداً زمن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ولهذا عبد الله بن مسعود قال كلمته التي سمعناها قريباً قال : «أما والله إنكم جئتم ببدعة ظلما أو فقتم أصحاب محمد علماً» ، لأن هذه العبادة التي أنتم عليها لم تكن موجودة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ، ولهذا سيأتي أيضاً عند المصنف عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها ، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا» .

قال رحمه الله تعالى :

ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له :

ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) .

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث في «باب تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك» بعد أن ساق رحمه الله تعالى جملةً من الأحاديث المشتملة على الحث على التمسك بالسنة والتقيد بها .

وهذا الحديث حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه))؛ المراد بالهدى: أي الذي ترك النبي صلى الله عليه وسلم أمته عليه ، هذا هو الهدى، ما صح عنه وثبت عنه عليه الصلاة والسلام هذا هو الهدى ، وكل عمل يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى مما لم يأت به فيه سنة عنه صلوات الله وسلامه عليه فهو من الضلالة ليس من الهدى ، الهدى هو ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] ؛ فلا يكون إصابة الهدى إلا باتباعه والسير على منهاجه ، قد مر معنا قريباً قوله عليه الصلاة والسلام ((أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم)) ، فالدعوة إلى الهدى المراد بها : الدعوة إلى السنة ، إلى ما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه وما كان عليه صحابته الكرام رضي الله عنهم .

قال: ((من دعا إلى هدى)) أي من دعا إلى حقٍ وخير مما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ((كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)) أي أن الداعي إلى الحق والهدى وإلى سنة النبي عليه الصلاة والسلام كان له من الأجر مثل أجور من تبعه .

ولا يراد بقوله «من تبعه» أي من سمعوا منه هذه الدعوة ، بل يشملهم ويشمل أيضا أتباع الأتباع وأتباعهم إلى ما شاء الله ، فلو دعا إنسان إلى سنة ثم من دعاهم إليها دعوا آخرين والآخرين أيضا دعوا آخرين إلى ما شاء الله؛ كل هؤلاء يُكتب أجورهم لمن دعاهم إلى هذه السنة أولا . ولهذا فإن نبينا عليه الصلاة والسلام له مثل أجور أمته إلى قيام الساعة ، كل من اتبعه عليه الصلاة والسلام فللنبي صلى الله عليه وسلم مثل أجره ؛ له مثل أجر الحجاج في حجهم ، والمُعتمرين في عمرتهم ، والصائمين في صيامهم ، والمتصدقين في صدقاتهم ، والبارين بوالديهم في برهم ، والواصلين للأرحام في صلّتهم ، إلى غير ذلك من الطاعات ، كل طاعة يقوم بها المسلم في أي وقت وزمان اتباعا للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام فله عليه الصلاة والسلام مثل أجره؛ لأنه رَغِبَ في ذلك ودعا إليه ودل الأمة إليه وأرشدهم إليه . ومن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء .

أيضا الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم دعاة حق وهدى ، الآن لما نقول: "قال أبو هريرة رضي الله عنه ، قال عمر رضي الله عنه ، قال أبو بكر رضي الله عنه ، قال علي رضي الله عنه وغيرهم من الصحابة" ونروي من طريقهم أحاديث إلى النبي عليه الصلاة والسلام كانوا هم حملتها العدول ونقلتها الأخيار ، وأيضا ما حُفظ عنهم من الفقه في دين الله تبارك وتعالى كل هؤلاء يُكتب لهم أجر من تبعهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيء ؛ فهذا فيه فضل عظيم . ولهذا ينبغي على المسلم أن يجتهد في أن يكون له حظ من الدعوة إلى الهدى حتى يفوز بهذا الحظ العظيم من الأجر ، كل في مقدوره ومستطاعه ، من لم يكن عالما بالسنة يستطيع في زماننا هذا أن ينشر علم العلماء بها في الكتب النافعة والأشرطة المفيدة ونقل سنن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس وترغيبهم في الخير وحثهم عليه من الأهل والولد والأقارب ومن يلقاهاهم الإنسان بالكلمة الطيبة والرفق واللين ؛ حتى ينتشر الخير ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)) .

((ومن دعا إلى ضلالة)) أي من كان داعية ضلالة والعياذ بالله يدعو إلى البدع أو الأهواء أو الخرافات وما لا أصل له في دين الله تبارك وتعالى ويدعو إلى اتباع هوى النفس من الآثام وما يُسخط الله تبارك وتعالى يدعو إلى الفجور .

((من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)) كما قال الله في القرآن ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] ؛ فالداعية إلى ضلالة يبوء بإثم نفسه ويبوء بإثم من دعاهم إلى ضلالته ، ودعاة الضلالة الذين ضلوا على يديه إذا دعوا آخرين يبوء أيضا بالإثم . ومما يوضح هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في ما معناه ((لم تُقتل نفس ظلما إلا كان لابن آدم الأول كفل من دمها)) لأنه أول من سن القتل . فكل من سن سنة سيئة ودعا الناس إلى ضلالة فإنه يحمل والعياذ بالله إثم ضلالته وإثم ضلالة أتباعه إلى يوم القيامة .

ولهذا أيضا قال العلماء: أن الداعية إلى البدع إذا تاب لا يكفي أن يتوب في نفسه ، بل لابد أن يجتهد في إصلاح ما أفسد ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا﴾ [البقرة: ١٦٠] ، لابد أن يصلح إذا كان من دعاة الباطل والضلال لا يكفي أن يتوب في نفسه بل لابد أن يصلح ما أفسده في الناس ويبين لهم بطلان ما كان يدعوهم إليهم تحذيرا ونصحا .

فهذا الحديث فيه حث على الدعوة إلى السنة وتحذير من الدعوة إلى الضلال والباطل ، وفيه أيضا تنبيه إلى خطورة الكلمة ، الكلمة التي تخرج منك إما أن تكون لك أو عليك ، فالكلمة خطيرة لا يستهين بها الإنسان ، فهو موقوف بين يدي الله تبارك وتعالى وسأله عن كلامه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٨] ، فيحفظ كلامه ويزنه بميزان الحق والهدى ميزان كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . بعض الناس الآن يستهين في أمر الإخبار عن دين الله عز وجل أو بيان الأحكام ؛ تجرد الناس والعوام والجهال بدين الله إذا ذكر أمر من أمور الدين كل يدلي بدلوه ويدي برأيه بدون فهم وبدون علم ، هذا يقول الحكم كذا وذاك يقول الحكم كذا ، قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام ((أن من أرشد غيره إلى غير رشد فإنما إثمه على من أرشده)). فالكلمة خطيرة جدا قال: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه)).

كيف أكون داعية إلى الهدى؟ هذا مطلب عظيم جدا يثيرة في نفوسنا وفي قلوبنا هذا الحديث العظيم المبارك ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)) ينبغي أن تعلم هنا أيها الأخ الموفق أن من دعا إلى الهدى إذا مات ودُفن وأدخل في القبر تصل إليه الأعمال تلو الأعمال والأجور تلو الأجور إلى قيام الساعة مادام أن هناك مستفيدون من دعوته الصحيحة إلى الحق والهدى . أئمة الهدى الذين ماتوا من قرون طويلة ودعاة الخير الذين ماتوا من قرون طويلة هم في قبورهم والأجور تصل إليهم تلو الأجور ، يوما تلو يوم تصلهم الأجور في قبورهم ، كما يدل على ذلك هذا الحديث العظيم . ومن الناس من هو الآن حي يمشي على وجه الأرض وحظه من الأجور قليل جدا ونصيبه من الآثام كثير جدا ؛ فكيف يكون الإنسان داعيا إلى الهدى؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ إِنَّمَا يُغْنِيكُمْ عَنْ الْمَالِ وَالْبَنِينَ وَالنِّسَاءِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَكْثَرَهُمْ وَيُطَهِّرَ الْبَاقِيَ﴾ [التوبة: ٢٨] ، فتلجأ إلى الله تبارك وتعالى وتدعوه فالتوفيق بيده سبحانه وتعالى .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ إِنَّمَا يُغْنِيكُمْ عَنْ الْمَالِ وَالْبَنِينَ وَالنِّسَاءِ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَكْثَرَهُمْ وَيُطَهِّرَ الْبَاقِيَ﴾ [التوبة: ٢٨] ، فتلجأ إلى الله تبارك وتعالى وتدعوه فالتوفيق بيده سبحانه وتعالى .

ثم تجتهد في أن يكون لك حظ من العلم النافع والفقه في دين الله عز وجل وتعطي العلم الشرعي نصيبا من وقتك ، ولهذا سيأتي قريبا عند المصنف رحمه الله تعالى التحريض على طلب العلم ، فتجعل لطلب العلم نصيبا

من وقتك وجزءاً من حياتك تتفقه في دين الله تبارك وتعالى . وإذا وجد عندك التفقه ولو في شيء يسير من أمور الدين فهمته وفهمته دليله وتلقيته عن أهل العلم تلقياً صحيحاً تدعو إليه وتنصح الآخرين به وترغبهم فيه؛ فيكتب لك أجور هؤلاء وثواب هؤلاء .

﴿الأمير الثالث﴾: أن تكون محافظاً في نفسك على العمل والعبادة مجاهداً نفسك على البعد عن الآثام ومقارفة الذنوب ، لأن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى كما أنها بلسان المقال فهي أيضاً بلسان الحال ؛ بالأسوة ، وكون الإنسان في خلاله وخصاله قدوة للناس في الخير ، وبالمجاهدة يتحقق للعبد كل خير وفضيلة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

قال رحمه الله تعالى :

وله عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إنه أبدع بي فاحملي» ، فقال : ((ما عندي)) ، فقال رجل : «يا رسول الله أنا أدله على من يحمله» . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ((أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنه أبدع بي فاحملي))؛ أبدع بي: أي انقطعت دابتي وراحلي، إما بموت أو بهلاك أو مرض لا تستطيع نقله وحمله ، قال ((إني أبدع بي فاحملي)) أي أعطني دابة تحملني أسافر عليها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ما عندي)) أي ليس عندي دابة أعطيك إياها .

((فقال رجل : يا رسول الله أنا أدله على من يحمله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)) وهذا فضل عظيم وكرم من الله عز وجل ومنة على عباده ؛ أن من دعا إلى خير ، و«خير» هنا نكرة لتعم كل خير قل أو صغر في نفع الناس في دينهم أو دنياهم ، ((من دل على خير كان له مثل أجر فاعله)) إذا دل الإنسان أخاه إلى حلقة علم ، إلى مكان عبادة ، دعاه إلى هدى إلى اتباع سنة ، دله على شيء في حاجاته مصالحه فله مثل أجر فاعله ، إن كانت صدقة فله مثل أجر المتصدق ، وإن كان علماً فله مثل أجر بيان العالم وهكذا .

ودائماً أقول للإخوان في كثير من المناسبات من يرتبون الدروس والمحاضرات لأهل العلم بحيث يتصل بالعالم ويقول له "منطقتنا بحاجة إلى درس أو بحاجة إلى محاضرة" ويحثه على ذلك ويؤكد عليه ثم يستجيب له مثلاً العلم أو الداعية إلى الله ويُعِدُّ للدرس ويراجعه له ويتجشم السفر وعناء الطريق ثم يلقي الخير والعلم ويستفيد الناس ؛ هذا

الذي دعاه إلى هذا الأمر له مثل أجره ، مع أن الذي كان منه مجرد اتصال أو مكالمة بالهاتف في دقيقة أو دقيقتين، فكل هذا الجهد الذي يكون من العالم يكون لذاك مثل أجره وفضل الله واسع ، والسهم الواحد يشترك فيه ثلاثة صانعه ونابله ومعطيه ، كما جاء معنى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام ، فضل الله جل وعلا واسع ولهذا لا يحرم الإنسان حظه من الخير ، إذا لم تكن عالما وقريب من منطقكم عالم أو في منطقك عالم وتحته على التعليم وتساعدته على نشر العلم فإنه يُكتب لك مثل أجره ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)).

من اللطائف في هذا الباب: أن الشيخ الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله أَلَّفَ كتابًا سماه «تحفة الأخيار في الأذكار والدعوات التي يؤتى بها في طرقي الليل والنهار» في الصباح والمساء وأدبار الصلوات ، كتاب قيم جدا وهو كتاب ليس كبير لكنه مليء بالفوائد العظيمة ، ومن يقرأ الكتاب يجد فيه فوائد عظيمة في الذكر والدعاء وأشياء مستفادة من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ لما وصل إلى نهاية الكتاب ختمه بهذا الحديث حديث أبي مسعود البدر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((من دل على خير فله مثل أجر فاعله)) ، وكأنه بهذه الخاتمة يعطي القارئ رسالة جميلة جدا يقول له: كما أنك قرأت هذا الكتاب وعرفت هذه الأذكار واستفدت منها وحصلتها انشرها أيضا بين الناس ، فإنك إن فعلت ذلك كان لك مثل أجورهم .

الآن أيها الأخ الكريم عندما تأخذ كتابا في الأذكار أو كتابا في التوحيد أو كتابا في فقه العبادات وتحمله معك هدية إلى أهل بلدك ، وقد كان السلف من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان يتهدون مسائل العلم ، تحمله هدية لهم تقول هذا كتاب قيم وكتاب نافع في الأذكار ، بدل هذه الكتب التي انتشرت بين الناس ليست قائمة على سنة بل قائمة على الخرافة فتدلهم على الهدى يُكتب لك مثل أجورهم . أحيانا بعض الكتب يحملها بعض الحجاج لا يستفيد منها رجل واحد! يتداولها أهل القرية لشحة الكتب وقلتها فيستفيد منها خلق . فهذا الحديث ((من دل على هدى كان له مثل أجر فاعله)) هذا يحرك القلوب المؤمنة إلى مزيد من العطاء ومزيد من البذل ومزيد من التعاون في نشر الخير وبيانه للناس ، فهذا أمر ليس بالهين .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عمرو بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً : ((من أحيا سنّة من سنّي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجر من عمل بها من الناس لا ينقص من أجور الناس شيئا ، ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل إثم من عمل بها من الناس لا ينقص من آثام الناس شيئا)) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وهذا لفظه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عمرو بن عوف رضي الله عنه مرفوعاً قال : ((من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي)) وهذا يبين لنا معنى قوله في الحديث الآخر ((من سنَّ في الإسلام سنة حسنة)) ، المراد بالسنة الحسنة: إحياء سنة أميتت ، غفل عنها الناس ونسيها الناس وفرطوا فيها وضيعوها فمن أحياها كُتب له أجر مثل أجر من عمل بها .

قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من سن في الإسلام سنة حسنة)) المراد به إحياء السنن التي أميتت وغفل عنها الناس وضيعوها ، وليس المراد به إحياء البدع والضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، فنشر البدع هو من الدعوة إلى ضلالة ، ومن سن السنن السيئة في الناس ، فيبوء الإنسان بإثمها وإثم من اتبعه فيها . قال: ((من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل أجور من عمل بها من الناس لا ينقص من أجور الناس شيئاً)) فأجور الناس الذين استجابوا له ثابتة كاملة وله أيضا مثل أجرهم ، فيكون للعامل في عمله أجراً ، ويكون لمن دعاه إلى هذا العمل أجرا في العمل ، فيشترك في ثواب العمل: العامل والداعي إلى هذا العمل .

قال: ((ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله)) وقوله «لا يرضاها الله ورسوله» هذا وصف لازم لكل بدعة ، ليس هناك بدعة يرضاها الله ورسوله بل هذا وصف لازم لكل بدعة ، كل بدعة لا يرضاها الله ورسوله ، كل إحداث في الدين ما ليس منه لا يرضاه الله ورسوله ، نظير قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُدْعِ إِلَى اللَّهِ إِلَى الْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى حُدُودِ الْبُرْهَانِ كَلْبُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] قوله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ هذا وصف لازم لكل شرك ، هل هناك شيء من الشرك له برهان ؟ حاشا وكلا ؛ فهذا وصف لازم لكل شرك . وقوله ((لا يرضاها الله ورسوله)) هذا وصف لازم لكل بدعة ، كما سبق أن مر معنا ((كل بدعة ضلالة)) أي وإن ظنها الناس طيبة حسنة نافعة ، كل بدعة ضلالة ، لأن دين الله سبحانه وتعالى تام كامل كما قال ربنا جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

قال: ((ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل إثم من عمل بها من الناس لا ينقص من آثام الناس شيئاً)) . وهذا الحديث في سنده شيء من الكلام لكنه بمعنى الأحاديث المتقدمة قبله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «كيف أنتم إذا لبستم فتنه يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير وتتحذ سنة يجري الناس عليها ، فإذا غيّر منها شيء قيل تُركت سنة» ، قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟

قال : «إِذَا كَثُرَ قُرَاؤُكُمْ وَقَلَّ فَفَهَاؤُكُمْ ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ وَقَلَّ أَمْنَاؤُكُمْ ، وَالتَّمَسْتُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، وَتُفِّقَ لَغَيْرِ الدِّينِ» رواه الدارمي .

ثم أورد رحمه الله هذا الأثر العظيم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : ((كيف أنتم إذا لبستكم فتنة)) لبستكم فتنة : أي غطتكم فتنة انتشرت في الناس وكثرت وتفشت فيهم وعمت ، كيف أنتم إذا لبستكم فتنة ؟ والمراد بالفتنة: أي فتنة الناس بدينهم بسبب غلبة الأهواء وسيطرة الشبهات حتى تعمى الحقائق الواضحة على الناس ، ولهذا توصف الفتنة بالعمياء الصماء لأنها إذا وجدت وعمت في الناس وانتشرت التبت عليهم السبل ولم يميزوا بين حق وباطل وهدى وضلال .

قال: ((كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير)) أشار رضي الله عنه إلى أمرين متعلقين بالفتنة :

❖ الأمر الأول: يستفاد من قوله ((لبستكم فتنة)) وهذا يفيد امتداد الفتنة المكاني بحيث إنها تنتشر في الناس في الأطراف المختلفة والأمكنة المتعددة .

❖ والجانب الثاني : مستفاد من قوله ((يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير)) امتدادها الزماني ، بحيث أن الصغير يربو فيها ، يكبر وينشأ في الفتنة ، والكبير يهرم وهي لا تزال موجودة باقية ، الكبير الذي بلغ من السن أربعين خمسين يهرم ويدركه الهرم والفتنة لا تزال قائمة . فتكون ممتدة من حيث المكان وممتدة أيضا من حيث الزمان . ((وَتَتَّخِذُ سَنَةً يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا)) أي يمضي الناس عليها ويتمسكون بها ويظنون أنها هي السنة ، إلى درجة أنها إذا تركت قيل تركت سنة ، لماذا بلغوا هذا المبلغ؟ لأنهم من حيث المكان إذا نظروا وإذا بها هي الموجودة هي المنتشرة ، ومن حيث الزمان إذا نظروا يجدونها من قديم وهي موجودة ، فإذا تركت يقول الناس بسبب غلبة الفتنة عليهم "تركت السنة" ؛ وهذا مما يبين لنا أيها الإخوة خطورة فتنة الناس في دينهم ، قد يتصدّر إنسان للدعوة إلى ضلالة أو إلى بدعة ثم يستجيب له آخرون ويستجيب للآخرين آخرون فيموت الأول ثم يأتي على الناس زمان ولا يوجد في بعض المناطق إلا بدعة هذا الداعية الضال والعياذ بالله ، فالأمر جدُّ خطير .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير وتتخذ سنة يجري الناس عليها» أي يمضي الناس عليها ، «فإذا غيّر منها شيء قيل تركت سنة» .

((قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟)) وقوله «متى ذلك؟» سؤال عن الحال التي يكون عليها الناس بحيث تستشري فيهم الفتنة بهذا الشكل وتتأصل فيهم بهذا الشكل الذي ذكر في هذا الأثر. متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟

قال : ((إِذَا كَثُرَ قُرْأُوكُمْ وَقِلَّ فَقَهَاؤُكُمْ)) أي إذا كثرت فيكم القراءة وقَلَّ فيكم الفقهاء في دين الله ، القراء: الذين يقرأون القرآن ويجيدون تلاوته ويجيدون مخارج الحروف ونحو ذلك ، يقيمون الحروف ويتلوونها تلاوة جميلة بأداء حسن وصوت طيب بدون فقه في دين الله وبدون بصيرة . ومن كان صاحب عناية بالقرآن من حيث إقامة حروفه إذا تصدَّر لبيان الفقه وبيان الأحكام وهو لم يتفقه وإنما حفظ حروف القرآن ولم يحصل منه تفقه في دين الله يضل ويضل ، لأن القرآن لا بد فيه من فهم ، وفهم القرآن ومعرفة معاني القرآن ودلالته لا بد فيها من ضوابط ووسائل وأسباب ، لا أن يقول الإنسان في القرآن وفي كلام الله عز وجل ما لا يعلم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

قال: ((إِذَا كَثُرَ قِرَاءُكَ وَقِلَّ فَقَهَاؤُكَ)) أي عندما تتخذ القراءة مجرد صناعة ولا يكون هناك فقه في دين الله تبارك وتعالى ثم يتصدَّر القراء لبيان الأحكام ودعوة الناس على غير فقه في دين الله وبصيرة ، والله يقول : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] .

قال : ((وَكثُرَتْ أَمْوَالُكُمْ)) أي أن غالب اهتمام الإنسان بالاهتمام بالمال والاهتمام بالدنيا ؛ طغى عليهم الاهتمام بالدنيا على الاهتمام بالدين والآخرة ، وفي الدعاء الثابت عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا)) ، ولما سأل الله تبارك وتعالى إصلاح الدين والدنيا والآخرة بدأ بإصلاح الدين لأنه هو المقدم ((اللهم وأصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخري التي فيها معادي)) ؛ فبدأ بإصلاح الدين لأن إصلاح الدين مقدم على إصلاح الدنيا .

قال : ((وَقِلَّ أَمْنَاؤُكُمْ)) أي قلت الأمانة ، والأمانة إذا ذهبت عن الإنسان ولم يكن أميناً فهذا فيه خطورة منه بالغة على الناس ، لأنه إذا لم يكن أميناً سيتجرأ على دين الله وعلى القول على الله جل وعلا وفي دينه وفي كتابه بغير علم لأنه ينقصه الأمانة ، بينما الأمين والذي يحافظ على أمانة الكلمة وأمانة القول وأمانة البيان وأمانة النصيحة وأمانة التعليم فإنه لا يتكلم بكل شيء ، بل يتورع ويتأكد ويتبين الأمر ويتبصر ويتفقه ثم يبين عن علم ، أما إذا نقصت الأمانة أو ذهبت الأمانة في الإنسان فإنه سيجرؤ في الكلام في دين الله والقول على الله سبحانه وتعالى بغير علم لأنه ليس عنده أمانة .

قال : ((وَالْتَمَسْتُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ)) أي طلبت الدنيا بعمل الآخرة ، أي أصبح الناس يطلبون الدنيا بأعمال الآخرة ، بمعنى أنهم يعملون أعمالاً هي لأُتعمل إلا للآخرة أي لنيل ثواب الآخرة من صلاة وبر وصدقة وغير ذلك من الأعمال وهم لا يطلبون بها الآخرة وإنما يطلبون بها الدنيا ، كطلب مثلاً الشهرة أو الرئاسة أو الزعامة أو الصيت أو كثرة الأتباع أو غير ذلك من المقاصد والأغراض ، فهو يأتي بأعمال الآخرة وهو في قرارة نفسه لا يريد بها الآخرة وإنما يريد بها الدنيا ، وفي الحديث ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) .

والأمر الأخير قال : ((وَتُفْقَهُ لغير الدين)) يتفقه في الدين يتعلم الأحكام ويحفظ الأدلة ولكنه يجتهد هذا الجهد ويبدل هذا الأمر لا للدين نفسه وإنما يتفقه في الدين لأجل الدنيا ، يلتمس بالتفقه في الدين أمر الدنيا ليس مراده بالتفقه في دين الله تبارك وتعالى أن يرفع الجهل عن نفسه وأن يرفع الجهل عن الآخرين وأن يكون ناصحاً معلماً مبيناً ليس هذا غرضه وإنما غرضه الدنيا ، قد جاء عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه قال : «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها؟ قال : «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» .

قال رحمه الله تعالى :

وعن زياد بن حُدَيْر رضي الله عنه قال : قال لي عمر رضي الله عنه : «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قلت : لا ، قال : «يهدمه زلّة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلّين» رواه الدارمي أيضاً .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لزياد بن حُدَيْر رضي الله : ((هل تعرف ما يهدم الإسلام؟)) هل تعرف الشيء الذي إذا وُجد هدم الإسلام ونقض عراه ونشر الفساد والشر في الناس؟ هل تعرف ذلك ؟

((قلت : لا . قال : يهدمه زلّة العالم)) يقولون "زلة العالم زلة العالم" ، العالم إذا زل تبعه في زلله خلق لا يحصيهم إلا الله ، فزلة العالم هذه فيها خطورة جداً على الناس ، لأن الناس يأخذون عن علمائهم يأخذون عن فقهاءهم ، فإذا زل العالم سيتبعه في زلله خلق ، قال ((زلة العالم)) ؛ هذا يبين لنا خطورة الكلمة كما تقدم وأن العالم والداعية ينبغي أن ينتبه لكلامه وأن يزنه وأن يجتهد في ضبطه بضابط الكتاب والسنة ؛ حتى لا يزل في شيء يتبعه فيه خلق ويكون سبب فساد وشر في الناس . قال ((زلة العالم)) هذا الأمر الأول مما يسبب هدم الإسلام .

الأمر الثاني: ((وجدال المنافق بالكتاب)) وهذا أيضاً جانب آخر من أخطر ما يكون في نقض الإسلام ؛ أن يأتي المنافق الذي لا دين عنده ويجادل بالكتاب ، يحفظ المنافق آيات من القرآن ويضبطها ويعرف مواضعها ويبدأ يجادل الناس بالكتاب بغرض الإفساد، شأن أهل الزيف قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧٠] فالمنافق الذي يأتي ويحفظ آيات من المتشابه ويبدأ يجادل الناس بالكتاب ماذا سيكون من فسادٍ على إثر تصدي هذا المنافق؟ بل بلغنا أن بعض من يسمون بالمبشرين من المنصّرين الذين يكون لهم غرض في

البلاد الإسلامية أن يفسدوا عليهم أديانهم ، بعضهم يتعمد أن يحفظ القرآن أو يحفظ أشياء كثيرة من القرآن ومراده بذلك أنه إذا جلس مع المسلمين أن يشككهم في أديانهم ، يجلس مع العوام ومع الجهال ومن لا فقه لهم فيبدأ يعرض عليهم آيات من المتشابه ويلبس عليهم دينهم ويشككهم في دينهم ويشككهم في كلام ربهم تبارك وتعالى .

قال : ((وجدال المنافق بالكتاب)) المنافق صاحب هوى وصاحب باطل ، فيجادل بالكتاب أي يأتي بآيات ويلبس على الناس ويشبه عليهم فيها بحيث يقصد من ذلك أن يغرس فيهم بعض المفاهيم الباطلة أو يشككهم في بعض الحقائق الصحيحة الثابتة في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، يتبعون المتشابه ويتركون المحكم البين؛ فهذا فيه خطورة جدًا بالغة على الناس ، قال ((جدال المنافق بالكتاب)) .

الأمر الثالث قال : ((وحكم الأئمة المضلين)) عندما يتولى أو تكون الولاية والسلطان بيد أئمة ضلال ودعاة بدعة فهذا أيضا فيه خطورة جدًا على الناس ، لأن السلطان والوالي إذا كان يحمل بدعة وضلالا وباطلا سيحمل الناس عليه طوعًا أو كرهًا وسيؤذيهم ويتسلط عليهم وينشر باطله وبدعه فيهم إما بالقوة أو بالعرض الواسع باستغلال سلطته وولايته على الناس في نشر ما عنده من ضلال وباطل .

فهذه ثلاثة أمور ذكرها عمر رضي الله عنه تتسبب في انتقاض عرى الدين: زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين .

قال رحمه الله تعالى :

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : «كلُّ عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً ، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذه النصيحة العظيمة من حذيفة بن اليمان رضي الله عنه للقراء ، والقراء في موضع قدوة للناس ، القراء الذين حفظوا القرآن وأجادوا قراءته وأحسنوا قراءته موضع قدوة للناس ؛ فنصحهم رضي الله عنه هذه النصيحة العظيمة قال : ((كلُّ عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها)) وهذا ضابط عظيم جدًا في باب العبادة وفقه العبادة ؛ كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها لماذا ؟ لأن ما لم يكن دينًا زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يكون دينًا إلى قيام الساعة . الدين هو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام هذا هو الدين ، وكل ما جاء بعده من محدثات الأمور ليست من الدين ، لو كانت من الدين لسبقنا إليه الصحابة رضي الله عنهم ، هم أحرص منا

على الدين ، وأكثر منا اجتهدًا عليه وحرصا عليه ، فلو كان خيرا لسبقونا إليه ، وهذا معنى قول حذيفة رضي الله عنه ((فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً)) ، قال عليه الصلاة والسلام : ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) ، الخيرية بأعمال الخير والبر والصلاح اجتمعت في الصحابة ، ((ولا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه ، وفي كل عام تزدلون)) ، أيمن أن تكون هناك جوانب من العبادة في قرون متأخرة لم تكن موجودة في زمن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخيار الصحابة وأفاضل الصحابة؟ حاشا والله .

فهذه قاعدة في الباب ، وليت كل مسلم يحفظ هذه القاعدة ، هذا الكلام الذي قاله حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يحفظها المسلم ينفعه الله بها نفعًا عظيمًا «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» ، يطالب من يدعو إلى عبادة معينة أن يأتي بالدليل أنها موجودة في زمن الصحابة ، لو جاءك إنسان وأرشدك إلى عبادة أو نوع من الذكر قال لك : في الصباح تقول يا لطيف مثلاً ألف مرة وليكن معك سبحة فيها ألف خرزة ، وقال لك هذا شيء جيد ومشايخنا جربوا وأنا رأيت في المنام كذا وجاني هاتف في المنام وقال لي كذا ، وأعطاك من هذه الأمور تقبل أو ترجع إلى هذه القاعدة «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» ؟ وإن وسّع عليك في مثل هذه الأمور لا تلتفت لها ، لو قال لك أنا رأيت في المنام ، بعضهم يدجل على الناس ويقول "جاءني النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال هذا شيء جيد وهذا شيء عظيم وانشره في الناس" ، أو يقول جاءني هاتف في المنام هتف بي أو يقول جربت وجرب أشياخي أو غير ذلك من الأمور ، هل هذه موازين توزن بها الشريعة وتُعرف بها الشريعة؟ نرجع دائما إلى هذه القاعدة العظيمة ، يقول حذيفة رضي الله عنه : «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» . قل لهذا الرجل الذي دعاك إلى هذا الذكر أو لغيره من الأعمال وبناءه على التجربة أو بناءه على المنامات أو بناءه على الهواتف أو على أي أمر آخر إذا انتهى قل له : هل الصحابة رضي الله عنهم فعلوا هذا الشيء الذي تدعوني إليه أو لا ؟ إذا قال لك نعم فعله الصحابة ماذا تقول له ؟ عطني الدليل ، هذه كتب السنة موجودة ومحفوظة ومنشورة أعطني الدليل منها أن الصحابة فعلوا ذلك؟ أنا مثلت بالذكر بـ«يا لطيف» مرات لأنه منتشر في بعض المناطق بين كثير من العوام يأتون به ولا أصل له في دين الله ولا وجود له في ذكر الصحابة ، هذه أشياء أحدثت في الناس فيما بعد ، نرجع للقاعدة «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها» ، بعض العوام يأتي ومعه ورقة كتبها له بعض الأسيخ بالأرقام؛ يا لطيف ألف مرة ، يا حي مئتين مرة يا كذا ، ويجلس الصباح الباكر يشغل بأمور ليست مشروعة ، والأمور المشروعة لو تسأله عنها التي تقال في الصباح ما يعرف منها شيء . وهذا مما يبين لنا قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) الذين يدعون الناس إلى محدثات ولا يدلونهم على السنن الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا أقول مرة ثانية وثالثة لیتنا جميعا نحفظ هذا ونحافظ عليه وننشره في الناس ، كلمة حذيفة عظيمة جدا «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها» من لم يسعه ما وسع الصحابة لا وسع الله عليه ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] الكتاب فيه كفاية ، السنة فيها كفاية ، الأمر الذي مضى عليه الصحابة رضي الله عنهم فيه كفاية .

قال رضي الله عنه ((فاتقوا الله يا معشر القراء)) وتقوى الله عز وجل إذا وجدت حقا في العبد صلحت حاله وزانت أموره .

((وخذوا طريق من كان قبلكم)) أي طريق الصحابة ، ولهذا يقول العلماء : من كان على الأثر كان على الطريق، من كان على الأثر أي من كان في عباداته وأعماله وادكاره وطاعاته على الأثر أي على أثر الصحابة فهو على الطريق أي على الطريق الصحيح الذي يوصل إلى الجنة ، لأن الطرق إلى الجنة مسدودة إلا من الطريق الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام . قال في الحديث الذي مر قريبا: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)) قالوا من هم؟ قال ((من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)) فهذه وصية عظيمة من حذيفة ونصيحة بليغة جدا ينبغي على كل مسلم أن يحافظ عليها وأن يحفظها وأن تُنشر في الناس ، كلمة عظيمة وجميلة ينبغي أن تنشر في الناس «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تعبدها» .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «من كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة : أبرّها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» رواه رزين .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر العظيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ((من كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات)) يعني من كان متأسياً ومقتدياً ويريد أحداً يقتدي به ويستن بطريقته ويلزم هديه ، ((من كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة)) بأن تلبسه فتنة فيضل في الدين أو في جوانب منه .

((أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم)) يشير بقوله «أولئك» أي من قد مات ، من كان مستنًا فليستن بمن قد مات أعني أصحاب محمد . قوله «أولئك أصحاب محمد» أي أعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم استنوا بما كانوا عليه واقتدوا بما كانوا عليه . ثم ذكر جملة طيبة من صفاتهم .

قال: ((كانوا أفضل هذه الأمة)) والنبي عليه الصلاة والسلام شهد لهم بذلك، ورب العالمين شهد لهم بذلك في كتابه العزيز قال جل وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] فذكر لهم جل وعلا هذا الثناء العظيم؛ السبق بالخير والفضيلة وأثنى على من اتبعهم بإحسان قوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يفيد أن الخيرية في الناس بعد الصحابة بحسب اتباع الصحابة رضي الله عنهم بإحسان ، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] ، فرغب جل وعلا ورهب في هذا الباب .

قال: ((كانوا أفضل هذه الأمة)) ومر معنا أيضا قريبا قوله عليه الصلاة والسلام ((خير الناس قرني)) . ((أبرها قلوبا)) قلوبهم صافية نقية ؛ فيها البر ، فيها الصدق ، فيها الإخلاص ، فيها المحبة الصادقة لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

((وأعمقها علما)) كان عندهم علم عميق وفهم واسع وعظيم لدين الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم . ((وأقلها تكلفا)) الصحابة لم يكونوا من أهل التكلف ، ولهذا قال من قال من أهل العلم : «كلام السلف قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة» ، وإذا أردت شاهد ذلك اقرأ كلمة حذيفة التي مرت معك قريبا قال «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعبدوها» ، كلمة واحدة تغنيك عن مجلدات لو وفقك الله عز وجل لفقه هذه الكلمة كلمة واحدة تغنيك عن مجلدات في هذا الباب العظيم ، لأنها جمعت وأصلت وقعدت تقعيدا عظيما وتأصيلا مباركا في هذا الباب .

قال: ((اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه)) وانظر هذه الصفة العظيمة ، اختارهم الله عز وجل أي اصطفاهم جل وعلا لصحبة نبيه ؛ أي ليفوزوا بشرف الصحبة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا خصوا دون سواهم ممن جاء بعدهم بهذا اللقب الشريف المبارك «الصحابة» . والمسلمون عندما يسمعون هذا اللقب لإنسان ما يعرفون قيمة الرجل ، لما يقال لهم "الصحابي أبو بكر" ، "الصحابي عمر" ، "الصحابي عثمان" ، "الصحابي أبو هريرة" هذا اللقب العظيم الشريف الذي فاز به الصحابة وأكرم به الصحابة وخص به الصحابة له وقع عظيم في نفوس الأمة . دعك من أهل الضلال وأهل الأهواء الذين أشربوا الفتن وولغت ألسنتهم الفاسدة في الصحابة طعنا وسبًا وشتما ونيلًا منهم دعك من هؤلاء ، الكلام على أهل الإسلام وأهل السنة وأهل الفهم الصحيح .

«الصحابة» هذه الكلمة لها وزنها ولها قيمتها لها مكانتها في نفوسهم ، أثنى الله عليهم في القرآن وأثنى عليهم النبي عليه الصلاة والسلام في السنة ، بل أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في التوراة وفي الإنجيل قبل أن يوجدوا على وجه الأرض وقبل أن تمشي أقدامهم على وجه الأرض أثنى الله عليهم في التوراة وفي الإنجيل ، وقرأ ذلك في آخر آية من سورة الفتح ، قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي الصحابة ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ ، الله عز وجل أثنى عليهم هذا الثناء العاطر في التوراة ، قال : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ هذا ثناء آخر عليهم في الإنجيل . فرب العالمين أثنى على الصحابة في التوراة وأثنى على الصحابة في الإنجيل قبل أن تمشي أقدامهم على الأرض وقبل أن يوجدوا ، وأثنى عليهم بعد وجودهم وفي أثناء وجودهم في القرآن الكريم في آيات كثيرة في القرآن الكريم فيها الثناء على الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال : ((اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه)) وانظر إلى مآثرهم المحيطة والخير العظيم الذي كتبه الله على أيدي الصحابة في نشر الدين في أصقاع الدنيا ، ضحوا بالنفس والنفيس في سبيل نشر دين الله تبارك وتعالى .
قال : ((فاعرفوا لهم فضلهم)) وهذه وصية ونصيحة من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، اعرفوا لهم فضلهم ، ومن أسف أن بعض الناس لا يعرفون فضل الصحابة ولا يعرفون فضل الصحابة ولا مكانة الصحابة .
قال ((فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم)) أي كونوا على أثر الصحابة وطريقة الصحابة .
((وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم)) جاهدوا أنفسكم على التمسك بأخلاق الصحابة وسيرهم ، قال بعض أهل العلم كلمة جميلة في هذا الباب : «من كان بهم أشبه كان ذاك فيه أكمل» كلما كنت أشبه بالصحابة كان ذاك فيك أكمل في الدين ، كلما وفقك الله وأكرمك بالتشبه بالصحابة وأن تكون متشبه بالصحابة سائرا على نهج الصحابة فذلك أكمل في دينك ، وكلما فرطت في التشبه بالصحابة الكرام رضي الله عنهم كان ذلك أنقص في دينك .

قال : ((وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم)) فإنهم كانوا أي الصحابة على الهدى المستقيم .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمًا يَتَدَارَعُونَ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ : ((إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ؛ ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بَبَعْضٍ ، وَإِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَلَا تَكْذِبُوا بَعْضُهُ بَبَعْضٍ ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكَلِمَةُ إِلَى عَالِمِهِ)) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَه .

ثم ختم رحمه الله تعالى بهذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أنه سمع قوماً يتدارعون بالقرآن)) أي يتجادلون ويتمارون بالقرآن فقال : ((إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا)) .

قال : ((ضربوا كتاب الله بعضه ببعض)) أخذوا يعارضون بين النصوص ويصادمون بين الأدلة ويثيرون الشبهات .
 ((وَإِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا)) ولهذا وصف الله عز وجل القرآن بأنه متشابهاً قال ﴿كَتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] أي يصدق بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً ولا يعارض بعضه بعضاً ، أيضاً قال الله تبارك وتعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] .

قال : ((وَإِنَّمَا نُزِّلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَلَا تَكْذِبُوا بَعْضُهُ بَبَعْضٍ)) لا تكذبوا بعضه أي بعض القرآن ببعض ؛ وهذا يحدث تكذيب بعض القرآن ببعض عندما يصادم الإنسان النصوص ويعارض بينها؛ فيصل من خلال ذلك إلى التكذيب ببعض الآيات ، مثل ما حصل من بعض الناس الذين كذبوا ببعض صفات الله الثابتة في كتاب الله جل وعلا والثابتة في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم زعموا منهم وإدعاء كاذباً أن هناك آيات تعارض ثبوت هذه الصفات لله ، والآيات التي ادَّعوا أنها تعارض ثبوت الصفات لله أساءوا في فهمها كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ونحوها من الآيات . فهنا يُحذَّر من ذلك يقول : ((فلا تكذبوا بعضه ببعض)) أي لا تكذب بعض آيات القرآن ببعض آخر من القرآن لأن القرآن يصدق بعضه بعضاً ، وإذا وجد عندك تعارض فالتعارض لا يرجع إلى القرآن نفسه وإنما يرجع إلى فهمك أنت ، القرآن ليس فيه تعارض ، القرآن متشابه يؤيد بعضه بعضاً ، يصدق بعضه بعضاً ليس فيه تعارض وليس فيه اضطراب ، فإذا وجد تعارض فهذا راجع إلى فهمك ؛ فما هو الحل إذا وجد تعارض؛ هل والعياذ بالله يكذب الإنسان بعض القرآن ببعض ؟

قال مبيناً الحل والمخرج في مثل هذا : قال ((فما علمتم منه فقولوا ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه))؛ لا يقحم الإنسان نفسه فيما ليس له به علم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

وبهذا الحديث ختم المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة العظيمة «بابٌ تحريضه صلى الله عليه وسلم على لزوم السنة والترغيب في ذلك وترك البدع والتفرق والاختلاف والتحذير من ذلك» ، وجمع فيها جملة من النصوص الطيبة في هذا الباب من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثالث والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين :

باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب

فيه حديث الصحيحين في فتنه القبر ((إن المنعم يقول : جاءنا بالبينات والهدى فآمنّا به وأجبنا واتبعنا ، وأن المعذب يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته)) .

قال رحمه الله تعالى : ((بابُ التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب)) التحريض عرفنا معناه سابقاً وأن المراد به : الحث والترغيب ، والنبي صلى الله عليه وسلم جاء عنه أحاديث كثيرة جداً في التحريض على طلب العلم والحث عليه وبيان فضائله وثماره وآثاره وعوائده الحميدة على طالب العلم في دنياه وأخراه ، وسيأتي طائفة طيبة من الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب . فهذه الترجمة عقدها رحمه الله لبيان فضل طلب العلم الشرعي ومكانته العالية وثماره الطيبة على طالب العلم في الدنيا والآخرة ، وأيضاً يبين من خلال هذه الترجمة كيفية الطلب وشيئاً من الوسائل التي ينبغي أن يسلكها طالب العلم في طلبه للعلم وسعيه لتحصيله .

وأورد رحمه الله تعالى جملة من الأحاديث في هذا الباب بدأها بالإشارة إلى الحديث الذي في الصحيحين والذي فيه ذكرُ لنعيم القبر وعذابه وذكرُ لفتنة القبر ، ((وَأَنَّ الْمُنْعَمَ)) أي الذي يكون من أهل النعيم في القبر يقول عندما يأتيه الملكان ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ((يقول : جاءنا بالبينات والهدى فآمنّا وأجبنا واتبعنا)) وهذا فيه بيان حال المسلم الذي طلب العلم الشرعي من أبوابه الصحيحة وعمل به وأقرّ وآمن بما جاء به الرسول

عليه الصلاة والسلام وصدّق بذلك واتبع النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، ولهذا قال: ((جاءنا بالبينات والهدى)) ؛ جاءنا بالبينات أي جاءنا بالحجج الواضحات والدلائل الظاهرات ، وجاءنا بالهدى أي بدين الله تبارك وتعالى الذي خلق الخلق لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، قد قال الله عز وجل في بيان ما يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فهو عليه الصلاة والسلام جاء بالهدى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨] فهو عليه الصلاة والسلام جاء بالبينات أي الدلائل الواضحات والحجج البينات ، وجاء بالهدى جاء بالدين الحق الصحيح الذي بعثه به رب العالمين تبارك وتعالى . وهذه الكلمات التي يقولها المنعم «جاءنا بالبينات والهدى فأمنّا وأجبنا واتبعنا» هذا لو تأملنا يبين لنا حال طالب العلم الناصح في الطلب ، وما هي الخطوات التي يسير عليها ويسلكها حتى يكون من الفائزين في هذا الامتحان عندما يأتي الملكان إليه في قبره ويجلسانه ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيكون في حياته الدنيا تعلّم وعرف الدين عرف الإسلام ، عرف النبي عليه الصلاة والسلام ، عرف حق الله عز وجل ، عرف البينات ، عرف الهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل هذا لا يأتي إلا بالطلب ؛ بطلب العلم والبحث عنه والسؤال عنه وإعطائه جزء من حياة الإنسان ووقته في تحصيل العلم ونيله .

فهذه أمور لا بد فيها من الطلب ، لا بد فيها من الجلوس بالتعلم والتفقه في دين الله جل وعلا ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إنما العلم بالتعلم)) أي أنه لا بد من بذل وقت وبذل جهد وسعي وجدّ واجتهاد كي ينال الإنسان العلم ويحصل شيئاً منه ، لا أن يبقى في بيته وفي داره وعلى فراشه وينتظر أن يأتيه العلم في فراشه وفي مكانه دون أن يذهب للبحث عنه ولطلبه ، ولهذا سيأتي معنا عند المصنف قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) لا بد من سلوك طريق طلب العلم وتحصيله ولا بد من الصبر على ذلك .

فإذا هنا قوله «جاءنا بالبينات والهدى» لو تتأمل من الذي يقول هذه الكلمة؟ إلا الذي عرف البينات وعرف الهدى وعرف الحق وعرف ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكل هذه المعرفة لا تكون إلا بطلب العلم ، لا تكون إلا بالجلوس للتعلم والتفقه في دين الله عز وجل ومعرفة ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه ؛ وبهذا يظهر لك وجه إيراد المصنف رحمه الله لهذا الحديث في هذه الترجمة بل بدؤه ؛ منبهًا هذا التنبيه العظيم إلى أن طلبك للعلم في حياتك الدنيا له ثمرة عظيمة عليك في الحياة نفسها وبعد الممات ، عندما تُدرج في قبرك ويهال عليك التراب وتنقطع من هذه الحياة الدنيا ويأتيك ملكان ويجلسانك في قبرك ويسألانك هنا تأتي قيمة العلم الشرعي .

وهنا ليس الحديث عن العلم الذي هو فرض كفائي ، وإنما الكلام على العلم الذي هو فرض عين مطلوب من كل مسلم وواجب على كل مسلم وهو فريضة على كل مسلم ؛ واجبات الدين وفرائض الإسلام ما لا يسع أي أحد

من المكلفين جهله ، فهذه أمور يجب أن يغتنم الإنسان وجوده في هذه الحياة الدنيا في أن يحصّله وأن يتعلمه وأن يعرفه لأنه سيُسأل عنه في قبره ؛ فتأتي هناك ثمرة طلب العلم الشرعي وثمره العناية به والاهتمام .

قال: ((فيقول جاءنا بالبينات والهدى فآمنا وأجبنا واتبعنا)) في هذا الحديث دلالة ظاهرة على البدء بالعلم قبل القول والعمل ، لأن المنعم يقول: «جاءنا بالبينات والهدى» هذا هو العلم ؛ معرفة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وتعلمه . قال : «فآمنا وأجبنا واتبعنا» وهذا هو الانقياد والامتثال والعمل . فأولا العلم ثم بعد ذلك الانقياد والامتثال والاتباع . وأيضا قال هنا «فآمنا» عطف بحرف الفاء التي تفيد التعقيب ، فآمنا يعني هذا يفيد أنهم ما أن سمعوا وعرفوا هذه البينات إلا وأقبلوا عليها دون تردد ودون تمّنّع ودون إيباء ، بل أقبلوا عليها مؤمنين غير شاكين ولا مرتابين ، وأيضا أقبلوا عليها عاملين غير مترددين ولا متشبطين ولا متقاعسين .

قال: ((فآمنا وأجبنا واتبعنا)) آمنا أي بالرسول عليه الصلاة والسلام وبما جاء به وبأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى وبما دعانا إلى الإيمان به آمنا بذلك كله ، وأجبنا : أي أجبنا له عليه الصلاة والسلام فيما دعانا إليه ، دعانا إلى الشهادة بالوحدانية الشهادة له بالرسالة ، دعانا إلى امتثال الأوامر اجتناب النواهي فكان شأننا معه هو الإجابة قد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] . قال: ((واتبعنا)) أي واتبعناه صلى الله عليه وسلم فيما يدعو إليه وفيما يأمر به .

وهذه الكلمات التي يقولها المنعم هي أصول السعادة الدنيوية والدنيوية ، أصول السعادة في الدنيا والآخرة اجتمعت في هذه الكلمات العظيمة ، وإذا وجدت هذه المعاني العظام في العبد ؛ معرفة ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من البينات والهدى ، مع الإيمان والإجابة والاتباع هذه أصول السعادة ، بل لا سعادة إلا بذلك ولا نعيم إلا بذلك ولا نجاة من عذاب الله وعقابه وسخطه سبحانه وتعالى إلا بذلك .

قال: ((وأن المعذّب -أجارنا الله إياكم- يقول : سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)) هل هذا عنده علم ؟ عنده فقه ؟ عنده فهم لدين الله ؟ أبداً ، وإنما يقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته أي وأنا لا أفهم ولا أعرف ولا أدري ولم أتعلم ولم أعط العلم شيئا من حياتي أو من وقتي أو اهتمامي ((سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)) ؛ ولهذا جاء في بعض الروايات أن الملك يقول له : ((لا تليت ولا دريت)) أي أنه لم يتعلم ولم يتفقه ولم يتلو ولم يقرأ ((لا دريت ولا تليت)) يعني لا حصل عندك التلاوة والقراءة والعمل الذي هو الاتباع ، ولا أيضا دريت ؛ فكل ذلك يبين لنا أثر العلم في نجاة الإنسان وسعادته في دنياه وأخراه .

قال رحمه الله تعالى :

وفيهما عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) وهذا أيضاً فيه مكانة العلم العالية الرفيعة ، وأن من مكانته العالية أن توفيق الله سبحانه وتعالى لعبده بأن يكون طالب علمٍ هذا من إرادة الخير به ، من إرادة الله تبارك وتعالى الخير بعبدته أن يفقهه في الدين: أي أن يوفقه سبحانه وتعالى إلى التفقه في الدين .

وقوله في الحديث ((يفقهه)) أي الله عز وجل ((يفقهه في الدين)) فيه أن التوفيق لطلب العلم وتحصيله وفهمه ومعرفة مسأله وضبطها كل ذلك منة الله على عبده ، فهو الموفق وهو المعين ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ، لأن زيادة العلم وحصول العلم كل ذلك منة الله جل وعلا على عبده ، كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول كل يوم كما في حديث أم سلمة في السنن وغيرها ((كان كل يوم يقول بعد صلاة الصبح: اللهم إني أسألك علماً نافعا ورزقا طيباً وعملاً متقبلاً)) فالعلم وحصوله والزيادة منه كل ذلك منة الله جل وعلا على عبده وتوفيقه سبحانه وتعالى .

قال: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) أي يعينه ويشرح صدره ويسر له أبواب العلم ومجالس العلم والرغبة فيها والحرص عليها ، ويسر له حفظ العلم وضبطه ؛ فكل ذلك منة الله ، ومن إرادة الله سبحانه وتعالى الخير بالعبد أن تكون نفسه مقبلة على العلم رغبة فيه محبة له حريصة على مجالسه مغتبطة بكتب العلم ومسائل العلم ومجالسة أهل العلم ؛ فهذا كله من إرادة الله تبارك وتعالى الخير بعبدته . أما إذا كان الإنسان أجارنا الله منقبضة نفسه وكامشة ونافرة لا يرغب في مجالس العلم ولا يحب الجلوس فيها وإذا رآها انقبض ولا يرغب في قراءة العلم ولا يرغب في قراءة كتب العلم ويستوحش منها هذا ليس من إرادة الخير به ، ولهذا قال العلماء في شرح الحديث : مفهوم المخالفة لهذا الحديث أن من لم يفقه في الدين أن هذا من علامة عدم إرادة الخير به ، مما يدل على خطورة مضي الإنسان في الحياة غافلاً عن العلم معرضاً عنه غير مبالي به ، كيف يعرف الإنسان صلاته؟ كيف يعرف صيامه؟ كيف يعرف التوحيد الذي خلقه الله تبارك وتعالى لأجله؟ كيف يعرف المحرمات التي أمر باجتنابها والبعد عنها إلا بالعلم ، العلم هو الأساس الذي يضيء للإنسان طريقه ، والله جل وعلا سمى الوحي نورا ، لأن بالوحي يستضيء الإنسان له الطريق ويعرف الجادة ويستبين له السبيل . فسلوك طريق العلم والعناية به هذا من إرادة الله تبارك وتعالى الخير بعبدته ؛ أن يحب لقلبه العلم ومجالسة العلماء ومذاكرة مسائل العلم وأن يعطي العلم حظاً من وقته ، من الناس من يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة والأربع بل والسنة والستتان وهو لا يعطي العلم حظاً من وقته ، بل بعض الناس ليس له حظ من سماع العلم إلا في خطبة الجمعة ! وأيضاً يخرج من خطبة الجمعة وهو غافل عنها إذا قيل له ما هو موضوع الخطبة اليوم؟ لا يدري فضلاً عن مضامينها ، لا ينتبه ولا يهتم ، مع أن من نعم الله عز وجل العظيمة علينا هذه الخطبة الجامعة التي تتكرر على مسامع الناس كل جمعة يتفقهون في الدين

ويتعلمون ويوعظون ويذكرون ، وحضورها واجب وفريضة على كل مسلم . فالشاهد أن من الخير للعبد أن يوفق لطلب العلم .

وهنا إذا قرأت هذا الحديث تستفيد فائدتين أنت بحاجة إليهما :

❖ الفائدة الأولى: أن تقبل على الله تدعوه أن يوفقك ؛ لأنه هنا قال ((يفقهه)) فتقبل على الله أن يفقهك أن يوفقك لأن هذا أمرٌ بيد الله عز وجل ، ولا يمكن أن يناله أي إنسان إلا إذا يسره الله لك وشرح صدره له . فتخرج بهذه الفائدة ((يفقهه)) يا رب فقهي ، هذه فائدة عظيمة من الحديث النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((من يرد الله به خيرا يفقهه)) إذا الأمر بيد الله فنخرج بثمرة وهي سؤال الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في الدين نتوجه إليه وندعوه ويتكرر منا الطلب والسؤال ، وهو سبحانه وتعالى لا يرد عبدا دعاه ولا يخيب مؤمنا ناجاه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] . فإذا من الثمار العظيمة الجليلة الكبيرة المستفادة من هذا الحديث أن تقبل على الله إقبالا صادقا أن يفقهك في الدين وأن يشرح صدرك لمجالس العلم أن يعينك ، وأن تحافظ على الدعوة النبوية المباركة التي كان يدعو بها كل يوم بعد صلاة الصبح «اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا» ، وقد بدأ النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الدعوة بسؤال الله هذه الأمور الثلاث بدأ بالعلم قبل الرزق وقبل العمل ، وهذا فيه فائدة ألا وهي: أن العلم مقدم وبه يبدئ ، ولو لم يكن عند العبد علم كيف يميز بين رزق طيب وخبيث! وكيف يميز بين عمل صالح أو طالح! فالذي يدخل السوق بلا علم أو يدخل المسجد بلا علم كيف يميز بين صالح العمل وغير صالحه وبين طيب الرزق وغير طيبه!! لا بد من العلم ، العلم يحتاج إليه في المساجد وفي أماكن العبادة والطاعة ويحتاج إليه أيضا في طلب الرزق وأمور المعاش حتى يكون الإنسان في حياته وفي معاملاته وفي عباداته وفي أموره كلها على بصيرة، ولهذا بدأ به قال: «اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا» .

❖ الفائدة الثانية من حديث معاوية رضي الله عنه: أن تجاهد نفسك على طلب العلم وأن يكون لك حظ منه في أيامك ، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . ولننتبه أن الترجمة عند المصنف تتناول فضل العلم وتتناول كيفية طلب العلم ، وهذه الأحاديث التي يسوقها كما أن فيها تنبيها على الفضائل فإن فيها أيضا تنبيها على كيفية الطلب .

قال رحمه الله تعالى :

وفيهما عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث الذي ضرب فيه النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً بليغاً وعظيماً لما بعثه الله تبارك وتعالى به من الهدى والخير ، وأيضاً بياناً لحال الناس وواقعهم مع هذا الخير والهدى الذي بُعث به صلوات الله وسلامه عليه ؛ فضرب مثلاً بديعاً يبين هذه الحقيقة ويجلي هذا الأمر . ومن شأن الأمثال أنها تجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر المحسوس المشاهد؛ فتقرب المعاني وتتضح وتظهر وتنجلي . والقرآن والسنة فيهما أمثال كثيرة هذا الغرض منها .

فهنا ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً يبين من خلاله ما جاء به من الخير والهدى وواقع الناس مع هذا الخير ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام : ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير)) يعني كمثل المطر الغزير الكثير ؛ وهذا فيه أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الوحي والعلم والهدى مثل المطر ، وهناك مشابهة بين الوحي والغيث ؛ الوحي: سقياً للقلوب لا تحيا إلا به ، والغيث: سقياً للأرض والنبات لا تحيا إلا به ، ففيه مشابهة أن كلا من الغيثين الغيث الذي هو الوحي والغيث الذي هو المطر بهما الحياة ، الحياة لا تكون إلا بهما ، حياة الأرض والزروع والنبات لا تكون إلا بالمطر ، وحياة القلوب والأرواح لا تكون إلا بالوحي ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذا هو المثل ؛ هذا المثل الذي ذُكر هنا في هذا الحديث جاء في هذه الآية الكريمة . لما ذكر الله عز وجل الوحي ودعا عباده أن تخشع قلوبهم لسماعه حذر من أن تكون حالهم كحال أقوام طال عليهم الأمد أي بعد العهد عندهم عن الوحي والرسالات وما جاء به الرسل من الحق والخير والعلم والهدى فقست قلوبهم ، القلب عندما يبعد عن الوحي يقسو ثم يذبل ثم يموت ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَاحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي أحييناه بالوحي ، مر معنا الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] يحْيِيكُمْ: أي بالوحي ، تحيا القلوب بالوحي .

فلما ذكر من بُعد عهدهم بالوحي وطال أمدهم قال: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، القلب عندما يبعد عن الوحي يقسو ويذبل ويضعف إلى أن يموت ﴿وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . قال بعد ذلك ضارباً مثلاً عظيماً يبين لنا هذا الأمر ﴿اعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا فيه آية وفيه أيضاً مثل وعظة وعبرة؛ كما أنه تبارك وتعالى يحيي الأرض الهامدة الميتة بعد موتها إذا أنزل عليها الغيث بالمطر فكذلك القلوب الميتة إذا جاءها الوحي والهدى والبيّنات دبّت فيها الحياة حصلت لها الحياة ، بدون الوحي تكون القلوب ميتة ولا تحيا إلا به .

ولهذا ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً للوحي الذي بعث به جعل مثل ذلك الغيث الذي تحيا به الزروع والنبات ؛ وهذا فيه دعوة للتفكير . أنت عندما ترى أرضاً يابسة ثم تراها بعد حين وقد نزل المطر فخرجت الزروع البهيجة والنباتات المتنوعة والزهور الجميلة والرائحة الطيبة أصبحت تُبهِج قلبك عندما تراها بعد أن كانت يابسة ؛ هذا مثل لك تعرف من خلاله قيمة العلم والوحي ، كما أن هذه الأرض حصلت لها هذه الحياة بالمطر الذي أنزله الله عليها فكذلك القلوب لا تحصل لها حياتها إلا بالوحي ، ولأجل هذا الشبه بين الوحي والغيث وبين الأرض والنبات عدد من أهل العلم سمو مصنفاتهم التي ألفوها في العلم بأسماء تفيد هذا المعنى : «بستان العارفين» ، «الروض المربع» ، «الرياض الناضرة» ، «حدائق الأزهار» ، أشياء كثيرة تجدها من كتب أهل العلم مؤلفة بهذه الأسماء لماذا؟ لأن العلم بستان ، العلم حديقة ، العلم روضة مباركة ، وكلما كان حظ الإنسان من العلم أكبر ونصيبه منه أوفر زاد حجم حديقته وزاد أيضاً حجم ثمارها وآثارها . الله عز وجل قال في القرآن الكريم ﴿الْم تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] ؛ فهذه أمثال عظيمة جليلة مباركة تبين لنا هذا الأمر وتجليه ، ونبينا عليه الصلاة والسلام عندما ضرب لنا هذا المثل العظيم ضربه لنعرف من خلاله ونستظهر من خلاله هذه الحقيقة في مكانة العلم العالية الرفيعة وأيضاً ميسس حاجة القلوب إلى العلم وتحصيله .

قال: ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير)) الغيث الكثير يختلف عن الغيث القليل من جهة أنه يغطي جميع الحاجات ؛ الأرض تروى والماشية تروى والزروع أيضاً تأخذ نصيبها وكلّ يأخذ حظه ونصيبه عندما يكون الغيث كثيراً ، أما إذا كان الغيث قليلاً فتفتوت كثير من الحاجات ؛ وهذا فيه تنبيه إلى أن الوحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم غطى جميع الجوانب وأتى على جميع الحاجات والمصالح ، فليس هناك مصلحة من المصالح ولا حاجة من الحاجيات إلا وقد عمّه هذا الغيث الذي هو الوحي الذي جاء به الرسول عليه

الصلاة والسلام . فقولهُ «الكثير» فيه تنبيه على كمال الدين وشموله لجميع جوانب الحياة وجميع ما يحتاجه الإنسان في عبادته لله وتقريبه إليه سبحانه وتعالى .

ثم بيّن بعد ذلك حال الناس مع هذا الوحي قال: ((أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة))؛ أصاب أرضاً: أي أصاب أنواعاً من الأراضي أو عددًا من الأراضي .

((أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكأ والعشب الكثير)) هذا قسم ؛ قسمٌ من الأراضي قبل الماء يشرب من الماء ويرتوي من الماء ، ولهذا أيضا تظهر الثمرة ثمرة قبول الماء والارتواء منه وهو أنها أنبت العشب الكثير أرض طيبة . ولعل هذا يذكرنا بالسلام الذي نقله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع محمد عليه الصلاة والسلام عندما لقيه صلى الله عليه وسلم عندما عُرج به إلى السماء ، قال إبراهيم الخليل لنبينا صلى الله عليه وسلم : ((أبلغ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة قيعان ، وأنها عذبة الماء طيبة التربة ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)) ، فالأرض الطيبة تقبل الماء وقبولها للماء ينشأ عنه نبات العشب وتنوع الثمر وتعدد الخيرات والبركات . فهذا القسم الأول .

قال ((فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكأ والعشب الكثير)) ؛ لاحظ أيضا أمر مرتبط بآخر وهو أن نبات العشب الكثير متوقف على قبول الماء ؛ وهذا أيضا تستفيد منه فائدة: أن حصول الهدى والخير الكثير للبعد متوقف على حصول العلم وقبوله ؛ أن يقبل العلم وأن يأخذ حظه منه ونصيبه ، كما أن النبات الكثير والخير الكثير الذي يحصل للأراضي منبني على قبول الماء فكذلك حصول الهدى والخير متوقف على حصول العلم ، العلم بالوحي الذي هو حياة القلوب، قال: ((قبلت الماء فأنبت الكأ والعشب الكثير)) .

((وكانت منها أجادب)) أي أراضي جدباء الأرض الجدباء لا تُنبِت لكنها تمسك الماء ، ((وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا)) أمسكت الماء أي حفظته لكنها أرض جدباء لا تستفيد هي من الماء ولا تنتفع به ؛ وهذا حال من يحفظ العلم وينقله ولا يكون له حظ منه ، فيستفيد منه غيره ولا يستفيد هو منه ، ولهذا أحد التابعين كان يقول في دعائه : «اللهم لا تجعل غيري أسعد مني بما علمتني ، ولا تجعلني لغيري عبرة» ، متى يكون غيرك أسعد منك بما علمك الله؟ إذا كان أخذ العلم الذي بيّنته له ووضحته له مأخذ الجد والاهتمام والعمل وأنت لم تأخذه مأخذ الجد والاهتمام والعمل ؛ فيكون غيرك أسعد بالعلم الذي معك منك ، فيعرفون أمورًا ويتعلمون أمورًا يعملون بها وينتفعون بها ويسعدون بها ويكون الذي علّمهم وبيّن لهم حارمًا نفسه من هذا الخير ، والأرض عندما تكون أرض جدباء تمسك الماء تأتي الماشية وتشرب ويأتي الناس ويروون منها ويأخذون منها لمزارعهم ويستفيد الناس ، لكن الأرض بنفسها وبذاتها التي عليها هذا الماء لا تستفيد منه شيئا ، ولهذا ينتهي الماء ولا ترى في الأرض الجدباء نباتة واحدة خضراء! لأنها أرض جدباء لا تنبت .

قال: ((وأصاب منها طائفة أخرى)) أي طائفة من الأراضي أخرى ((إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً)) الماء لا تحفظه ولا أيضا ينبت فيها نباتاً ((لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً)) ثم وضع النبي عليه الصلاة والسلام مدلول هذا المثل قال : ((فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به)) الذي يفقه الدين وينتفع بما بعث الله سبحانه وتعالى به ؛ هذا مثله مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء وأنبت الكلاً والعشب الكثير .

قال: ((ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)) سواء فرط في بيان مقصود العلم ، يقول علي رضي الله عنه : «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل» ، مقصود العلم العمل ، أو فرط في العلم والعمل معا .

فهذا مثال عظيم مبارك ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأمته مبينا من خلاله حقيقة الوحي الذي بعثه الله تبارك وتعالى به ، وأيضا بين من خلاله واقع الناس مع هذا الوحي من حيث القبول والرد .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)) .

ثم ذكر رحمه الله هذا الحديث حديث عائشة وكان مر معنا سابقا عندما أورد المصنف رحمه الله تعالى قول الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فقال عليه الصلاة والسلام : ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه)) أي ما تشابه من أي الكتاب ((فأولئك الذين سمي الله)) أي سماهم الزائعين ووصفهم بالزيع ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ، ((فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)) أي احذروا من مجالستهم واحذروا من سماع كلامهم واحذروا من أحاديثهم لأنهم يضررون بمن يجالسونه ؛ حيث يوقعون في الشبهات ، ويدخلونه في الشكوك ، ويلبسون عليهم أمور ويلبسون عليه الحقائق ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((فاحذروهم)) : احذروهم من حيث المجالسة ، من حيث سماع الحديث الذي يقولونه، من حيث قراءة الكتب التي يكتبونها ، كل ذلك يُحذر إذا كان حال الإنسان اتباع المتشابه من أي القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

أما الراسخين في العلم فشأنهم في هذا الباب آخر ؛ قال الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] المحكم والمتشابه كله من عند الله ولا نضرب كتاب الله ببعضه ببعض ، وإذا اشتبه علينا آية من القرآن أو

آيات من القرآن أعدناها للمحكم وأرجعناها إليه ، ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الآيات المحكمات بأنها أم الكتاب ، وأم الشيء أصله الذي إليه يرجع ، فالآيات المحكمات هي أم الكتاب أي هي الأصل الذي يُرجع إليه إذا اشتبه عليك شيء من الآيات تعيده إلى الآيات المحكمات فينجلي الأمر ، أما أهل الزيف فإنهم يتبعون المتشابه من آي القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

فيكون هذا الحديث ساقه المصنف هنا ليبين من خلاله جانب يتعلق بطلب العلم ، وأن العلم لا يؤخذ عن كل أحد ، من يريد أن يحصل علما شرعيا صحيحا يلقي الله عز وجل به ويسعد فيه في دنياه وآخره لا يذهب إلى الزائغين الذين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم علامتهم هنا ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)) فلا يؤخذ العلم عن كل متكلم ، وإنما يؤخذ عن أهل العلم الذين بنوا علمهم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، يؤخذ عن أهل البصيرة في دين الله تبارك وتعالى ، لا أن يؤخذ عن كل متكلم .

ولما أصبح الناس يأخذون العلم عن كل متكلم دخلوا في متاهات ودخلوا في شكوك وفي شبهات والتبست عليهم الأمور ومرضت القلوب بالوساوس والأسقام ، ولا سيما في زماننا هذا؛ الزمن الذي كثرت فيه وسائل الاتصال ووسائل النشر والفضائيات والقنوات والشبكة العنكبوتية الانترنت ، الوسائل كثرت وأصبح كثير من الناس لا يبالي عمن أخذ ويسمع لكل متكلم ! هذا من أسباب مرض القلوب ، عبد الله بن المبارك رحمه الله من علماء التابعين دخل عليه رجل من أهل البدع وقال أريد أن أقرأ عليك آية من كتاب الله قال: «أخرجوه عني» ف قيل له لماذا ؟ قال : «خشيت أن يطرح في قلبي شبهة فتجلجل في صدري حتى أموت» يعني تتردد في قلبي إلى أن أموت ، الشبه تضر الإنسان مضرة بليغة جدا . ولهذا يحتاج طالب العلم في طلبه للعلم أن يبحث عن العلماء الأمناء الناصحين الذين لهم فقه وبصيرة في دين الله ويلزمهم ويتلقى عليهم ويأخذ عنهم ، وإذا رأى الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهؤلاء يحذرهم لتحذير النبي صلى الله عليه وسلم منهم . فهذا الحديث يتعلق بكيفية الطلب .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى تحت «باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب» وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمة حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) رواه مسلم .

أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم في باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب ، وهذا الحديث من الأحاديث العظيمة التي تبين النهج السوي والطريق المبارك والجادة المستقيمة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم؛ وهي تلك الطريقة التي كان عليها الحواريون والأصحاب من صفوة أتباع الأنبياء وخلاصتهم ، قد ذكر صلوات الله وسلامه عليه هؤلاء الصفوة من أتباع الأنبياء مبيناً عليه الصلاة والسلام منهجهم المبارك ومسلكتهم القويم حثاً للأمة وترغيباً لها وتحريضاً لها ليأتسوا بأولئك الأخيار ويقتدوا بتلك الصفوة الأبرار من الحواريين والأصحاب حواريين الأنبياء وأصحابهم ، والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر للناس ذلك حتى يعرفوا حال هؤلاء الأخيار وحليتهم وصفتهم ومسلكتهم ليقتدوا بهم في ذلك .

قال عليه الصلاة والسلام : ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمة حواريون وأصحاب)) قيل الحواريون: هم صفوة وخلاصة أصحاب الأنبياء ومقدموهم وخيارهم ، وهم أفضل أنصار الأنبياء وأفضل أتباعهم ولهذا قَدَّمهم عليه الصلاة والسلام . «وأصحاب»: أي صحبوا الأنبياء على الموافقة والاتباع والنصرة . فما من نبي بعثه الله إلا كان له من أمة حواريون وأصحاب ما هو نعمتهم ؟ وما هي صفتهم ؟ وما حليتهم ؟

قال عليه الصلاة والسلام مبيناً ذلك: ((يأخذون بسنته ويقتدون بأمره)) هذه صفة الحواريين والأصحاب الأخذ بسنة نبيهم واتباع أمره ، وكما قدمت ذكر ذلك لنا النبي صلى الله عليه وسلم لنتهدي هؤلاء الصفوة وليكونوا لنا قدوة ، فحالمهم خير حال ومسلكتهم أفضل مسلك ، وواجب على كل مسلم أن يجاهد نفسه على أن يكون على هذه الصفة العظيمة ، ولخصها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه في أمرين: قال ((يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره)) ؛ هذه خلاصة حال هؤلاء وخلاصة أمر هؤلاء في هذين الأمرين: يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره .

((يأخذون بسنته)): أي يتمسكون بها ويعولون عليها ويتحاكون إليها ويجعلون سنته هي مصدرهم وإمامهم ، لا يجعلون مصدرهم في التلقي الأهواء واتباع الظنون والأخذ بالمنامات وبناء الأحكام على القصص والحكايات أو بناء الأحكام على العقول المجردة والآراء ونحو ذلك ، بل شأنهم في التلقي الأخذ عن سنة نبيهم ؛ يحكمونا ويرجعون إليه ويعولون على ما جاء به وما كان من تنازع أعادوه إلى ما جاء عنه ، فهذا شأنهم «يأخذون بسنته» ، وهذا فيه بيان لصلاح علمهم ، فهم في العلم حالهم أحسن حال ، علومهم من علوم الأنبياء ، فقههم مأخوذ عن الأنبياء ، فهم ورثة الأنبياء ((فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) ، فهؤلاء في العلم أخذوا علوم الأنبياء تلقوها بشغف وأقبلوا عليها بلهف وتنافسوا في حفظها وضبطها والعناية بها وإبلاغها لمن كان بعدهم ، وقد قال نبيهم عليه الصلاة والسلام : ((نضر الله امرء سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)) ، وسيأتي الحديث عند المصنف رحمه الله تعالى والكلام على معناه . هذا الجانب في صفة هؤلاء ((يأخذون بسنته)) وهو دليل على صلاح علومهم .

الجانب الثاني: قال ((ويقتدون بأمره)) وهذا فيه صلاح العمل ؛ فأعمالهم صالحة لأن قدوتهم فيها الأنبياء ، يقتدون بأمر نبيهم فلا يباشرون شيئا من الأعمال ولا يقومون بشيء من الطاعات والقربات إلا إذا كان فيها أمر للنبي عليه الصلاة والسلام وتوجيه منه إرشاد ((ويقتدون بأمره)) فهم في أعمالهم وطاعاتهم وعباداتهم وقرباتهم مقتدين بالأنبياء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

فذكر عليه الصلاة والسلام في هاتين الجملتين صلاح العلم وصلاح العمل ؛ صلاح العلم بقوله صلوات الله وسلامه عليه ((يأخذون بسنته)) ، وصلاح العمل بقوله عليه الصلاة والسلام ((ويقتدون بأمره)) ، وهذا هو الهدى ودين الحق الذي بعث الله عز وجل به رسوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] الهدى: العلم النافع ، ودين الحق: العمل الصالح ، وفي دعاء المؤمنين المتكرر في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] ، عندما تقول في دعائك ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هؤلاء هم المنعم عليهم الأنبياء واتباع الأنبياء وخلاصة أتباع الأنبياء ، والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر لك هنا حليتهم وأنها تتلخص في أمرين: صلاح العلم وصلاح العمل ، وبه تعلم أن من كان من الناس صالحا في علمه لكون علمه متلقى من الأنبياء صالحا في عمله لكونه في عمله مقتديا بالأنبياء فهو من المنعم عليهم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ؛ المغضوب عليه: من عنده علم لا يعمل به ، والضال: من عنده

عمل بلا علم ، والمنعم عليه: من جمع بين العلم والعمل كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام هنا ((يأخذون بسنته)) هذا العلم ، ((ويقتدون بأمره)) هذا العمل ، علم نافع وعمل صالح ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم إذا صلى الفجر دعا الله عز وجل قائلا : ((اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا صالحا)) وفي رواية ((وعملا متقبلا)) ، قال: ((يأخذون بسنته ويقتدون بأمره)) هذه حال الحواريين والأصحاب .

ثم ذكر حال أقوام يأتون بعدهم ويخالفون نهجهم وينحرفون عن جادتهم ؛ فوصفهم عليه الصلاة والسلام بقوله : ((ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف)) «ثم إنها» الضمير هنا يسمى ضمير الشأن ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف: أي يكون ويأتي من بعدهم خلوف ، و«خلوف» جمع خلف وهو الخالف بشر قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩] خلف بإسكان اللام ، الخلف جمعه خلوف وهو الخالف بشر ، أما من خلفهم بخير أي باقتداء واتباع وائتساء فيقال له «خلف» بفتح اللام أي خلف هؤلاء بخير ، أما من خلفهم بشر بالتخلي عن طريقهم والانحراف عن جادتهم فإنه يقال له «خلف» ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي خالف بشر.

قال: ((ثم إنه يأتي من بعدهم خلوف)) أي يأتي من بعدهم أقوام يخلفونهم بشر . والناصح لنفسه أيها الإخوة الكرام عندما يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم هذا ((ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف)) أي يأتي من بعدهم أقوام يخلفونهم بشر؛ تنفر نفسه من هؤلاء ويتساءل ما هي صفة هؤلاء حتى أحذر من أن أكون منهم ؟ فوصفهم عليه الصلاة والسلام بصفتين ، كما أنهم وصف الحواريين والأصحاب بصفتين وصف هؤلاء الذين يخلفونهم بشر بصفتين ، فقال عليه الصلاة والسلام : ((يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون)) هذه صفتهم منبهاً بذلك ومبينا عليه الصلاة والسلام إلى فساد عند هؤلاء في العلم والعمل ، كما أن أولئك عندهم صلاح في العلم والعمل فهؤلاء فساد في العلم والعمل ، فساد في الجانبين : العلم أي المصدر الذي يتلقون عنه العلم ليس الأخذ بالسنة سنة الأنبياء ، والعمل أيضا جانب العمل هم منحرفون فيه ، فلا علومهم علوماً متلقاة من الأنبياء ، ولا أيضا أعمالهم أعمال صالحات يقتدون فيها بالأنبياء ، ففيهم الفساد في العلم وفساد في العمل ، وأولئك فيهم صلاح في العلم وصلاح في العمل . إذا الخلوفا الذين يخلفون الأنبياء بشر وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بصفتين : الأولى يقولون ما لا يفعلون والثانية يفعلون ما لا يؤمرون .

«يقولون ما لا يفعلون» ؛ هذا تفريط في العمل ، ليسو أصحاب أعمال وجد واجتهاد في التقرب إلى الله عز وجل ، بل يقولون أقوالا ويتكلمون كلاما من البر مثلا والطاعات لا يفعلونها ولا يقومون بها ، والله جل وعلا قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] ، وقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ٤٤﴾ ، وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] ؛ وهذه الآيات الثلاث أشار بعض السلف إلى أن كل معلم ومفقه وناصح يجب أن تكون نصب عينيه لئلا يكون حاله قول بلا عمل ، يضيء للناس الطريق ولكنه في نفسه ضائع ومقصر ومفرط . قال «يقولون ما لا يفعلون» .

«ويفعلون ما لا يؤمرون» أي أنهم لا يتلقون علومهم من الأنبياء ولا يصدرون عما جاء به الأنبياء ؛ ولهذا وصفهم هنا بقوله «ويفعلون ما لا يؤمرون» أي يأتون بأفعال وأمر وعبادات لم يؤمروا بها . هناك قال: «يقتدون بأمره» أي بأمر نبيهم ، وهنا قال: «يفعلون ما لا يؤمرون» أي يأتون بأفعال وأعمال وطاعات لم يؤمروا بها ولم يدعوا إليها من قبل أنبيائهم .

فبين عليه الصلاة والسلام أن صفة الخلوف اذين يخلفون الأنبياء بالشر تتلخص في فساد العلم وفساد العمل وذلك بقوله في وصفهم ((يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون)) . ثم بيّن عليه الصلاة والسلام ما ينبغي على من رأى هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء بشر ، من رأيهم ماذا عليه أن يصنع؟ كيف يكون أمره معهم؟ بيّن ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله: ((فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) ؛ هذا نظير قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده)) لأن الذي عليه هؤلاء من أنكر المنكر ، قال ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان)) ، وقد ذكر العلماء رحمهم الله أن التغيير باليد ليس مناطا بكل أحد وإنما هو مناط بمن بيده الولاية والسلطة بحيث يستطيع أن يغير ويزيل المنكر بيده ، أما من لا ولاية له ولا سلطة عليه إذا أخذ يغير بيده ربما دبّت في الناس الفوضى واستفشى فيهم الشر والقتل وعمّتهم الفوضى ، فالتغيير باليد لمن بيده سلطة ؛ الوالي في بلده ، الأمير السلطان ، الوالد في بيته عندما يرى على ولده وأهله في البيت أمور من المنكرات والمخالفات ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه)) وأيضا اللسان ليس أمرا مطلقا لكل أحد بل لا يتكلم إلا من عنده علم ، لا يتكلم منكرا بلسانه إلا من عنده علم ، فإنكار المنكر لابد فيه من العلم ولا بد فيه من الحلم ولا بد فيه من الصبر ، هذه أمور لابد منها في إنكار المنكر . قال ((فليغيره بلسانه)) يغير بلسانه مبيّنا نكارة هذا المنكر وفساده بالحجة والبرهان والدليل الساطع والحجة البينة من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . قال ((فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان)) أي أضعف مراتب الإيمان في هذا الجانب إنكار المنكر التغيير بالقلب ؛ وذلك بأن يكره القلب المنكر ويبغضه ويبغض وجوده .

وهنا في هذا الحديث قال: ((فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن)) من جاهد هؤلاء بيده إن كان من أهل ذلك ومن أهل الاستطاعة على ذلك فهو مؤمن ، ((ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن)) إذا كان من أهل الاستطاعة لهذا الأمر والله عز وجل قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] والحديث المتقدم قال: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه)) فالأمر حسب الاستطاعة إذا كان مستطيعا لذلك يفعلُه إن كان من أهل الاستطاعة لهذا الأمر، وإلا ينتقل للذي بعده لا يكون هذا فرضه إنما يكون فرضه الذي بعده إذا لم يكن مستطيعا .

قال: ((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)) وهذه كما في الحديث الآخر أضعف الإيمان. إذا الإنكار باليد من الإيمان ، والإنكار باللسان من الإيمان ، والإنكار بالقلب من الإيمان ، وأرفع ذلك الإنكار باليد ثم اللسان ثم القلب على حسب الترتيب الذي جاء في الحديث ، وهذا مما يدل على تفاوت أهل الإيمان في الإيمان قوةً وضعفاً وزيادة ونقصا وأنهم ليسو فيه على رتبة واحدة .

وقوله في الحديث ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) أي ولا مقدار يسير ولا ذرة يسيرة ، ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) المراد به أن هذا الأمر الذي هو الأمر الثالث المجاهدة بالقلب كراهيةً وبغضا ، لأن هذا المراد ((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)) كيف يجاهدهم بقلبه دون استعمال لليد ودون استعمال للسان؟ كيف يكون مجاهداً لهم بقلبه؟ بأن يكره قلبه ما هم عليه ويبغض المنكر الذي يقومون به وينفر منهم ومن مجالسهم ويكون مبغضا كارهًا ؛ هذه مجاهدة بالقلب ، قال: ((ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن)) .

قوله في تمام الحديث ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) المراد به : أن هذه الرتبة رتبة المجاهدة بالقلب هي أقل رتبة من رتب الإيمان ، أقل رتبة توصف بأنها إيمان ليس هناك بعد ذلك شيء يوصف بأنه إيمان ، ينبغي أن نفهم هذا ؛ مراده بقوله ((ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) أي أن الإنكار بالقلب والمجاهدة بالقلب هي أقل رتبة في هذا الباب توصف بأنها إيمان ، وليس المراد بقوله ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) نفي أصل الإيمان عمن لم يكره بقلبه المنكر ، بل قد يكون الإنسان يباشر المنكر محبا له مائلة نفسه إليه ولا يرفع عنه أصل الإيمان ولا ينفي عنه أصل الإيمان! لهوى في نفسه وجنوح عنده في فعل المنكر ومباشرة له ومحبة لفعله فلا يكون بذلك منتقلا من الإيمان أو منتفيا عنه أصل الإيمان أو خارجا من دائرة الإيمان ، بل الذي يُنفي عنه في هذا الحال كمال الإيمان الواجب لا أصله ، ومراد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) أي أن هذا القدر الذي هو المجاهدة بالقلب هي أقل وأدنى قدرٍ يوصف فعله بأنه إيمان ، بعد ذلك لا يوجد شيء من خصال الإيمان ، لكن من انتفت في حقه هذه الخصلة ليس معنى ذلك أن أصل الإيمان منتفٍ عنده ، بل قد يفعل المنكر هو بنفسه قد يفعل الكبيرة ولا يكون بها خارجا من الإيمان ، لأن الحق في مرتكب

الكبيرة فيما دون الشرك بالله تبارك وتعالى: أنه مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، لا يُنفى عنه أصل الإيمان ولا يثبت أيضا له كماله ، بل شأنه أنه مؤمن ناقص الإيمان .

الشاهد أن هذا حديث عظيم جدا ذكر لنا فيه النبي صلى الله عليه وسلم حال صفوة الأنبياء وخلاصة أتباع الأنبياء ، ووصفهم عليه الصلاة والسلام بأنهم يقتدون بأمر الأنبياء ويستنون بسنة الأنبياء ، ثم حذر صلى الله عليه وسلم من خلوف يخلفون أتباع الأنبياء بشر ؛ وصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، ثم دعا عليه الصلاة والسلام إلى مجاهدة هؤلاء كل في مقدوره ومستطاعه ، فمن جاهدتهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدتهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدتهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .

قال رحمه الله تعالى :

وعن جابر رضي الله عنه : أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن تكتب بعضها ؟! فقال : ((أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى!! لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) رواه أحمد .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن جابر رضي الله عنه : ((أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا)) ربما يكون بعض هذه الأحاديث تتحدث عن شيء من الآداب أو شيء من الفضائل أو شيء من الأخلاق أو من المعاملات أو نحو ذلك .

قال ((إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا)) وهنا يا إخوان ينبغي أن ننتبه إلى من الذي قال هذه الكلمة «تعجبنا»؟ صحابي بل قد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم ((لو كان في الأمة ملهمون أو محدثون لكان عمر)) صحابي على قدر عالي من العلم والفهم والفطنة والنباهة والفضل والخير .

قال: ((إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟!)) الآن ما الذي طلب أن يكتبه رضي الله عنه؟ طلب أن يكتب بعض الأحاديث التي تأتي عن هؤلاء قال «تعجبنا» يعني نحن عموما في جوانب واضحة وجوانب جميلة وجوانب جيدة ، أفنكتب ذلك؟ هذا السؤال الذي طرحه عمر ينبغي أن ننتبه له ، لأننا في هذا الزمان بُلينا ابتلاء واسعا عريضا بتلقف الآداب والأخلاق والبحث عنها عند الغرب وعند أمم الكفر وكأنه ليس بين أيدينا كتاب من رب العالمين نتلوه! وليس بين أيدينا سنة من النبي صلى الله عليه وسلم واضحة بينة غراء! كأننا عُمدنا في كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم الأخلاق! وكأن جانب الأخلاق والآداب لم تبين في الكتاب والسنة، فأخذ يمم بعض الناس شرقا وغربا ويبحثون عن آداب وأخلاق وفضائل يأخذونها من فلان وعلان من كفر لا يؤمنون بالله ولا يدينون بدين الله عز وجل فيتلقون عنهم الآداب والأخلاق ، وبين أيديهم

كتاب الله يتلى ، وبين أيديهم سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم واضحة بينة ((تركتكم على البيضاء)) ، والكتاب والسنة جمع الله سبحانه وتعالى لهم للناس فيهما كل خير ، وجعل كتابه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ، فيه الآداب وفيه الأخلاق وفيه المعاملات وفيه العلوم النافعة والآداب الكاملة وفيه كل خير يرجوه الإنسان في دنياه وأخراه .

وبهذا تعلم الخطأ الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس؛ يكتبون أشياء عن أمم الكفر من اليهود من النصارى من المجوس من الوثنيين من حتى الملاحدة الذين لا دين عندهم أصلاً ومن الشيوعيين ؛ يكتبون وينشرونها بين الناس ويقولون هذا كلام جميل وربما قالوا هذا كلام عليه نور وأشياء من هذا القبيل ، فسبحان الله ! كيف أصيب الناس هذه الإصابة العظيمة ووقعوا في هذا البلاء العظيم !!

فعمر رضي الله عنه ذكر أشياء قليلة قال تعجبنا أنكتبها ؟ هل نكتبها ؟ وكتابتها تعني العناية بها والاحتفاء بها والاهتمام بها وحفظها حتى تبقى بين الناس متداولة تُنشر ، وهذا يبين لنا قيمة الكتابة وأنها تحفظ العلوم ، من أعظم الوسائل لحفظ العلوم ونشرها قال ((أنكتبها؟)) نقيّد هذه الأمور؟ نكتبها عندنا ؟ والآن إذا نظرت كم من الأشياء التي في باب الآداب وباب الأخلاق وباب المعاملات يكتبها الناس متلقاة عن الغرب وعن أمم الكفر ! أليس في ديننا وكتاب ربنا صلاح أمرنا وسعادتنا في ديانا وأخرانا ؟ صلاح الدين وصلاح الدنيا وصلاح الآخرة أليست مجتمعة لنا في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؟! .

فقال عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه : ((أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى)) ؛ والتهوك في الأمور: الدخول فيها على غير بينة وعلى غير ثبت وعلى غير حجة وبرهان ، يدخل في الأمر ولا يكون في الأمر صلاحٌ له بل يكون باب شر عليه .

قال: ((أمتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى)) واليهود والنصارى وقعوا في التهوك عندما تخلوا عن الكتاب الذي بين أيديهم واشتغلوا بأمور أخرى يستحسنونها وتعجبهم ويميلون إليها حتى وقعوا بسبب ذلك في بعد كبير عن الكتاب الذي أنزل إليهم .

قال: ((لقد جئتمكم بها بيضاء نقية)) وهنا يقف المسلم عند هذا الوصف العظيم لدين الله تبارك وتعالى قال: ((لقد جئتمكم بها بيضاء نقية)) أي واضحة ، نقية: أي ليس فيها دخل وليس فيها خلل وليس فيها قصور بل هي نقية ، صفوة وخلاصة وزبدة في كل الجوانب ؛ في العقيدة ، في العبادة ، في الأخلاق ؛ إذا نظرت في العقيدة التي جاء بها عليها الصلاة والسلام فهي أصح العقائد وأكملها ، وإذا نظرت إلى العبادات التي جاء بها عليه الصلاة والسلام فهي أعظم العبادات وأتمها ، وإذا نظرت إلى الأخلاق والآداب التي جاء بها عليه الصلاة والسلام فهي أرفع الأخلاق وأجلها ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) أو ((لأتمم صالح الأخلاق)) ، فجميع هذه الجوانب

كملاها عليه الصلاة والسلام ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي عقيدة وعبادة وخلقا ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) لو كان موسى حيا أي معكم وبين أظهركم لم يسعه إلا أن يكون متبعا لي مقتديا بي فيما جئت به ؛ وهذا يفيد أن جميع الكتب التي قبل نبينا عليه الصلاة والسلام التي هي وحي من الله منزلة من رب العالمين ، جميع الكتب منسوخة بالقرآن ومنسوخة بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام . فإذا كان الأمر بهذا المبلغ وبهذه الدرجة لو كان موسى حيا ومعه كتابه الذي أنزله الله عليه لم يسعه إلا أن يتبع النبي عليه الصلاة والسلام فكيف نكتب عنهم؟ وكيف نأخذ منهم؟ وكيف نتلقى من أخلاقهم وآدابهم؟! فهذا كله من التفريط في الدين والإضاعة له . إذا أراد المسلم أفضل العقائد موجودة في القرآن والسنة ، إذا أراد أفضل العبادات والطاعات موجودة في الكتاب والسنة ، إذا أراد أفضل الآداب والأخلاق موجودة في الكتاب والسنة لم يفرط فيهما من شيء في العقيدة والعبادة والأخلاق كل ذلك كُمل في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى يبين لطالب العلم نهجا سويا مباركا في كيفية طلب العلم ألا وهو: أن يكرس جهوده ويحفظ وقته في حفظ العلم الموروث عن النبي عليه الصلاة والسلام ((فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) .

تعجب غاية العجب من أقوام لا يحفظون آيات وردت في القرآن جمعت الأدب كله جمعت الخلق كله ثم تجده يحفظ كلمة لكافر فاجر ويتشدد بها ويعجب بها ! وآيات من القرآن جمعت الآداب والأخلاق جمعا وافيا تجده لا يحفظها ولا يعرف معناها ولم يتفقه في مدلولها ! فأين طلب الإنسان الخيرية لنفسه إذا كانت حاله بهذه الحال معرضا عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وميِّمًا ومشرقًا ومغربًا . ثم أيضا يؤلم في هذا الباب أشد الألم مدارس بدأت تنتشر في أوساط المسلمين وفي ديار المسلمين ويسمُّون تلك المدارس وتلك الدروس التي يعقدونها يسمونها «تدريب» ويسمون من يقوم بتلك الأمور «المدرِّب» ويعقدون ندوات ودورات لصناعة الذات وخلق المواهب وإيجاد المهارات ، ثم تنصبُ جهودهم في بيان هذا الأمر على أشياء تُلقيت من الغرب ، بعضهم يحاول أن يصفي وينقي لخلفية يسيرة عنده في العلوم الشرعية ، وبعضهم أخذ ما عند الغرب بعلاته حتى بما فيه من شركات وما فيه من انحراف عن دين الله وما فيه من تعلق بالأسباب وإعراض عن التوكل على الله والاستعانة به وطلب العون والمد منه ، وأدخلوا الناس في أوهام وخرافات لا حد لها في جانب معالجة المشاكل ، في جانب ترتيب الأمور وتنظيم الأوقات ، في جوانب الحياة الزوجية ونحو ذلك أتوا بأمور وأشياء تلقيت من الغرب ، بعضهم حاول أن يصفي وبعضهم أخذ الأمر على علاته ، بعضهم حاول يصفي ومع محاولة التصفية يبقى رواسب وأشياء مخلة

قد لا يدركها هذا الذي أراد أن يصفى لقله علمه وقله درايته بدين الله عز وجل ، وآخرون أخذوا الأمور بعلاقتها ثم يتحدثون عن حل المشاكل وطلب السعادة صناعة الذات أشياء من هذا القبيل في أمور عند العاقل وعند المنصف ما أنزل الله بها من سلطان ، وجاءوا في هذا الباب بعجائب وغرائب .

عندما تنظر إلى القرآن والسنة في حل مشكلات الإنسان وما يصادفه في حياته من هموم أو من غموم أو ما يواجهه في حياته من مشاكل كيف يعالجها في ضوء القرآن والسنة؟ تجد العلاج الشافي تجد البلسم تجد طب القلوب والأبدان ، بينما ترى عند هؤلاء في معالجة المشاكل خرافات، كلام ساقط ، كلام نابع من قلوب خاوية من قلوب كفار قلوب خاوية لا تحسن كيف تحل مشاكل .

أضرب لكم مثالا واحداً حتى ندرك الانحراف العريض الذي وقع في هذا الباب . أحدهم كما نقل لي يتحدث مع مجموعة أمامه فيما يسمى بالتدريب في حل المشاكل قال : إذا وقعت في مشكلة في حياتك مشكلة عويصة جداً أرقتك لا تستطيع معها أن تنام ولا أن ترتاح ومشكلة طويلة في حياتك كيف تتخلص منها؟ قال: تجلس في غرفة وحدهك ليس معك أحد تغلق الباب وتنظر إلى الجدار الذي أمامك وتتصور أن أمامك شاشة التلفاز وأنت فتحت الشاشة وبدأ التلفاز يشغل أمامك ، واجتهد وأنت تتصور وتتخيل أن تعرض المشكلة التي عندك من بدايتها في التلفاز ، كأن التلفاز أمامك مفتوح وشغل ذهنك واجمع قلبك واهتم وركز أمامك كأن الشاشة تشتغل أمامك من بداية المشكلة . والذين أمامهم مطرقتين إلى هذا العلم والفتوحات التي ما سبقوا إليها ، يقول اعرض المشكلة على التلفاز من أولها إلى آخرها وأنت تتابع الحدث من أوله وكأنها أمامك وكأنك تنتظر إليها خطوة خطوة ، وعندهم براعة في العرض ومهارة في الكلام وتزيينه وزخرفة القول وتزيينه ، عندهم مهارة لا يبارون فيها وأوتوا بذلك ذكاءً ولكن لم يأتوا زكاءً ، أتوا فهوماً ولم يأتوا علوماً كما هو الشأن في أساطين الفلاسفة ، قال: فلما تقارب المشكلة أن تصل إلى تمامها وهي تعرض أمامك على الشاشة رأساً وبشكل سريع تأخذ حجر أنت في الغرفة يقول ليس عندك حجر ولكن كل هذا تصور ، خذ حجر وكأنك أخذت حجر واكسر الشاشة التي أمامك ستحطم الشاشة أمامك ، والمشكلة التي كنت تعاني منها سترها أمامك تحطمت وخرجت من نفسك وتكسرت في الشاشة ، بقيت المشكلة خارج ذاتك وأصبحت المشكلة ليست في نفسك وإنما في الشاشة وتكسرت ، تخرج من الغرفة وأنت مغتبط لأنك كسرت المشكلة وحطمتها ولم يبق شيء ، ومثل هذا الركام من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان . ثم يزيد هذا القائل يقول : وإذا انتهيت وخرجت ليس عندك مشكلة تحطمت المشكلة أمامك في نفس اللحظة تمسك يدك بالإبهام وتضغطها بشدة بشكل مؤلم ، ثم إذا قُدر أنه حصل وأن المشكلة بدأت تعود ليس هناك حاجة أن تجلس الجلوس الطويل لتكسر المشكلة على الشاشة مرة ثانية بل تضغط بإبهامك الموضع الذي كسرت فيه المشكلة تضغط بإبهامك فتجد أنها التفت.

ثم إذا انتهى التدريب وسمعوا هذه المحاضرة كل واحد يدفع مبلغ وقدره كذا على هذا العلم الغزير الذي أخذوه من المدرب ! ويتقبلون هذا بالشكر وبالتقدير والحفاوة ويخرج الواحد منهم مغتبطا "أنا اليوم أخذت من المدرب الفلاني" ، وأيضا يعطيه المدرب شهادة أنه تدرب على يديه ويعطيه إذن يقول له درّب الناس على حل المشاكل .
والقرآن والسنة يتركان جانبًا ويشتغل الناس على أيدي هؤلاء المدربين بالانحرافات والضلالات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ألا فلتنق الله عز وجل ، ولنعظم كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكل ما نطلب من الخير والسعادة والفلاح والرفعة وحل المشاكل وطمأنينة القلوب وسعادة النفوس كل ما نطلبه موجود في الكتاب والسنة ((تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)) تركنا عليه الصلاة والسلام على بيضاء نقية ؛ فيجب أن يُنتبه لهذا الأمر وأن يحذر من هذه الأمور بأي مسميات كانت ، وأن يكون إقبال المسلم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليكن لنا عظة وعبرة بهذا التنبيه المبارك والتوجيه السديد لنبينا عليه الصلاة والسلام .
عمر لما قال ((أنكتب عنهم ذلك؟)) يعني هذه الأشياء التي تعجبنا مما نسمعه من اليهود والنصارى أنكتب ذلك؟ والذي سيكتب ويتنقي ويأخذ الكلام مصفى ليس أي أحد وإنما هو عمر رضي الله عنه ، ومع ذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أشد التحذير قال : ((أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جنتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) .

قوله في الحديث ((لو كان موسى حيا)) وموسى كليم الله عليه صلوات الله وسلامه ((ما وسعه إلا اتباعي)) أن يتبعني ؛ فهذا فيه رد على بعض الغلاة من الطرقية الذي يدّعي لنفسه أنه واصل ويزعم أن التكاليف سقطت عنه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول ((لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي)) فهذا يبين زيف مثل هذه الدعاوى .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٢٥ إلى الدرس ٢٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١١/٢٠ هـ

الدرس الخامس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين :
وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعاً : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)) حديث حسن رواه الدارقطني وغيره .

أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه وهو كما عدّه غير واحد من أهل العلم من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن أجمعها لأُمور الدين أصوله وفروعه ، بل بعض أهل العلم قال: إن هذا الحديث أجمع حديثٍ لأصول الدين وفروعه ، ومن تعلم هذه الأمور التي أرشد النبي عليه الصلاة والسلام إلى تعلمها في هذا الحديث العظيم المبارك فإنه يكون بذلك تعلم الدين كله أصوله وفروعه وما ينبغي للمسلم أن يتعلمه منه ؛ فهو حديثٌ عظيم جامع من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام ، ولهذا أورده الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأربعين ، ومن شرطه في كتابه الأربعين أن يجمعه فيه ما عُدّ من الأحاديث من جوامع كله عليه الصلاة والسلام ، فأورد هذا الحديث في الأربعين وحسّنه قال : «وهو حديث حسن» ، والحديث في سنده شيء من الكلام لكن الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرحه للأربعين ذكر ما يشهد لهذا الحديث مما يتقوى به ويكون صالحاً للاحتجاج والاعتماد ، وهو حديث عظيم جامع ينبغي على المسلم أن يتأمله .

وإيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الحديث في «باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب» من أجل ما في هذا الحديث من التوجيه النبوي لتعلم الفرائض والحدود والمحرمات . قال عليه الصلاة والسلام: ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)) ؛ فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة المهمة في باب التحريض على طلب العلم؛ تعلّم الفرائض وتعلم حدود الإسلام وتعلم المحرمات في الإسلام ، لأن من لم يتعلم الفرائض والحدود كيف يأتي بها؟ وكيف يكون ملتزماً بالشرعية إذا لم يكن على علم بحدودها؟ وكيف أيضاً يجانب المحرمات ويتعد عنها وهو لا

يعرفها كما قيل : « كيف يتقي من لا يدري ما يتقي » . فإذا هذا الحديث فيه التحريض على طلب العلم والحث عليه ، بل فيه التنبيه على أهم ما ينبغي أن يتعلمه المسلم وهي أمور ثلاثة : الفرائض ، والحدود ، والمحرمات . ثم أيضا في الحديث بيان لغرض التعلم لو قال قائل : لماذا نتعلم الفرائض ولماذا نتعلم حدود الشريعة؟ ولماذا نتعلم المحرمات؟ يأتي الجواب في الحديث نفسه؛ الفرائض نتعلمها حتى لا نضيّعها لأن من لا يعرف الفرائض يضيع الفرائض ؛ فنتعلم الفرائض كي لا نضيعها ، كي نكون من المحافظين عليها . ونتعلم حدود الشريعة من واجب ومستحب ومباح حتى لا نتجاوز حد الشريعة في أعمالنا ، ولهذا قال هنا : ((وحدّ حدودًا فلا تعتدوها)) أي لا تتجاوزوها ، فإذا الحدود تُتعلّم حدود الشريعة من واجب ومستحب ومباح حتى لا يعتديها الإنسان أي لا يتجاوزها . والمحرمات أيضا تُتعلّم ويعرفها المسلم ، ولهذا أفرد العلماء مصنفات خاصة في الكبائر والآثام والتحذير منها ، فالكبائر والذنوب يعرفها المسلم من أجل أن يجتنبها ولهذا قال : ((وحرّم أشياء فلا تنتهكوها)) أي لا تقتربوها واحذروا من فعلها والوقوع فيها . فهذا أهم ما ينبغي أن يتعلم .

ثم في الوقت نفسه لما ذكر في هذا الحديث أهم ما ينبغي أن يُتعلّم حذّر من السؤالات التي لا يتحقق بها نفع للإنسان في الناحيتين العلمية والعملية ، فهي عن ذلك قال : ((وسكت عن أشياء)) أي لم يذكر فيها حلالا أو حراما ((سكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها))؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] . في زمن الصحابة نُهِوا عن هذه الأسئلة حتى لا يكون السؤال مترتبًا عليه حكمًا فنُهِوا عن مثل هذه السؤالات ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَلْكُمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] . وبعد زمن الصحابة بقي أيضًا النهي كما بيّن أهل العلم عن السؤال الذي فيه تعنت ، والسؤال الذي فيه مكابرة ، والسؤال الذي فيعه خوض من المرء فيما لا يعنيه ، والسؤال الذي فيه نوع اعتراض أو نحو ذلك ، والسؤال الذي يراد به إثارة شبهة ؛ فكل هذه السؤالات يُنهي عنها .

ولهذا فإن في الحديث من الفائدة : التنبيه على فقه السؤال . وكثير من الناس يلقون أسئلتهم دون فقه في السؤال من حيث طرح السؤال ، أهمية الأمر المسؤول عنه، صفة طرح السؤال ؛ فكثير من الناس لا يكون عنده فقه في هذا الباب ، بل ربما سأل عما لا يعنيه وترك السؤال عما يعنيه ، قد يكون جاهلا ببعض فرائض الإسلام وواجبات الدين ثم لا يسأل عنها ويسأل عن أغلوطات الأمور ويخوض في الأمور المشتبهة ويقحم نفسه فيما لا يعنيه ؛ وهذا من قلة وعدم الفهم بفقه السؤال . بينما الناصح الحريص على سعادتها يجعل سؤاله مغنمًا له ولمن يسمع السؤال . وكم من سؤال صدر من إنسان ناصح ومن قلبٍ محب للخير فجعله الله سبحانه وتعالى سبب هداية للسائل ولخلق كثير لا يحصون ؛ نتيجة سؤال طيب سؤالٍ نافع سؤالٍ صادق سؤالٍ جاد يطرحه الناصح ليستفيد وليستفيد غيره من المؤمنين ومن عباد الله . فالحديث فيه تنبيه إلى أهمية فقه السؤال ، ليس كل ما يخطر في بال الإنسان ويدور في خياله يطرحه ، قد يكون الذي يدور في خيال الإنسان وساوس يتعوذ بالله تبارك

وتعالى منها لا يصوغها سؤالا فيشوش على نفسه وعلى الناس ، بل يتعوذ بالله تبارك وتعالى منها وتذهب عنه وساوس الصدور . فالواجب أن يكون عند العبد فقه في السؤال الذي يطرحه ولهذا قال هنا : ((وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسان فلا تبحثوا عنها)) أي لا تسألوا عنها .

وإذا تأملت في هذا الحديث تجد أنه قسّم الأحكام وأمور الشريعة إلى أقسام أربعة وبيّن الواجب علينا الواجب تجاه كل قسم :

❖ القسم الأول : الفرائض ؛ وبدأ به عليه الصلاة والسلام قال : ((إن الله فرض فرائض)) ، والمراد بالفرائض واجبات الدين وما فُرض على العباد فعله من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من فرائض الإسلام ، قال : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)) ، وانظر جمال هذا البيان «لا تضيعوها» ، وهذه الكلمة «لا تضيعوها» عندما يقال للإنسان عندما يعطى شيئاً ثميناً ويقال له أمسكه ولا تضيعه ، عندما يعطى جوهرة ثمينة كنزاً ثميناً يوضع في يده ويقال له لا تضيعه ، هذه الكلمة لا تقال إلا في الشيء الثمين الذي هو عرضة للضياع ؛ فيؤكّد على الإنسان وينبهه إلى المحافظة عليه ، ولهذا هذه الفرائض هي عرضة للضياع في فتن الدنيا وصد الشيطان وقرناء السوء وأنواع الصوارف التي تعرض للإنسان في حياته فهي عرضة للضياع ؛ الصلاة عرضة للضياع ، الصيام عرضة للضياع ، الزكاة عرضة للضياع ، فقال : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)) لتكون محافظتكم عليها مستمرة مستديمة معتنين بها محافظين عليها قال «فلا تضيعوها» .

وهذا التوجيه النبوي الكريم يجعل المسلم في أوقاته كلها مجاهداً نفسه على حفظ الفرائض وعدم إضاعة الفرائض ، وأيضاً يجعل المسلم ينتبه إلى أن فرائض الإسلام هي أعظم شيء في الإسلام وأنها إذا ضُيعت الفرائض فما سواها من أمور الدين أضيع ؛ من ضيع فريضة الصلاة فما سواها من أمور الدين هو لها أضيع ، ماذا يُنتظر ممن ضاعت منه صلاته؟ ماذا يُنتظر ممن يقوم الصباح ولم يصل الفجر؟ بل إن يومه كله يضيع ، إذا ضاعت الصلاة ضاع اليوم كله وذهبت البركة وقام خبيث النفس كسلانا ، إذا ضاعت الفرائض ضاع كل شيء ، وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة ، في الحديث قال : ((من حافظ عليها كانت له نورا وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف)) يحشر مع صناديد الكفر وأئمة الباطل . فالفرائض إذا ضاعت ضاع ما سواها ، وإذا حُفظت كانت بوابة لحفظ ما سواها ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْتِكُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقوله سبحانه ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] الصلاة تعينك على حفظ أمور الدين الأخرى وتعينك على البعد عن الحرام ، وإذا ضاعت الصلاة وضاعت الفرائض فما سواها من أمور الدين سيكون في حق الإنسان أضيع . ولعل هذا هو سر البدء بالفرائض ؛ لأنها أساس وبقية الأمور تأتي تبعاً لهذا الأساس العظيم .

قال: ((إن الله فراض فرائض فلا تضيعوها)) ؛ ومن حافظ على فرائض الدين حفظها له رب العالمين ولم يضيع له منها شيء ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] يحفظها له وتكون بركة عليه في حياته الدنيا وأجرًا وثوابا يلقاه يوم القيامة ، قال : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)) .

❖ ((وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها)) المراد بالحدود هنا: حدود الشريعة ولعله سبق معنا حديث يبين لنا ذلك ، عندما ضرب مثلا قال: ((إن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران وفي السورين أبواب وعلى الأبواب ستور مرخاة)) ثم بين في الحديث قال: ((السوران حدود الله)) فالشريعة لها حدود لا يجوز للإنسان أن يخرج عنها ، واجب ومستحب ومباح لا يخرج في أفعاله عن هذا الحد ، فإذا خرج عن هذه الأمور عن الواجب والمستحب والمباح فهذا خروج عن حد الشريعة ؛ إما إلى مكروهات أو إلى محرمات ، ويفوت على الإنسان باقتراف هذه الأشياء حظه من مكانته في الشريعة ومنزلته فيها بحسب خروجه عن حد الشريعة ، ولهذا قال أهل العلم عن الإيمان: ينقص بالمعاصي ، إذا فعل أمرا ليس واجبا ولا مستحبا ولا مباحا إما محرما أو مكروها نقص إيمانه بحسب ذلك ، لا يقال ذهب إيمانه إلا إذا فعل أمرا ينتقل به من الملة ويخرج به من الدين ، أما إذا ارتكب معصية أو ذنبا صغيرا كان أو كبيرا فيما دون الكفر بالله فإن إيمانه ينقص ، ولهذا قال أئمة العلم الإيمان يزيد وينقص ، ولزيادته أسباب ولنقصانه أسباب ، وهنا تحذير من الأسباب التي ينقص بها الإيمان قال ((فلا تعتدوها)) لأنه إذا اعتداها الإنسان نقص وضعف إيمانه .

❖ ثم ذكر الأمر الثالث قال: ((وحرِّم أشياء فلا تنتهكوها)) حرم أشياء أي نهي عباده عنها ومنعهم منها لما فيها من المضرة عليهم في دينهم ودنياهم ، حرّمها تبارك وتعالى على عباده ، والله عز وجل لا يأمر إلا بما فيه خير ولا ينهى إلا عما فيه ضرر وشر ، فمنه عن أشياء قال: ((فلا تنتهكوها)) أي لا تقتربوا ولا تفعلوا الشيء الذي تحاكم الله عنه لا ترتكبهوا احذروا من ذلك ، والانتهاك والتعبير به هنا يدل على أن الإنسان مادام على جادة الشريعة فإن ثمة حواجز يحذر من انتهاكها وتخطيها لأنها تُخرجه عن جادة الشريعة وعن صراط الله المستقيم، وكلما كان الانتهاك لهذه المحرمات كان أبعد به عن صراط الله المستقيم ، قال ((فلا تنتهكوها)) فهذا الأمر الثالث .

❖ الأمر الرابع قال: ((وسكت عن أشياء)) أي لم يُذكر فيها حلال ولا حرام ((سكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)) ومن الأمثلة والشواهد على ذلك ما جاء في الحديث وسيسوقه المصنف رحمه الله تعالى بعد هذا الحديث وهو حديث أبي هريرة ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) هذا الحديث له قصة وهي أن النبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر للناس فريضة الحج

ورغبتهم فيه قال رجل: «أفي كل عام؟» يعني هل هو فرض علينا في كل عام؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ((لو قلت نعم لوجبت)) ثم حذر عليه الصلاة والسلام من مثل هذه الأسئلة وقال صلى الله عليه وسلم: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)).

وهنا أيها الإخوة ينبغي أن يُنبه إلى أمر في واقع كثير من الناس يفرضون فيه ؛ تجده لا يتعلم الشريعة لا يتعلم حدود الإسلام ولديه من الأسئلة فيما لا يعنيه شيء كثير وفرائض الإسلام لم يتعلمها!! فهذه الأحاديث أيضا فيها التحذير من هذا الأمر وأن الواجب على الإنسان أن يعرف الفرائض ويجاهد نفسه على فعلها ، وأن يعرف حد الشريعة فلا يتجاوزه ، وأن يعرف المحرمات ليكون بعيدا عنها ويترك الأسئلة التي فيها تعنت أو تكلف أو تقعر أو تعمق أو خوض فيما لا يعنيه كل ذلك يتركه .

يمكن أن نقول إن هذا الحديث حديث أبي ثعلبة الخشني يضع للمسلم ولطالب العلم منهجية في طلب العلم حتى تنضبط أموره في طلب العلم وتتنز ، يضع له منهجية في طلب العلم وكيف تكون اهتماماته في الطلب؟ وبماذا يبدأ؟ وكيف يتدرج في طلب العلم؟ فالحديث يضع لطالب العلم منهجية ؛ قال ((إن الله فرض فرائض)) هل يناسب في حق المسلم أن ينشغل بتعلم بعض المندوبات والرغائب والمستحبات وهو لا يعرف فرائض الإسلام؟ أو وهو أيضا مفرط في فرائض الإسلام ، فقبل الدخول في هذه الأمور يتعلم الفرائض وأعظم الفرائض التوحيد الذي خلق الخلق لأجله وأجدوا لتحقيقه ثم الصلاة الصيام والزكاة والحج ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) ؛ يتعلم الفرائض ثم يتعلم حدود الشريعة حتى لا يخرج عن حدها فيتعرف على الواجبات والمستحبات حتى لا يخرج عن حد الشريعة ، ثم يتعلم المحرمات حتى لا يقترب شيئا منها ولا يرتكب شيئا منها .

ومن فوائد الحديث العظيمة: بيان أن مقصود العلم العمل ، وإلا ما هي قيمة العلم!! مقصود العلم العمل ، ما هي قيمة تعلم الإنسان للفرائض إذا كان حتى يتعلمه لها مضيعا لها!! وما فائدة تعلم الإنسان للمحرمات إذا كان أيضا مع تعلمه لها مقترضا لها!! يعرف المحرمات ويعرف عقوباتها عند الله سبحانه وتعالى ويعرف أن هناك جنة ونار وثواب وعقاب ثم يرتكب المحرمات!! يصبح علمه حجة عليه ، علم الإنسان إما حجة له أو حجة عليه ((القرآن حجة لك أو عليك)) ؛ فهذا الحديث من فوائده العظيمة أن فيه تنبيها إلى أن مقصود العلم العمل ، ولهذا يقول علي رضي الله عنه: «يهتف بالعلم العمل» يعني العلم ينادي العمل «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل» ما الذي يرتحل؟ العلم ، إذا لم يعمل صاحب العلم به ارتحل علمه ذهب وأصبح حجة عليه. ولهذا من فوائد الحديث العظيمة أن فيه تنبيه للمسلم إلى مقصود العلم ، تجلس في مجالس العلم تتفقه لتعمل وإلا مجلسك شاهدا عليك وحجة عليك .

هل معنى ذلك أن المسلم يترك مجالس العلم؟ يقول "أنا نفسي تميل إلى التفریط وإلى التضييع وإذا جلست مجلس علم سأستمر على تفریطي وتضييعي ويكون هذا المجلس حجة علي لا لي" فهل الأليق بي أن أترك مجالس العلم وأبتعد عنها؟ الجواب لا؛ إذا ابتعد الإنسان عن مجالس العلم ومجالس الخير حرم نفسه عن الخير، مجالس العلم هي أعظم بوابة للإنسان لصلاح نفسه وزكاء قلبه وطمأنينة قلبه وسكونها ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده))، يخرج المسلم من مجلس العلم ونفسه مقبلة على الخير مطمئنة منشرح الصدر نافرة من المعاصي محبة للخير ((هم القوم لا يشقى بهم جليسهم))، ولهذا مجالس الخير ينبغي أن يحافظ عليها المسلم وفي الوقت نفسه كما أنه يجاهد نفسه على حضور المجالس أيضا يجاهدها على العمل بالخير الذي يتعلمه ويعود نفسه على ذلك .

فالحديث حديث عظيم مبارك، وإيراد المصنف رحمه الله لهذا الحديث في باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب هذا من فقه المصنف رحمه الله تعالى ومن جمال الاستشهاد والاستدلال .

قال رحمه الله تعالى :

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) هذا الحديث كما اشرت مقدما له قصة وهي : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إن الله فرض عليكم الحج فحجوا)) فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله ؟ قال ((لو قلت نعم لوجبت)) ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) ؛ «ما نهيتكم عنه» أي من المحرمات والممنوعات «فاجتنبوه» أي ابتعدوا عنه واحذروا من الوقوع فيه ، «وما أمرتكم به» أي من صلاة وصيام وحج وصدقة وغير ذلك «فأتوا منه ما استطعتم» أي افعلوا منه الذي تستطيعونه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف الإنسان ما لا يطيق ، لا يكلف نفسا إلا وسعها «فأتوا منه ما استطعتم» ، ((صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب))، قال في الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] ، من لا يطيق الصيام يطعم . فالشاهد أن الأوامر التي أمر الله

تبارك وتعالى بها منوطة بالاستطاعة ، إذا كان الإنسان مستطيعاً لفعلها فعلاًها وإذا كان لا يستطيع فعلها كاملة يفعل منها ما استطاع ((صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)). .

لاحظ هنا ملاحظة مهمة: في النواهي قال: ((ما نهيتمكم عنه فاجتنبوه)) هل قال هنا «ما استطعتم»؟ هل ذكر الاستطاعة هنا؟ قال ((ما نهيتمكم عنه فاجتنبوه)) ولم يذكر الاستطاعة ، وفي الأوامر قال: ((وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) لماذا؟ قال أهل العلم لأن النواهي ترك عدم فعل والترك مستطاع لكل أحد ، مستطاع للقوي والضعيف للصحيح والمريض للكبير والصغير للذكر والأنثى ، الترك مستطاع ليس أمراً يفعل الإنسان فيقال يمكن يستطيع ويمكن لا يستطيع هو ترك والترك مستطاع لكل أحد ، أما الأوامر افعل كذا هذه قد تكون مستطاعة وقد لا تكون مستطاعة ولهذا في الأوامر قال : ((ما استطعتم)). مثال للتوضيح الفرق بين الأمر والنهي؛ عندما يقال "لا تدخل مع هذا الباب"، وعندما يقال "ارفع هذا الحجر" أمر ، عندما يقال "لا تدخل مع هذا الباب" هل يحتاج أن يقال إذا استطعت؟ لا يحتاج إليها لأنه مستطاع ، يبقى في مكانه يذهب من طريق آخر ، لكن "ارفع هذا الحجر" هذا أمر ممكن يكون قوي الذي أمر فيرفعه ، ويمكن يكون ضعيف مريض ما يستطيع أن يرفعه ، ولهذا لما يؤمر الإنسان بفعل شيء يقال له إذا استطعت ، "اذهب احملني ذاك إذا استطعت" ، لكن "لا تفعل كذا هذا يضررك هذا يهلكك" لا يحتاج في مثل هذا المقام أن يقال «إن استطعت» ، ولهذا هنا قال : ((ما نهيتمكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)). .

قال: ((فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)) كثرة المسائل والاختلاف على الأنبياء له سبب ، وسببه قلة إقبال النفس على العمل ، النفس ليست راغبة في العمل فتبدأ المسائل ، ربما هذا يلاحظ بصورة مصغرة عندما تأمر طفلك الصغير أن يحضر لك شيئاً ؛ إذا لم يكن عنده رغبة أو نشاط أن يحضره لك ماذا يقول؟ مثلاً تقول أحضر لي الشيء الفلاني وهو نفسه ليست راغبة في إحضاره ما يريد أن يحضره تجده يقول لك: الذي أين؟ الذي فوق أو الذي تحت؟ في عدة أشياء أيها الذي تريد منه؟ ويجلس في مكانه يسألك عشرة أسئلة ، وإذا كنت ممن هو سريع الغضب ربما انفجرت من أسئلة صغيرك ، هذه السؤالات التي عنده سببها أن نفسه ليست نشيطة للعمل فتأتي مثل هذه السؤالات عند عدم الرغبة في العمل ، أما الراغب في العمل الذي نفسه مقبلة على العمل مجرد ما يُدَل على الخير ويفتح له أبوابه مباشرة يفعل . لاحظوا هذا في أمر الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذَبِّحُوا بِقَرَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٧] الأمر واضح ولا يحتاج إلى أي سؤال اذهب واشتري أي بقرة خذ أي بقرة واذبحها وتكون أديت الذي أمرت به ، لكنهم سألوا سؤالات وهذه السؤالات نابعة عن عدم رغبة في العمل والحرص عليه ﴿مَا لُونَهَا﴾ ، ﴿مَا هِيَ﴾ ، ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أسئلة متعددة ؛ هذه الأسئلة دائماً تأتي في قلة رغبة في العمل من كل أحد من الصغير من الكبير ، عندما

تقل الرغبة في العمل تبدأ بعض الأسئلة ، وربما نفس هذا الذي لا يرغب في العمل تقول له ربما بعض الأسئلة تحلّصك من الموقف ، بعض الأسئلة تجعلك تُعفى مثلاً من هذا الأمر فتتكرر وتتوارد الأسئلة التي تنشأ عن قلة العمل ، لكن الذي له رغبة في العمل أمامه فرائض مطلوب أن لا تضيع ، أمامه محرمات مطلوب أن تجتنب ، أمامه حدود واضحة للشريعة مطلوب أن تجتنب ؛ فهل يُشغل عن معرفة الفرائض ومعرفة الحدود ومعرفة المحرمات بسؤالات في أمور لا تعنيه أو في تعنتات . فمثل هذه السؤالات أسئلة التعنت والتكلف لا تأتي إلا عن قلة الرغبة في العمل ؛ وهذا فيه تنبيه يفيد جداً في هذا الباب الذي ساق المصنف رحمه الله تعالى الحديث لأجله فيه تنبيه لطالب العلم أن تتجه همته العالية في الطلب إلى الأمور الكبار مع الحرص على العمل والجد في ذلك ، يعرف الفرائض والأوامر ويعرف أيضا النواهي والمحرمات ، وهو مقبل على فعل الأوامر وحريص على ترك النواهي واجتنابها .

بهذه المناسبة أذكر قصة لما فيها من فائدة ألا وهي: قصة طالب كنت درّسته في المرحلة المتوسطة قبل قرابة عشرين سنة أو في هذه الحدود وكان حافظاً للقرآن حفظاً جيداً ، فيوم من الأيام أتاني بمذكرة في حدود ثلاثمائة صفحة أو أكثر ومكتوب عليها «الأوامر والنواهي في القرآن» وقال لي أريد أن تقرأ هذه وتوجهني ، قلت من الذي جمعها؟ قال أنا ، فقلت لا هذه خليفها بعدين التأليف والكتابة هذه مرحلة فيما بعد ، الآن تعني بطلب العلم ، قال: لا أنا لا أولف ، أنا الحمد لله أحفظ القرآن وأقرأ القرآن دائماً ولما أقرأ القرآن وجدت في القرآن أوامر كثيرة يأمرنا الله بها ونواهي كثيرة ينهانا الله سبحانه وتعالى عنها ، فأحببت أن أتفقه فيما يأمرني الله به لأفعله وما ينهاني عنه لأتركه ، فأخذت كلما جاءني أمر في القرآن أضعه في الكراسة وأرجع إلى تفسير ابن كثير وتفسير ابن سعدي وأنقل معنى الآية ، وأيضاً النواهي وجمع لنفسه من أجل أن يفقه ما أمره الله به في القرآن وما نهاه الله عنه في القرآن من أجل أن يفعل الأوامر ويترك النواهي جمع لنفسه مذكرة في ثلاثمائة صفحة وجمع كلام أهل العلم فيها مستشعرا قول ابن مسعود : «إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا يا أيها الناس فأرعوها سمعك؛ فإنه إما خير تؤمر به وإما شر تُنه عنه» .

كثير منا يقرأ الأوامر والنواهي التي في القرآن وكأنها لا تعنيه وكأنه لا تعلق له بها ! يقرأ الآية إن كانت أمراً يقصّر في فعله وإن كانت نهياً يقتصره . إذاً الحديث فيه توجيه مبارك للمسلم ولطالب العلم في طريقة الطلب بأن يهتم في طلبه للعلم بالأمور العظيمة الكبيرة من الفرائض والمحرمات ، وأيضاً أن تتجه همته للعمل .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((نَصَرَ الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها ، فُرُبَّ حامل فقه غير فقيه ، وربُّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يغلُّ

عليهم قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)) رواه الشافعي والبيهقي في المدخل ورواه أحمد وابن ماجه والدارمي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وهذا الحديث حديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم كما نص على ذلك جماعة من أهل العلم ، وقد رواه عن النبي عليه الصلاة والسلام عشرين نفساً من الصحابة أو يزيد على ذلك ، ولعل لذلك سبب ألا وهو: أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر هذا الحديث في جمعٍ غفير من الناس جاء في بعض طرق حديث ابن مسعود هذا وجاء أيضاً من رواية جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا الحديث في الخيف من منى ، في مسجد الخيف في يوم العيد في حجة الوداع خطب الناس ووعظهم في ذلك اليوم وكان مما قال : ((نضر الله امرء سمع مقالتي)) وأمامه جموع المسلمين في ذلك المكان ، فقال ذلك عليه الصلاة والسلام في مسجد الخيف في منى في يوم العيد وأمامه جموع من الناس ولهذا رواه جمع من الصحابة وهو حديث معدود في الأحاديث المتواترة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال صلى الله عليه وسلم : ((نَضَرَ اللهُ امرءًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها)) ؛ «نضر الله» هذا دعاء ، دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم بالنضرة ، والنضرة: هي البهاء والتنور والضياء والحسن ، دعا عليه الصلاة والسلام بنضرة الوجه وبهاؤه وجماله وحسنه لمن قاموا بهذه الأمور التي ذكرها عليه الصلاة والسلام في الحديث، قد قال الله في القرآن: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿القيامة: ٢٢-٢٣﴾ «ناضرة»: أي حسنة بهية جميلة ، «إلى ربها ناظرة»: أي تنظر بأبصارها إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، نسأل الله أن يكرمنا جميعاً بذلك .

فالنضرة: هي البهاء والحسن والجمال ، فدعا صلوات الله وسلامه عليه بالنضرة ، ولهذا تستطيع وأنت في هذا القرن وفي هذا الزمان المتأخر من التاريخ أن تفوز بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لك بأن ينضر الله وجهك إذا جاهدت نفسك على فعل هذه الأمور التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث تفوز بإذن الله بدعوة مباركة ميمونة من النبي صلى الله عليه وسلم ((نضر الله امرء)) دعاء لمن يقوم بهذه الأمور بأن ينضر الله سبحانه وتعالى وجهه .

قال: ((نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها)) كم هي الأمور المطلوبة؟ أربعة أمور ، حتى يفوز العبد بهذه الدعوة يفعل أموراً أربعة وهي مراتب العلم ، ولهذا أوردها المصنف رحمه الله في هذه الترجمة ، فالذي يريد أن يفوز بهذه الدعوة العظيمة المباركة الميمونة من النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على أمور أربعة ذكرها صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ؛ قال :

١ - سمع مقالتي

٢- فحفظها

٣- وعاءها

٤- أداها

فهذه مراتب أربعة للعلم ذكرها صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ودعا لمن حقق هذه المراتب الأربعة بالنضرة .

﴿الأمر الأول : السماع ؛ ويقولون أول العلم سماعه ، الأول السماع لكن متى يسمع العبد العلم؟ أكثر الناس نفوسهم نافرة من سماع العلم ومنشغلة عن الجلوس له ومنصرفة في أمور لا طائل من ورائها ولا فائدة فيها ، فمتى يسمع الإنسان؟ ولهذا أول العلم سماعه، ولهذا إذا أراد الإنسان أن يجاهد نفسه على العلم والتعلم أن يوطد نفسها ويصبرها على سماع العلم ، أن يجلس مطمئنا يسمع العلم ، فهذا أول العلم ، وإذا حرم الإنسان نفسه من سماع العلم الأمور الأخرى ينحرم منها تبعاً لأن أول العلم سماعه . ((سمعها)) هذه الرتبة الأولى .

﴿الرتبة الثانية: ((سمع مقالتي فحفظها)) ؛ الرتبة الثانية حفظ ما يسمع الإنسان ، والحفظ له وسائل عديدة منها أن يكرر الإنسان ما يسمع ، حديثاً سمعته تكرر ، من الناس من لا يحتاج أن يكرر ما يحفظه إلا خمس مرات ، ومنهم من يحتاج إلى عشرين مرة ، ومنهم من يحتاج إلى خمسين وهكذا ، فيكرر الإنسان هذا العلم الذي سمعه وهو مغتبط به فرح بسماعه حريص على عوائده وآثاره العظيمة التي عليه وعلى الناس في الدنيا والآخرة فيكرر العلم حتى يكون محفوظاً . قال ((سمعها فحفظها)) ، وأيضاً من الحفظ العلم أن يكتب العلم ، العلم صيد والكتابة قيده، فيكتبه حتى يبقى محفوظاً عنده في الكتاب يتسنى له مطالعته ومراجعته بين وقت وآخر ، وكثير من الأحاديث حُفظت حفظها الله سبحانه وتعالى بالكتابة ((سمعها فحفظها)) هذا الأمر الثاني .

﴿الأمر الثالث قال : ((ووعاها)) وهو الفهم ؛ فهم ما يسمعه وفهم ما يحفظه ، ولا يكون الحفظ مجرد جمع معلومات لا يدري ما هي ولا يعرف معناها ولا يعرف مدلولها ، بل يعي أي يفهم ويعرف المعنى ، لا يكون الانشغال بالحفظ المجرد بل يحفظ ويفهم ، إذا حفظ آيات من القرآن يجتهد أن يفهمها ، وإذا حفظ أحاديث من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أيضاً يجتهد في فهمها ومعرفة مدلولها . قال ((ووعاها)) .

﴿ثم تأتي المرتبة الرابعة قال ((وأداها)) في بعض الروايات ((كما سمعها)) يعني يتقن حفظها وضبطها وفهمها ويؤديها أي كما سمعها وافية ، ولهذا كان أئمة الحديث يجتهدون في ضبط ألفاظ الأحاديث وحفظها عناية دقيقة ، وإذا شك في لفظ في الحديث نبه عليه ، كله من حرصهم على الفوز بمثل هذه الدعوة العظيمة المباركة

من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ((نضر الله امرءًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها))؛ هذه مراتب العلم: السماع ، ثم الحفظ ، ثم الفهم ، ثم أدائه وإبلاغه كما سمعه الإنسان .

قال: ((فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)) وهذا فيه ألا يحتقر الإنسان من المعروف والخير شيئًا ويجهل أن يكون حريصًا على سماع العلم وحريصًا على حفظ العلم وفهمه وإبلاغه للناس ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ربما أن يكون الإنسان يحفظ حديثًا وليس عنده فقه تام فيه فيذكره إلى من هو أفقه منه فيبين ما فيه من فقه ، بحيث يكون هذا الأول ليس عنده قدرة على الاستنباط والفهم فإذا عرضه على من هو أفقه منه عرف كيف يستنبط منه وكيف يأخذ منه الأحكام ، والأول الذي كان حافظًا له لم يكن على علم بذلك ((فرب حامل فقه غير فقيه)) وهذا فيه أن من الناس من يكون يحفظ أحاديث ولكن لا يعرف مدلولها أو لا يعرف دلالاتها الواسعة ، يعرف شيئًا يسيرًا من دلالات الحديث ، بعض الأحاديث التي قد يظن بعض الناس أنه ليس فيها دلالات فقهية مثل ((يا أبا عمير ما فعل النغير)) بعض الناس يظن أنه ليس في دلالات أو فوائد فقهية أو أشياء تستنبط منه ، بعض العلماء أوصل الفوائد التي تستنبط من هذا الحديث إلى قرابة مئة فائدة ، فمعرفة الأحكام والاستنباط ليس لكل أحد ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] هنا يتميز أهل العلم والراسخين فيه.

قال: ((فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)) قد يكون شخص أعلم منك وأفقه منك وأرسخ منك في العلم وتذكر له فائدة جديدة عليه لأول مرة يسمع بها ((رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)) فهذا فيه تحريك الإنسان إلى السماع والحفظ والوعي والإبلاغ والأداء .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((ثلاث لا يغفل عنهم قلب امرئ مسلم)) الغل معروف وهو داء يصيب القلب ومرض يدخل في النفس ، ولهذا قال ((ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم)) الغل مكانه القلب وهو الحقد والضغينة وأن يجد في قلبه شيء على هذه الأمور لا تقبلها نفسه ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام ((ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم)) أي أن قلب المسلم لا يحمل غلا بل نفسه منشحة لهذه الأمور مقبلة .

قال: ((إخلاص العمل لله)) نفس المسلم لا تغل على ذلك بل تطمئن لذلك وتقبل عليه ، لأن الله عز وجل هو الخالق الرازق المنعم الموجد لهذه المخلوقات والعبادة حق له وحده ، ليس لأي أحد فيها شركة هي حق لله ، فالمسلم يقبل على الإخلاص ونفسه في غاية الانشراح والطمأنينة لأنه يأتي بالعبادة صافية نقية لا يريد بها إلا وجه المستحق سبحانه وتعالى ، فهي حق له وحده جل وعلا ، فنفس المسلم تقبل على الإخلاص ولا تتردد فيه ولا يجد في قلبه شيئًا تجاه الإخلاص . هذا الأمر الأول ((إخلاص العمل لله)) .

((والنصيحة للمسلمين)) والنصيحة معناها: إرادة الخير للغير ، إرادة الخير للمسلمين ، لا يحمل في قلبه غشا ولا غلا ولا حقدًا ولا حسدًا وهذا من تحقيق الإيمان وتتميمه أن يكون العبد بهذا المستوى من النصح، النصح

للمسلمين لا يغش ولا يخدع ولا يحمل غلا ، فقلب المسلم لا يغل على ذلك لماذا؟ لأن الله عز وجل أمرنا بأن نكون ناصحين للمسلمين محبين الخير لهم متعاونين معهم على البر والتقوى والصالح لا نحمل شرا أو أذى أو كيدا أو مكرًا لمسلم .

قال: ((ولزوم جماعتهم)) أن يلزم المسلم جماعة المسلمين فلا ينزع اليد من الطاعة ولا يشق العصا ولا يفرّق الكلمة بل يكون من جماعة المسلمين ، واحدا منهم واحدا من المسلمين يفرح لفرحهم ويألم لألمهم ويكون واحدا منهم ، لا يميز نفسه عليهم ولا يتسلط عليهم بأذى بل يكون واحدا من جماعة المسلمين ((ولزوم جماعة المسلمين)).

ولاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاث التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام وقال ((لا يغل عليهن قلب مسلم)) لها ارتباط بالدعوة في أول الحديث قال ((نضر الله امرءً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)) ، متى يتأتى للناس أن يسمعوا العلم ويحفظوا العلم ويعوا العلم ويبلغوا العلم إذا لم تتحقق فيهم هذه الأمور الثلاثة؟ إذا لم يكونوا من أهل الإخلاص ، أو لم يكونوا ناصحين للمسلمين ، أو لم يلزموا جماعة المسلمين ؛ رأيتم عندما يفرق بعض الناس كلمة المسلمين بالفتن والخروج على ولاة الأمر ونزع اليد من الطاعة ثم تنشب الفتن بين الناس وتراق الدماء ويذهب الأمن ويكثر القلق ، في مثل تلك الأجواء هل يتهيأ للناس الجلوس لسماع العلم ؟ هل يتهيأ لهم الجلوس لحفظ العلم؟ هل يتهيأ لهم إبلاغ العلم؟ ومنطقتهم تعصف بالدماء وتعصف بالفتن وتعصف بالشرور ، فإذا لم يحقق الناس هذه الأمور الثلاثة الإخلاص لله والنصيحة للمسلمين ولزوم الجماعة لا يتحقق لهم الأمر الأول الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأهله بالنصرة الذي هو طلب العلم بالتدرج في مراتبه .

قال: ((فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)) ؛ دعوة المسلمين شَبَّهَها النبي عليه الصلاة والسلام بالسياج ، شَبَّهَ دعوة المسلمين أي الإسلام الذي يُدعى إليه ويدعون إليه مثل السياج الذي يحيط بهم ((فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)) أي تجمعهم جميعا محيطة بهم وهم داخلها . وهذا تأكيد على لزوم الجماعة أن لا يخرج الإنسان من جماعة المسلمين، فإذا أراد أن يصلح نفسه أو يصلح أفرادا من جماعة المسلمين لا يخرج عن الجماعة يبقى مع الجماعة واحدا منهم ويصلح بالتي هي أحسن . انتبهوا الفرق في باب الإصلاح بين المصلحين والمفسدين ؛ المفسد الذي يتزعم الإصلاح يخرج عن جماعة المسلمين ويميز نفسه عن صف المسلمين ويكون خارجا عن الجماعة وبزعمه أنه مصلح ، فيبدأ يفسد في الجماعة قتلاً وإراقةً للدماء وإثارة للشرور والفتن وإذا سئل ماذا تصنع ؟ قال أريد الإصلاح، وهو مفسد. الذي يريد الإصلاح لجماعة المسلمين يبقى واحدا من الجماعة ويصلح الجماعة بالحسنى . رأييت -وهذا مثل يوضح لك هذا الأمر جليا- رأييت عندما تكون أنت على خطأ ومحدثك شخص ينبهك برفق لكنه لما يناصحك تحس أنك منه وأنه منك ورفيقا بك ورحيما ومتلطفا ويدعوك لخير أو ينهاك عن شر تجد نفسك ترتاح إليه وتسمع ، إن لم تسمع منه اليوم غدا ، إن لم تسمع منه غدا بعد غد ، بينما إذا شخص نابذك

وسلّ عليك سيفه ورماك بالعظائم معتديا عليك نفسك تنفر منه ، ويوجد في الصف وبين الناس من المفسد وإراقة الدماء والشروع ما لا يحمدون عاقبته . قال ((فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)) .

وأيضاً هذا يتضمن معنى آخر في قوله ((دعوتهم تحيط من ورائهم)) أن من كان مع الجماعة الدعوات التي تصدر من أفرادهم لجماعتهم تشمله ، الدعوات العامة التي تصدر من أفراد المسلمين لجماعة المسلمين عندما يقول "اللهم أعز الإسلام والمسلمين" ، "اللهم اهدنا فيمن هديت" ، "اهدنا الصراط المستقيم" هذه الدعوات العامة التي تصدر من أفراد المسلمين أيضاً تشمل المسلمين عموماً ، وهذا فيه نهي عن الخروج عن جماعة المسلمين وعن صفهم وأن يكونوا يداً واحدة متعاونين متآزرين متناصحين كلهم يبتغون وجه الله سبحانه وتعالى بالعمل لله مخلصين . قال ((ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسماعين :
وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((العلم ثلاث: آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة ، وما كان سوى ذلك فهو فضل)) رواه الدارمي وأبو داود .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((العلم ثلاث: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة ، وما كان سوى ذلك فهو فضل)) ؛ هذا الحديث أورده المصنف رحمه الله تعالى في «باب التحريض على طلب العلم وبيان كيفية طلب العلم» لأن الحديث مشتمل على جماع أصول العلم ، وأن أصول العلم ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذا الحديث ، وما سوى ذلك كما بُيِّنَ في الحديث فضلُ أما الأصول فهي ثلاثة ذُكرت في هذا الحديث وما سوى هذه الأمور الثلاثة فهي فضلٌ كما جاء في تمام الحديث وآخره .

الأمر الأول: ((آية محكمة))؛ آية أي من كتاب الله عز وجل ، محكمة وقد عرفنا فيما سبق معنى قول الله جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] ، والآية المحكمة: أي البينة الواضحة في دلالتها ، وأيضا يراد بالآية المحكمة: أي غير المنسوخة.

الأمر الثاني : ((سنة قائمة)) أي سنة من سنن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام قائمة أي متقررة وثابتة . فهذا هو العلم؛ العلم : آية محكمة أو سنة قائمة ولهذا قال أهل العلم: « العلم قال الله قال رسوله» هذا هو العلم ، «قال الله»: آية محكمة ، «قال رسوله»: سنة قائمة هذا هو العلم ، والعلم كله يرجع إلى هذا .
والأمر الثالث قال : ((فريضة عادلة)) ؛ قوله فريضة عادلة يحتمل أحد أمرين:

١. الأول: أن يراد بالفريضة الفرائض المعروفة التي هي قسمة الموارث قسمة التركة ، ولهذا فإن الإمام أبا داود رحمه الله خرّج هذا الحديث في كتابه السنن في كتاب الفرائض ، بل جعله أول حديث في كتابه الفرائض من سننه ، فيحتمل أن المراد بالفريضة أي قسمة التركة قسمة الموارث .

٢. ويحتمل أن الأمر أوسع من ذلك ؛ أن الفريضة العادلة فرائض الإسلام وواجبات الدين .
وإضافة الفريضة العادلة إلى السنة القائمة والآية المحكمة من إضافة الخاص للعام ، لأن الفريضة العادلة هي من الآيات المحكمات ومن السنن الثابتات ليست أمرا زائداً ، لكن التخصيص يكون للاهتمام .
قال: ((وما كان سوى ذلك فهو فضل)) أي ما سوى هذه الأمور الثلاثة فهو فضل ؛ أما أصول العلم فإنها ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)) رواه الترمذي . وفي رواية: ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)) رواه الترمذي.

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث حديث ابن عباس رضي الله عنهما بروايته في بيان خطورة القول على الله وفي كتابه بغير علم ، والحديث وإن كان في سنده كلام إلا أن معناه حق وما ذكر فيه أمر متقرر ثابت عند أهل العلم ، وشواهد ذلك ودلائله في الكتاب والسنة كثيرة جداً ، حتى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه قوله المشهورة «أيُّ أرض تُقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم» والله عز وجل يقول: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣] ، ويقول جل وعلا : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

الرواية الأولى قال: ((من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)) ؛ من قال في القرآن برأيه: أي بالرأي المجرد . والرأي المجرد مذموم ذمه أهل العلم لما يترتب عليه من جنوح وانحرافٍ عن الحق والصواب ، بينما إذا كان رأي الإنسان تبعًا لكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعمله في حدود فهم النص لا الافتيات على النص وحرفه عن مراده ومدلوله ومقصوده فلا بأس بذلك أن يكون تبعًا . ولهذا الرأي المذموم هو ذلك الرأي الذي تُحَرَّف فيه النصوص وتصرف عن مرادها ويكون فيه تكلفات وخروج عن معاني ودلالات كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((من قال في القرآن برأيه)) وهذا باب للناس فيه جرأة لاحد لها ، حتى إن كثيرًا من الناس يطيب له أن أي أمر يعجبه ويروق له يتمحل لنفسه الاستدلال عليه من القرآن بأنواع من التكلفات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، يتمحل بأن يأتي باستدلالات وشواهد على ذلك من كتاب الله عز وجل ؛ فهذا كله من القول في القرآن بالرأي ، يُعْمَل الإنسان رأيه وفكره ويترك دلالات النصوص ومعانيها وفهم أئمة السلف لها ثم يشغل نفسه بآراء سقيمة ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، والشواهد على ذلك من واقع الناس حتى في زماننا فيما يتداوله الناس بينهم من آراء سقيمة وفهوم سقيمة لكلام الله جل وعلا كثيرة جدًا وهي من الجرأة على كلام الله عز وجل .

الرواية الأخرى قال: ((من قال في القرآن بغير علم)) وهذه توضح الرواية الأولى ، توضح قوله ((من قال بالقرآن برأيه)) وأن القائل في القرآن برأيه قائلٌ بغير علم في كتاب الله عز وجل ، ولو كان المعول على الآراء المجردة ويُجعل القرآن تبعًا لها ما الحاجة إذاً إلى القرآن!! إذا كان المعول على الآراء المجردة والقرآن تبع للآراء يوظفه الناس على ما توصّلت إليه آراءهم وأفكارهم فإذا ما الحاجة للقرآن؟! من الناس من طريقته أنه يعتقد أولاً ثم يستدل ، تتقرر العقيدة عنده ثم يستدل يبحث لها عن دليل في القرآن والسنة بنوع من التكلف وتحريف النصوص وصرفها عن دلالاتها ، إذا كان الأمر بهذه الصفة إذا ما الحاجة إلى القرآن؛ إذا كان القرآن يجعل تابعًا للآراء والفهوم التي يتوصل إليها الناس!! .

فالشاهد أن في هذا تهديدًا لمن يقول في القرآن بغير علم أو يقول في القرآن برأيه يُعْمَل رأيه المجرد في كتاب الله عز وجل ، ومن أعمل رأيه المجرد في كتاب الله وقال فيه عن غير علمٍ وعن غير اقتفاء واتباع لسلف الأمة فإنه مخطئ وإن أصاب، لأنه أخطأ في الطريقة التي تعامل فيها مع كتاب الله تبارك وتعالى ، وكتاب الله عز وجل معظمٌ ومحترم في ألفاظه ومعانيه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من أفتى بغير علمٍ كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانته)) رواه أبو داود .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((من أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه)) ؛ من أفتى بغير علم أي: من أخذ فتوى من أحد المفتين أو المتصدرين للفتوى وكان ذاك المفتي قد أفتاه بغير علم فإن إثمه على من أفتاه ؛ وهذا فيه بيان لخطورة الفتوى ، وأن الفتوى مسؤولية يتحملها المفتي وأمانة ، ورب العالمين جل وعلا يسأله عنها يوم القيامة ، فإذا أفتى شخصاً أو أشخاصاً بغير علم فإن إثم هؤلاء عليه لأنهم وثقوا به واطمأنوا إليه وعدّوه من أهل الذكر ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧] وسألوه فأفتاهم بغير علم ، فأصبحت العهدة في هذا الأمر عليه .

وهذا يبين لنا خطورة الفتوى وأنها ليست بالأمر الهين وأنها أمانة ومسؤولية ، ولهذا قال بعض السلف قديماً ، قال ناصحاً من تصدّر للفتوى: «لا يكن همُّك تخليص السائل ، وليكن همك تخليص نفسك» ، إذا سُئلت لا يكن همك متجه لتخليص السائل وليكن همك تخليص نفسك ، لأن الكلام الذي ستقوله أصبحت مسؤولاً عنه ، أصبحت كلمة أنت تُسأل عنها يوم القيامة فلا يكن همك تخليص السائل وليكن همك تخليص نفسك . بعض الناس عندما يُسأل ويأتيه السائل مثلاً وهو متألم من مشكلةٍ ما ويعاني من أمرٍ ما ويتكلم وهو متأثر فربما عطف عليه المفتي أو من تصدّر للفتوى عطف عليه وحنّ لكلامه وأحب أن يعاونه أو على قول بعض العوام يفزع معه ، قال "لا حرج عليك هوّن عليك ، لا حرج عليك ، ليس عليك خطأ افعل ولا حرج مثلاً" ثم يذهب هذا المستفتي بهذه الفتوى وتبقى العهدة على المفتي، وهذا يكون ممن يجرء على الفتوى بدون علم ، يبادر إلى الفتوى بغير علم . وكثير من العوام إذا اطمأن إلى الشخص ولهيته وملظهره استفتاه وخاصة في المواضع الحرجة التي تحتاج إلى ما يسمى "فتوى فورية" أمام أمر أفعل أو لا أفعل فتححتاج إلى فتوى فورية ، ومثل هذه الأمور يحتاج من الإنسان أن ينتبه لنفسه وأن يخلّص نفسه قبل أن يخلّص السائل ، وقد يسأل السائل ويذهب ولا يجده المفتي عندما يتبين له أنه أخطأ فيذهب بالخطأ ولا يجده، لو أحب أن يصلح ما أفسد أو أن يصلح الخطأ الذي وقع منه قد لا يجد المستفتي ؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن ينتبه وأن يحتاط وأن يكون همه تخليص نفسه، وقد قال السلف رحمهم الله قديماً «من أخطأ لا أدري أصيبت مقاتله» يعني من أخطأ كلمة لا أدري عندما يُسأل أصيبت مقاتله، إذا كان كل ما يسأل عنه يجب بثبت وبغير ثبت أصيبت مقاتله ؛ يكون بذلك جنى على نفسه جناية بليغة وأضر بنفسه

إضراراً بليغاً. ولو أيضاً أخذنا نضرب الأمثلة على هذا الباب من واقع الناس نجد أموراً عجباً في الجرأة على هذا الباب .

فهذا الحديث فيه تحذير شديد من الجرأة على الفتوى وأن ينتبه الإنسان عندما يفتني لأنه مسؤول أمام الله تبارك وتعالى عن ذلك ، وكما أيضاً قيل «أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار» لأنها مسؤولية عظيمة وأمانة . فهذا الحديث فيه التهديد والتخويف والتحذير من هذا الأمر ، قال: ((من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه)).

هنا أطرح تساؤلاً وأجيب عليه ، حتى أيضاً لا يُساء فهم الحديث ؛ قوله عليه الصلاة والسلام ((من أفتي بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه)) هل هذا الحديث يُعد مسوغاً لعوام الناس وعموم المسلمين أن يسألوا كل أحد؟ من يجده يسأله ويقول أفتاني وإن كان فيها إثم فأثمي على من أفتاني ؛ فهل هذا يُعد مسوغاً؟ بعض العوام عنده طريقة : إذا كان يرغب في شيء معين مثلاً يريد أن يشتري بطريقة معينة من البيع فيذهب ويستفتي أكثر من واحد إلى أن يجد أحد المفتين يفتيه في رغبته ، وكل واحد منهم يطرح عليه السؤال بصيغة معينة يحاول من خلالها أن يكسب منه جواباً لما يرغب ، وبعضهم يصل به الأمر في هذا الباب إلى أن يصنع مع المستفتي مثل ما يصنع مع التاجر عندما يشتري منه بضاعة ، الآن لما يشتري بعضهم بضاعة من التاجر يساوم التاجر في البضاعة وربما ألح عليه ، فبعضهم يفتيه العالم بالفتوى فتجده يساومه في أن يعطيه حكماً آخر أو يقلل مثلاً أو نحو ذلك ، فهل هذا الحديث فيه دلالة على أن للإنسان أن يستفتي كل أحد ويقول إثمي على من أفتاني؟ بعض العوام يقول "اجعل بينك وبين النار مطوع عالم" أي اسأل شخصاً فيما تريد وإذا أفتاك به خذ به إن كان فيها نار وفيها عقوبة عليه هو ؛ فهل هذا يعد مسوغاً؟ لا والله ، الله عز وجل ما أمر الناس أن يسألوا كل أحد قال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، لا يُسأل كل أحد وإنما الذين يُسألون أهل الذكر أهل العلم ، وكلما كان الرجل أرسخ في العلم وأمكن في الفتوى فهو الأحق بأن يُسأل ، وقد قيل قديماً "لا يُفتي ومالك في المدينة" ؛ إذا كان في البلد عالم راسخ قدمه في العلم وضلّع في العلم وتمكن فيه لا يستفتي غيره وهو موجود ، إذا حضر الماء بطل التيمم ، فالأصل أن يكون بحث الإنسان في فتواه عن العالم الراسخ . فإذاً الحديث ليس مسوغاً للعوام في أن يسألوا كل أحد ويجعلوا العهدة على من سألوه فإن ذمتهم لا تبرأ بذلك لماذا؟ لأنهم لم يحققوا مدلول قول الله تبارك وتعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

الشق الأول من الحديث يتعلق بالفتوى قال: ((من أفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه)).

الشق الثاني: ((ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانته)) ؛ هذه تُعد خيانة ، وهذا الجانب من الحديث في باب المشورة والنصح للمشاور وأن المستشار مؤتمن ، فإذا كان المستشار أي من اطمأن أخوه لرأيه فاستشاره في أمرٍ من أموره ومصلحة من مصالحه فأشار إليه بأمرٍ يعلم أن الرشد خلافه فهذه خيانة له .

فإذاً جانب الحديث الأول يتعلق بالفتوى ، وجانب الحديث الآخر يتعلق بجانب المشورة وإبداء الرأي في المصالح العامة ونحوها ، ويبين فيه صلوات الله وسلامه عليه أن من أشار على أخيه بأمرٍ يعلم أن الرشد خلافه فهي خيانة، بعض الناس عندما يستشار لا يُعمل فكره في بيان الأصلاح والأنفع لمن استشاره بل يُعمل فكره في توريط من استشاره وإيقاعه في العواقب الردية ، ويستغل استشارته له لمثل هذه الأغراض ؛ فهذه تُعد خيانة ، وهي داخلة في عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم في أوصاف المنافقين: ((إذا أؤتمن خان)) ، إذا ائتمنه في الأخذ برأيه ثم أعطاه رأياً هو في نفسه يعلم أنه خلاف الرشد فهذه تعد خيانة .

لعل -والله تعالى أعلم- إيراد المصنف لهذا الحديث في «باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب» التنبيه لطالب العلم أن لا يندفع في باب الفتوى وباب الرأي ، لاسيما عندما يحصل طرفاً يسيراً وقليلًا من العلم لا يندفع، بل يتأني ويحاول أن يحيل الفتوى ويتخلص منها، كانوا يتدافعون الفتوى لا يتسابقون إليها ، يأتيه الشخص ويقول اذهب إلى فلان ، ويذهب إلى فلان ويقول اذهب إلى فلان لماذا؟ لأنها مسؤولية ، وإذا كان هناك من هو أعلم وأولى بالفتوى وأجدر فيحال إليه ويتخلص المسؤول من مسؤولية الكلمة ومسؤولية الفتوى . فيإيراد المصنف لهذا الحديث في باب كيفية الطلب فيه التنبيه لطالب العلم أن لا يتسرع إلى الفتوى ولا يتسرع لإبداء الرأي ، والعلم الذي عنده علمٌ قاصر .

قال رحمه الله تعالى :

وعن معاوية رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن الأغلوطات» رواه أبو داود أيضاً.

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وفيه نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات ، وأغلوطات المسائل: أي ما يكون من تكلفات وتقعير في الكلام والقول لا يزيد الأمور إلا غموضاً ولا الحقائق إلا اشتباهاً والتباساً ؛ فنهي النبي عليه الصلاة والسلام عن الأغلوطات لأن الإسلام علانية وواضح وأموره بينة ، ولا حاجة للإسلام أن يثار بين أهله أغلوطات الأمور وتعمقات وتكلفات لا يحتاج إليها الناس ، بل وجودها بينهم لا تزيد الأمور عندهم إلا اشتباهاً ؛ فنهي عن ذلك بحيث تكون الكلمات في أمور واضحة وبينة دون تقعير أو تكلف أو نحو ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

وعن كثير بن قيس قال : كنت جالساً مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء إني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديثٍ بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئتك لحاجة ، قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر

له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) رواه أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم الجامع لفضايا طلب العلم ، بل إن هذا الحديث من أجمع الأحاديث لبيان فضايا طلب العلم ؛ حيث ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث الجامع خمسة فضايا عظيمة لطلب العلم عدّها واحدةً تلو الأخرى صلوات الله وسلامه عليه نصحا للأمة وتحريضاً لها على طلب العلم وبياناً للعوائد العظيمة والفوائد الكبيرة التي ينالها المسلم بسلوكه لطريق طلب العلم .

ورواية أبي الدرداء لهذا الحديث لها قصة لطيفة ساقه المصنف رحمه الله ألا وهي: أن رجلاً جاء إلى أبي الدرداء ، وكان أبو الدرداء في دمشق والرجل كان في المدينة ، ورحل من المدينة إلى دمشق ولم يحركه في رحلته من المدينة وانطلاقه منها إلا الحديث ، سماع حديث بلغه أن أبا الدرداء يحدث به ، فاشتقت نفسه إلى سماع هذا الحديث من الصحابي الراوي للحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فتحرك من المدينة ، والرحلة في ذلك الوقت مشقة عظيمة ليست كالحال في وقتنا ، الرحلة إلى الشام تحتاج إلى قرابة شهر كامل يتعرض فيه الإنسان إلى الشمس ووهج الصحراء ولفح الرياح وأنواع من المتاعب والمخاوف ، يتعرض لأمر كثيرة ، فهذا الرجل لم يعبأ بذلك كله مقابل أن يسمع هذا الحديث ، وخرج من المدينة وانطلق ذاهباً إلى الشام لحديث واحد ، والرحلة في ذلك الوقت مكابدة وعناء ، وكان الرجل في ذلك الوقت إذا جاءهم من السفر يعرفون فيه أثر السفر ، ولهذا كانوا مستغربين عندما جاء جبريل على صورة أعرابي قالوا «شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد» غريب هذا ، عادة إذا جاء الإنسان من سفر واضح في ذلك الزمان ، أما في زماننا من جاء من السفر ومن لم يأت ليس بينهما فرق ، لا تتغير الهيئة ولا الملامح ولا يظهر عليه غبار ولا تتسخ الثياب ولا أي شيء آخر ، يأتي من أقصى الدنيا ويكون سفره حاله فيه مثل حال المقيم؛ في أجواء مكيفة وكراسي مريحة والماء والعصير والطعام والشراب والمسافة أيضاً لا تطول، الذي يُقطع في تلك الأزمان في شهر يُقطع الآن بالطائرات في ساعة أو ساعتين . وليتنا نشكر الله عز وجل ، ليتنا إذا ركبنا هذه الوسائل التي منّ الله علينا بها في هذا الزمان نقول «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» أي مطيقين «وإننا إلى ربنا لمنقلبون» ، ليتنا نذكر نعمة المنعم سبحانه وتعالى وفضله وتيسيره ، وليتنا أيضاً نستعمل هذه الوسائل التي يسّرّها الله لنا فيما أباحه الله لنا وفيما أوجبه علينا وفيما فرضه علينا . الآن من الناس من يمتلك هذه الوسائل ويستخدمها في الحرام؛ يخرج من بيته ويشغل سيارته وينطلق إلى الحرام ، يستعمل هذه الوسائل التي أكرمها الله بها ومنّ عليه بها في أمور محرمة وآثام ، ينطلق بسيارته التي هي نعمة الله عليه وتيسيره سبحانه وينطلق فيها إلى حيث الحرام وحيث الباطل والعياذ بالله .

على كل حال هذا الرجل انطلق من المدينة متحملاً مكابدة السفر والمعاناة الشديدة إلى أن وصل إلى دمشق وبحث عن أبي الدرداء حتى وصل إليه وسأله عن الحديث .

قال الرجل : ((إني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئتك حاجة)) انظر إلى المهمة الكبيرة التي تبدو لك واضحة من كلامه ، قال «جئتك من المدينة» أي إلى دمشق «جئتك من المدينة لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جئتك حاجة» أيضا لاحظ كبر المهمة ؛ هذا الرجل جاء يطلب الحديث نفسه أو يطلب علو السند فيه؟ الحديث بلغه أن أبا الدرداء يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء يطلب علو السند فيه، وجاء يطلب أيضا أمرا آخر لعلنا أدركناه وهو: الفضائل التي في الحديث فضائل طلب العلم ، انطلق إلى أبي الدرداء ليسمع منه هذا الحديث الذي عدّد فيه النبي عليه الصلاة والسلام فيه تلك الفضائل ، وهو طامع أن تُكتب أنفاسه وخطواته وسيره وسفره تُكتب له رفعةً عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في طلبه للعلم ، أن يحتسب جهده وقته جلوسه سيره سفره معاناته كل هذه يحتسبها عند الله تبارك وتعالى ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

جاء في بعض روايات هذا الحديث أن أبا الدرداء استوثقه في الأسئلة لأن الأمر ليس بالهين ، قال: أما جئت حاجة؟ قال لا والله ، قال أما جئت لتجارة؟ قال: ما جئت لتجارة ، قال: ما جئت إلا لهذا الحديث؟ قال والله ما جئت إلا لهذا الحديث . فهذه السؤالات من أبي الدرداء للرجل ليس المراد تخوينه أو الشك في صدق حديثه ولكن المراد منها إظهار عظمة الأمر ، ما جئت لتجارة؟ ما جئت لحاجة؟ ما جئت إلا لهذا الحديث؟ بهذه السؤالات يظهر قيمة العمل الذي بذله . نظير هذا ما جاء في صحيح مسلم من حديث معاوية رضي الله عنه قال : «كنا حلقة جلوس في المسجد نتذاكر فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ما أجلسكم؟ قلنا جلسنا نتذاكر الإسلام وما منَّ الله علينا به ، قال: الله ما أجلسكم إلا ذلك؟» لماذا حلفهم؟ هل هذا شك منه في صدقهم؟ لا والله «الله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قلنا والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال أما والله إني لم أستحلفكم تهمة لكم» لم أطلب منكم أن تحلفوا لكوني أتهمكم إذًا لماذا؟ «أما والله إني لم أستحلفكم تهمة لك ولكن أتاني جبريل أنفا فأخبرني أن الله يباهي بكم ملائكته» أمر في غاية العظمة . فإذا أبو الدرداء رضي الله عنه في تلك السؤالات أراد أن يبرز قيمة هذه المهمة العالية في طلب العلم وتحصيل العلم . ثم روى له الحديث .

قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر

الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ؛ فمن أخذه (أخذ بحظ وافر)) فذكر هذا الحديث العظيم المشتمل على خمس جمل مشتملة على خمسة فضائل لطلب العلم .

﴿الفضيلة الأولى قال: ((من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة))﴾ ؛ هذه الفضيلة الأولى أن طلب العلم طريق إلى الجنة ، وتأمل هذا في قوله تعالى ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ، والعمل لا بد فيه من علم ، والعلم قبل القول والعمل ؛ ولهذا فهي أمور منتظمة كل واحدٍ منها أخذ بالآخر ، طلبٌ للعلم ومعرفةٌ له ولقدره ولفضله ولتفاصيله ، ثم عمل وجد واجتهاد على بصيرة وبينة ، ثم منة عظمى وكرامة كبرى يوم القيامة بالفوز برضا الله سبحانه وتعالى ودخول جنات النعيم ، فمن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة .

وقوله هنا ((سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) فيه لفظة عظيمة جداً في فضل العلم ؛ العلم عندما يصدق صاحبه في الطلب يسهل له الأعمال ويلين له الطاعات، الطاعات والأعمال لا تلين لصاحبها إلا بالعلم ، وهذا أمر واضح لأن العلم تُدرك به فضائل الأعمال الصحيحة وآثارها وعوائدها الحميدة ، وأيضاً تدرك به خطورة التقصير فيها والانتقاص لها ؛ فيكون العلم حاجزاً لصاحبه عن الرذائل باعثاً له إلى بلوغ أعلى الرتب في الفضائل . فالعلم من آثاره المباركة وعوائده الطيبة على صاحبه أنه يلين له الطاعات ، وفي الوقت نفسه أيضاً يبعث له المعاصي والآثام، فيخرج من العلم بنفس مطمئنة ، بقلب منشرح ، بإيمان ، بنور ، بضياء يهتدي به ، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه : أن العبد يحتاج من أجل أن يبلغ الرتب العالية إلى أمرين: علمٌ يهديه ، وهمة عالية ترقّيه ؛ إذا لم يكن عند الإنسان علم وعنده همة يمشي في ضياع ويسير في ضلال ، العلم هو الذي يهدي الإنسان ويضيء له الطريق ، فيحتاج إلى علم يهديه ، ويحتاج أيضاً إلى همة ، إن وُجد العلم ولم توجد الهمة لم ينتفع بالعلم ، وإذا وُجدت الهمة ولم يوجد العلم مشى الإنسان في ضلالات وبدع ما أنزل الله بها من سلطان ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿[الكهف: ١٠٣]-

١٠٤، فيحتاج إلى الأمرين معاً العلم والهمة ، والعلم أساسٌ تبنى عليه الأعمال وتقام عليه الطاعات .

قال: ((من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله)) انظر هذه الجملة وقف عندها ((سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) الصدق في طلب العلم يسهل الله تبارك وتعالى به على العبد طريق الجنة بانشرح صدره للطاعات وإقباله على الأعمال وجده واجتهاده فيها وبُعده عن الآثام ، كل ذلك من التسهيل والتيسير الذي يمن الله تبارك وتعالى به على طالب العلم . إذاً هذا من الفضائل للطلب ومما يبعث النفس على الحرص على طلب العلم .

ﷺ قال في الفضيلة الثانية : ((وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)) الملائكة لها أجنحة كما قال الله

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وقد رأى النبي صلى

الله عليه وسلم جبريل وله ستمائة جناح ، فالملائكة لها أجنحة ، ومن الملائكة من وكل الله عز وجل إليهم تتبع حلقات العلم ومجالس العلم كما جاء في الحديث : ((إن لله ملائكة فضلاً يطلبون حلق الذكر ، فإذا وجدوها قالوا هلم إلى حاجتكم)) هذه مهمتهم يحولون ويطوفون وإذا وجدوا حلقة ذكر تنادوا هلم إلى حاجتكم . فيحفون مجالس العلم بالأجنحة ويضعون أجنحتهم لطالب العلم رضا بما يصنع أي بصنيعه .

وهذا الأمر وإن كان طلاب العلم لا يرونه لأنه أمر معيَّب ، وهذا من الإيمان بالغيب ، وإن كانوا لا يرونه إلا أننا منه على يقين ، نحن على يقين تام بأن هذا الأمر يكون ، لأن الذي قاله صادق مصدوق صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، وإن كانوا لا يرون لكننا نؤمن بذلك دون شك أو ريب . وعدم الرؤية ليس شاهداً ولا دليلاً على انتفاء هذا الأمر ، وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام للأمة بهذا الخبر المغيب الخبر الغيبي لأي شيء؟ لماذا أخبرنا بذلك؟ هل أخبرنا بذلك لمزيد معلومات نضيفها إلى المعلومات التي عندنا؟ أم ذكر ذلك عليه الصلاة والسلام حتى يكون هذا الأمر دافعاً؟ لولا إخباره عليه الصلاة والسلام بهذا الأمر لما علمناه ، الله جل وعلا له ملائكة سيارون يبحثون عن حلق العلم وإذا وجدوا حلق العلم حفوهم بأجنحتهم ، في الحديث الآخر قال : ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)) ؛ فقله هنا : ((وحفتهم الملائكة)) وفي الحديث الأول ((تضع أجنحتها)) هذا أمر لا علم لنا به لولا إخبار النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو عليه الصلاة والسلام أخبر بذلك نصحاً للأمة وحتى يكون ذلك باعثاً للإنسان لمزيد من الطلب وحرص عليه ، ويأنس طالب العلم بهذا الأمر أن ملائكة الله الكرام الأطهار البررة تضع أجنحتها له رضا بما يصنع ، وإذا جلس مجلس العلم حفته بأجنحتها ؛ فهذه كرامة ومنة أكرم الله سبحانه وتعالى بها طالب العلم ؛ فيأنس بذلك وينشط في الطلب ويجتهد ، وهذا من آثار الإيمان بالغيب وبأصول الإيمان على العبد في سلوكه وأعماله وطاعاته .

ابن رجب رحمه الله له كتاب قيم جداً شرح فيه حديث أبي الدرداء مطبوع مفرداً ، ذكر فيه قصة فيها عظة وعبرة ، وهي قصة أحد الملاحدة الزنادقة وما أكثرهم في كل زمان ، لما سمع بهذا الحديث ((وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)) جاء يوم وصنع لنفسه حذاءً جعل في أسفله مسامير ثم جاء يمشي في الطريق بجوار بعض طلبة العلم على وجه الاستهزاء والسخرية والتهكم ، فسأله سائل : لماذا هذا الحذاء الذي بهذه الطريقة في أسفله مسامير؟ فقال والعياذ بالله : أريد أن أطأ أجنحة الملائكة ، كأنه يقول على وجه السخرية والتهكم ما في ملائكة وهذا الأمر خرافة ولا أصل له ؛ فشل الله سبحانه وتعالى قدميه ، بيست قدماه وتسمر في مكانه ، وهذه

عقوبة معجلة وعقاب الآخرة أشد وأبقى ، ومن سلم من عقاب الدنيا فأمامه عقاب الآخرة . وهذا يعتبر به من وجد عنده شيء من الجرأة والعياذ بالله في التهكم بأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام . وقد يجروء بعض الناس جرأة سافرة والعياذ بالله بأن يتهمك بالأحاديث و ببعض السنن الصحيحة الثابتة ، وهذا من أخطر ما يكون على الإنسان .

ومثل هذه القصة قصة لأحد المتهمين الساخرين قد قال الله في القرآن: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] ، قصة ذكرها النووي رحمه الله عن أحد الساخرين ؛ سمع حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي قال فيه : ((إذا قام أحدكم فليغسل يده ثلاث مرات فإنه لا يدي أين باتت يده)) فقال ساخراً "أنا أدري أين باتت؛ باتت معي في الفراش" أي ما باتت في مكان بعيد هي معي؛ باتت في الفراش ، يقول ذلك ساخراً ، فنام تلك الليل وأصبح ويده داخل دبره ، عقوبة ونكال معجل ، ولو سلم مثل هذا من مثل هذه العقوبة التي يجعلها الله عبرة له ولغيره إن سلم منها في الدنيا فأمامه عقوبات ، وكم من المصائب التي تدهى بعض الناس في حياته بأسباب منها الجرأة السافرة على دين الله وعلى سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالشاهد أن هذه الجملة من الحديث فيها فضيلة عظيمة مباركة لطلب العلم ألا وهي: أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع .

ثم ذكر فضيلة ثالثة قال : ((وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء)) هذه أيضا فضيلة ، وهي نظير ما تقدم ؛ إيماننا بها جزء من إيماننا بالغيب ، نحن لم نر الملائكة يضعون أجنحتهم لطالب العلم وأيضا لم نسمع استغفار السماوات والأرض والحيتان ، لم نسمع هذا لكننا من استغفارها لطالب العلم على يقين ، حتى الحيتان التي تسبح في الماء على كثرتها نحن على يقين تام أنها تستغفر لطالب العلم تقول اللهم اغفر له ، والسماوات تستغفر له ، والأرض تستغفر له ؛ وهذا فضل الله سبحانه وتعالى .

ثم تأمل هذه الفضيلة مع قول الله جل وعلا: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر: ٧٠] هذا عام لأهل الإيمان ، لكن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، العالم حُص ، هناك يستغفرون للذين آمنوا ، أما زيادة على ذلك السماوات والأرض ومن فيها والحيتان هذا للعالم، ليس لكل أهل الإيمان وإنما للعلماء لماذا؟ ما الحكمة أن العالم حُص بأن تستغفر له السماوات وتستغفر له الأرض وتستغفر له الحيتان في الماء؟ أهل العلم أخذوا يبحثون عن بعض الحكم لا يُجزم بها لكن أشياء يتلمسونها ، ومن أوضح ما قيل في الحكمة أمران:

١. الأمر الأول : قالوا لأن النفع الذي يكون من العالم ليس قاصرا على الناس ، حتى الدواب تستفيد من علم العالم لماذا؟ لأن العوام والجهال وعموم الناس يسمعون دائما من أهل العلم الحث على الرفق بالحيوان واللفظ ببهيمة الأنعام ورحمتها والإحسان إليها ويروون لهم أحاديث في ذلك ويفردون المصنفات في ذلك ، فما يكون من نفع يأتي من جهة العالم ليس المستفيد منه الناس بل أيضا تستفيد منه حتى الحيوانات ، والأحاديث في الرفق بالحيوان كثيرة يرويها العلماء ويشرحونها ويبينونها ويوضحونها للناس. فالشاهد أن الأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه . هذا أمر قليل في الحكمة .

٢. لكن هناك أمر أوضح من هذا وأجل وأعظم من هذا الأمر ألا وهو : أن هذه الكائنات ؛ السماوات ، الأرض بمن فيها ، الجبال ، الأشجار ، الدواب ؛ كلها مسبحة لله مطيعة لله عابدة لله جل وعلا ساجدة لله خاضعة لله ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْتَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فهذه الكائنات والمخلوقات الجمادات منها والحيوانات كلها مسبحة وساجدة لله ﴿وَكثيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] ، فاستغفار هذه الكائنات للعالم لأنه يعمل عملا دؤوبا في إصلاح الناس لأن يحققوا العبودية التي خلّقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها وهذه الكائنات عابدة لله ، فهي تستغفر لها لأنه يُصلح الفساد الذي يكون في الناس والخروج الذي يكون في الناس عن العبودية التي خلّقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها ، وفساد الناس بخروجهم عن التوحيد وعن الطاعة يُفسد الكون ويُضر به ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] فعمل العالم في إصلاح الناس ودعوتهم صلاح للكون صلاح للناس صلاح للأرض صلاح للبحار ؛ فهذه حكمة أخرى قيلت في استغفار من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء للعالم .

قال عليه الصلاة والسلام: ((وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء)) وأيضا لاحظ تعبير النبي عليه الصلاة والسلام هنا بقوله ((في جوف الماء)) ولم يقل في الماء ؛ تنبيهاً إلى أن الحيتان المستغفرة حتى من كان منها في أعماق الماء وفي لجج البحار وأعماق البحار أيضا تستغفر للعالم ليست فقط الحيتان المستغفرة هي الحيتان التي على الشواطئ والقريبة بل ما كان منها في جوف الماء وما أكثرها كلها تستغفر للعالم ؛ هذا من الفضائل التي تحرك في الإنسان طلب العلم حتى يكون من الأشياء التي يحوز عليها ويحظى بها هذه الفضيلة العظيمة .

ﷺ ثم ذكر الأمر الرابع قال : ((وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)) وهذا مثل عظيم جداً ذكره النبي صلى الله عليه وسلم ليعين من خلاله التمايز والتفاضل بين العالم والعابد ، وكأنه يقول لك عليه الصلاة والسلام إذا أردت أن تعرف الفرق والتفاضل بينهما فتعال يوم الرابع عشر من الشهر وانظر إلى السماء ترى القمر وترى النجوم ، إذا نظرت إلى النجوم تجد أنها في نفسها جميلة وزينة ومنظرها جميل وتحبها ، فهي شيء طيب وجميل ومنظر طيب وجميل لكنها لا تضيء لك ، لأنك إذا جئت في آخر الشهر عندما يذهب ضوء القمر تظلم الأرض والنجوم التي في السماء لا تضيء لك الطريق وتصبح ليلة ظلماء، إذا لم يكن معك مصباح قد لا ترى طريقك ، لكن في ليلة البدر ليلة الرابع عشر عندما يكون البدر تمامًا تجدد الأرض مضيئة ؛ فتدرك الفرق بين النجوم وبين القمر ، أيضًا الفرق بين العالم والعابد هو هذا ، العابد عبادته لنفسه من صلاة وصيام وصدقة وبذل وغير ذلك هذا نفعه قاصر عليه خاص به ، أما العالم فعلمه ليس خاصا به بل ضياء للناس وضياء للأمة ونفع للخلق ، مثل ضوء القمر في ليلة الرابع عشر يضيء الدنيا والعالم ضياء للناس ونور بما يبين لهم من العلم والهدى والحق والخير ، ولهذا قال بعض أهل العلم قديما : «لولا العالم- أي بفضل الله سبحانه وتعالى- لكان الناس مثل البهائم» كيف يعرف الناس الدين وكيف يعرفون الأحكام كيف يعرفون الطهارة وكيف يعرفون كيف يطلّق وكيف ينكح كيف يصلي كيف يصوم إلا عن طريق العالم ، حتى بعض الناس الذين يتجرؤون على بعض العلماء بالوقعية بهم إذا وقع في أمر وإشكال يتعلق بالدين إذا كان حريصا على معرفة الحق فيه يذهب إلى العالم الذي كان يطعن فيه ويسأله ، فالعلماء ضياء ونور للناس . إذاً هذا الحديث يبين الفرق بين العالم والعابد كالفرق بين القمر والنجوم .

بعض العلماء ذكر لطيفة في تشبيه العالم بالقمر ؛ القمر كما هو معروف ضوءه من ضوء الشمس ، والنبي صلى الله عليه وسلم وصفه الله في القرآن بأنه سراج منير ، والسراج هو الشمس ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٣] أي الشمس ، فالعالم شُبِّهَ بالقمر لأن ضوء القمر من الشمس ، والعالم علمه من النبي عليه الصلاة والسلام كما سيأتي معنا في الحديث ((وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)).

ﷺ ثم ذكر الفضيلة الخامسة قال : ((وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) أي أنه كلما كان نصيب العبد من العلم النبوي والموروث النبوي أكبر كان نصيبه من الحظ الوافر من الخير والنصيب الأعظم من الخير أعظم ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا

أموالا لم يورثوا دنائيراً ولا دراهم وإنما ورثوا العلم ، ميراث الأنبياء العلم فمن أخذ العلم وتلقاه وحصله فقد أخذ بحظ وافر .

من اللطائف التي تذكر هنا : قصة أبي هريرة رضي الله عنه أتى إلى الناس وهم في السوق يبيعون ويشتررون وقال لهم ما بالكم جلوس هنا تبيعون وتشتررون وميراث النبي صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد!! ، قالوا الميراث يقسم في المسجد؟ قال نعم ميراث النبي صلى الله عليه وسلم يقسم الآن في المسجد ، فانطلقوا إلى المسجد يبحثون عن الميراث وفي بالهم أن في مال يقسم ، فلما دخلوا المسجد وجدوا عالماً ينشر علماً ، فقال لهم هذا ميراث النبي صلى الله عليه وسلم . قصة تروى عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه .

فالعلماء ورثة الأنبياء وهم أيضاً الذين يقسمون هذا الميراث بين الناس ، ولا يزال هذا العلم الموروث من النبي صلى الله عليه وسلم يتناقله الناس يأخذونه اللاحق عن السابق ، ويحمله في كل أمة خيارها وعدولها كما جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :
وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)) رواه الترمذي وقال غريب ، وابن ماجه .

أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث في «باب التحريض على طلب العلم وبيان كيفية الطلب» ، وهذا الحديث يتعلق بالجانب الثاني من الباب ألا وهو كيفية طلب العلم ، وأن طالب العلم الحريص عليه إذا وجد ضالته وفائدته من العلم أخذها أينما وجدها ، فلا يرده عن أخذ الفائدة والعلم كون الذي أخذ منه العلم أقل منه منزلة أو علماً أو نحو ذلك .

قال : ((الْكَلِمَةُ الْحَكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ)) المراد بالكلمة: أي الكلام ، والمراد بالحكمة: أي الذي هو ذا حكمة الكلام الذي فيه حكمة بأن يكون فيه بيانٌ لأمرٍ من أمور الشريعة أو موعظة من المواعظ أو نصيحة يحتاج إليها العبد أو نحو ذلك ، فالكلمة التي فيها حكمةٌ ونفعٌ وفائدة هي ضالة المؤمن ، والضالة: هي الشيء المفقود الذي يبحث عنه صاحبه ويسعى في طلبه وإذا وجده فرح به وأمسك به . قال ((الكلمة الحكمة ضالة المؤمن)) .

((فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)) أي أحق بالكلمة الحكمة من قائلها ، ولا سيما إذا كان القائل إنساناً مفرطاً أو مقصراً أو غير مبالي ، فالمؤمن صادق الإيمان الجاد في طاعة الرحمن تبارك وتعالى إذا وجد الكلمة المشتملة على الحكمة فإنه يأخذ بها وهو أحق بها ؛ أي أحق بها من قائلها إذا كان مفرطاً ، قد يقول الكلمة التي فيها الحكمة الفاجر ، قد يقولها الفاسق ، قد يقولها المعرض ، فالمؤمن صادق الإيمان إذا سمعها لا يضره كون الذي سمعها منه فاجراً أو فاسقاً أو مقصراً في ألا يأخذ بالحق والصواب ، كأن يذكر له آية من القرآن فيها دلالة ظاهرة على أمر معين أو حديث وفيه دلالة ظاهرة على أمر معين يكون الإنسان غافلاً عن هذه الدلالة والانتباه لها ، فلا يجعل دنو منزلة من سمع منه هذا الكلام سبباً لردده وعدم قبوله . قال : ((الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها)) أي من قائلها وشأنها شأن الضالة ، الإنسان إذا وجد ضالته بيد شخص أخذها حتى لو كان الشخص الذي بيده الضالة فاسقاً أو حقيراً أو نحو ذلك فإنه يأخذها ولا يبالي بالذي وجدها عنده من هو .

الشاهد أن طالب العلم ينبغي أن يكون حريصاً على الخير إذا وجده ظفر به وهو أحق به .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : ((إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدْعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا عِلْمَ لَا فَهْمَ فِيهِ ، وَلَا قِرَاءَةَ لَا تَدْبُرُ فِيهَا)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى ها الأثر الجميل العظيم عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وأرضاه وعن الصحابة أجمعين في بيان من هو الفقيه حقاً ، مبيناً رضي الله عنه أن الفقيه ليس بكثرة معلوماته الفقهية ولا بكثرة كلامه ولا باعتبارات عديدة يراها الناس ، بل هناك ضوابط تدل على فقه الرجل وعلى حسن فهمه وجمال دلالاته للناس إلى الخير ؛ فهو فقيه في علمه بالشريعة ، فقيه في بيانه للناس ونصيحته لهم ، فقيه في باب الترغيب والترهيب في باب الرغبة والرغبة ، فقيه في ذلك كله .

قال رضي الله عنه : ((إِنَّ الْفَقِيهَ حَقَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)) هذا الأمر الأول مما ذكره رضي الله عنه ، لأنه ذكر أموراً عديدة هي صفات للفقيه حقاً . فالأمر الأول قال : «من لم يقنط الناس من رحمة الله» وهذا من الفقه ، بعض الناس لقلة فقهه قد يقنط الناس ولا سيما المقبلين على التوبة من رحمة الله عز وجل ، مثال

ذلك: قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه إلى رجل عابد فذهب إليه وسأله قال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: «لا أعلم لك توبة» هذا تقنيط من رحمة الله ، وهذا دليل على عدم فقهه ، ثم إنه كمل به المئة قتله ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه إلى عالم فسأله هل له من توبة؟ قال: «ومن يحول بينك وبينها!!» باب التوبة مفتوح ورب العالمين يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي مهما عظم الذنب وكبر الجرم فالله عز وجل لا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، مهما كان جرم الإنسان وذنبه وخطيئته حجماً وعددًا فالله سبحانه وتعالى غفور رحيم يعفو عن الذنوب ويغفر السيئات ويصفح ويتجاوز ، وأثنى على نفسه بذلك تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه جل وعلا . فالفقيه حقاً من لا يقنط الناس من رحمة الله بل يجتهد في دعوتهم إلى التوبة إلى الإنابة إلى الأوبة إلى الله عز وجل إلى الفوز برحمة الله تبارك وتعالى ورضاه ؛ فهذا هو الفقيه حقاً ، لا ييأس الناس ولا يقنطهم من رحمة الله تبارك وتعالى بل يجتهد في ترغيبهم في التوبة ودلالتهم إلى أبوابها وبيانها لسعة رحمة الله تبارك وتعالى ومغفرته وأنه عز وجل وسع كل شيء رحمة وعلماً .

قال: ((وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ)) هذا الأمر الثاني ؛ ليس من الفقه في دين الله تبارك وتعالى أن يرخص للناس المعاصي ، أو أن يهوّن لهم أمر المعاصي ، أو أن يقال لهم في المعاصي لا حرج عليك في فعلها ؛ فهذا ليس من الفقه في دين الله ، كما أنه لا يقنط الناس من التوبة أيضاً لا يرخص لهم في المعصية ، تقنيطهم من التوبة إفراط، والترخيص لهم في المعصية تفريط ، ودين الله تبارك وتعالى وسطٌ بين الإفراط والتفريط ، التائب المقبل لا يقنط ويقال له لا مجال للتوبة لمثلك ، وأيضاً من بدأت تتفلسف نفسك نحو المعصية لا يرخص لها فيها ولا يهوّن لها من شأنها ؛ فهذه وسطية ينبه عليها رضي الله عنه في هذا الباب هي من كمال فقه الرجل ، لا يقنط الناس من الرحمة ولا يرخص لهم في المعصية ، وهذا يحدث توازن من العالم الفقيه الحصيف في مناصحته للناس ؛ يبين لهم جرم الذنوب وخطر الذنوب وسوء عاقبة الذنوب ، وفي الوقت نفسه أيضاً يدعوهم للتوبة ويبين لهم أن أبوابها مفتوحة وأن الله عز وجل يغفر الذنوب جميعاً .

ثم ذكر الأمر الثالث قال: ((وَلَمْ يُؤْمِنُوا أَنَّهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ)) ؛ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] لا يؤمنهم من مكر الله ومن عذابه تبارك وتعالى ، بل يجمع لهم بين الخوف والرجاء والترغيب والترهيب، ومتى يكون الرجل مؤمناً للناس من عذاب الله تبارك وتعالى؟ إذا كان لا يفقه طريقة تعليمهم وطريقة نصحتهم وتوجيههم، فيذكر لهم مثلاً الفضائل وفي الوقت نفسه لا يذكر لهم الوعيد والعقوبة على الجرائم التي يقتربونها ، كأن يجد أناساً يباشرون معاصي وكبائر وجرائم ثم يكون حديثه معهم في حدود قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق)) ، أو مثلاً من قال كذا غُفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد

البحر ، ويكتفي بعرض أمثال هذه الأحاديث عليهم دون أن يعرض عليهم أحاديث الوعيد . فإذا كان تعليمه لهم بهذه الصفة آمنهم من عذاب الله لأنه لم يذكر لهم الأحاديث التي فيها الوعيد ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : «من أعمل نصوص الوعد وأهمل نصوص الوعيد دخل في جانب الأمن من مكر الله ومن عذابه ، ومن أعمل نصوص الوعيد وأهمل نصوص الوعد دخل في جانب القنوط من رحمة الله» ، ولا يتحقق التوازن في هذا الباب إلا بإعمال نصوص الوعد والوعيد والرجاء والخوف ، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، ولهذا تجد نصوص القرآن جامعة بين الوعيد والوعيد ، أما إذا وقف الإنسان عند جانب منها وقع في الخطأ ، كمن يقرأ ﴿تَبٰى عِبَادِيْ اَنِيْ اَنَا الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ [الحجر: ٤٩] ويقف ، بعض العصاة يفعل ذلك ، يفعل المعصية وإذا نوصح قال ربك غفور رحيم ، طيب أكمل الآية!! ﴿وَأَنۢ عَذَابِيْ هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيْمُ﴾ [الحجر: ٥٠] لا يحصل التوازن للعبد في سيره إلى الله تبارك وتعالى إلا بالرجاء والخوف ، بهما معاً ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: الرجاء والخوف بالنسبة للمؤمن كجناحي الطائر ، لا يستطيع الطائر أن يطير إلا بالجناحين لو قُص أحد جناحيه لم يستطع الطيران ، وهكذا أمر الرجاء والخوف بالنسبة للمؤمن لا بد أن يكون راجياً خائفاً ، فإذا كان من أهل الرجاء بلا خوف آمن ، وإذا كان من أهل الخوف بلا رجاء قنط .

إذاً الفقيه لا يؤمن الناس من مكر الله ولا أيضاً يقنطهم من رحمة الله تبارك وتعالى مهما كانت ذنوبهم . أحد السلف وهو الحسن البصري رحمه الله تعالى لما قرأ قول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ١٠٠] في قصة أصحاب الأخدود لما قرأ قول الله تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ قال : «انظروا إلى هذا الكرم انظروا إلى هذا الجود! قتلوا أوليائه وخذلوا لهم أخدوداً وألقوهم فيه ويدعوهم للتوبة» ، ولهذا عند هذه الآية قال أحد السلف ولعله ابن عباس «من يئس الناس من التوبة بعد هذا!!» يقتلون أوليائه وأصفياه ثم يدعوهم للتوبة يقول ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ هذه دعوة لهم إلى التوبة إلى الله سبحانه وتعالى .

فالشاهد أن الفقيه لا يقنط وفي الوقت نفسه لا يئس . وكلمة علي رضي الله عنه فيها رد على مذهبين متطرفين وُجدا فيما بعد -بعد هذه الكلمة- ونشأ في الأمة مذهب قائم على إعمال نصوص الرجاء وإهمال نصوص الخوف وهو «مذهب المرجئة» ، ومذهب قائم على إعمال نصوص الخوف وإهمال نصوص الرجاء وهو «مذهب الخوارج» ، ودين الله سبحانه وتعالى وسط بين ذلك ، والوسطية في هذا الباب لا تكون إلا بهذا الأمر الذي ذكره علي رضي الله عنه في بيان الفقيه حقاً وأن الفقيه حقاً لا يقنط الناس من الرحمة ولا يرخص لهم في المعصية ولا يؤمنهم من عذاب الله .

قال رضي الله عنه: ((وَلَمْ يَدْعُ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ)) هذا فيه تنبيه أن الفقيه هو الذي يكون في نفسه مرتبطاً بالقرآن قراءة وفهما وتدبرا وعملا ، وأيضا من الدعاة إلى كتاب الله عز وجل ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) ، فهو في نفسه يتعلم القرآن ويتفقه في القرآن ، وأيضا في الوقت نفسه يعلم الناس القرآن ويدعوهم إلى كتاب الله تبارك وتعالى ، لا يرغب عن القرآن ولا يعرض عن كتاب الله تبارك وتعالى ، لا لأقاويل الناس ولا لآرائه هو ولا لأفكاره ولا غير ذلك بل دعوته إلى كتاب الله ، والله عز وجل قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥٠] ، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ، وقال: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] ، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] إلى غير ذلك من الآيات .

قال: ((إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا)) لأن من يعبد الله تبارك وتعالى بلا علم يكون ضالا في عبادته، والعبادة لا تُقبل من صاحبها مهما كثرت وتعددت وتنوعت إلا إذا كانت قائمة على العلم الموروث عن نبينا عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم ((من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه ، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] .

قال: ((وَلَا عِلْمٌ لَا فَهْمٌ فِيهِ)) أي محفوظات لدى الإنسان كثيرة لكنه لا يفهم المعاني ولا يعرف الدلالات فأى أثر للعلم إذا كان الإنسان يحفظه ولا يفهمه؟! أي أثر عليه إذا كان يحفظ نصوص العلم ولا يفهم منه شيئا ، ولهذا قال رضي الله عنه «ولا علم لا فهم فيه» أي ولا خير في علم لا فهم فيه ، علم أي محفوظات للإنسان يحفظها لكن لا يفهم شيئا ، فإذا كان يحفظ ولا يفهم أي أثر يكون لهذا العلم الذي حفظه! ولهذا مر معنا قريبا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((نضر الله امرء سمع مقالتي فحفظها ووعاها)) لم يكتف بالحفظ وحده بل جمع معه الوعي وهو فهم ما يحفظه العبد .

قال: ((وَلَا قِرَاءَةٍ لَا تَدَبَّرُ فِيهَا)) ولا قراءة أي للقرآن لا تدبر فيها ، والله جل وعلا يقول: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ويقول جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ويقول جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ويقول جل وعلا ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٦-٦٨] أي أنهم لو تدبروا القول لما نكصوا على الأعقاب ولما رجعوا القهقري

ولمضوا على طريق الاستقامة والحق والهدى . والقول الذي هو كلام الله لا ينتفع به الإنسان إلا إذا تدبر كلام الله عز وجل وعقل معانيه ، وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ [البقرة: ١٢١] قال أهل العلم : تلاوة القرآن حق التلاوة لا تكون إلا بأمر ثلاثة: الحفظ والفهم والعمل ؛ حفظ الآيات وفهم معانيها والعمل بها بهذا يكون الإنسان من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته .

فهذه كلمة عظيمة من الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه في بيان الفقيه حقاً .

قال رحمه الله تعالى :

وعن الحسن رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُخَيَّرَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ)) رواهما الدارمي .

ثم ختم هذه الترجمة بهذا الحديث عن الحسن رضي الله عنه رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا مرسل ، وأيضا الاسناد قبل الحسن فيه ضعف ، ولكن ختم المصنف رحمه الله بهذا الحديث في هذه الترجمة تنبيهاً على أمر عظيم يتعلق بكيفية الطلب متقرر في نصوص كثيرة وشواهد عديدة ، لكنه ختم بهذا الحديث تنبيهاً على هذا الأمر ألا وهو: أن طالب العلم لا ينبغي أن يقف عن طلب العلم في مرحلة معينة من حياته أو في وقت معين من عمره ، بل الذي ينبغي عليه أن يطلب العلم طلباً مستمرا إلى أن يتوفاه الله ، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم ؛ أن يكون مستمرا في طلب العلم إلى أن يُدخل في قبره يستمر في الطلب ، ليس طلب العلم أن تقرأ متناً عند أحد الشيوخ ثم إذا ختمت المتن أو متنين أو ثلاثة أو أربعة تقول انتهيت من الطلب ، ليس هناك وقت ينتهي فيه الإنسان من طلب العلم بل يستمر طالبا للعلم إلى أن يُدخل في قبره ، ولا يزال محتاجا إلى العلم محتاجا إلى التزود منه إلى آخر لحظة من حياته ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] ، فالمؤمن لا يزال طالب علم حريصاً على العلم مواظباً على العلم جاداً في طلب العلم إلى أن يتوفاه الله سبحانه وتعالى . فهذا الحديث ختم به هذه الترجمة تنبيهاً على ذلك .

قال عن الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُخَيَّرَ بِهِ الْإِسْلَامَ)) أيضا هنا تنبيه على أمر آخر وهو: أن تستمر في طلب العلم بالنية الصحيحة ؛ وهي أن تقصد بالعلم إحياء الإسلام ، قد قال الإمام أحمد رحمه الله : «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها؟ قال : «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» هذا هو إحياء الإسلام بالعلم .

قال: ((لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَبَيَّنَّهُ وَبَيَّنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةً وَاحِدَةً فِي الْجَنَّةِ)) يغني عن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم معنا ((وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه -أي العلم- فقد أخذ بحظ وافر)).

إذاً هذا الحديث الختم به في هذه الترجمة فيه التنبيه على أهمية المواصلة في طلب العلم والمداومة عليه إلى أن يموت العبد وهو طالب علم ، وقد روي الإمام أحمد رحمه الله في الأيام الأخيرة من حياته وهو يقرأ بنهم في كتب الحديث مقبلاً عليها ومعه الحبر والورق والكتابة والهمة العالية في آخر حياته ، فسأله أحدهم في ذلك إلى متى؟ يعني حصلت من العلم نصيباً كبيراً فإلى متى تطلب العلم؟ فقال كلمته المشهورة رحمه الله تعالى: «من المحبرة إلى المقبرة» يعني معنى كلامه لا أزال طالب علم مستمراً على الطلب إلى أن أدخل في القبر . فهذه حال طالب العلم الجاد لا يثنيه شيء عن الطلب بل هو حريص عليه جاد فيه إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى .
والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب قبض العلم

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَخَصَ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: (هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ) رواه الترمذي .

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ((باب قبض العلم)) ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان ما ورد في السنة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه أن العلم يُقبض وأن قبض العلم يكون بموت أهله وحملته ، لا أنه يُنتزع من قلوب الرجال بل يكون قبض العلم بقبض العلماء . وهذه الترجمة كما أن فيها بياناً لأن العلم يُقبض بقبض العلماء ففيها

أيضاً حث على تعلم العلم والعناية به وحفظه والاجتهاد في ذلك ، لأن الإنسان لا يدري متى يُحتاج إليه في بلده ومنطقته مع كثرة الجهل وقلة العلم فلا يدري متى يُحتاج إليه ، فإذا فرط في العلم وقت تيسر تحصيله له ثم تهيأت الحاجة أو حصلت الحاجة إلى لعلم ندم على تفريطه وقت تيسر طلب العلم له وتحصيله ، ولهذا يغتنم المسلم وطالب العلم فرصة تهيء طلب العلم له بأن يأخذ منه نصيباً وافراً وحظاً طيباً ، ثم ينفع الله تبارك وتعالى به فيما بعد من شاء من عباده . قال ((باب قبض العلم)) .

وأورد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: ((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَخَصَ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ)) أي رفع بصره إلى السماء ونظر إلى العلو .

ثُمَّ قَالَ: ((هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ فِيهِ الْعِلْمُ)) أي هذا وقت يختلس فيه العلم أي يُختطف فيه العلم ويؤخذ . والمراد بأخذ العلم: أخذ حملة العلم ونقله العلم ، وبعض العلماء أخذ أو استنبط من هذا الحديث أن في هذا إشارة إلى دنو أجله صلوات الله وسلامه عليه ، قال ((هذا أوانٌ يختلس فيه العلم)) أي يُختطف فيه العلم ويؤخذ فيه العلم، وليس العلم يؤخذ انتزاعاً ينتزع من صدور الرجال بل يؤخذ بأخذ حملته وموت حملته .

قال: ((هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ)) ؛ «منه»: أي من العلم ، لا يقدرُوا على شيء أي من العلم ، لأنه لا يوجد له حملة ، إذا قُبِض رجال العلم وأهل العلم ثم بحث الناس عن العلم لا يجدوا من يبينه لهم ومن يوضحه لهم ، وهذا معنى قوله ((حتى لا يقدرُوا منه على شيء)) أي لا يقدرُوا من العلم على شيء لا قليل ولا كثير .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه قَالَ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَقَالَ: ((ذَاكَ عِنْدَ أَوَانٍ ذَهَابِ الْعِلْمِ)) ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : ((تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ ، أَوْلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ! لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا)) رواه أحمد وابن ماجه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه قَالَ ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَقَالَ: ((ذَلِكَ عِنْدَ أَوَانٍ ذَهَابِ الْعِلْمِ)) أي عند وقت ذهاب العلم وعدم وجوده ، وعرفنا أن ذهاب العلم يكون بذهاب حملته ونقلته .

فلما سمع زياد رضي الله عنه إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بذهاب العلم أثار تساؤلاً قال : ((قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ!! وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟)) وهذا فيه

إشارة إلى طريقة تناقل العلم وأن اللاحق يأخذه من السابق ، فيقول كيف يذهب العلم والعلم يُتناقل؛ يأخذه الطلاب عن الشيوخ ، ثم يصبح الطلاب شيوخاً فيأخذه عنه طلابهم وهكذا ؛ فكيف يذهب العلم والحالة هذه؟! فقال النبي عليه الصلاة والسلام : ((تَكِلْنِكَ أُمُّكَ يَا زَيْدُ)) أي فقدتك أُمك ، وهذه يؤتى بها للتعجب لا لقصد الدعاء على الإنسان بذلك .

قال: ((إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ)) أي كنت أعدُّك من أفقه رجال المدينة ، من أكثرهم فقهاً . ((أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا)) وهذا فيه أن بقاء العلم ليس بحفظ ألفاظ العلم والنصوص العلمية وكثرة المحفوظات ، ليس العلم هو هذا فقط؛ بل العلم يشمل الحفظ والفهم والعمل ، ويشمل أيضاً الثبات على العلم والرسوخ فيه ، لا أن يكون الإنسان متذبذباً ومتنقلاً، بل العلم يكون بحفظ العلم وفهم العلم والعمل به والرسوخ في العلم ، بعدم التذبذب والتنقل فيه ؛ وهذا يتبين في الفتن التي يكثر فيها تنقلات الناس وتحولاتهم من مذهب إلى آخر ومن رأي إلى رأي مما يدل على عدم الرسوخ في العلم والثبات عليه . فبين له النبي عليه الصلاة والسلام أن العلم ليس بمجرد الحفظ ، قد يكون الإنسان يحفظ القرآن ويحفظ نصيباً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ولا يكون من أهل العلم لسببين: أولاً لكونه لا يفهم ، وثانياً لكونه لا يعمل ولا يرى عليه أخلاق القرآن وآداب القرآن وما يدعو إليه القرآن . الحسن البصري رحمه الله تعالى في زمن التابعين تحدث عن بعض القراء الذين اشتغلوا بالحفظ وضيّعوا العمل قال رحمه الله : «إن أحدهم يقول قرأت القرآن كله ولم أسقط منه حرفاً» ماذا يقصد؟ أي قرأته قراءة متقنة مجودة مرتلة لم أسقط منه شيئاً ، يقول الحسن رحمه «وقد أسقطه والله كله ، لا يرى عليه القرآن لا في خلق ولا في عمل» قال : «فإن كانت القراء مثل هذا لا كثّر الله في الناس مثل هؤلاء» .

الشاهد أن هذا الحديث يبين أن حفظ العلم لا بد فيه من فهم العلم والعناية بضبطه وأن يعيه المسلم قد مر معنا الحديث ووعاها ، ولا بد أيضاً في ذلك من العمل بالعلم ، وأيضاً من الثبات على العلم بترك التنقل والتذبذب والاضطراب .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ ، وَقَبْضُهُ ذَهَابُ أَهْلِهِ ، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَى مَا عِنْدَهُ ، وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَإِيَّاكُمْ وَالْبِدْعَ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ» رواه الدارمي بنحوه .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه في الحث على العلم قبل أن يقبض ، وهذا يستفاد منه أن النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في بيان أن العلم يقبض أن مما يستفاد من تلك النصوص: الحث على طلب العلم وتحصيله ، والأمر هنا واضح في دلالة النصوص المشتملة على بيان قبض العلم دلالتها على الحث على طلبه وتحصيله ؛ لأن الشيء الثمين النفيس الذي تُخبر عنه بأنه سيأتي عليه ويُقبض ولا يوجد بين الناس حتى لا يبقى منه شيء وهو نفيس عندك وثمان جدا ، فمثل هذه النصوص فيها أعظم حض على طلب العلم وتحصيل العلم ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : ((عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ)) لأن الإنسان لو رغب في العلم بعد قبضه لا يجد من يعلمه ، وقبض العلم بقبض العلماء ، فيقول رضي الله عنه «عليكم بالعلم قبل أن يقبض» وعرفنا أن قبضه بقبض أهله .

قال: ((عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ)) حث رضي الله عنه على العلم وتعلم العلم من جهتين: الجهة الأولى قال «قبل أن يقبض العلم» ، والجهة الثانية قال «لا يدري أحدكم متى يفتقر إليه» ، وهذا أمر يلاحظه كثير من طلاب العلم الذين رحلوا في طلب العلم وتهيأت لهم مجالس علمية جادة في تحصيل العلم وفرطوا في كثير منها ، لما رجعوا إلى ديارهم وبلدانهم واحتاج الناس إليهم أحسوا حينئذ بالتفريط الذي كان منهم والأيام التي ضاعت عليهم ، ويبدأ يندم ويتأسف ويقول كنت في بلد كذا وفيه علماء وكنت مضيعا لتلك المجالس ، ولو أنني لازمتهم وحفظت و.. الخ لأفدت الناس في هذا الوقت . ولهذا يحث رضي الله عنه على العلم بقوله ((عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه)) يعني متى يحتاج إلى العلم الذي عنده . وإذا ذهب إلى بلده وهم يظنون فيه خيرا لأنه غاب عنهم سنوات لطلب العلم ثم افتقروا إلى العلم الذي عنده ثم تبين لهم أنه هو وإياهم سواء ما تميز عنهم بشيء ولم يحصل علما يفيدهم به . ولهذا ينبغي على الإنسان الذي أكرمه الله وهيا له طلب العلم وحضور مجالس العلم أن يجتهد في الإفادة العظيمة منها لأنه كما قال ابن مسعود رضي الله عنه «لا يدري متى يفتقر إليه»؛ أي لا يدري متى يُحتاج إلى العلم الذي عنده .

قال: ((لَا يَدْرِي مَتَى يُفْتَقَرُ إِلَيْهِ أَوْ يُفْتَقَرُ إِلَى مَا عِنْدَهُ)) أي ما عنده من العلم . قال: ((وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)) وهذا فيه تنبيه من ابن مسعود رضي الله عنه أن العبرة ليست بالشعارات والدعايات، وما أكثر الدعايات في كل زمان وأوان ، فليست العبرة بمجرد الدعايات كأن يرفع الإنسان شعارات ينسب نفسه إليها مجرد نسبة ولكنه لا يحقق ما يقتضيه هذا الانتساب من استقامة واتباع واقتداء ، لا يلزم ذلك ، فيحذر رضي الله عنه من أمثال هذه الشعارات والدعايات التي لا حقيقة تحتها ولا تنطوي على مضمون صحيح ، وضرب على ذلك مثالا قال: ((سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ)) لكن ما هي حقيقة أمرهم قال : ((وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ)) ؛ إذاً هناك شعارات سُرُف بدعوى الدعوة إلى كتاب الله أو الدعوة إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن

المضمون والحقيقة أمر آخر ، ويكون الانتساب من هؤلاء إلى الكتاب أو إلى السنة مجرد دعوى ، والدعوى إذا لم يقر عليها بينات فأهلها أديعاء ، لا بد من بينة ، والبينة هي صدق الاتباع والاقتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، لا بمجرد الدعايات والشعارات المجردة عن حقيقة الاتباع والاقتداء .

وقد ترى كتباً يُكتب عليها "عقيدة أهل السنة" ويُكتب عليها أمثال هذه الكلمات ، وإذا نظرت إلى المضمون تجد السنة شيئاً وما يدعو إليه هؤلاء شيء آخر ، وكلاً يدعي وصلاً لليلي ، كلاً يدّعي أن الذي عنده هو السنة وهو الحق لكن الدعوى وحدها لا تكفي ، ولا يُعرف صاحب باطل لا في قديم الزمان ولا في حديثه يقول عن نفسه أنه داعية بدعة أو يقول للناس أيها الناس اتبعوني فأنا من دعاة البدع والضلالات ، هل يوجد أحد بهذه الصفة يقول: اتبعوني أنا من دعاة البدع من دعاة الضلال ؟ أنا ممن حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أقوالهم وأعمالهم بقوله ((كل بدعة ضلالة))؟ لا أحد يقول ذلك ، بل كل صاحب بدعة يقول عن نفسه أنه صاحب سنة وأن هذا هو الحق وأن هذا هو الدين الصواب ، حتى وإن كان في قرارة نفسه يعلم أنه مبطل ، لأن بعض دعاة البدع يعرف أنه مبطل لكن من أجل الرئاسة من أجل الزعامة ومن أجل الشهرة ومن أجل المال لا يبالي ، يغالط الناس ويلبس عليهم ويكذب لأجل هذه الأغراض .

إذاً لا يغتر المسلم بمجرد الدعايات وزخرفة القول وتزيين الباطل ، بل يكون معتمداً في هذا الباب أهل القرآن وأهل السنة حقاً وصدقاً بالعلم والعمل والاتباع لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

ثم قال رضي الله عنه: ((عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ)) أي بالعلم الموروث عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ العلم الشرعي المستمد من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، عليكم بهذا العلم احفظوه وحافظوا عليه وافهموه واعتنوا بالعمل به .

((وَيَاكُمْ وَالْبِدْعَ وَالْتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ))؛ إياكم والبدع: أي إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة ضلالة كما نصَّ على ذلك نبينا صلوات الله وسلامه عليه بقوله ((وكل بدعة ضلالة)) وقد تقدم الحديث معنا ، وقال عليه الصلاة والسلام ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) أي مردود على صاحبه غير مقبول منه . قال: ((وإياكم والبدع)) أي احذروها واجتنبوها وابتعدوا عنها واحذروا أن تكونوا من أهلها .

((والتنطع))؛ التنطع: هو التكلف والتعمق . قال ((إياكم والتنطع والتعمق)) التعمق: هو التقعر في الأمور والتنطع هو التكلف فيها ؛ فحذر رضي الله عنه من هذا وذاك ، أي الزم السنة وتمسك بها واحذر البدع ، واحذر من تكلفات المتكلفين وتخربات المبطلين وتنطعات المتنطعين التي يتجاوزون بها حدود سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال: ((وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ)) العتيق أي القديم الذي كان عليه الناس في العهد الأول والزمن الأول زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما لم يكن ديناً في ذلك الزمان لا يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة ، كما قال الإمام

مالك رحمه الله تعالى: «من قال في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وما لم يكن دينا زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون اليوم دينا» ولن يكون دينا إلى أن تقوم الساعة .

قال رحمه الله تعالى :

وفي الصحيحين عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبُضِ الْعُلَمَاءِ ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا ، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرَّج في الصحيحين حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ)) أي ليس قبض العلم بانتزاعه من صدور العلماء ؛ بحيث ينام العالم ويصبح ولا يجد في صدره علما ، ليس هكذا يكون انتزاع العلم ، العلم يُقبض ويُرفع ولا يجده الناس يأتي على الناس زمان لا يجدون علماً، يُقبض العلم ، وبين النبي عليه الصلاة والسلام صفة قبضه وأن قبضه بموت أهله بموت العلماء ، فكلما مات عالم محقق راسخ في العلم كان موته وقبضه قبضٌ للعلم ، لأن قبض العلم بقبض حملته .

ولهذا فإن من الفوائد العظيمة المستفادة من هذا الحديث: عِظَمُ المصيبة على الناس بموت العلماء الأكابر وفقد الأئمة الراسخين ، فهذا من أعظم المصائب التي يصاب بها الناس ويتلون بها فقد العلماء ؛ لأن فقد العلماء فقد للعلم الذي كانوا يحملونه وكان الناس يأخذونه عنهم بالسؤال والفتوى والدراسة والتعليم ، فقبض العلماء قبضٌ للعلم . قال: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبُضِ الْعُلَمَاءِ)).

((حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا)) أي لم يبق في الناس عالم ، فُبِضَ العلماء ولم يبق عالم ما الذي يحدث ؟

قال: ((اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا)) أي يتصدر لتعليم الناس وإفتائهم رؤوس جهالا ؛ أي لا علم لهم ولا فقه لهم في دين الله تبارك وتعالى .

قال: ((فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)) الرؤوس الجهال عندما يتصدرون لتعليم الناس ويُستفتون في أمور دين الله تبارك وتعالى وهم لا يحملون علماً ثم يفتون تكون فتواهم مبنية على غير علم فيضلون ويضلون ، يضلون هم عن سواء السبيل ، ويضلون أيضا غيرهم من الناس عن سواء السبيل . وهذا يبين الحال البئيسة والواقع المؤلم الذي يعيشه الناس عندما يفقدون العلماء ؛ وهذا أمر ظاهر وبيّن في المجتمعات والبلدان التي لا علماء فيها ، والناس يحتاجون إلى العلم يحتاجون إلى الفقه ، ولا تزال حاجتهم إلى ذلك متكررة كل يوم ، يريدون معرفة دينهم

الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، فإذا احتاج الناس إلى علمٍ في بلدٍ ما وليس فيه عالم ليس فيه فقيه ليس فيه من هو يفقه في نفسه دين الله تبارك وتعالى؛ فماذا يكون واقع الناس؟ وكيف تكون حالهم؟ وإذا بُلي الناس في مناطقهم بفقد العلم وبتوافر أئمة الضلال ودعاة الباطل فإن المصيبة عليهم تكون عظيمة ، عندما لا يكون في بلدهم علماء وفقهاء يبصرونهم بدين الله تبارك وتعالى ويكون في بلدهم أئمة ضلال ودعاة باطل ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) ، وعندما تكون الحال في بعض البلدان بهذه الصفة تنتشر في الناس الضلالة وتروج البدع وتكثر الخرافات والفتن والشبهات ، لأنه بلد لا علماء فيه ولا فقهاء فيه ، وفيه أئمة ضلال ودعاة باطل .

وينشأ الناس لا يعلمون إلا هذه الأمور وهذه الضلالات والخرافات التي يقوم على تعليمها دعاة الباطل وأئمة الضلال . بينما والله الحمد الحق بين وواضح وظاهر ودلائله بينه وحججه ظاهرة ، لكن ينشأ بعض الناس في مجتمعات ليس فيها علماء ، فيها دعاة باطل ودعاة ضلال فيضلونهم عن دين الله تبارك وتعالى ويوقعونهم في الخرافة ويوقعونهم في الضلال ، وأيضا يجذرونهم من سماع الحق من أهله .

أذكر أنني لقيت رجلاً جاء إلى هذه البلاد فكان بعض الشيوخ في بلده يجذرونهم من سماع العلم في هذه البلاد ويصفون أهل العلم في هذه البلاد بأوصاف وألقاب ينثرون منها ، فقالوا له : "انتبه أن تأخذ منهم علماً أو تسمع منهم علماً ، احذر أن يفتنوك وأن يخدعوك" هو نفسه يحدثني بذلك قال قالو لي: "ولهم علامة بينة إذا رأيتهما تعرف هؤلاء" قلت ما هي العلامة؟ قال "دائماً إذا تحدثوا يقولون قال الله قال رسوله؛ انتبه هذه علامتهم احذرهم" فيأتي المسكين الجاهل تقرأ عليه الآيات تقرأ عليه الأحاديث وقال الله وقال رسوله ويقول صدق علمائنا جزاهم الله

خيراً نصوحنا وإلا كنا تورطنا مع هؤلاء ، فلا يسمع لا الآيات ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ [فصل: ٢٦] .

فهذه حال الناس عندما يتلون في مجتمعاتهم وبلدانهم بدعاة الباطل وأئمة الضلال ، فالمصيبة والله عليهم عظيمة والبلية عليهم كبيرة ، والنبي عليه الصلاة والسلام نصح الأمة وبين لهم الجادة وأوضح لهم الصراط المستقيم ، والحق والله الحمد واضح وظاهر وبين لا خفاء فيه ولا التباس .

قال رحمه الله تعالى :

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه ، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى ، علمائهم شر من تحت أديم السماء ، من عندهم تخرج الفتنة، وفيهم تعود)) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه)) أي الاسم مسلم لكن الحقيقة شيء آخر ، وفي بعض البلدان تجد أن المسلم أو المنتسب إلى الإسلام حاله وحال الكافر سواء لا فرق بينهما لا في الأعمال ولا في الصفات ، وليس للمسلم سمة يتميز بها ولا عملٌ يتميز به ، أعماله وأعمال الكافر واحدة لا فرق بينهما ، إلا أنه إذا قيل له لست بمسلم يغضب، وليس عنده من الإسلام إلا اسم الإسلام ومجرد الانتماء إلى الإسلام ، أما حقيقة الإسلام وتطبيق الإسلام والعمل به فهذا لا يوجد فيه .

قال ((ولا يبقى من القرآن إلا رسمه)) الرسم أي الحروف والكتابة ومجرد القراءة لألفاظ القرآن وحروف القرآن دون فهم ودون عمل بكتاب الله تبارك وتعالى .

قال: ((مساجدهم عامرة)) أي يأتي الناس للصلاة لكن تحقيق الصلاة بخشوع وخضوع ومحافضة على الأركان والواجبات هذا لا يكون موجوداً فيهم .

قال: ((مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى)) أي الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

قال: ((علمائهم شرٌّ من تحت أديم السماء)) لأنهم علماء ضلال ودعاة باطل ودعاة فتنة ودعاة بدع ، فعلمائهم شر من تحت أديم السماء .

((من عندهم)) أي عند علمائهم ((تخرج الفتنة ، وفيهم تعود)) منهم تخرج وإليهم تعود .

وهذا الحديث في سنده كلام وهو غير ثابت ، لكن هذه بعض المعاني التي يؤول إليها حال بعض الناس في بعض الأزمنة وفي بعض الأوقات عند غياب تحقيق مقصود العلم ؛ ألا وهو: الاتباع والافتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام والعمل بالعلم ، وقد قال علي رضي الله عنه : «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل» ، إذا لم يكن صاحب العلم عاملاً به فإنه يرتحل عنه ولا يستفيد أيضاً منه الآخرون ، والدعوة كما أنها بلسان المقال فهي بلسان الحال .

وبهذا الحديث ختم المصنف رحمه الله هذه الترجمة التي بعنوان «قبض العلم» ثم انتقل إلى ترجمة أخرى بعنوان «التشديد في طلب العلم للمراء والجدال» ، ولعلنا نقف إلى هذا القدر .

والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب أصول الإيمان

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٢٩ إلى الدرس ٣٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١١/٢٦ هـ

الدرس التاسع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه «أصول الإيمان» :

باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال

عن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) رواه الترمذي .

قال رحمه الله تعالى: ((باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال)) هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان أهمية إصلاح النية في طلب العلم ، لأن العلم عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو عبادة من العبادات وقربة من القرب التي يتقرب بها إلى الله عز وجل ، والله عز وجل لا يقبل العبادة إلا إذا كانت خالصة لوجهه سبحانه وتعالى ، لهذا جاء في الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يقول : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) ؛ ولهذا جاء نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تحذر من صرف العمل لغير الله تبارك وتعالى ، وجاءت نصوص خاصة تحذر من طلب العلم لغير الله ، وأن طالب العلم إن طلب العلم لغير الله تبارك وتعالى لم يكن طلبه للعلم في عمله الصالح ، لأن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا ابتغي به وجه الله عز وجل ، أما من ابتغى بعمله غير وجه الله عز وجل فلا يكون في عداد أعماله الصالحة ، ولهذا فإن من يطلب العلم للرياء أو للزعامة أو للشهرة أو للصيت أو لغير ذلك من الأغراض فإنه بذلك لا يكون في عمله الصالح المتقبل من الله جل وعلا .

ونصحاً من المصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة للتحذير من فساد النية في طلب العلم ، وللتأكيد على أهمية إخلاص النية في طلب العلم ؛ قال: ((باب التشديد في طلب العلم للمراء والجدال)) ؛ التشديد: أي ما ورد من نصوص الشرع من الوعيد الشديد لمن طلب العلم ولم يكن غرضه في طلب العلم إلا المراء والجدال ؛ حتى يماري به السفهاء ويجادل به ، ليس غرضه بطلبه للعلم ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى ، وليس غرضه في طلب العلم أن يرفع الجهل عن نفسه أو يرفع الجهل عن إخوانه المسلمين ، وإنما غرضه منه الجدال والمراء والمماراة والشهرة ونحو ذلك من الأغراض ؛ فمن كان في طلبه للعلم هذا غرضه وهذا مقصده وهذا مطلوبه فإن طلبه للعلم ليس في

عداد عمله الصالح المتقبل ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يتقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم تبارك وتعالى .

وأورد في هذه الترجمة جملة من النصوص فيها الدلالة على المقصود ، بدأها بحديث كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) ؛ ذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث طلب العلم ولكن بنية فاسدة لا بنية خالصة لله تبارك وتعالى ، والنية الفاسدة لا تندرج تحت نوع معين بل إنها تشمل أنواعاً عديدة وأموراً كثيرة كلها تدخل في فساد النية ، وما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث ليس حصرياً لفساد النية في طلب العلم ، وإنما ذكر عليه الصلاة والسلام أمثلة يُطلب العلم لأجلها وتكون هي الغرض من طلب العلم وتكون دليلاً على فساد نية الإنسان في طلبه للعلم وأن نيته ليست خالصة لوجه الله تبارك وتعالى .

كمن يطلب العلم ((لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ)) ؛ وهذا طلب شهرةٍ وصيتٍ وسمعةٍ ، وهذا غرضه في طلب العلم أن يجاري العلماء ، رأى مكانة العلماء في الناس ورأى قبول الناس لهم ومحبة الناس لهم فأخذ يطلب العلم ليجاري العلماء حتى يقال عالم أو يقال فاق العالم الفلاني أو يقال أفحم العالم الفلاني أو نحو ذلك من الأغراض التي يريدونها في طلبه للعلم ، فهو يكابد ويجدُ ويجهد في الطلب ويسهر الليل ويحفظ ويراجع ويستذكر وغرضه من ذلك كله مجاراة العلماء ، حتى إذا حضر مجلساً فيه عالم أخذ يجاري العالم بأن يبرز ما عنده من علم حتى يقال إنه أفضل منه أو أقوى منه أو أمكن علماً منه أو يُفحِم العالم الفلاني أو نحو ذلك من الأغراض ؛ فهذه نية فاسدة ، ولا يكون طلب العلم ممن طلبه لهذا الغرض في صالح عمله الذي يتقبله الله تبارك وتعالى .

ولهذا بعض من كان غرضه في طلبه للعلم هذا الغرض فإنه يبحث عن غرائب المسائل ودقائقها ويتعمق فيها ويضيّع أصول الإيمان ومباني الإسلام وقواعد الشريعة ، لا يكون معتنياً بها ولكن يعتني ببعض دقائق مسائل العلم ، ثم إذا حضر مجلساً أخذ يتحدث عنها بنقّس طويل حتى يُلتفت إليه ، وهذا مراده بينه وبين نفسه ونيته في داخله هذا مراده ، والله العليم بسرائر الناس المطلع على ما في القلوب سبحانه وتعالى ، هذا مراده فيتكلم ويفصّل القول في المسائل حتى يبرز في المجالس وحتى يقال إنه فاق العالم الفلاني أو فاق فلاناً أو هو أفضل من فلان أو نحو ذلك من المدائح التي كان يطلب العلم لأجلها . وماذا يغني عنه هذا الغرض عندما يلقي الله سبحانه وتعالى ولا يجد هذا العلم الذي أمضى فيه وقتاً طويلاً ومدة طويلة لا يجده في صالح عمله ! بل يكون سبباً لدخوله النار لفساد النية والعياذ بالله ، فهذا مما يدل على التشديد والتحذير والوعيد الشديد في النصوص لمن طلب العلم ليس لوجه الله تبارك وتعالى وإنما لغرضٍ من هذه الأغراض .

قال: ((وليُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ)) والممارسة: هي المجادلة ، ولا يكون الغرض فيها بروز الحق وثبوت وإبطال الباطل ، وإنما يكون الغرض فيها بروز الشخص نفسه وذيوع صيته بين الناس وأن يشتهر بالعلم أن يشتهر بالجدال

بالخصومات ، قال ((ليماري به السفهاء)) أي يجادل بهذا الشيء الذي حصَّله من العلم السفهاء ليكون بارزا فيهم ظاهرا عليهم ليس غرضه في طلبه للعلم أن يصلح بعلمه الذي من الله سبحانه وتعالى به عليه أحوال السفهاء ودعوتهم للخير وأخذهم إلى سبيل الاستقامة والهدى ، وإنما غرضه أن يبرز وأن يشتهر ، قال ((ليماري به السفهاء)).

((أو يصرف به وجوه الناس إليه)) أي أن تنصرف وجوه الناس إليه ، وهذا طلبٌ للشهرة والصيت بين الناس وأن يُلتفت إليه ويشار إليه بالأصابع ويقال هذا العالم وهذا الكذا من المدائح ونحو ذلك ؛ يكون هذا غرضه أن يطلب العلم لأجل هذه الأشياء ، أما من طلب العلم لوجه الله وأُثني عليه خيرا لم يكن طالبا لذلك ولم يكن غرضه في طلب العم ثناء الناس ومدحهم وأُثني عليه خيرا فإن هذا لا يضره إذا كانت نيته بينه وبين الله تبارك وتعالى صالحة ، وإنما الكلام هنا في حق من كان غرضه من طلب العلم هذه الأشياء ؛ يطلب العلم ليجاري العلماء أو ليماري السفهاء أو ليصرف بالعلم الذي عنده وجوه الناس إليه ، فمن كان غرضه في طلبه للعلم هذا الغرض أدخله الله النار يوم القيامة ، لأن العلم عبادةٌ وعمل صالح يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى وهذا لم يخلص في طلبه للعلم ولم يقصد بطلبه للعلم وجه الله سبحانه وتعالى فكان طلبه للعلم في عمله السيء لفساد نيته ولم يكن في عمله الصالح.

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا : ((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ)) ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعا أي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : ((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ)) أي ما ضلَّ قوم عن الخير وحسن الإقبال على الله سبحانه وتعالى وتحقيق العبودية له والذل بين يديه والقيام بطاعته سبحانه وتعالى كما يجب من عباده إلا أوتوا الجدل؛ أي إلا ضاعت أوقاتهم هدرًا في الجدل والخصومات . وهذا من الدلائل على فساد النيات في طلب العلم ، لأن العلم إذا طُلب بنية خالصة وابتغى به وجه الله سبحانه وتعالى أثمر العمل وصلحت به القلوب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، العلم أساس الخشية لله تبارك وتعالى ، ولكن لا تتحقق ثمار العلم إلا إذا أخلص به صاحبه لله وابتغى به وجه الله سبحانه وتعالى ، وإذا أريد بالعلم أغراضًا أخرى لم يثمر عملا صالحا ولهذا قال : ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) يكون طلبهم للعلم للجدل

والخصومات مثل ما مر معنا في الحديث السابق قال: ((من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري السفهاء)) ؛ فيكون طلبهم للعلم واستذكارهم له وبحثهم في مسائله المراد منه الجدل والخصومات ، وهذا من الدلائل على فساد النيات في طلب العلم . قال ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) .

((ثُمَّ تَلَا أَيُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾)) أي ليس لهم غرض في العمل الذي يدعو إليه العلم ، وليس لهم غرض في العبودية التي يدعو إليها العلم ، وإنما غرضهم في العلم الخصومة والجدل ؛ فهذه نية فاسدة ، لأن النية الصالحة تثمر لصاحبها خشيةً لله تبارك وتعالى وجدًا واجتهادًا في التقرب إليه سبحانه وتعالى وبُعدًا عما نهى عنه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ)) متفق عليه .

ثم ساق رحمه الله تعالى حديث أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ)) ؛ وهذا وعيد شديد ، وهذا فيه إثبات أن الله سبحانه وتعالى يبغض ، وأيضاً هناك أدلة كثيرة في القرآن والسنة تدل على أنه سبحانه وتعالى يحب ، وإذا عرف المؤمن أن ربه تبارك وتعالى يبغض ويحب فإن هذا يدفعه للبحث عن محاب الله ليفعلها وللبحث عن الأمور التي يبغضها الله سبحانه وتعالى ليجتنبها . ومن الذي يرضى لنفسه أن يبغضه الله جل وعلا أن يبغضه خالقه سبحانه وتعالى!! من الذي يرضى لنفسه ذلك؟ إلا النفس الدنيئة الرديئة ، إذا أصبحت النفس دنيئة رديئة فإنها لا تبالي بهذا الأمر ؛ فتفعل أموراً تعلم أن الله سبحانه وتعالى يبغضه إذا فعلها ولا يبالي بذلك . والشاهد أن المؤمن إذا عرف أن ربه سبحانه وتعالى يحب ويبغض فإنه يجتهد في معرفة الأمور التي يحبها الله جل وعلا ليفعلها وليكون من أهلها ، ويجتهد أيضاً في معرفة الأمور التي يبغضها الله تبارك وتعالى ليجتنبها وليحذر منها .

وهنا في هذا الحديث قال: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ)) وهذا فيه دليل على التفاضل في البغض ، وأن بغض الله سبحانه وتعالى للناس متفاوت بحسب ما هم عليه من أعمال سيئة ومخالفات وخروج عن طاعته سبحانه وتعالى ، وبغضه لهؤلاء المفرطين المضيعين لبعض أشد من بعض كما يدل على هذا الحديث .

قال: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ)) والألد: من اللدد وهو الخصومة ، ومنه قوله تبارك وتعالى ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدًّا ﴾ [مريم: ٩٧] أي أهل خصومة ، ﴿ قَوْمًا لَدًّا ﴾ نظيره قوله تعالى في الآية المتقدمة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ

خَصْمُونٌ . لذا: أي خصمون أي أهل خصومة واللدد هو شدة الخصومة . فأبغض الرجال إلى الله سبحانه وتعالى من كانت نفسه مولعة باللدد والخصومة ، مجالسه مجالس خصومات ولدد مشغولة بالمماراة والمجادلة، ليس له غرض في العبادة وتحقيق الخشية لله تبارك وتعالى وتحقيق الذل لله عز وجل ، وإنما غرضه في علمه وطلبه للعلم الدد والخصومة والجدل والمماراة ونحو ذلك من الأغراض ، فمن كان غرضه في طلب العلم هذا فإنه من أبغض الناس وأبغض الرجال إلى الله عز وجل .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ -أَوْ نَحْوَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ- لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ)) رواه الدارمي .

ثم أورد رحمه الله هذا الأثر عَنْ أَبِي وَائِلٍ شقيق بن سلمة من علماء التابعين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود الصحابي الجليل رضي الله عنه قَالَ أي ابن مسعود رضي الله عنه : ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِأَرْبَعٍ دَخَلَ النَّارَ)) ؛ قوله «لأربع» أي لأغراض أربع كانت هي مقصده ومراده من طلبه للعلم ، لم يكن في طلبه للعلم مخلصا لله تبارك وتعالى مبتغيا وجه الله عز وجل وإنما طلب العلم لأحد أغراض أربعة ذكرها .

الثلاثة الأول منها تقدمت معنا في حديث سعد بن مالك وهي قوله: ((لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ)) فهذه الأمور الثلاثة كلها تقدمت معنا في حديث كعب بن مالك . وزاد رضي الله عنه أمرا رابعا وهو: ((لِيَأْخُذَ بِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ)) أي طلب العلم وغرضه في طلبه للعلم أن يكون له مكانة عند الأمراء ومنزلةً فيعطونه الأموال ويغدقون عليه بالأعطيات ، وهذا هو غرضه في طلب العلم أن يكون له مكانة أو شأنا أو منزلة عند الأمراء ليأخذ منهم وليعطوه وليغدقوا عليه بالأعطيات والأموال ونحو ذلك ، غرضه في طلبه العلم ذلك ، ومن كان هذا غرضه في طلب العلم فنيته فاسدة لا يكون عمه في صالح عمله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لقوم سمعهم يتمارون في الدين : ((أما علمتم أن الله عبادةً أسكتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم ، وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء والعلماء بأيام الله ، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانطلقت ألسنتهم ، حتى إذا استفاقوا من ذلك

تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية يُعْذُّونَ أَنْفُسَهُمْ مع الْمُفْرَطِينَ وإِهم لأَكْيَاسِ أَقْوِيَاءَ ، ومع الضالين والخطّائين وإِهم لأَبْرَارِ بَرَاءَ ، أَلَا إِنْهم لَا يَسْتَكْثِرُونَ لَهُ الْكَثِيرَ ، وَلَا يَرْضُونَ لَهُ بِالْقَلِيلِ ، وَلَا يُدْأُونُ عَلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ ، حَيْثُمَا لَقِيَتْهُمْ مَهْتَمُونَ مَشْفُقُونَ ، وَجِلُونَ خَائِفُونَ)) رواه أبو نعيم ، قال الحسن : وسمع قوماً يتجادلون : ((هؤلاء قوم ملأوا العبادة ، وخفّ عليهم القول ، وقلّ ورعهم فتكلموا)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن ابن عباس ، وسند الأثر فيه مقال لكن الأثر مشتمل على معاني عظيمة وكلام صحيح في باب إخلاص النية والتشديد في طلب العلم للمرء والجدال .

((قال رضي الله عنه لقوم سمعهم يتمارون في الدين)) أي أن هذه المقالة التي قالها رضي الله عنه كان سببها أنه مر بقوم يتمارون في الدين ؛ أي جلسوا للمماراة والخصومة والجدل في الدين . والجدل الذي ورد ذمه في النصوص في نحو قوله تعالى ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًّا ﴾ [الزخرف: ٥٨] يختلف عن المجادلة التي وردت في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ، لأن المجادلة هي ذكرٌ للعلم وبيانٌ له واستشهادٌ بدلائله وحججه وبراهينه لإصلاح الناس وتوجيههم للخير وإبطال الباطل ؛ فهذا أمر أمر الله عز وجل به في قوله ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أما الجدل فإنه خوضٌ في مسائل العلم إنما بغير علم ، أو خوض في مسائل العلم بغير نية صحيحة كطلب شهرة أو محمداً أو إفحام من عنده أو بروزه عليهم أو نحو ذلك ، فسواء كان خوضاً في مسائل العلم بغير علم أو خوضاً في مسائل العلم بنية فاسدة وغرض فاسد فكل ذلك جدل محرم يوصل بالإنسان إلى المآلات التي لا تُحمد ، ولهذا جاء التحذير من الجدل قال: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدًّا ﴾ أي ليس لهم غرض في العلم ولا نية صحيحة فيه وإنما نيتهم وغرضهم فيه الجدل والخصومات .

وابن عباس مر - كما في هذه الرواية - على نفر يتمارون في الدين أي خاضوا فيه بالجدل والخصومات فقال رضي الله عنه: ((أما علمتم أن الله عبادةً أسكتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم)) أي أن بعض الأكياس وأهل العلم قد يسكت في مجلس من المجالس وليس به صمم ولا بكم ، يسمع ويستطيع أن يتكلم بكلام أقوى من الكلام الذي يقال ، ولكنه يرى أن هذا مجلس خصومة ليس مجلس طلب للحق ، مجلس خصومة ومماراة ومجادلة وكل واحد يريد أن يُظهر كلامه على الآخر ؛ فيسكت لا يخوض معهم في حديثهم لأنه حديث لم يُرد به وجه الله عز وجل .

ولهذا يذكر عن الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى صاحب المصنفات المعروفة ومنها كتابه العظيم «جامع العلوم والحكم» الذي شرح فيه الأربعين للإمام النووي رحمه الله تعالى ، ذكروا في ترجمته أنه جلس يوماً مع طلابه وتحدث في مسألة من مسائل الفقه وفصل القول فيها تفصيلاً واسعاً وأخذ يبين ويذكر الأدلة والشواهد بتفصيل عظيم

جدًا انتفع به طلاب العلم في مجلس العلم ، ثم إنه في المساء كانوا في مجلس وحصل في المجلس خصومة ومماراة في المسألة نفسها ، فالتفت طلابه إليه ينتظرونه يتحدث بشيء فما تحدث ، مع أنهم سمعوا منه تفصيلا واسعا في هذه المسألة بعينها فما تحدث بشيء ، وكانوا يلتفتون وينتظرون أن يتحدث فما تحدث بشيء ، وطلابه يرغبون أن يتحدث حتى أيضا يبرز علمه وفضله فما تحدث بشيء ، لما خرج سأله بعض طلابه مستغربين قالوا هذه المسألة فصّلت لنا فيها وهنا سكت!! قال: «المجلس الذي جلسته معكم مجلس أريد به الآخرة وأما هذا مجلس أريد به الدنيا وليس لي فيه غرض» . هذا مجلس أريد به الدنيا خصومة ومماراة وكل واحد يريد أن يغلب الآخر ويُسكت الآخر ، وأنا أسكت فلان وفلان أسكتني ؛ هذا غرضه فهذا لا تظهر فيه صلاح النية .

ولهذا هنا يقول ابن عباس ((أما علمتم أن الله عبادةً أسكتهم خشية الله من غير صمم ولا بكم)) أي ليس بهم بكم لا يتكلمون ولا صمم لا يسمعون ، هم يسمعون ويتكلمون ويحسنون البيان لكنهم في مثل هذه المجالس مجالس الخصومات والجدل والممارات لا يخوضون فيها ولا يشاركون أهلها خصومتهم ومماراتهم .

قال: ((وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله)) ليس بهم عي أو جهل أو عدم دراية بمسائل العلم ، هم أهل علم وأهل فصاحة وأهل طلاقة في الكلام وأهل نبل وفضل وأهل علم بأيام الله سبحانه وتعالى .

((غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم)) ؛ ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: «رأس العلم خشية الله جل وعلا» ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .

قال: ((حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية)) وانظر هنا إلى العلم الذي يثمر عملاً ، وانظر أيضا إلى العلم الذي لا يثمر إلا وحشة في الصدور وتهاجراً بين الإخوان وتعادياً وبغضاء وشروا وفساد وتقاطع وتدابر وغير ذلك من الأغراض ؛ ففرق بين علم يثمر سكينة وطمأنينة وإيمانا وعبادة وإقبالا على الله سبحانه وتعالى ، وعلم لا يثمر هذه الثمار ؛ ولهذا قال: ((حتى إذا استفاقوا فمن ذلك تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية)) .

قال: ((يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الْمُفَرِّطِينَ ، وَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْأَكْيَاسُ)) وهذه أيضا ميزة لهؤلاء ، لا يرى نفسه شيئا لا في العلم ولا في العبادة . ابن تيمية رحمه الله نقل عنه تلميذه ابن القيم ومعروف من هو ابن تيمية في علمه وعبادته أنه كثيرا ما كان يسمعه يقول «ما أنا بشيء ولست بشيء» ، فلا يرون أنفسهم شيئا لا في العلم ولا في العبادة ، وهذا قد ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين الكمل من عباده في سورة المؤمنين قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) ، قد سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي

صلى الله عليه وسلم عن معنى هذه الآية قالت: يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويقتل ويخاف أن يعذب؟ قال ((لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يُقبل)) هذا معنى قوله ﴿يُؤْتُونَ مَآتُواً وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أي يقدمون ما يقدمون من الأعمال الصالحات والعبادات الزاكيات وقلوبهم وجلة أي خائفة ألا يُقبل منهم ، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن» ، المنافق أعماله سيئة وآمن من مكر الله ، والمحسن أعماله صالحة وخائف ، جمع بين إحسان ومخافة أي من الله سبحانه وتعالى ، بينما المنافق جمع بين إساءة أي في العمل ، وأمن أي من مكر الله سبحانه وتعالى .

قال: ((يعدون أنفسهم مع المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء ، ومع الضالين والخاطئين)) يعدون أنفسهم مع الضالين والخاطئين ((وإنهم لأبرار برئاء)) أبرار في أعمالهم ، برئاء أي من سيء العمل وقبيحه ، ولكن من صلاحهم وزكائهم أنهم جمعوا بين الإحسان والمخافة ، عالم ولا يرى نفسه عالما ، ويُثقل عن الشافعي رحمه الله أنه يقول «من قال عن نفسه أنه عالم فقد جهل» ، فهو عالم ولا يرى نفسه عالما ، وعابد ولا يرى نفسه عابدا بل يرى نفسه مقصرا في العلم والعمل ، ولهذا لا يزال يطلب العلم ولا يزال أيضا يجتهد في العمل والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بهما .

قال: ((ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير))؛ لا يستكثرون له أي لله جل وعلا الكثير أي من الأعمال ؛ فمهما قدموا من الأعمال وأكثروا من الطاعات يرونها قليلة لا يستكثرون له كثيرا . ((ولا يرضون له بالقليل)) بل لا يزالون مجتهدين في الإكثار من الأعمال الصالحة والقربات الزاكية التي يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى .

قال: ((ولا يدُلُّون عليه بأعمالهم)) أي لا يمتنون على الله بالأعمال ، قال تعالى ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فهم لا يمتنون على الله بأعمالهم ، لا يقول الواحد منهم أنا الذي فعلت كذا وأنا الذي فعلت كذا ممتنا بعمله مدليا بعمله . قال: ((حيث ما لقيتهم مهتمون مشفقون ، وجلون خائفون)) أي هم ماضون على هذه الصفة خوف وشفقة وخشية من الله سبحانه وتعالى ، وفي مقابل ذلك أيضا جد واجتهاد في التقرب إلى الله عز وجل بصالح الأعمال وسديد الأقوال . وهذا الذي ذكر في هذا الأثر هو من أمارات الإخلاص ودلائله .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الأثر عن الحسن البصري رحمه الله تعالى وقد سمع قوماً يتجادلون قال : ((هؤلاء قوم ملؤا العبادة ، وخفَّ عليهم القول ، وقلَّ ورعهم فتكلموا)) اجتمعت فيهم خصال ثلاثة:

❖ الخصلة الأولى: أنهم ملؤوا العبادة ؛ أي أصيبت قلوبهم بملل وسآمة من العبادة فنفرت من العبادة ، لا يقبلون عليها ولا تُقبل قلوبهم على القيام بها . هذه الخصلة الأولى التي اتصفوا بها .

❖ والخصلة الثانية: أن القول خف عليهم ، مع أن القول ثقيل ﴿إِنَّا سَنُلْقِيْكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيْلًا﴾ [المزمل: ٥٠] ، القول ثقيل ينبغي لمن تكلم أن يحسب لقوله حسابا ، ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)) فيحسب حسابا لقوله ، القول ثقيل ، ولهذا من خف عليه القول وأصبح الكلام عنده هينا لا يبالي بما يقول ولا يكثرث بما يتكلم من كان بهذه الصفة صار والعياذ بالله من أهل المماراة والجدل والخصومات .

❖ قال: ((وقلَّ ورعهم)) وهذه الصفة الثالثة التي هم متصفون بها؛ قلَّ ورعهم أي قلَّت فيهم الخشية والمراقبة لله سبحانه وتعالى .

فاجتمع فيهم خصال ثلاثة: ملل من العبادة ، وعدم مبالاة بالقول والكلام خف القول عليهم ، وأيضا ليسوا أهل مراقبة لله عز وجل ولا أهل ورع وخشية منه سبحانه ؛ فتكلموا أي هان عليهم أمر الكلام فصاروا أهل جدل وخصومة . وشاهد كلام الحسن حديث النبي المتقدم حيث قال عليه الصلاة والسلام : ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) ثم تلا قول الله سبحانه وتعالى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] .

فهذه الترجمة وما ساقه فيها المصنف رحمه الله من الشواهد والدلائل هي كلها في باب التشديد في طلب العلم لأجل المماراة والمجادلة والخصومة، وبيان أن الواجب على طالب العلم أن يصلح نيته في طلبه للعلم ، وأن يبتغي بطلبه للعلم وجه الله سبحانه وتعالى ، وأن يعد طلبه للعلم من قربه التي يتقرب بها إلى الله عز وجل يرجو بها ثوابه ويخشى عقابه سبحانه وتعالى ، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها؟ قال: «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» ؛ أن يكون غرض الإنسان في طلبه للعلم أن يرفع أولا الجهل عن نفسه ليتفقه في الدين ، وأيضا أن يرفع الجهل عن إخوانه ببيان العلم لهم وإيضاح مسائله لهم وتحذيرهم مما هم عليه من خطأ وضلال وباطل ، فإذا كانت النية في الطلب هذه فهي نية صحيحة .

وصلّى الله وسلّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «أصول الإيمان» :

باب التَجَوُّز في القول وترك التكلف والتنطع

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً : ((الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْبَدَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ الْتَفَاقٍ)) رواه الترمذي .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : ((باب التَجَوُّز في القول وترك التكلف والتنطع))؛ التجوز في القول : هو الاختصار . وترك التنطع والتكلف فيه هو البعد في القول بأن يتوسع الإنسان في الكلام ويتقعر في الحديث ويطيل الكلام فيما لا حاجة إليه ولا داعي إليه .

والمصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة وجعلها في خاتمة كتابه أصول الإيمان منبهاً بذلك الدعاة إلى أصول الإيمان وأسس الدين وقواعد الإسلام أن يكون همُّ الواحد منهم إبلاغ دين الله تبارك وتعالى وإيصاله للناس بالكلمات المختصرة والألفاظ القليلة وجوامع القول ، لا أن يكون همُّ الإنسان كثرة الحديث والتوسع في القول والتقعر في الكلام ، بل الكلام القليل المفيد خيراً من الكلام الكثير الذي ليس من ورائه طائل ، وخير الكلام ما قلَّ ودل ؛ تكون ألفاظه قليلة ومعانيه دالة على المقصود بأبين ما يكون . وقد أوتي نبينا صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم وكان يتجوز في الكلام يختصر في الكلام ، ولو شاء من سمع كلامه صلوات الله وسلامه عليه أن يعد حديثه لعدّه . فهذه الترجمة جاءت في خاتمة كتاب أصول الإيمان منبهاً بها المصنف رحمه الله تعالى على أهمية مراعاة التجوز والاختصار في القول ، وأن يكون مقصود الداعي إلى الله تبارك وتعالى والمبلِّغ لدين الله تبارك وتعالى أن يعرف الناس الحق ، لا أن يُعرف هو بكثرة الكلام والتوسع فيه ؛ فإن هذا من الأغراض المنافية للإخلاص لله تبارك وتعالى في العلم وتعليمه .

وأورد رحمه الله في هذه الترجمة جملة من النصوص الدالة على هذا المقصود ، وبدأها بحديث أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ((الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْبَدَاءُ وَالْبَيَانُ

شُعْبَتَانِ مِنَ النِّفَاقِ)) ؛ قوله «الحياء» الحياء معروف وهو شعبة من شعب الإيمان وهو خُلُق جميل يكون في العبد يحجزه عن الأمور الرذيلة والأعمال السيئة . والعبي: في الأصل المراد به عدم القدرة على البيان وعدم القدرة على القول وعدم القدرة على الإفصاح عن الأمور وبيانها ، وليس هذا هو المراد هنا ، وإنما المراد بالعبي: أن يكون حال الإنسان في قلة كلامه وقلة حديثه وتجوّزه في القول واختصاره فيه وخوفه من الخطأ إذا قال أو تكلم أو تحدث فتكون حاله كحال من به عي أي عدم قدرة على الكلام ، وهو قادرٌ على الكلام وقادر على البيان ولكنه يختصر الكلام اختصاراً ويقلل من الحديث حتى كأنه به عي أي عدم قدرة على البيان والإفصاح في القول ، وليس فيه عي حقيقةً وإنما الذي به خوف الله عز وجل ومراقبة الله جل وعلا ، فيتكلم الكلام وهو خائف ، ويعدّ كلامه من عمله الذي سيحاسبه الله تبارك وتعالى عليه يوم القيامة ؛ فيختصر الكلام ويتجاوز في الحديث ويراقب الله سبحانه وتعالى في كلامه كما يراقب الله سبحانه وتعالى في أعماله الأخرى .

قال: ((الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنَ الْإِيمَانِ)) أي خصلتان من خصال الإيمان وشعبتان من شعبه ، والمراد بذلك: أن الإنسان يحفظ كلامه ويحفظ قوله ولا يكون من أهل الثثرة والإكثار من القول والإكثار من الكلام ، «ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه النار أولى به» ، كما جاء بذلك الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال: ((وَالْبَدَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنَ التَّفَاقٍ)) البذاء أي في القول ؛ بأن يقول الإنسان وكلامه بذيئاً وألفاظه بذيئة أي نابية وسيئة وقبيحة ولا يراعي تهذيب القول واختيار اللفظ الطيب السليم .

قال: ((وَالْبَدَاءُ وَالْبَيَانُ)) البيان المراد به الإفصاح عن القول وحسن إيضاح الأمر ، وساقه هنا مساق الذم قال ((من النفاق)) ، وليس المراد بأن البيان من القول أي البيان الذي يحصل به الدلالة على المقصود وإيصال الحق والخير للناس بالألفاظ البينة والكلمات المتينة السديدة ليس هذا هو المراد ، وإنما المراد بالبيان أي التفصيح في الكلام والتوسع في القول والتفعر في الكلام والتظاهر بالفصاحة في المنطق والحديث وحسن الإيضاح والبيان فهذا من النفاق ، إذا كان غرض المتكلم بكلامه وحديثه أن يُظهر للناس أنه فصيحاً وأنه حسن البيان وأنه جميل القول وأن كلامه أحسن الكلام وأفصح وأبينه ، فمن كان حديثه كذلك فهذا من النفاق ؛ يطيل الكلام ويتوسع في الحديث ويتخير أنواع الألفاظ لا لشيء إلا ليمدح بفصاحته وحسن ألفاظه وجمال أقواله ونحو ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدُكُمْ مِنِّي مساوئكم أخلاقاً؛ الثَّرَثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ)) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا)) وهذا فيه بيان حُسن الخلق وأهميته في حياة المسلم ، وأن أحاسن الناس أخلاقا هم الأرفع درجات يوم القيامة والأقرب منزلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن العبد كلما حسن خلقه ارتفعت درجته وعلت منزلته ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((إن أحبكم إلي وأقربكم مني)) أي منزلة يوم القيامة ؛ فهذا يدل على أن حسن الخلق فيه رفعة الدرجات وعلو المنازل يوم القيامة ، وأن العبد بحسن خلقه يقرب من النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بحسب ما يكون عليه من تحقيقٍ وتكميلٍ وتتميمٍ لحسن الخلق .

قال : ((وَأَنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَسَاوئُكُمْ أَخْلَاقًا)) أي أهل الأخلاق السيئة ، وهذا فيه أن الخلق ينقسم إلى قسمين: خلق حسن وخلق سيء ، قد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه أنه قال: «اللهم اهديني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» ، قال هنا ((وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقا)) أي أهل الأخلاق السيئة والأخلاق الذميمة فهؤلاء أبعد الناس منزلة ومكانة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهم أبغض الناس إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ذكر شيئا من صفات أهل الأخلاق السيئة وبعض صفات أهل الأخلاق السيئة فقال عليه الصلاة والسلام: ((الْثَرثارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيِّهُونَ)) وهذا هو المقصود من إيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الحديث في هذه الترجمة . قال «الثرثارون المتشدقون المتفقهون» والمراد بهذه الكلمات التأكيد على معنى واحد وهو: التوسع والتفعر في الكلام والحديث في غير ما حاجة ؛ فالثرثرة في كثرة الكلام والتوسع في القول يقال "فلان ثرثار" أي كثير الكلام قال الثرثارون . «والمتشدقون» أي من يحرك شذقه كثيرا بالكلام والحديث فيما لا طائل فيه . «والمتفقهون» أي يفتح فمه ويفغر فاه في الكلام والحديث .

فهذه الكلمات الثلاث كلها تدور حول كثرة الكلام وكثرة الحديث وكثرة القول والولع بذلك فيما لا فائدة فيه ولا طائل من ورائه ؛ فمن كان كذلك فهو من أهل الخصال والخلال الذميمة والأخلاق السيئة ، فالؤمن بحسب لكلامه حسابا ويعد كلامه من عمله الذي يحاسبه الله تبارك وتعالى عليه . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)) . ويبلغ الكلام مبلغه الخطير عندما يكون كلاما في دين الله جل وعلا وخوضا في شرع الله تبارك وتعالى وإطالة للقول والحديث في ذلك عن غير علم وبصيرة في دين الله تبارك وتعالى مما يترتب على كثرة القول في ذلك كثرة القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم ؛ وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام .

قال رحمه الله تعالى :

وللترمذي نحوه عن جابر رضي الله عنه .

قال ((وللترمذي نحوه عن جابر رضي الله عنه)) أي نحو حديث أبي ثعلبة ، وحديث أبي ثعلبة في سنده شيء من الانقطاع أو في سنده انقطاع ، وأشار المصنف أنه قد جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حديثا نحو حديث أبي ثعلبة مشيرا بذلك إلى أنه شاهدا لهذا الحديث يتقوى الحديث به ، والحديث له شواهد منها حديث جابر الذي أشار إليه المصنف وأحاديث أخرى يتقوى بها الحديث ويرتقي إلى درجة الاحتجاج به .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِالْأَسْنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِالْأَسْنَتِهَا)) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِالْأَسْنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِالْأَسْنَتِهَا)) ؛ يأكلون بالأسنتهم أي يجعلون الكلام الذي يقولونه بالأسنتهم والعلم الذي يبينونه بالأسنتهم غرضاً للأكل وغرضاً للطعام ، فيكون غرضه بكلامه وبيانه الأكل والطعام ، فيتكلم ليأكل ، ويبين العلم وغرضه من هذا البيان أن يأكل به وأن يكون وسيلة أكل له هذا غرضه به ، ليس غرضه بالعلم نشر الدين وبيانه للناس وتعليم الناس ما يجهلون من أمر دينهم ليس هذا غرضه ، وإنما غرضه بالعلم أن يأكل به ؛ فهذا الصنف من الناس أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الساعة لا تقوم حتى يوجد في الناس من هو كذلك ، قال : ((لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بالأسنتهم كما تأكل البقر بالأسنتها)) وهذا فيه ذم لمن كان غرضه في طلبه للعلم الدنيا والأكل ونحو ذلك . ومن صفة هؤلاء التفاسح في الكلام وكثرة القول وإظهار النفس عند الناس بالكلام البليغ وبالكلام الفصيح وبالقول الجميل ويكون غرضه من ذلك كله أن يأكل بلسانه .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعاً : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا)) رواه الترمذي وأبو داود .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بِلِسَانِهَا)) ؛ هنا ليس الذم للبلاغة مطلقاً من حيث هي ، لأن الكلام

البليغ الحسن الطيب الذي يوضح به المقصود وتبين به المعاني العظيمة بحيث يفهم الناس ويعرفوا الحق ويهتدوا إلى الصواب هذا أمرٌ يحمد ولا يذم عليه الإنسان ، لكن إذا كان الغرض والمقصد هو البلاغة نفسها والظهور بها ، أن تكون هي المقصودة لا تكون وسيلة لبيان الحق وإيضاحه وإنما تكون البلاغة هي المقصودة وهي الغاية المطلوبة بحيث يتكلم الإنسان وغرضه أن يُعرف بالبلاغة وأن كلامه كلامٌ بليغ وقوله قول فصيح ؛ فيتكلم ويأتي بالكلام البليغ الجميل الحسن وغرضه من ذلك أن يظهر في الناس ببلاغة كلامه وجمال ألفاظه فهذا الذي يُذم .

قال : ((إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها)) ؛ ولاحظ هنا وجه شبه عجيب بن هذا وبين البقرة عندما تتخلل بلسانها ، فالبقرة تحرك لسانها حركة كثيرة وتكثر من حركة اللسان لكن هذه الحركة التي تكثر على لسان البقرة ليس من ورائها جدوى وليس من ورائها ثمرة ولا ينتفع بها بل هو لوكٌ للسان وتحريك له فيما لا ثمرة من ورائه . وهذا مثل للبليغ الذي هدفه وغرضه في كلامه ظهور بلاغته وظهور فصاحته ، فمثل هذا ليس أهلاً لأن يكون ممن يُنتفع بكلامه ويستفاد من قوله ويستفاد من حديثه ، لأنه ليس غرضه هو بيان العلم وإيضاحه للناس ، وإنما غرضه في الكلام إطالة الحديث وإكثار القول بما لا فائدة فيه ولا ثمرة . ولهذا أحياناً يقال عن بعض الحديث ويقول ذلك بعض الناس يقولون "كلام جميل جداً لكن ما استفدنا منه شيئاً" يكون كلام جميل ألفاظه تشد السامع من حيث بلاغتها من حيث فصاحتها من حيث جمال ألفاظها لكن السامع لا يحصل فائدة ولا يحصل ثمرة ، ولهذا قال من قال من أهل العلم «كلام السلف قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة» ، وكان السلف الذي اجتمعت همته على بيان الحق وإيصاله للناس بأقرب طريق يختارون من الكلمات أجمعها وليس لهم غرض في الكلام نفسه ، وإنما غرضهم أن يُعرف المقصود ، فإذا عُرف المقصود بكلمتين فقط اكتفوا بها ولم يزيدوا ثالثة ، وإن احتيج إلى كلمة ثالثة زادوها ، ليس لهم غرض في الكلام من حيث هو وإنما غرضهم أن يُفهم المقصود وأن يُعرف المراد .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لَيْسِي بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)) رواه أبو داود .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو مبينٌ وموضح للحديث الذي قبله ، البليغ من الرجال الذي ورد ذمه في الحديث السابق وأنه أبغض الناس إلى الله تبارك وتعالى هو الذي يتعلم صرف الكلام ليسي به قلوب الناس أو قلوب الرجال ؛ يتعلم صرف الكلام أي يتعلم بلاغة الحديث وجمال الألفاظ وحسن العبارات وغرضه من ذلك أن يسبي قلوب الرجال ، بحيث يلتفتون إليه ويشار إليه بالبنان يقال فلان بليغ هذا مراده فلان فصيح فلان ألفاظه

جميلة أو نحو ذلك من الكلمات التي هي مقصده في كلامه وحديثه . يتعلم صرف الكلام أي يفني وقتًا من حياته لتعلم البلاغة الفصاحة ونحو ذلك من أجل ماذا؟ قال : ((لَيْسِي بِهِ)) أي بكلامه وقوله ((قُلُوبَ الرِّجَالِ)) ومعنى يسبي القلوب أي يسلبها ويجذبها إليه بحيث تنشد القلوب إليه وتعجب به ويشتهر في الناس بذلك ويعرف بذلك؛ فلان بليغ فصيح مَفُوءٌ ونحو ذلك من الكلمات التي جعلها غرضًا له في تعلمه للبلاغة والفصاحة وتصريف الكلام.

قال : ((مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لَيْسِي بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)) وهذا فيه وعيد شديد لمن كانت حاله كذلك . وقيل في معنى «صرفًا ولا عدلاً» أقوال منها أي لم يقبل منه فريضة ولا نفلا .

قال رحمه الله تعالى :

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَضْلًا؛ يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ» ، وقالت : «كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَخْصَاهُ» . وقالت : «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ» روى أبو داود بعضه .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : ((كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَضْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ)) يقال قول فصل وكلام فصل أي: كلام واضح بين محقق للمقصود بحيث تفصل فيه الأمور ويكون فصلا فيها . قول فصل وكلام فصل أي: كلام بين واضح فاصل بالأمر محقق للمقصود والمراد فوصفت رضي الله عنها كلام النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كلام فصل يفهمه كل من يسمعه : أي كلام يسمعه عموم الناس على كافة طبقاتهم ، الصغير يفهمه والكبير يفهمه وقليل العلم يفهمه والذكر يفهمه والأنثى تفهمه ، كل من سمعه يفهمه ؛ وهذا من كمال نصحه عليه الصلاة والسلام لأن هدفه في الكلام نصح الجميع النصيحة لعموم الناس ، قد بُعث عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقول الكلام الذي يفهمه السامع يفهمه الجميع .

وهذا أمرٌ ينبغي أن يراعى في بيان الحق والهدى للناس ، عندما يبين من أراد دعوة الناس إلى الحق والهدى معاني الدين وأمور الإسلام لا يختار الألفاظ التي يحتاج من يسمعها إلى أن يراجع قواميس اللغة حتى يعرف مراد هذا المتكلم ، وإنما يختار لهم الكلمات التي يفهمون بها المقصود ويتضح بها المراد ، وقد كان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بعض رسائله يكتبها بلهجة العوام، يبين لهم أصول الإيمان باللهجة العامية ويكتبها لهم باللهجة العامية ، وكان العوام إذا سألوه عن بعض المسائل أجابهم باللهجة العامية ، لأن الغرض أن يفهم الإنسان

الدين ليس الغرض أن نختار ألفاظاً وأقوالاً بليغة فصيحة بقطع النظر عن أن يكون من أمامي فهم الكلام أو لم يفهمه ليس هذا هو المقصود، المقصود أن يفهم الناس دينهم وأن يعرفوا الغاية التي خلّقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها. وتعجب غاية العجب عندما يشرح بعض المتكلمين للناس معنى «لا إله إلا الله» فيغرق في الحديث والألفاظ يفهم من عنده أموراً عديدة إلا التوحيد الذي هذه الكلمة دالة عليه ، يفهمون أموراً وجوانب كثيرة لكن لا يفهمون التوحيد الذي هي مدلوله ودالة عليه . فالشاهد أن المتكلم والمبين للناس ينبغي أن يكون غرضه في الكلام أن يعرف الناس الحق وأن يعرفوا الهدى والدين القويم بالألفاظ الواضحة والكلمات البينة ، لا أن يكون غرضه التفاسيح وإظهار بلاغته وإظهار معرفته باللغة ونحو ذلك من المقاصد .

((وقالت : كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَخْصَاهُ)) وهذا فيه تنبيه منها رضي الله عنها إلى قلة ألفاظه وكلماته عليه الصلاة والسلام ، فكانت كلماته قليلة وألفاظه قليلة وقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فكان يتجوّز القول ويختصر في الكلام حتى لو شاء العاد أن يعدّ كلامه لعدّه . صلوات الله وسلامه عليه .

((وقالت : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ)) أي أنه يأتي بالكلام سريعاً سرّداً لم يكن كذلك ، لم يكن يسرد الحديث كسرّدهم أي أنه كان صلى الله عليه وسلم يترسل في الحديث ويتأني في الكلمات ، وتخرج الكلمات منه كلمات مترسلة ألفاظاً ثم تتلوها الألفاظ الأخرى بترسل وتؤدّه ، بحيث يفهم من عنده ويضبط من عنده كلامه ، وإذا احتاج الأمر أن يعيد الكلمة مرة أو مرتين أعادها صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا جاء في أحاديث كثيرة عنه صلى الله عليه وسلم يقول الصحابة «قال ذلك ثلاثاً» ، مثل قوله ((الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة)) كررها ثلاثاً صلوات الله وسلامه عليه ، وجاء عنه مثل هذا نظائر كثيرة جداً يكرر الكلمة الواحدة بألفاظها مرات ثلاث من أجل أن تُحفظ وتضبط ، وكان يترسل في الكلام أي لا يسرد الكرم سرّداً بحيث لا يتمكن الإنسان من ضبطه .

ولاحظ قول عائشة «كسرّدهم» ؛ هذا أمرٌ يرجع إلى طبائع الناس ويمكن للإنسان أيضاً أن يعالجه بالتدرب على ذلك ، وإلا كثير من الناس من طبيعته وعادته في الكلام أن كلامه سرّداً لا يترسل في الكلام ، بينما نبينا عليه الصلاة والسلام لم يكن كلامه سرّداً بل كان يترسل ويتأني في الكلام صلوات الله وسلامه عليه من أجل أن يضبط الكلام .

قال المصنف رحمه الله تعالى ((روى أبو داود بعضه)) أبو داود روى الجزء الأول ، لأن الحديث يتكون من ثلاثة أجزاء ، كل جزء مبدوء بقوله «قالت» ؛ فالجزء الأول رواه أبو داود ، والجزء الثاني رواه مسلم ، والجزء الثالث متفق عليه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا رأيتم العبد يعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة)) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو حديث في سنده كلام ، قال أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا رأيتم العبد يعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة))؛ إذا أعطي زهداً في الدنيا أي كان زاهداً في الدنيا وليس همه الدنيا وليست غرضه الدنيا ، وأيضاً كلامه قليل ليس من أهل الثثرة وكثرة الكلام ؛ فجمع بين زهدٍ في الدنيا وقلةٍ في المنطق فمن كان كذلك يؤتى الحكمة ، قد جاء في بعض الآثار أن لقمان الحكيم سئل عن الحكمة التي أوتيها بأي شيء أعطيها؟ فذكر نحواً من هذا الكلام أو قريباً منه ، فمن كان زاهداً في الدنيا قليل المنطق فهذا حريٌّ أن يؤتى الحكمة ، بخلاف الذي همه الدنيا وكثير الكلام فهذا بعيدٌ عن الحكمة كل البعد .

قال رحمه الله تعالى :

وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا ، وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حَكْمًا ، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وفي سنده أيضاً مقال لكن لبعضه شواهد صحيحة . قال : ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا)) مر معنا قريباً قول النبي صلى الله عليه وسلم ((والبذاءة والبيان من النفاق)) والمراد بالبيان الذي يذم هو ذلكم البيان الذي يكون غرض المتكلم هو البيان نفسه والبلاغة نفسها وأن يُعرف بالبيان والبلاغة . وهنا قال عليه الصلاة والسلام ((إن من البيان سحراً)) أي ما يسحر القلوب والعقول ويجذبها إلى المتكلم ، وهذا قد يكون خرج مخرج الذم وقد يكون خرج مخرج المدح ، بمعنى أن الإنسان إذا كان غرضه هو البيان نفسه والبلاغة نفسها وأن يسبي قلوب الرجال وعقول الرجال وليس غرضه الحق فهذا أمرٌ يذم عليه الإنسان ، أما إذا كان البيان أن يأتي ببيان الحق بالألفاظ البينة والقول الفصل والكلام الواضح الذي يجذب الناس إلى الحق ويرغبهم فيه فهذا لا يذم عليه الإنسان بل يحمد .

قال : ((وَأَنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا)) وهذه نظير ما جاء في هذا الحديث قول أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة رحمهما الله قال : «العلم بالكلام جهل ، والجهل بالكلام علم» ، قال هنا : ((إن من العلم جهلاً)) أي من أمور العلم التي يحرص بعض الناس على تعلمها وشغل الأوقات في معرفتها هي من الجهل ليست من العلم ، مثل ما قال أبو

يوسف رحمه الله قال «العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام علم»، فهناك أمور تصرف الأوقات في معرفتها وتعلمها وهي نوع من الجهل وازدياد من الجهل .

قال: ((وَأَنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمًا)) الشعر كلام ، والكلام فيه حق وباطل ، والشعر كلامه لكنه منظوم ؛ ولهذا يأتي في الشعور أمورًا كثيرة لا فائدة فيها بل أمورًا سيئة وقبيحة ، ويأتي في الشعر حكمًا بليغة وعظات مؤثرة ، فأثنى النبي عليه الصلاة والسلام على ما كان من الشعر كذلك قال ((إن من الشعر حكما)) أي بعض الشعر فيه حكمة ، وما كان من الشعر كذلك يستفيد منه الإنسان وينتفع به ، لأن من الشعر ما هو حكم أي كلام بليغ وكلام نافع ومفيد وفيه عظة وعبرة للناس ، وما كان كذلك من الشعر يستفاد منه وينتفع به .

قال: ((وَأَنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيَالًا)) أي القول الذي يقدّم إلى من لا ينتفع به ولا يستفيد منه ، فمن القول ما هو عيال أي من حيث من ألقى عليه القول وأفيد بالقول وهو ليس من أهله ولا من أهل الانتفاع به ، فهذا معنى قوله ((إن من القول عيالا)) أي على بعض الناس الذين يسمعون القول ولكنهم لا ينتفعون به . وهذا فيه التنبيه على وضع القول في غير موضعه ووضع الحديث في غير محله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عَمْرٍو ابْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أنه قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فَقَالَ عَمْرٌو رضي الله عنه : «لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ» ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((لَقَدْ رَأَيْتُ - أَوْ أَمِرْتُ - أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ، فَإِنَّ الْجَوَّازَ هُوَ خَيْرٌ)) « رواهما أبو داود .
آخره ، والحمد لله رب العالمين ؛ حمداً كثيراً .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن عَمْرٍو ابْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه ((أنه قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ)) أي سمع رجلا يتكلم وأكثر الكلام أكثر القول .

فَقَالَ عَمْرٌو رضي الله عنه : ((لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) قصد أي توسط ، لأن القصد هو التوسط بين الزيادة والنقصان ، التوسط بين الإفراط والتفريط ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩] أي ليكن مشيك قصدا لا بالسريع الذي هو نوع من الجري والعدو ولا أيضا بالبطيء المتماوت ، بل يكن مشي الإنسان وسطاً بين السرعة والتماوت هذا هو القصد . قال ((لو قصد في قوله لكان خيرا له)) أي لو توسط وكان كلامه قصدا أي متوسطا معتدلا لكان خيرا له .

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَقَدْ رَأَيْتُ - أَوْ أُمِرْتُ - أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَّازَ هُوَ خَيْرٌ)) ؛ أَتَجَوَّزُ : أي اختصر القول وأن يكون قولي وكلامي مختصراً قليلاً ، فإن الجواز هو خير : أي الاختصار في القول خير لأنه أنفع وأبقى للناس وأدوم للفائدة ، وكثرة الكلام ينسي آخره أوله كما جاء هذا المعنى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، خطب الناس وأوجز في الكلام واختصر ثم ختم ذلك بقوله «كثرة الكلام ينسي آخره أوله» معتذراً لهم عن عدم الإطالة بالكلام بذلك ، لأن كثرة الكلام ينسي آخر الكلام أول الكلام ، بينما التجوز في الكلام والاختصار في الكلام أنفع وأبقى للفائدة وأدوم للخير ، ولهذا أمر نبينا عليه الصلاة والسلام أن يتجوز في الكلام أي أن يختصر فيه .

وعنوان الترجمة كما عرفنا «التجوز في القول» أي الاختصار في القول ، ومن يطالع مصنفات هذا الإمام أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يجد أنه في مصنفاته مضى على هذا الهدي القويم والسنن المبارك ؛ فكان يتجوز في الكلام ويختصر في القول وكتبه ليست كتباً مطولة وموسَّعة بل كتب مختصرة وبارك الله سبحانه وتعالى فيها بركة عظيمة نفع بها العباد وصلحت بها العقائد وفُهم بها التوحيد وعُرفت بها السنة ، وأيضاً حذر فيها من البدع والخرافات والأباطيل التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان بعبارة مختصرة وكلام مختصر وتجوَّز في القول واختصار فيه ، فنفع الله سبحانه وتعالى بكلامه وقد كان مقتدياً في ذلك برسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ختم هذه الرسالة بحمد الله قال: «آخره» أي آخر هذا الكتاب «والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً» . ونحمد الله عز وجل الذي منَّ علينا أجمعين بقراءة هذا الكتاب والاستفادة مما فيه ، ونسأله تبارك وتعالى أن يجعل ذلك حجة لنا لا علينا ، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتنا أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .